

عمادة الدراسات العليا
جامعة القدس

تفسير الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أبي القاسم القشيري
" دراسة مقارنة في منهج التصوّف "

شعبان أحمد حسين حمّاد

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين

1445هـ / 2024 م

تفسير الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أبي القاسم القشيري

" دراسة مقارنة في منهج التصوّف "

إعداد:

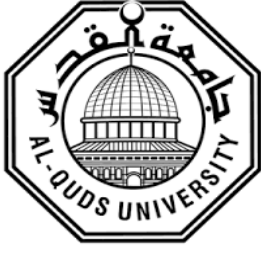
شعبان أحمد حسين حمّاد

بكالوريوس القرآن الكريم والدراسات الإسلامية / جامعة القدس، فلسطين

المشرف: أ . د . حاتم جلال التميمي

قُدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في
أصول الدين عمادة الدراسات العليا/برنامج ماجستير أصول الدين/كلية
الدعوة وأصول الدين/ جامعة القدس

1445هـ / 2024م



جامعة القدس
عمادة الدراسات العليا
برنامج ماجستير أصول الدين




إجازة الرسالة

تفسير الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أبي القاسم القشيري
"دراسة مقارنة في منهج التصوف"

اسم الطالب: شعبان أحمد حسين حمّاد
الرقم الجامعي: 21912104

المشرف: أ. د. حاتم جلال التميمي

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ 25/ 5 /2024م من لجنة المناقشة المدرجة أسماؤهم وتواقيعهم:

التوقيع: 	أ. د. حاتم جلال التميمي	1- رئيس لجنة المناقشة:
التوقيع: 	د. محمد الديك	2- ممتحناً داخلياً :
التوقيع: 	د. عبد السميع القواسمي	3- ممتحناً خارجياً :

القدس - فلسطين

1445 هـ / 2024 م

إهداء

إلى أمي الحنون المتقانية،

وأبي الغالي الذي علّمني حبّ العلم والعلماء منذ الطفولة،

وزوجتي الحبيبة ، ورفيقتي في درب العلم والبحث عن الحق، عسى أن أردّ بعضًا من فضلهم عليّ

وإلى شقيقي عمر يعقوب الصّالحي الذي علّمني طريق الحبّ والقرب.

وإلى أبنائي الأعزّاء: إباء، ويحيى، ومحمّد، وعليّ، عسى أن يجعلهم الله قرّة عين لي ولجميع المسلمين


في مشارق الأرض ومغاربها.

شعبان أحمد حسين حماد

إقرار:

أقرّ أنا معدّ الرسالة بأنها قدّمت لجامعة القدس، استكمالاً لنيل درجة الماجستير، وأنها جاءت نتيجة أبحاثي الخاصة، باستثناء ما تمّت الإشارة إليه أينما ورد، وأن هذه الرسالة، أو أي جزء منها، لم يقدم لنيل أية درجة عليا في أيّ جامعة، أو معهد آخر.

الاسم: شعبان احمد حسين حماد

التوقيع: 

التاريخ: 2024/5/25

شكر وتقدير

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

فالحمد لله من قبل ومن بعد، وجزى الله عنا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ما هو أهله.

كما وأتوجه بالشكر والعرفان لكل من:

المشرف على رسالتي الأستاذ الدكتور حاتم جلال التميمي . حفظه الله ورعاه . فقد بذل مجهوداً كبيراً في مراجعة رسالتي حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن، فبارك الله فيه، ونفعنا بعلومه في الدارين .
كما وأتوجه بالشكر إلى كل من وقف بجانبني أثناء إعداد هذه الرسالة، من دعم ماديّ أو معنويّ، وأسأل الله العظيم أن يكون هذا الجهد البسيط في ميزانهم يوم القيامة.

كما وأتوجه بالشكر والتقدير لأعضاء لجنة المناقشة الكريمة التي وافقت على مناقشة رسالتي ، الدكتور محمد الديك، والدكتور عبد السميع القواسمي حفظهم الله ورعاهم.

المخلص

تتضمن هذه الدراسة منهجَي التفسير والتصوّف عند الشّيخين عبد القادر الجيلاني وعبد الكريم القشيري، بعنوان: تفسير الشّيح عبد القادر الجيلاني والشّيح أبي القاسم القشيري " دراسة مقارنة في منهج التّصوّف".

وتظهر أهمية هذه الدّراسة من خلال تعلقها بتفسير القرآن الكريم؛ خير الكتب، وكون الشّيخين: الجيلانيّ والقشيريّ من العلماء المُجمَع عليهم عند علماء المسلمين على اختلاف المذاهب والمشارب. وأنّ في تفسير الشّيخين: الجيلانيّ والقشيريّ خلاصة علومهما الشّرعيّة على مرّ سنيّ حياتهما. وأخيراً: لما للتفسير الإشاريّ من أثر طيب يتركه في نفوس قارئيه.

وتهدف هذه الدارسة إلى الإسهام في رفد الدّراسات القرآنية ذات العلاقة بالتفسير المقارن. والتعريف بالتفسير الإشاريّ عند الشّيح عبد القادر الجيلانيّ والشّيح عبد الكريم القشيريّ. وإبراز التصوف الحقيقيّ النقيّ المُتبع للكتاب والسنة. وشحذ الهمة للتعامل الأمثل مع نصوص القرآن الكريم في حياتنا اليومية. وتسليط الضوء على علمين جليلين من أعلام الأمة المحمدية.

وقد استخدم الباحث في هذه الدّراسة المنهج الاستقرائي من خلال تقصي النصوص من الكتاب والسنة والمصادر التي كتبت في التفسير الإشاري ومناهج التّصوّف، والمنهج الوصفي وذلك من خلال دراسة تفسير الشّيح الجيلاني وتفسير لطائف الإشارات للشّيح القشيري، والمنهج الاستنباطي، في استخلاص النتائج منها والمقارنة بين كلا التفسيرين في منهج التّصوّف.

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث في هذه الدراسة أنّ لكلّ من الشّيح الجيلاني والشّيح القشيري منهجاً مميّزاً في التفسير، وأنّ كلاّ منهما أبدع في ميدان التفسير الإشاري، واحتواء كل من تفسير الشّيح الجيلاني والشّيح القشيري على علوم لندنية رفيعة، حرص الشّيخان على بثّها على طول التفسيرين.

ومن أبرز التوصيات التي يوصي بها الباحث أن تدرّس مادّة الأخلاق والتّركية في منهج مستقلّ لجميع المراحل التّعليميّة بلا استثناء، وأن تُعنى وزارة التّربية والتّعليم باختيار من يدرّس هذه المادّة، بأن يكون مؤهّلاً على يد شيخ عارف بالطّرق الصّوفيّة. وأن ينشط الباحثون والعلماء المسلمون في تنقية علم التّصوّف ممّا اعتراه من غلوّ وانحراف، وبثّه على طريقة الشّيح الجيلاني والشّيح القشيري، من خلال المحاضرات الأكاديميّة، والخطب المنبريّة، والمؤلّفات العلميّة. هذا والله وليّ التوفيق .

Interpretation by Sheikh Abdul Qadir Al-Jilani and Sheikh Abu Al-Qasim Al-Qushayri" A Comparative Study in the Methodology of Sufism"

Prepared by: Shaban Ahmad Husain Hammad

Supervisor: Dr. Hatem Jalal Al-Tamimi.

Abstract:

This study includes the methods of interpretation and Sufism according to Sheikhs Abdul Qadir al-Jilani and Abdul Karim al-Qushayri, entitled: Interpretation of Sheikh Abdul Qadir al-Jilani and Sheikh Abi al-Qasim al-Qushayri, "A Comparative Study in the Methodology of Sufism."

The importance of this study appears through its attachment to the interpretation of the Holy Qur'an. The best books, and the fact that the two sheikhs: Al-Jilani and Al-Qushayri are among the scholars unanimously agreed upon by Muslim scholars of different sects. The interpretations of the two sheikhs: Al-Jilani and Al-Qushayri contain the summary of their legal knowledge over the years of their lives. Finally: Because the indicative interpretation has a good effect on the souls of its readers

This study aims to contribute to supplementing Qur'anic studies related to comparative interpretation. Introduction to the indicative interpretation according to Sheikh Abdul Qadir Al-Jilani and Sheikh Abdul Karim Al-Qushayri. And highlighting true, pure Sufism that follows the Qur'an and Sunnah. Increasing the energy to deal optimally with the texts of the Holy Qur'an in our daily lives. And highlighting two venerable figures of the Muhammadan nation.

In this study, the researcher used the inductive approach by investigating texts from the Qur'an, the Sunnah, and the sources that were written about indicative interpretation and the Sufism, and the descriptive approach, by studying the interpretation of Sheikh Al-Jilani and the interpretation of Lataif Al-Isharat by Sheikh Al-Qushayri, and the deductive approach, in drawing conclusions from them and comparing both interpretations. In Sufism approach

One of the most prominent findings reached by the researcher in this study is that both Sheikh Al-Jilani and Sheikh Al-Qushayri have a distinct method to interpretation, and that each of them excelled in the field of indicative interpretation, and that both the interpretations of Sheikh Al-Jilani and Sheikh Al-Qushayri contain high worldly sciences, which the two sheikhs were keen to disseminate throughout. The two interpretations.

Among the most prominent recommendations made by the researcher is that the subject of ethics and purification be taught in an independent curriculum for all educational levels without exception, and that the Ministry of Education be concerned with selecting someone to teach this subject, who must be qualified by a sheikh who is familiar with Sufi orders. And that Muslim researchers and scholars be active in purifying the science of Sufism from the exaggeration and deviation it has afflicted, and disseminating it in the manner of Sheikh Al-Jilani and Sheikh Al-Qushayri, through academic lectures, pulpit sermons, and scientific works.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فمن فضل الله على الأمة المحمدية أن جعل في كل عصر من العصور طائفة من العلماء العاملين الصادقين، الذين يستنبطون من كتاب الله ما يستجد للأمة من قضايا ومشاكل وأحكام فقهية: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:83]، فيسهمون في حلها، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، فيأخذون بأيدي الناس إلى الصراط المستقيم، مستضيئين بكتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَعِزَّتِي أَهْلُ بَيْتِي وَلَنْ يَنْفَرَقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُقُونِي فِيهِمَا» سنن الترمذي ، حديث رقم 3788 ، وقال: حديث حسن غريب.

فيأتي هذا البحث محاولة للقيام ببعض الواجب نحو هذا الكتاب الكريم الذي يحمل في آياته الدعوة إلى الهدى والحق والخير، ويحقق للناس السعادة في الدنيا والآخرة.

ومن أسباب اختياري لهذا البحث:

أولاً: رغبة الباحث في الاستزادة من علوم التفسير، وبخاصة التفسير الإشاري ودقائقه؛ بتناول تفسيرين لإمامين وعلمين من أساطين هذا اللون من التفسير.

ثانياً: حاجة المكتبة الإسلامية لأبحاث تخدم التفسير الإشاري.

ثالثاً: عزوف كثير من الناس عن التركيبة وسلوك مقام الإحسان والانغماس في مغريات الدنيا وملهياتها.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة فيما يلي:

1- كون الشيخين: الجيلاني والقشيري من العلماء المُجمَعِ عليهم عند علماء المسلمين على اختلاف المذاهب والمشارب.

2- كونها تتعلق بتفسير القرآن الكريم؛ خير الكتب.

3 - أن في تفسير الشيخين: الجيلاني والقشيري خلاصة علومهما الشرعية على مرّ سني حياتهما.

4 - الأثر الطيب الذي يتركه التفسير الإشاري في نفوس قارئيه.

أهداف البحث:

أولاً: الإسهام في رفق الدراسات القرآنية ذات العلاقة بالتفسير المقارن.

ثانياً: التعرف على التفسير الإشاري عند الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ عبد الكريم القشيري.

ثالثاً: إبراز التصوف الحقيقي النقي المتبع للكتاب والسنة.

رابعاً: محاولة تسليط الضوء على التفسير الإشاري من خلال تفسير الشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ أبي القاسم القشيري.

خامساً: شذ الهمة للتعامل الأمثل مع نصوص القرآن الكريم في حياتنا اليومية.

سادساً: تسليط الضوء على علمين جليلين من أعلام الأمة المحمدية.

مشكلة البحث:

ملاحظة الباحث أن طائفة من المهتمين بعلم التفسير فضلاً عن غيرهم يهملون قراءة التفاسير الإشارية للقرآن الكريم، ولا يعرفون عنها إلا القليل، وإن عرفوا تفسيراً منها فلا يعرفون غيره. وأن مفهوم التصوف مشوّش عند كثير من المتعلمين، فضلاً عن الناس، فابتعدوا عن قراءة التفاسير الإشارية، مع أن كبار علماء التفسير كتبوا فيه، مثل: الإمام الألويسي، المفسر رحمه الله.

أسئلة الدراسة:

يفترض في هذه الدراسة أن تجيب عن سؤال رئيس وهو: ما أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين تفسير الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أبي القاسم القشيري في منهجها في التصوف؟

ويتفرع عن هذا السؤال عدد من الأسئلة وهي:

- ما هي أبرز معالم حياة الشيخ عبد القادر الجيلاني؟
- ما أبرز ما يميز منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في التصوف؟
- ما أبرز معالم حياة الشيخ أبي القاسم القشيري؟
- ما أبرز ما يميز منهج الشيخ أبي القاسم القشيري في التصوف؟
- ماذا نقصد بالتفسير الإشاري؟
- ما هي أدلة التفسير الإشاري من الكتاب والسنة؟

الدراسات السابقة:

وجد الباحث عدّة أبحاث تتعلّق بموضوع الدّراسة، إلاّ أنّها لم تتناول منهج التّصوّف بين التّفسيّرين كدراسة مقارنة، وهذه الأبحاث هي:

1- تفسير آيات الأحكام في ضوء التّفسير الإشاري (دراسة مقارنة بين تفسير الإمام القشيري والإمام الجيلاني) للطّالب: أحمد نور هداية، وهي رسالة ماجستير مقدّمة إلى كليّة الدّراسات الإسلاميّة والعربيّة، قسم الدّراسات العليا، جامعة شريف هداية الله الإسلاميّة الحكوميّة في جاكرتا، في العام 1441هـ/2020م.

وقد عنيت هذه الدّراسة بمقارنة آيات الأحكام في التّفسيّرين ولم تتناول منهج التّصوّف عندهما.

2- "التّفسير الصّوفي" (دراسة مقارنة بين تفسير القشيري وتفسير الجيلاني) للطّالب: إروان محبّ الدّين، رسالة ماجستير في كليّة أصول الدّين والفلسفة، شعبة التّفسير والحديث، بجامعة شريف هداية الله جاكرتا 2018م. وهذه الدّراسة باللّغة الأندونيسيّة، فلم يتمكّن الباحث من الإضطلاع عليها.

3- تفسير القرآن عند الإمام القشيري، للطّالب تاج الملك، رسالة ماجستير في كليّة أصول الدّين والفلسفة بالدّراسات العليا، سونان كاليجاكا الإسلاميّة الحكوميّة، جاكرتا، 2016م. وهذه الدّراسة باللّغة الأندونيسيّة، لم يتمكّن الباحث من الإضطلاع عليها.

4- الدّخيل في تفسير الجيلاني، للطّالب: أوسيف نور عكاسة، رسالة ماجستير في كلية الدراسات الإسلاميّة، بجامعة شريف هداية الله جاكرتا، 2015م.

وهذه الرسالة اقتصرّت على تفسير الإمام الجيلاني دون التّطرّق للمقارنة مع تفسير الإمام القشيري.

5- منهج القشيري في كتابه لطائف الإشارات، للطّالب: محمّد محمود يوسف أبو زور، رسالة ماجستير بكلّيّة الدراسات العليا بالجامعة الأردنيّة، عمان، 1993م.

واقترحت هذه الدراسة على بيان منهج الإمام القشيري في تفسيره دون التّطرّق إلى تفسير الجيلاني.

6- (قضية المعرفة الصوفية بين عبد الكريم القشيري وعبد القادر الجيلاني دراسة مقارنة) رسالة ماجستير مقدّمة من الباحث حسني عطية صادق عبد الغفار، كلية الآداب، جامعة الفيوم - مصر، في العام 2019م.

ولم يتناول الباحث التفسيرين بالمقارنة في المنهج كما في هذه الدراسة؛ بل اقتصَرَ فقط على المقارنة بين المصطلحات الصوفية عند الجيلاني والقشيري.

7- منهج الإمام القشيري في تفسيره المسمّى لطائف الإشارات، للباحث خالد سعيد، وهو بحث محكّم منشور في مجلّة قطاع أصول الدّين، المجلّد الخامس، العدد الخامس، لعام 2010م، ص749-856.

8- دراسة مقارنة بين تفسير القشيري وتفسير الطبرسي، وهي رسالة دكتوراه للطالبة: شريفة عبد الكريم فريحات، في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة اليرموك، في إربد، 1433هـ/2012م.

9- الإمام القشيري ومنهجه في تفسيره لطائف الإشارات، رسالة ماجستير للطالب عز الدين حسن جميل الأتروشي، في كليّة العلوم الإسلاميّة، جامعة بغداد، للعام 1993م.

10- لطائف الإشارات للقشيري وتاج التفسير للميرغني من الجزء الثامن والعشرين إلى الجزء الثلاثين، دراسة تحليلية مقارنة، وهي رسالة دكتوراه للطالب: ياسر عبد الله محمد الحوري، في جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية في السودان، لعام 1443هـ/2021م.

حدود الدّراسة:

هذه الدّراسة محدودة بدراسة تفسيري الشّيخين عبد القادر الجيلاني وأبي القاسم القشيري دراسة مقارنة.

منهجية البحث والخطوات الإجرائية:

اعتمد الباحثُ في بناء الرسالة على:

- المنهج الاستقرائي: من خلال تقصي النصوص من الكتاب والسنة والمصادر التي كتبت في التفسير الإشاري ومناهج التّصوّف.

- المنهج الوصفي: وذلك من خلال دراسة تفسير الشيخ الجيلاني وتفسير الشيخ القشيري.

- المنهج الاستنباطي: استخلاص النتائج منهما والمقارنة بين كلا التفسيرين في منهج التّصوّف.

أما الخطوات الإجرائية فهي على النحو الآتي:

أولاً: قراءة ما أمكن من تفسيري الشيخين الجيلانيّ والقشيريّ.

ثانياً: توثيق الآيات القرآنية، وكتابتها بخط المصحف الشريف، وكتابة رقم الآية بجوارها في متن الرسالة.

ثالثاً: تخريج الأحاديث النبوية الشريفة والآثار من مظانها والحكم عليها صحّةً وِضعاً.

رابعاً: عزو الأقوال الواردة في الرسالة إلى أصحابها.

خامساً: الترجمة للأعلام.

خطة الرسالة:

جاءت الرسالة في مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة وفهرس، على النحو التالي:

الباب الأول: تعريفات وتمهيدات.

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: حقائق عامّة عن التّصوّف.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التّصوّف لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: نشأة التّصوّف وتطوّره.

المبحث الثالث: مصادر التّصوّف.

الفصل الثاني: أثر التّصوّف في المجتمع.

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: الآثار الدّعويّة.

المبحث الثاني: الآثار الأخلاقيّة.

المبحث الثالث: الآثار العلميّة.

المبحث الرابع: الآثار الاجتماعيّة.

المبحث الخامس: الآثار الجهاديّة.

الفصل الثالث: التفسير الإشاري

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التفسير الإشاري لغةً واصطلاحًا.

المبحث الثاني: أدلة التفسير الإشاري من الكتاب والسنة.

المطلب الأول: أدلته من القرآن الكريم.

المطلب الثاني: أدلته من السنة الشريفة.

المطلب الثالث: عمل الصحابة رضي الله عنهم وأقوالهم.

المبحث الثالث: شروط قبول التفسير الإشاري.

الباب الثاني: الشيخ عبد القادر الجيلاني ومنهجه العام في التفسير.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه.

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه وألقابه.

المبحث الثاني: مولده وأسرته.

المبحث الثالث: صفاته الخلقية والخلقية، وكراماته.

المبحث الرابع: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته.

المبحث الخامس: عقيدته.

المبحث السادس: وفاته رضي الله عنه وبعض أقواله.

المبحث السابع: بعض أوراده

الفصل الثاني: منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في تفسيره.

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: التركيز على آيات العقيدة.

المبحث الثاني: اعتماده على التفسير بالمأثور.

المبحث الثالث: اهتمامه بالتفسير الإشاري.

المبحث الرابع: جزالة لغته وتميّز ألفاظه.

المبحث الخامس: احتواؤه على إشراقات روحية.

المبحث السادس: التكرار الواضح.

المبحث السابع: تفسيره للبسملة تفسيرًا مختلفًا في كلّ سورة.

الباب الثالث: الشيخ أبو القاسم القشيري وتفسيره.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: ترجمة الشيخ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه، وفيه ستّة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه ومولده ونشأته.

المبحث الثاني: صفاته وكراماته.

المبحث الثالث: عقيدته.

المبحث الرابع: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته.

المبحث الخامس: مقتطفات من شعره في الحبّ الإلهي.

المبحث السادس: وفاته.

الفصل الثاني: الشيخ القشيري ومنهجه العامّ في التفسير.

وفيه ستّة مباحث:

المبحث الأول: اعتماده التفسير الإشاري في معظم تفسيره.

المبحث الثاني: استعماله لفظ ظاهر التفسير وباطن التفسير.

المبحث الثالث: أسلوبه سهل ممتع.

المبحث الرابع: تجنبه للاسترسال والاسهاب.

المبحث الخامس: اهتمامه بإيراد الحقائق الصوفيّة.

المبحث السادس: تفسيره للبسملة تفسيراً مختلفاً في كل سورة.

الباب الرابع: دراسة مقارنة بين تفسير الجيلاني والقشيري في منهج التفسير الصوفيّ.

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: ذكر بعض المقامات في تفسيريّ الشيخ الجيلاني والشيخ القشيريّ مع المقارنة بينهما.

وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: التوبة.

المبحث الثاني: المراقبة.

المبحث الثالث: الصدق.

المبحث الرابع: الحبّ.

المبحث الخامس: الفقر.

المبحث السادس: الرضا.

المبحث السابع: الحياء.

المبحث الثامن: الفهم.

المبحث التاسع: الأدب.

المبحث العاشر: الفناء.

الفصل الثاني: دراسة مقارنة لمختارات من علوم أهل التصوف، وردت في تفسيريّ الشيخين:

الجيلاني والقشيري .

وفيه تسعة مباحث:

المبحث الأول: التوحيد.

المبحث الثاني: القضاء والقدر.

المبحث الثالث: الذكر.

المبحث الرابع: الزهد.

المبحث الخامس: السرّ.

المبحث السادس: النفس.

المبحث السابع: السّوى.

المبحث الثامن: القطب الغوث.

المبحث التاسع: الوراثة المحمّدي.

الفصل الثالث: دراسة تقييميّة للتفسيرين في منهج التّصوّف.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مزايا التفسير عند الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري.

المبحث الثاني: مأخذ التفسير عند الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري.

المبحث الثالث: غرائب التفسير عند الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري.

ثم ختمت الرسالة بخاتمة استعرضت فيها أهمّ النتائج التي انتهى إليها البحث، وبتوصيات يرى الباحث أهميّة متابعتها، ثم زوّدت الرّسالة بقائمة المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

والله أسأل أن يتقبّل جهد المقلّ، وأن يدخلني برحمته في عباده الصّالحين، وإن كان في هذه الدّراسة أيّ خطأ فمن عند نفسي، والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

الباب الأول: تعريفات وتمهيدات .
الفصل الأول: حقائق عامة عن التصوف.
الفصل الثاني: أثر التصوف في المجتمع.
الفصل الثالث: التفسير الإشاري.

الفصل الأول: حقائق عامة عن التصوّف.
وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التصوّف لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: نشأة التصوّف وتطوّره.

المبحث الثالث: مصادر التصوّف.

الفصل الأول:

حقائق عامة عن التصوّف.

كان التصوّف، ومنذ أن اتخذ مكانه في المجتمع الإسلاميّ مجال صراع عنيف، وجدل متّصل بين المؤيدين والمعارضين، وهذا الفصل بمباحثه الثلاثة الموجزة يعطي القارئ تعريفاً بالتصوّف ونشأته وتطوّره ومصادره.

المبحث الأول: تعريف التصوّف لغة واصطلاحاً.

سيأتي في هذا المبحث توضيح معنى التصوّف لغةً واصطلاحاً، وذلك من خلال المطلبين الآتين:

المطلب الأوّل: تعريف التصوّف لغةً:

ذكر ابن فارس، رحمه الله، أنّ الصّاد والواو والفاء أصل واحدٌ صحيح وهو الصّوف المعروف، والباب كلّه يرجع إليه⁽¹⁾.

"ويقال: كبشٌ أصوف، وصوف، على مثال: فَعِل، وصائفٌ وصافٌ وصافٍ، كلّ ذلك كثير الصّوف"⁽²⁾.

(1) ابن فارس، أبو الحسين، أحمد بن زكريّا، ت 395هـ، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السّلام هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، 323/3.

(2) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، ت 711هـ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، 199/9.

"وصوفه: اسم حي من بني تميم، كانوا يجيزون الحاج في الجاهلية من منى، فيكونون أول من يدفع"⁽¹⁾.

أما الزبيدي فقال في تاج العروس: " الصّوف: بالصّمّ، معروف، قال ابن سيده: الصّوف للغنم كالشعر للماعز، والوبر للإبل، والجمع أصواف"⁽²⁾.

ويورد الفيروزآبادي في قاموسه المحيط المثل المشهور: (خرقاء وجدت صوفاً)، "يُضرب للأحمق يجد مالاً فيضيّعه"⁽³⁾.

" وصوفيّة: مصدر صناعي من صَوْف "⁽⁴⁾.

أما الخليل بن أحمد⁽⁵⁾، رحمه الله، وكان حقّه أن يُقدّم، لأنّه من القرن الثاني الهجري، جاء بكلّ ما سبق ذكره، وكان الجميع نقلوا عنه، رحمه الله.

فبيّنتج مما سبق أنّ المصادر تكاد تجمع أنّ مادّة صوف مشتقة من الأصل الثلاثي "صوف"، فسقط بهذا قول القائل بأنّ أصلها مشتقّ من الصّفوة، وسقط كذلك قول من قال إنّها مشتقة من الصّف، " وأستبعد أن تكون كلمة التّصوّف والصّوفيّ والصّوفيّة مشتقة من الصّفوة؛ لأنّ النسبة إلى الصّفوة صفيّ، وكذلك ستبعد أن تكون كلمة تصوّف مشتقة من الصّف أو الصّفاء أو صوفانة؛ لأنّ النسبة إلى صفّ صفيّ، وإلى صفاء صفاويّ، وإلى صوفانة صوفانيّ"⁽⁶⁾.

(1) الأزهرى، أبو منصور، محمد بن أحمد الهروي، ت 370هـ، تهذيب اللّغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2021م، 173/12. الزمخشريّ، جار الله، محمود بن عمر بن أحمد، ت 538هـ، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1419هـ - 1998م، 564/1.

(2) الزبيديّ، محمّد بن محمّد الحسيني، ت 1205هـ، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1385هـ - 1422هـ / 1965-2001م، 38/24.

(3) الفيروزآبادي، مجدّ الدين، محمّد بن يعقوب، ت 817هـ، القاموس المحيط، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط8، 1426هـ - 2005م، ص829 (باب الفاء، فصل الصاد).

(4) عمر، أحمد مختار عبد الحميد وفريق عمل، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، عالم الكتب، ط1، 1429هـ - 2008م، 1337/2 (مادّة صوف).

(5) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، ت 170هـ، كتال العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السّامرائي، دار ومكتبة هلال، 161/7 (حرف الصاد، الثلاثي المعتلّ، باب الصاد والفاء و (وأي).

(6) الصّالحي، عمر يعقوب، الطّريقة القادريّة في فلسطين في القرن الخامس عشر الهجريّ تاريخها وأعلامها، أثرها في المجتمع، مطبعة بيت المقدس، 1422هـ - 2001م، ص6، والكتاب بالأصل رسالة مقدّمة لاستكمال متطلّبات الماجستير في جامعة القدس - ابو ديس، كلية الآداب، قسم الدّراسات الإسلاميّة. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الصّالحي، الطّريقة القادريّة في فلسطين.

أما الإمام القشيري - الذي نحن بصدد دراسة تفسيره - فيقول: " لا يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق"⁽¹⁾.

ويرجح الباحث رأي الإمام القشيري، الذي فنّد قول من قال إنّ التّصوّف مأخوذ من الصّوف أو من النسبة للصّفة، أو أنه مشتقّ من الصّفاء، فهو كاللّقب غلب على المشتغل بالله، المعرض عمّا سواه.

المطلب الثاني: تعريف التّصوّف اصطلاحاً.

يرى الباحث أنّه من المناسب أن تُستهلّ التعاريف المختلفة للتّصوّف بتعريف سيّد القادر الجيلاني؛ لمكانته المعروفة، ودوره في تثبيت أركان التّصوّف على الكتاب والسنة في عصره، ولأنّ الدراسة تتناول تفسيره.

يقول الشيخ، رحمه الله، بعد أن ساق الأقوال المختلفة في تعريف التّصوّف: "الصّوفيّ هو الذي لا يبقى في نفسه لنفسه شيء، ولا يسع في قلبه غير الله وحبّه"⁽²⁾.

وعرّف أبو بكر الكتّاني⁽³⁾، رحمه الله، التّصوّف فقال: " التّصوّف: خُلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الصّفاء "⁽⁴⁾.

(1) القشيري، عبد الكريم بن هوازن، ت 465هـ، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحلّيم محمود ومحمود الشّريف، دار الشعب، القاهرة، ص 464 (باب التّصوّف). وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: القشيري، الرسالة القشيرية.

(2) الجيلاني، عبد القادر بن أبي صالح عبدالله جنكي دوست، ت 561هـ، سرّ الأسرار ومظهر الأنوار " رسالة في التّصوّف"، تحقيق عبد الرّحيم السّايح وتوفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدّينية، القاهرة، ط1، 1429هـ - 2008م، ص 139 وما بعدها.

(3) هو محمد بن علي بن جعفر الكتّاني، كنيته أبو بكر، أحد مشايخ الصّوفيّة، كان فاضلاً نبيلاً، حسن الإشارة، أصله من بغداد، أقام بمكة، ومات فيها عام 322هـ، من أقواله رضي الله عنه: من طلب الرّاحة بالراحة عدم الرّاحة. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، ت 463هـ، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عوّاد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1422هـ - 2002م، 4 / 127. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد.

(4) القشيري، الرسالة القشيرية، ص 466.

وعرّف الجنيد⁽¹⁾، رضي الله عنه، الصوفيّ فقال: " الصوفيّ كالأرض يطؤها البرّ والفاجر، وكالسحاب يُظَلّ كلّ شيء، وكالقطر يسقي كلّ شيء"⁽²⁾.

وعرّفه سيدي أبو الحسين النوريّ⁽³⁾، رحمه الله، فقال: " هو ترك كلّ حظّ للنفس"⁽⁴⁾.

أما سيدي أبو عليّ الروذباري⁽⁵⁾، رحمه الله، فعرف التّصوّف بأنّه " الإناخة على باب الحبيب، وإن طرد عنه"⁽⁶⁾.

وقال صاحب موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: " الصُوفيّ: بالضمّ وسكون الواو عند أهل التّصوّف هو: الذي هو فان بنفسه، باقٍ بالله تعالى، مستخلص من الطّبائع، متّصل بحقيقة الحقائق"⁽⁷⁾.

وصاحب معجم مصطلحات الصّوفيّة⁽⁸⁾ نقل تعريف الكشّاف سابق الذّكر بدون زيادة ولا نقصان. ومن الجدير بالذّكر أن كثيرا من المعاجم اللّغويّة أنفة الذّكر قد مزجت بين التّعريف اللّغويّ والتّعريف الاصطلاحيّ للتّصوّف. وبعد هذا الاستعراض لطائفة من التعريفات يجب التّنبية إلى نقطة مهمّة؛

(1) الجنيد بن محمد أبو القاسم، الخزاز، أصله من نهاوند، وولد بالعراق، تفقّه على أبي ثور، وصحب سريّ السقطي، والهارث المحاسبي، وغيّوهم، وهو من أئمة القوم وساداتهم، مقبول على جميع الألسنة، ت 297هـ. السلمي، محمد بن الحسين النيسابوريّ، ت 412هـ، طبقات الصوفيّة، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1419هـ-1998م، ص 129. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: السلمي، طبقات الصوفيّة. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 168/8.

(2) القشيري، الرسالة القشيرية، ص466.

(3) أحمد بن محمّد، بغداديّ المنشأ والمولد، وخراسانيّ الأصل، يُعرف بابن البغويّ، كان من أجلّ مشايخ القوم وعلمائهم، صحب سريّ السقطي، توفيّ 295هـ. السلمي، طبقات الصوفيّة، ص126. الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد، ت 973هـ، الطبقات الكبرى، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، 1315هـ، 74/1. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الشعراني، الطبقات الكبرى.

(4) الكلابادي، أبو بكر محمّد بن أبي إسحاق، ت380هـ، التّعريف لمذهب أهل التّصوّف، دار الكتب العلميّة، بيروت، بدون سنة نشر ولا طبعة، ص 25 (الباب الأول: لم سُميت الصّوفيّة صوفيّة)، وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الكلابادي، التّعريف.

(5) محمد بن أحمد بن القاسم، أبو عليّ الروذباري، من كبار الصّوفيّة، سكن مصر، وكان من أهل الفضل والفهم، لزم الجنيد وصحبه، وصار أحد أئمة الزّمان، ت 323هـ. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 180/2. السلمي، طبقات الصوفيّة، ص 269.

(6) القشيري، الرسالة القشيرية، ص466.

(7) الفاروقي، محمد بن علي، ت1158هـ، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق عليّ دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، م1996، 1102/2.

(8) أبو خزام، أنور فؤاد، معجم مصطلحات الصّوفيّة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1993م، ص110.

- وهي أنّ كلّ من عزّف التّصوّف والصّوفيّ كان يُعرّفه من المعاني والأذواق القلبيّة التي عاشها وخبرها، وليست تعريفات تنظيرية تخلو من الواقعية.
- ويخلص الباحث إلى أنّ تعريفات التّصوّف تدور حول ثلاثة نقاط رئيسية:
- 1- المحبّة؛ فمحبّة الله ورسوله عند الصّوفيّ تفوق كلّ ما سواهما.
 - 2- الأخلاق؛ فالأدب العالي يميّز الصّوفيّ.
 - 3- مجاهدة النّفس؛ فالصّوفيّ لا يرى نفسه؛ بل هو منشغلٌ بمجاهدتها وتربيته.

المبحث الثاني: نشأة التصوف وتطوره.

المتعمق في روح الإسلام يرى بوضوح دعوة الإسلام للزهد، لكل ما هو فان والآيات القرآنية كثيرة في هذا الباب، منها:

قوله سبحانه في سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيئُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: 38]

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: 18-19]

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: 205-207]

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: 21]

وقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ دَلِيلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: 35]

وأما الأحاديث، فعلماء السنة المطهرة بوبوا في مصنفاتهم باباً مستقلاً للزهد؛ لكثرة أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم التي تناولت هذا الموضوع، ومنها؛ قوله صلى الله عليه وسلم: «ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»⁽¹⁾.

قوله صلى الله عليه وسلم: «لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»⁽²⁾.

وقوله عليه أفضل الصلاة والسلام: «لقاب قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب»⁽³⁾.

قصد الباحث من إيراد هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التأكيد على أن أصل التصوف موجود منذ بزوغ فجر الإسلام، وهذه تعاليم الدين الإسلامي مصرحة بالزهد في الدنيا والإقبال على الله، والتخلق بكل خلق سني، وهذا هو جوهر التصوف.

(1) سنن الترمذي، أبواب الزهد، ح 2377، وقال: حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، ح 4109.

(2) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، ح 2695.

(3) صحيح البخاري، كتاب بدأ الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ح 3253.

يقول ابن خلدون⁽¹⁾ في مقدّمته: " وهذا العلم -يعني التّصوّف- من العلوم الشرعيّة الحادثة في الملّة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصّحابة والتّابعين ومن بعدهم طريقة الحقّ والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدّنيا وزينتها، والرّهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عامّاً في الصّحابة والسّلف، فلمّا فشا الإقبال على الدّنيا في القرن الثّاني وما بعده، وجنح النّاس إلى مخالطة الدّنيا اختصّ المقبلون على العبادة باسم الصّوفيّة"⁽²⁾ .

يستنتج من كلام ابن خلدون رحمه الله:

- 1- أن أصل التصوف موجود في الأمة الإسلاميّة من زمن الصّحابة والتّابعين.
- 2- أنّ أول ظهور للتّصوّف كمذهب مستقل بذاته كان في القرن الثّاني الهجري.

(1) عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون الإشبيلي، ت808هـ، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، مولده ومنشأه بتونس، اشتهر بكتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر في سبعة مجلدات، أولها المقدمة التي تعد من أصول علم الاجتماع، توفي في مصر. الزركلي، خير الدين بن محمود، ت 1396هـ، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002م، 3/330. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الزركلي، الأعلام.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت 808هـ، مقدمة ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ/1988م، ص611، الفصل السابع في علم التصوف.

المبحث الثالث: مصادر التصوّف.

إن مصدر التصوّف هو الكتاب والسنة، " فهو ليس أمراً مستحدثاً جديداً، ولكنه مأخوذاً من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحياة أصحابه الكرام" (1).

وما أجود ما استشهد به الدكتور عمر الصّالحي على أن التصوّف ابن الإسلام ووليدته، عندما أشار إلى كتاب " الأربعين على مذهب المتحقّقين من الصّوفيّة" (2)، لأبي نعيم الأصفهاني صاحب الحلية، حيث أنه ذكر أربعين حديثاً نبوياً تؤكد أصالة التصوّف الإسلاميّ وينابيعه الإسلاميّة (3).

ثم إن كتب الصّوفيّة القديمة تعدّ مصادرًا أساسيّة تجلّي حقيقة التصوّف وتوضّح آراء الصّوفيّة وأفكارهم ومعتقداتهم، ومن هذه المصادر:

1- التعرّف لمذهب أهل التصوّف للكلاّباضي، ت 380هـ.

2- الرسالة القشيريّة للقشيري، ت 465هـ.

3- إحياء علوم الدين ورسالة أيها الولد لأبي حامد الغزالي، ت 505هـ.

4- كتب الشّيخ عبد القادر الجيلاني (4)، ت 561هـ.

5- الحكم العطائيّة لابن عطاء الله السكندري (5)، ت 709هـ.

والرجوع إلى هذه الأمهات هو الطّريق الصّحيح الذي يجب أن يسلكه كلّ سائل عن التصوّف، فهي مصادر قديمة كتبها أساطين علماء التصوّف، ومن الظلم وعدم الإنصاف الاعتماد على أقوال الآخرين، فبئس مطيّة الرجل قالوا.

(1) عيسى، عبد القادر، حقائق عن التصوّف، دار المقطم، مصر، القاهرة، 1426هـ-2005م، ص 30 وما بعدها.

(2) الأصفهاني، أبو نعيم، أحمد بن عبد الله، ت 430 هـ، الأربعين على مذهب المتحقّقين من الصّوفية، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1414هـ-1993م.

(3) الصّالحي، الطريقة القادرية في فلسطين، ص 22.

(4) سيأتي ذكر خمسة كتب للشّيخ عبد القادر الجيلاني، في الباب الثاني الفصل الأوّل، المبحث الثامن، ص 48.

(5) كان إماماً عارفاً، صاحب إشارات وكرامات، وقدم راسخ في التصوّف، صحب الشّيخ أبو العباس المرسي تلميذ الشّيخ أبي الحسن الشاذلي، السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين، ت 771هـ، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1413هـ، 23/9.

الفصل الثّاني: أثر التّصوّف في المجتمع
وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأوّل: الآثار الدّعويّة.

المبحث الثّاني: الآثار الأخلاقيّة.

المبحث الثّالث: الآثار العلميّة.

المبحث الرّابع: الآثار الاجتماعيّة.

المبحث الخامس: الآثار الجهاديّة.

الفصل الثّاني:

أثر التّصوّف في المجتمع.

الصّوفيّة أبناء مجتمعاتهم، وكما أنّ الأصل في الفرد المسلم أن يكون عنصراً إيجابياً في مجتمعه أينما حلّ نفع، كذلك الصّوفيّة، فهم ليسوا بدعاً من المسلمين؛ بل إنّ الواحد منّا كلّما ارتقى في تزكية نفسه زاد عطاؤه إلى الآخرين، وعطفه وإشفاقه عليهم، وأحبّ لهم الخير كما يحبّه لنفسه. وكان ذلك دأب السّادة الصّوفيّة مشايخ ومريدين؛ فتركوا في مجتمعاتهم بالغ الأثر على مستويات عدّة، اختار الباحث خمسة منها، وجاءت على النّحو الآتي:

المبحث الأول: الآثار الدّعويّة.

يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]

لقد عرف عن المتصوّفة ترحالهم وتنقلهم في البلاد، فحملوا معهم أفكارهم، ونقلوا طرقهم التي ورثوها عن مشايخهم في بقاع المعمورة؛ فتجد أتباع الطّريقة القادريّة مثلاً ينتشرون في جميع أصقاع العالم الإسلامي، يقول محمد فؤاد شكري: "قام أتباع الشّيخ الجيلاني بنشر رسالة الإسلام من السنغال إلى الغرب من مصب النّيجر، يفتحون الكتاتيب أو المكاتب الصّغيرة في زوايا الطّريقة، وفي جميع القرى، ويلقّنون بها صغار الزّوج الدّين الإسلامي، ثمّ يرسلون النّجباء منهم إلى مدارس طرابلس والقيروان، وإلى الجامع الأزهر بمصر، حتى إذا أتمّوا دراستهم، نشروا الدّعوة إلى الإسلام بين أقوامهم"⁽¹⁾.

(1) شكري، محمّد فؤاد، السنوسيّة دين ودولة، دار الفكر العربي، 1948، ص10. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: شكري، السنوسيّة دين ودولة.

ومن أبرز أعلام الصوفية الذين حملوا على عاتقهم هم الدعوة إلى الله:

1- الشيخ سيف الدين الباخري، وهو "أبو المعالي سعيد بن المطهر بن سعيد بن علي، الإمام القدوة، شيخ خراسان... كان إماماً محدثاً ورعاً زاهداً، تقياً أثرياً، منقطع القرين، بعيد الصيت، له وقع في القلوب ومهابة في النفوس"⁽¹⁾، "إمام في السنة والتصوف"⁽²⁾.

كان من أبرز مواقف الدعوة رحمه الله أن أسلم من التتار على يده أمراء وخلقٌ كثيرون، أخذ منهم العهد وأعطاهم الأوراد⁽³⁾، قال الصفي: "وعلى يده أسلم السلطان بركه، وتوفي سنة تسع وخمسين وست مائة"⁽⁴⁾.

2- الإمام الرواس⁵، محمد مهدي بن علي بن نور الدين الرفاعي، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، ولقبه بهاء الدين، مشهور بالرواس.

ولد عام 1220هـ، وتوفي سنة 1287هـ، وقد بلغ رضي الله عنه من العمر سبعة وستين عاماً، ولد في قرية صغيرة من أعمال البصرة، يُقال لها: سوق الشيوخ، ورحل في طلب العلم فجاور بمكة سنة، ثم تشرف بزيارة جده عليه الصلاة والسلام وجاوره سنتين، ثم ذهب إلى مصر ونزل في الجامع الأزهر، وبقي فيه ثلاثة عشر سنة، يتلقى العلم الشرعي، حتى برع في كل فنّ وعلم، ثم عاد إلى العراق وأخذ الطريق عن العارف بالله السيد عبد الله الزاوي الرفاعي، والتقى كذلك العارف بالله عبد الكريم بن عبد الرحيم القادري، وأخذ منه الطريقة القادرية.

كان الإمام الرواس زاهداً متعمقاً يأكل من عمل يده، واختار بيع رؤوس الغنم المشوية بعداً عن المشيخة وتسنراً عن الناس لينفرد قلبه لربه سبحانه وتعالى، فكان من الصوفية الصادقين أصحاب الخوارق والكرامات.

وله رضي الله عنه عدة دواوين شعرية مطبوعة. وترجم له تلميذه أبو الهدى الصياد في كتابه (قلائد الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر).

(1) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، ت748هـ، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومجموعة من المحققين، مؤسسة لرسالة، ط3، 1405هـ/1985م، 363/23. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الذهبي: سير أعلام النبلاء.

(2) الصفي، صلاح الدين خليل بن أبيك بن عبد الله الصفي، ت764هـ، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ/2000م، 163/15. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الصفي، الوافي بالوفيات.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 366/23.

(4) الصفي، الوافي بالوفيات، 163/15.

(5) الزركلي، الأعلام، 113/7 وما بعدها. والصالحي، عمر يعقوب، صفوة الصفوة في عصرهم، بيت المقدس، 1443هـ/2021م، ص111.

والشَّيْخُ الرَّوَاسُ تطابقت القلوب على محبَّته، واتَّفقت السَّرَائِرُ والضَّمائِرُ على محبَّته وولايته. كان عظيم التَّواضع والخلق، ومن ذلك أنَّه كان لا يمشي أمام مريديه، بل يتأخَّر في مشيه عنهم؛ حتَّى لا يشير إليه النَّاسُ بالمشيخة.

للشَّيْخِ الرَّوَاسِ سياحة في بلاد الله، نشر فيها الطَّرِيقَ، ودلَّ النَّاسَ على الله تعالى، وهو من مجدِّدي هذه الأُمَّة المحمَّديَّة، جدَّد لها أمر دينها، وجدَّد لها الطَّرِيقَ الصَّوفيَّةَ عامَّةً، والطَّريقة الرَّفَاعيَّةَ خاصَّةً. وهو على الرَّغم من ذلك كان فردًا في معرفته بالله، حتَّى أنَّه قال عن نفسه رضي الله عنه: نُعِبْتُ بغريب الغرباء. رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته وأمَّدنا بمدده الفياض.

3- الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ النَّدَوِيِّ، عليّ بن عبد الحيّ بن فخر الدِّين الحسنيّ⁽¹⁾، شيخ الهند المعروف، وهو من علماء الصَّوفيَّة المعاصرين، كان شيخه ومربِّيه الرَّوحي الشَّيْخُ عبد القادر الراي بوري، وهو من كبار أئمَّة النَّصوّف في هذا العصر⁽²⁾.

قال عنه الشَّيْخُ القرضاوي رحمه الله: "لقد كان الشَّيْخُ النَّدَوِيُّ من الأفضال الذين بعثهم الله لهذه الأُمَّة؛ ليجدِّدوا لها دينها، ويعيدوا إليها يقينها، وينهضوا بها لتؤدِّي رسالتها"⁽³⁾.

وقد نشط الشَّيْخُ بالدَّعوة إلى الله تعالى، وارتحل كثيرًا في سبيل ذلك، "لقد كان الشَّيْخُ النَّدَوِيُّ مطلقًا على مشكلات أُمَّته الإسلاميَّة، وقد طوَّف بها في رحلاته، وخالط علماءها وأدباءها وقادتها وزعماءها، وحاضر في جوامعها وجامعاتها، وخاطب خاصَّتها وعامَّتها، وعرف ما تعانيه الأُمَّة من أمراض وأدواء"⁽⁴⁾.

للشَّيْخِ أَبِي الحَسَنِ النَّدَوِيِّ العديد من المؤلِّفات القيِّمة، ومن أشهرها: كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، وكتاب (ربَّانية لا رهبانيَّة)، وكتاب (المسلمون في الهند).

"وقد القى الشَّيْخُ محاضرات قيِّمة في جامعة دمشق، نشرت لاحقًا باسم: (رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام)، التي تناول فيه الشَّيْخُ التَّاريخ تناوُلًا جديدًا، وبين أنَّ من سنن الله تعالى أن يظهر في كلِّ عصر المجدِّد الذي تحتاج إليه الأُمَّة؛ ليسدَّ ثغرة في بنيانها لا يسدّها سواه، وعلى هذا الأساس تكلم

(1) الزركلي، الأعلام، 30/4، أشار له في ترجمة أخيه عبد العليّ.

(2) النَّدَوِيُّ، أبو الحسن، عليّ بن عبد الحي، ت1999م، ربَّانية لا رهبانية، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1386هـ/1966م، ص30. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: النَّدَوِيُّ، ربَّانية لا رهبانية.

(3) القرضاوي، يوسف، ت2022م، الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ النَّدَوِيُّ كما عرفته، دار القلم، دمشق، 2001، مقدمة الكتاب. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: القرضاوي، الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ النَّدَوِيُّ.

(4) القرضاوي، الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ النَّدَوِيُّ، ص112.

عن عمر بن عبد العزيز، وعن الحسن البصري، وعن الغزالي، وعن عبد القادر الجيلاني، وعن جلال الدين الرّومي، وغيرهم⁽¹⁾.

4- شيخ الإسلام الدكتور عبد الحليم محمود² (1328هـ/1910م - 1397هـ/1978م).

هو الإمام شيخ الإسلام الحبر الربّاني شيخ الأزهر، كان رضي الله عنه إمامًا جامعًا، وعالمًا ربّانيًا، شاذليّ الطريقة، تلقّى الطريقة الشاذليّة عن الشّيخ عبد الفتّاح القاضي.

نال الشهادة العالمية من الأزهر عام 1932م، ثم سافر إلى فرنسا في العام نفسه ودرس بجامعة السوربون في باريس علم النفس وعلم الاجتماع وتاريخ الأديان، وحصل على الشهادات العليا في كل من هذه التخصصات، ثم ناقش رسالته في الدكتوراه عام 1940م في السوربون أيضًا وكانت في التّصوّف، بعنوان (أستاذ السائرين: المحاسبي) وحصل على درجة الامتياز فيها.

ومن مآثره رضي الله عنه بناءؤه لضريح ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه. وله تصانيف كثيرة نافعة، معظمها في التّصوّف وتراجم نبلاء الصّوفيّة.

كان رضي الله عنه محبوبًا جدًّا عند عامّة الشعب، وكان لا يخاف في الله لومة لائم، قولًا للحقّ، أمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر؛ وقد يعارض ولاية الأمور أنفسهم إذا رآهم قد مالوا عن جادة الصّواب.

شغل منصب وزير الأوقاف وشؤون الأزهر عام 1971م، وعيّن شيخًا للأزهر عام 1973م. ولم يكن دوره كشيخ للأزهر ليصرفه عن همّه في الدّعوة إلى الله، فقد سافر في البلاد الإسلاميّة طولًا وعرضًا، مدرّسًا وداعيًا إلى الله، وقد أكرمه الله أن أعلن على يديه أربعة آلاف ماليزيّ وعشرة آلاف يابانيّ وما لا يُحصى من الأندونيسيين الإسلام أثناء زيارته لهذه البلاد، وقد ذكرت ذلك الصحف في حينه.

ومن الجدير بالذّكر أنّ ثلّة من أعلام الصّوفيّة الدّين اشتهروا بجهادهم ضد المستعمر، كان لهم إسهامات واضحة في نشر الإسلام والدّعوة إلى الله، مثل: الشيخ المجاهد عمر المختار، حيث "عمل في تشاد على نشر الإسلام، ودعوة النّاس وتربيتهم، إلى جانب جهاده ضد فرنسا"⁽³⁾.

والمقام لا يتّسع لإيفاء دعاة الصّوفيّة حقّهم، فدعوتهم إلى الإسلام وصلت الآفاق، ولقيت قبول جمع عظيم من الناس الذي دخلوا في دين الله أفواجا.

(1) القرضاوي، الشيخ أبو الحسن الندوي، ص171.

(2) الطعمي، محيي الدين، النور الأبهر في طبقات شيوخ الجامع الأزهر، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م، ص77. ومجلة الأزهر، عدد شوال/نو القعدة 1397هـ - أكتوبر/نوفمبر 1977م، ص1463.

(3) الأشهب، محمّد الطيّب بن إدريس، ت 1958م، عمر المختار، مكتبة القاهرة، مصر، 1958م، ص27. وسيشار إليه عند إعادته ذكره هكذا: الأشهب، عمر المختار.

المبحث الثاني: الآثار الأخلاقية.

إنّما النَّصُوفُ دعوة للتَّخَلِّي عن سيئِ الأخلاق، والتَّحَلِّي بكل خلق زكّي؛ فقد مرّ في الفصل السَّابِق تعريف الشَّيخ الكَتَّاني للتَّصَوُّف⁽¹⁾: "النَّصُوفُ خلق، فمن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في الصِّفاء"، ورحم الله العارف بالله ابن عطاء الله السَّكَنْدري؛ إذ قال في حكمه: "تَشَوُّفُكَ إِلَى ما بَطَّنَ فِيكَ مِنَ العيوب خَيْرٌ من تَشَوُّفِكَ إِلَى ما حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الغيوب"⁽²⁾.

وقد درج السَّادة الصَّوْفِيَّة على تربية مرديهم، ومتابعة دقائق نفوسهم وسلوكهم، وأقاموا الزَّوايا لذلك، فكان أهمّ ما تتصدَّر الزَّاوية له، تربية الفرد أخلاقياً وروحياً، وتنشئة ثلَّة مؤمنة تنشر خلق الإسلام في سائر أنحاء المعمورة.

والأخلاق إن لم تكن جِبَلَةً جُبِلَ عليها المرء فلا بدّ أن تكتسب اكتساباً، وهذا يتطلَّب الاحتكاك المباشر مع صاحب الخلق الحسن، ليتأثَّر المرید منه، كما أرشدنا الصَّادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: «لَا تُصَاحِبِ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا»⁽³⁾.

فالتَّطَبُّع يسرق من الطَّبع، قال الإمام الغزالي رحمه الله: "الطَّباع مجبولة على التَّشَبُّه والاقْتِدَاء؛ بل الطَّبع يسرق من الطَّبع من حيث لا يدري صاحبه"⁽⁴⁾.

وقد ألّف كبار السَّادة الصَّوْفِيَّة مؤلِّفات قيِّمة في الأخلاق، والتَّزَكِّيَّة، أهمّها وأشهرها:

1- الحكم العطائِيَّة، للعارف بالله أحمد بن محمَّد بن عطاء الله السَّكَنْدري، المتوفى 709 هجرية، وقد شرحها الكثير من علماء الأُمَّة مثل: العارف بالله أحمد بن محمد ابن عجيبة الحسني⁽⁵⁾ المتوفى سنة 1266هـ، وشرحها من العلماء المعاصرين الشَّيخ محمَّد سعيد رمضان البوطي، وله أيضاً في شرحها سلسلة دروس مسجَّلة.

(1) مرّ ترجمته وتعريفه للتَّصَوُّف ص5

(2) ابن عجيبة، أحمد بن محمَّد، ت1266هـ، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط3، 2010م، ص97. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن عجيبة، شرح الحكم العطائِيَّة.

(3) سنن التَّرمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في صحبة المؤمن، حديث رقم 2395، وقال: حديث حسن.

(4) الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمَّد، ت505هـ، إحياء علوم الدِّين، دار المعرفة، بيروت، 173/2. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الغزالي: إحياء علوم الدِّين.

(5) هو أحمد بن محمد بن المهدي الحسني الأنجزي، مفسِّر صوفي، من هبل المغرب، واسم تفسيره: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد - في أربعة مجلدات ضخام - وله كتب كثيرة أخرى. الزركلي، الأعلام، 1/245.

- 2- الوصايا، للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي⁽¹⁾، المتوفى سنة 638هـ.
- 3- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، للإمام بدر الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة⁽²⁾، المتوفى سنة 733هـ.

قال العلامة أبو الحسن الندوي متحدثاً عن صوفيّة الهند: "إنّ هؤلاء الصوفيّة كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص، واتباع السنّة والنّوبة عن المعاصي، وطاعة الله ورسوله، ويحذرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة والظلم والقسوة، ويرغبونهم في التّحلي بالأخلاق الحسنة، والتّخلي عن الرذائل؛ مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحبّ الجاه"⁽³⁾.

خلص الباحث إلى أنّ الحاجة ملحة في هذا العصر الذي طغى فيه ضجيج المادّة على الأخلاق والقيم إلى غرس الأخلاق في النفوس، والاعتناء بالروح وحاجاتها؛ لخلق نوع من التوازن في شخصيّة الفرد المسلم، يعينه في الثبات على الحقّ في مواجهة مغريات الحياة الدنّيا وفتنها.

(1) العارف الكبير محمد بن عليّ الحاتمي الطائي الأندلسي، ولد بمرسية، سنة ستين وخمسمئة، برزت عنه مؤلفات لا نهاية لها، تدلّ على سعة باعه، وتبحّره في العلوم الظاهرة والباطنة. ابن العماد، عبد الحي بن أحمد الحنبلي، ت1089هـ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1406هـ/1986م. 332/7. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن العماد، شذرات الذهب.

(2) قاضي القضاة، بدر الدين أبو عبد الله الكناني، مولده سنة 639 هـ بحماة، ولي قضاء القدس مدة ثم درس في القيصرية بدمشق، ثم ولي خطابة القدس وقضاءها ثانية، ثم نقل منها إلى قضاء القضاة بالديار المصرية وسار في القضاء سيرة حسنة. السبكي، طبقات الشافعية، 140/9. وقال عنه الذهبي: له مشاركة حسنة في علوم الإسلام مع دين وتعبّد وتصوّف وأوصاف حميدة، وله العقل التّام والخلق الرّضيّ، وهو أشعريّ فاضل". الذهبي، محمد بن أحمد بن قايماز، ت748هـ، معجم الشيوخ الكبير، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ط1، 1408هـ/1988م، 130/2 .

(3) الندوي، ربانية لا رهبانية، ص89.

المبحث الثالث: الآثار العلميّة.

لطالما اتَّهَمَ السّادة الصّوفيّة بجهلهم بالدّين، وعدم اشتغالهم واهتمامهم بالعلوم الشرعية، فسوّروهم خصومهم لعامة الناس على أنّهم مجرد دراويش لا يعلمون من دينهم إلّا نزرًا يسيرًا، وقد صدّق بعضُ الناس مثل هذه الشائعات بسبب تواضع علماء الصوفيّة، وأحوالهم العجيبة التي يجهلها العامّة ولا يدرون لها تفسيرًا.

ولكنّ الحقيقة أنّ الصّوفيّة أهل علم وفقه وأدب؛ ففيهم علماء أجلاء لا يُشَقُّ لهم غبار، وإنّ الشّيخ إذ يربّي مريده لا ينادى به عن القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة، وخير ما يُستدلّ به على ذلك: "أنّ أهمّ أعمال الزّوايا التّربية والتّعليم ... وإن كان هذا التّعليم يقتصر على الدّين واللّغة العربيّة والتّربية الرّوحية والخلفيّة، فإنّه القاعدة التي ترسو عليها حياة الفرد والمجتمع في هذه الزّوايا"⁽¹⁾.

وقد لعبت الزّوايا دورًا مهمًّا في نشر العلم بين النّاس جنبًا إلى جنب مع المدارس، وبخاصّة في الهند، يقول النّدوي رحمه الله: "الحقيقة أنّ الفضل في الحركة التّعليميّة والنّهضة العلميّة يرجع إلى تشجيع الصّوفيّة والمشايخ، إمّا مباشرة وإمّا بواسطة... نحن نرى المدرسة والزّاوية جنبًا إلى جنب في أكثر الأدوار"⁽²⁾.

إنّ علماء السّادة الصّوفيّة تركوا إرثًا علميًّا ضخماً، لا يستغني عنه طالب علم، ومن أشهر هؤلاء العلماء على سبيل المثال لا الحصر:

1- الإمام البيهقي المحدث⁽³⁾.

هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، وهو الحافظ العلامة الثّبت الفقيه شيخ الإسلام، ولد سنة 384هـ، في شعبان، سمع من الحاكم أبي عبد الله الحافظ⁽⁴⁾، فأكثر جدًّا، ومن عبد الله بن يوسف الاصبهاني، ومن أبي عليّ الروذباري، وأبي عبد الرحمن السّلمي، وأبي بكر بن فورك المتكلّم.

(1) جاب الله، طيب، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، بحث محكم في مجلة معارف (مجلة علمية محكمة) كلية العلوم الاجتماعية، جامعة البويرة، الجزائر، السنة الثامنة، أكتوبر 2013م، العدد 14. ص 147.

وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: جاب الله، الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري.

(2) النّدوي، ربّانيّة لا رهبانيّة، ص100.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 163/18. الزركلي، الأعلام، 116/1.

(4) هو أبو عبد الله الحاكم، محمّد بن عبد الله بن محمد بن حمديّه، ولد سنة 321هـ، وتوفّي عام 405هـ، كتب عن نحو ألفي شيخ وقرأ القراءات على جماعة، وبرع في معرفة الحديث وفنونه، وهو ثقة حجة. ابن العماد، شذرات الذهب، 33/5.

رحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما، ثم عاد إلى نيسابور، وأقام فيها إلى أن توفي عام 1458هـ، ونقل ودفن ببیهق مسقط رأسه عن عمر يناهز 74 عامًا.

وكان رحمه الله قانعًا باليسير، متجملًا في زهده وورعه، وقد نقل الذهبي عن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني قوله: ما من فقيه شافعي إلا وللشافعي عليه منة إلا أبا بكر البيهقي، فإن المنة له على الشافعي في نصرته مذهبه.

وقد بورك له في علمه، وصنّف التّصانيف النّافعة الكثيرة، منها:

- 1- السنن الكبير، في عشر مجلّدات، قال عنه الإمام الذهبي ليس لأحد مثله، وهو مطبوع في الهند، مطبعة دائرة المعارف النّظامية في حيدرآباد، سنة 1344هـ.
- 2- دلائل النّبوه، في أربع مجلّدات، وهو مطبوع.
- 3- شعب الإيمان، في ثلاثة مجلّدات، وهو مطبوع.
- 4- المبسوط في علم الشّافعيّة، قال عنه صاحب كشف الظّنون⁽¹⁾: من أعظم كتبه قدرًا، وأبسطها علمًا، جاء في عشّوين مجلّد، وهو مخطوط.

2- الشيخ عبد الوهّاب الشّعراي⁽²⁾.

هو عبد الوهّاب بن أحمد بن علي الحنفي، نسبة إلى محمّد بن الحنفية، من علماء المتصوّفين، ولد في قلقشندة بمصر عام 898هـ، ونشأ بساقية أبي شعرة من قرى المنوفيّة، وإليها نسبته، الشّعراي ويقال الشّعراوي، وتوفّي في القاهرة عام 973هـ، له تصانيف كثيرة منها:

أ- لوائح الأنوار في طبقات الأخيار، الذي يُعرف بطبقات الشّعراي الكبرى، وهو مطبوع.

ب- بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميّز به القوم من الآداب والأخلاق، وهو مخطوط بخط الشيخ.

ت- البدر المنير. في الحديث وهو مطبوع.

ث- الأنوار القدسيّة في معرفة آداب العبوديّة، وهو مطبوع.

ج- الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصّوفيّة، مخطوط.

وغيرها الكثير، وذكر الزّركلي عددًا كبيرًا منها.

(1) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، ت 1067هـ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، وكالة المعارف، اسطنبول، 1360هـ/1941م، 2/1582.

(2) الزركلي، الأعلام، 4/180.

3- الشيخ يوسف النّبّهاني⁽¹⁾.

هو يوسف بن إسماعيل بن يوسف النّبّهاني: شاعر، أديب، من رجال القضاء. نسبته إلى بني نيهان من عرب البادية بفلسطين، استوطنوا إجزم التابعة لمدينة حيفا في شمالي فلسطين، وبها ولد عام 1265هـ/1849م، وتعلّم في الأزهر بمصر ما بين عامي 1283-1289م. وتقلّ في أعمال القضاء إلى أن كان رئيساً لمحكمة الحقوق ببירות، وسافر إلى المدينة المنورة مجاوراً. وبعد أن نشبت الحرب العالميّة الأولى عاد إلى قريته، وتوفّي بها عام 1350هـ/1932م، له تصانيف كثيرة في مواضيع متنوّعة، منها:

أ- حجّة الله على العالمين. في المعجزات النّبويّة، وهو مطبوع.

ب- وسائل الوصول إلى شمائل الرّسول، وهو مطبوع.

ت- أفضل الصّلوات على سيّد السّادات، وهو مطبوع.

ث- الشّرف المؤبّد لآل محمّد، وهو مطبوع.

ج- الأساليب البديعة في فضل الصّحابة وإقناع الشّيعة، وهو مطبوع.

4- الشيخ محمد متولي الشعراوي⁽²⁾

ولد في 1911م في قرية دقادوس، بمصر، عالم ومفسّر معاصر، امتاز بالذكاء الشديد، حصل على العالمية من الأزهر مع إجازة التّدريس سنة 1942م، وعين وزيراً للأوقاف وشؤون الأزهر عام 1976م، وكان عضواً في مجلس الشورى سنة 1980م، وعضواً في مجمع اللغة العربية سنة 1987م، له مؤلّفات عديدة، ودروس علميّة كثيرة مبنوثة في الشّبكة العنكبوتيّة في تفسير القرآن الكريم. توفي سنة 1998م، رحمه الله تعالى، ونفعنا بعلمه.

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ الشعراوي سمّى تفسيره للقرآن الكريم (خواطر) وهذا تواضعاً منه رضي الله عنه، فقد نجح أيما نجاح في تيسير فهم الذكر الحكيم على العامة فضلاً عن الخاصّة.

لا يزال مشايخ الصّوفيّة وتلاميذهم يطلبون العلم طلباً حثيثاً، فينتسبون إلى الجامعات الشّرعية في دولهم، ويحوزون الشهادات العليا في مختلف العلوم الشّرعية، وقد توسّع نطاق تدريسهم مع اضمحلال دور الرّوايا، فباتوا يدرّسون في الجامعات والكليّات والمساجد، وأصبح مريدوهم بالآلاف مع انتشار الثورة التكنولوجيّة؛ إذ بات الطّالب ينهل من أساطين علماء الصّوفية المعاصرين وهو في بيته ومتجره.

(1) الزركلي، الأعلام، 218/8 وما بعدها.

(2) الصالحي، مدرسة الشيخ الشعراوي في التفسير، ص 172 وما بعدها.

المبحث الرابع: الآثار الاجتماعية.

إلى عهد قريب كانت الصّوفيّة هي السّمة السائدة في المجتمعات الإسلاميّة جميعها، فانتشرت الرّوايا ومقامات الصّالحين في كلّ مدن العالم الإسلاميّ وقراه، وكان لهذه الرّوايا دوراً اجتماعيّ مهمّ في ترابط هذه المجتمعات وتواؤمها. وهذا المبحث يشتمل على استعراض أثر الصّوفيّة في بعض هذه المجتمعات:

1- أثر الصّوفيّة في المغرب العربيّ الإسلاميّ:

يقول الدّكتور جاب الله طيّب: "إذا نظرنا من النّاحية الاجتماعيّة فنجد أنّ زوايا الطّرق الصّوفيّة في الجزائر عملت على إزالة الخلافات بين مختلف فئات المجتمع، وفكّ النّزاع بين العشائر والقبائل، وظهر ذلك بكثرة في المدن والأرياف، والتي بدورها تؤدي دوراً اجتماعيّاً؛ كإيواء العجزة والمساكين والغرباء؛ وليكون بذلك الشّيخ الذي يتّأسر أو يمثّل الرّواية أو الطّريقة هو بمثابة المسؤول والحاكم بين أفراد المجتمع، ويفصل في جميع القضايا والخلافات الاجتماعيّة، بالإضافة إلى الدّور التّربوي الذي يقدّمه كذلك من تعليم السّكان؛ وهذا ما جلب له التأييد والطّاعة المطلقة"⁽¹⁾.

وقد ظهر في الجزائر ما يُطلق عليه زوايا المرابطين، والتي كان لها دور اجتماعيّ بارز، فقد أنشأت "لاستقبال الغرباء والبؤساء والمحرومين الذين يبحثون عن ملجأ، أو هو مكان للزّوار الذين يأتون لتقديم الصّدقات، والمسافرين المقطوعين والمشردّين، وهذا النّوع من الرّوايا موجود لدى العائلات القديمة، ومن ثمّ نرى الصّلة بينها وبين الجهاد والعلم وخدمة الفقراء والغرباء"⁽²⁾.

وظهرت الطّريقة السنوسية في ليبيا كحركة روحية مهتمة بجوانب الحياة الاجتماعيّة المختلفة: يقول صاحب كتاب السنوسية دين ودولة: "اختلفت الطّريقة السنوسية عن الطّرائق السّابقة في أنّ أتباعها ما كانوا ينشدون العزلة فقط لكي يتفرّغوا للعبادة وذكر الله... بل إنهم كانوا يحرصون على العناية بأمر دنياهم لصالح إحياء العالم الإسلاميّ"⁽³⁾.

(1) جاب الله، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، ص 133.

(2) سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثّقافي، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1، 1998م، 26/4.

(3) شكري، السنوسية دين ودولة، ص10.

2- أثر الصوفيّة في الهند:

برز دور الطّرق الصّوفيّة في المجتمع الهنديّ بشكلٍ جليّ، فعلى يديهم دخل الدّين إلى الهند، وقد أفرد العلامة النّودي في كتابه (ربانيّة لا رهبانيّة) فصلاً أسماه: دور الصّوفيّة الإصلاحي في الهند وتأثيرهم على المجتمع⁽¹⁾، ذكر فيه أمثلة لطائفة من مشايخ التّصوّف كان لهم دورٌ بارزٌ في مجتمعاتهم. منهم السيّد أحمد الشهيد⁽²⁾، " فكان تأثيره الدّيني والاجتماعيّ مثال لهذا التأثير والنّفوذ في المجتمع والحياة، فقد ذكر المؤرّخون أنّه لما أقام مع أصحابه في كلكتة، في طريقه إلى مكّة المعظمة، فاشتغل هو وأصحابه من العلماء ... بالوعظ والتّذكير... كان تأثير هذه المواعظ ودخول النّاس في الدّين وانقيادهم للشرع أن تعطلت تجارة الخمر في كلكتة -وهي كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز- كسدت سوقها، وأقفرت الحانات، واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة، متعلّلين بكساد السّوق، وتعطلت تجارة الخمر"⁽³⁾.

وكسائر الرّوايا في العالم الإسلاميّ، كان للرّوايا في الهند دورها الحاضر في إيواء آلاف النّاس وإطعامهم، ولم تكن هذه الخدمات مقتصرة على أتباعها، بل لكل وافد وزائر⁽⁴⁾.

3- دور الصّوفيّة في المجتمع الفلسطيني:

لطالما كان المجتمع الفلسطينيّ متقارباً مع شيوخ الطّرق الصّوفيّة، كلٌّ مع أهل قريته أو مدينته، وممن يقطنون بالقرب من زاويته، وكان لهؤلاء المشايخ ومريديهم دورٌ مهمٌّ في ترابط المجتمع الفلسطيني وإفشاء روح المحبّة والتّعاون فيهم.

ومن الأمثلة على هؤلاء الصّالحين الشّيخ محمّد هاشم البغدادي⁽⁵⁾ رحمه الله؛ إذ كان له "دورٌ مهمٌّ في المجتمع الفلسطينيّ منذ الصّغر في الدّعوة إلى الله ومحاربة العصبية التي كان يثيرها المحتلّ بين النّاس، لنشر العداوة والبغضاء، والأخذ بالثأر؛ ممّا يجعل المجتمع مفكّكاً بدلاً من الوحدة والائتلاف

(1) النّودي، ربانيّة لا رهبانيّة، ص 87.

(2) شيخ طريقة وزعيم روحي، وقائد ومجتهد هندي، ومصالح كبير في القرن الثالث عشر، (1201-1246 هـ)، وللشّيخ النّودي مؤلف مستقلّ عن حياة الشّيخ بالغة الأورديه في مجلدين ضخمين. النّودي، ربانيّة لا رهبانيّة، ص 93+106.

(3) النّودي، ربانيّة لا رهبانيّة، ص 39.

(4) النّودي، ربانيّة لا رهبانيّة، ص 101.

(5) هو الشّيخ محمد هاشم بن السيّد حسن البغدادي القادري، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما، ولد علم 1329 هـ الموافق 1909م، في القدس بفلسطين، وكان شيخ الطريقة القادرية في القدس، صاحب كرامات ومؤلّفات نافعة، لبيّ نداء ربّه عزّ وجلّ يو الثّلاثاء 23 ذي الحجة، سنة 1415 هـ، الموافق 1995/5/23م. البغدادي، محمد هاشم، رسالة دستور الولاية ومراقي العناية، مطبعة النصر، نابلس، ط1، 1407 هـ، 3/1. الصّالحي، الطريقة القادرية في فلسطين، ص 77.

في مواجهة أعداء هذا الدين... ولقد بذل الشيخ جهودًا مخلصًا في النصح لله عزّ وجلّ وتأليف قلوب الناس⁽¹⁾.

وقد نشط الصّوفية في المجتمع الفلسطيني؛ فشاركوا الناس مناسباتهم الاجتماعيّة، من زواجٍ، وعزاءٍ، وعبادة مريضٍ، واستقبال الغائبين، وتوديع الحجاج والمسافرين، وتقعد الأيتام⁽²⁾. وكانت أفضل الأعمال عند الشيخ عبد القادر إطعام الجياع، حيث يقول: فتشت الأعمال كلها فلم أجد أفضل من إطعام الطعام؛ أوّد لو أنّ الدنيا في يدي لأطعمها للجياع⁽³⁾. وكان للصّوفيّة دور بارز أيضًا في مدينة الخليل، من خلال الزّوايا الكثيرة، ومنها زاوية أبي الرّيش، وكانت تُعرف سابقًا باسم (رباط مكي) أو (رباط مكة) وتقع على الطرف الشمالي للشارع الرّئيسي للمدينة.

يتبيّن مما سبق من الأمثلة دور الطّرق الصّوفيّة الفاعل في المجتمع، ويلاحظ تشابه الدّور الذي قامت به الزّوايا على امتداد العالم الإسلاميّ، وأثر أصحاب النفوس المزكّاة في بث روح المحبّة والتّعاون في المجتمعات الإسلاميّة، مما جعل صفة التّرابط والتّماسك سمة لا تتفكّ عن مجتمعاتنا.

(1) الصالحي، الطريقة القادرية في فلسطين، ص 147.

(2) الصالحي، الطريقة القادرية في فلسطين، ص 142.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 447/20.

المبحث الخامس: الآثار الجهادية.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: 111].

إن من أعلى مقامات اليقين والإيمان أن يقدم الإنسان نفسه رخيصة في سبيل الله تعالى، فجعل الله تعالى الجهاد ذروة سنام الإسلام. وعلى خطى العلماء العاملين، برز من أعلام الصوفية قادة مجاهدون، كان لهم الفضل العظيم في تحرير بلادهم ومقارعة الاستعمار الأجنبي، وإحياء روح الجهاد في الأمة، ومن أشهرهم في عصرنا الحديث:

1- الشيخ المجاهد عمر المختار.

هو عمر بن مختار بن عمر المنفي، ولد في البطان ببرقة عام 1275هـ/1858 م، واستشهد شنقاً في مركز سلوق في بن غازي عام 1350هـ/1931م⁽¹⁾.

عهد والده قبل وفاته إلى شيخ زاوية جنزور - الواقعة شرق طبرق - بتربيته وأخيه محمد، فتولى الشيخ حسين الغرياني رعايتهما محققاً رغبة والديه، فأدخلهما مدرسة القرآن الكريم في الزاوية، ثم ألحق عمر المختار بالمعهد الجغبوبي؛ لينضم إلى طلبة العلم من أبناء الإخوان والقبائل الأخرى⁽²⁾.
"وقد عهد إلى الشيخ عمر المختار ليقوم بأعمال شيخ زاوية القصور... بعد وفاة شيخها الأول الشيخ مبخوت التواتي عام 1320هـ/1902م"⁽³⁾.

وقد تولى الشيخ عمر المختار قيادة المجاهدين ضد الاستعمار الإيطالي، "فقد أسهم الشيخ مع زملائه من شيوخ الزوايا وأعيان القبائل والضباط العثمانيين في تنظيم حركة الجهاد والمقاومة في جميع أنحاء برقه"⁽⁴⁾.

فحين استولى الإيطاليون على مناطق واسعة من ليبيا، كان الشيخ عمر في مصر، وأراد العودة إلى بلاده لقيادة المجاهدين، " فاجتمع به مشايخ قبيلته الموجودون في مصر، وحاولوا أن يثنوه عن عزمه، بدعوى أنه قد بلغ من الكبر عتياً... وأن باستطاعة السنوسية أن تجد قائداً غيره لتزعّم الثورة والجهاد، فغضب المختار غضباً شديداً وقال: إن كل من يقول لي هذا الكلام لا يريد خيراً لي؛ لأن ما

(1) الزركلي، الأعلام، 65/5.

(2) الأشهب، عمر المختار، ص26.

(3) الأشهب، عمر المختار، ص36.

(4) الأشهب، عمر المختار، ص44.

أسير فيه هو طريق خير، ولا ينبغي لأحد أن ينهاني عن سلوكها، وكلّ من يحاول ذلك فهو عدوّ لي" (1).

رحم الله شيخ المجاهدين سيدي عمر المختار، وجزاه الله عن أمة نبينا محمد خير الجزاء.

4- الشيخ المجاهد عزّ الدين القسام.

"هو محمد عزّ الدين بن عبد القادر القسام، ولد عام 1300 هـ/1882م، مجاهد من أسرة كريمة في جبلة (من أعمال اللاذقية)، تعلّم في الأزهر بمصر، وتوفّي عام 1354هـ/1935م" (2).

وكان والده صاحب طريقة صوفيّة تسمّى القاديّة... ورثها عن أبيه، وقد نقلها أبوه من العراق حيث موطنه الأصلي" (3).

وقال صاحب الأعلام الشّرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية أنّ الشّرخ عزّ الدين القسام كان شيخ الزاوية الشاذليّة في جبلة (4)، وبعد أن أنهى تعليمه في الأزهر الشّريف "عاد إلى وطنه واشتغل بالعلم والتدريس والوعظ والإرشاد" (5).

ولم يكن ذلك ليمنع الشّرخ عزّ الدين من تلبية واجب الجهاد حينما احتلّ الجيش الفرنسي السّاحل السوريّ عام 1918، فكان أوّل من رفع راية المقاومة وأوّل من حمل السّلاح في وجهها (6)، واستمرّ في مقارعة المحتلّ الفرنسيّ، وبتّ روح الجهاد في أبناء سوريا إلى أن حُكم عليه بالإعدام غيابياً، فاضطرّ إلى مغادرة ساحة القتال إلى ساحة أخرى (فلسطين) في عام 1920م (7)، ممتثلاً لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: 16].

بدأ الشّرخ عزّ الدين القسام نشاطه الجهاديّ في حيفا في مسجد الاستقلال بالوعظ والإرشاد، "فراح الشّرخ في اجتماعاته وحلقاته يشرح لأتباعه ومريديه الخطر الذي يهدّد وطن الإسلام؛ حيث أولى القبلتين، وثالث المسجدين، وموطن الإسراء والمعراج، ويبيّن كيد الإنجليز أعداء الإسلام، وأنّ هذا

(1) شكري، السنوسية دين ودولة، ص 271.

(2) الزركلي، الأعلام، 267/6.

(3) شراب، محمد حسن، عز الدين القسام شيخ المجاهدين في فلسطين، دار القلم، دمشق، ط1، 1421هـ،/2000م، ص33. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: شراب، عز الدين القسام.

(4) مجاهد، زكي محمد، الأعلام الشّرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1949-1963م، 349/1، رقم الترجمة 454. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: مجاهد، الأعلام الشّرقية.

(5) مجاهد، الأعلام الشّرقية، 349/1، رقم الترجمة 454.

(6) شراب، عز الدين القسام، ص 101.

(7) شراب، عز الدين القسام، ص 108.

الخطر قد استغل ولم يعد يدفع إلا بالجهاد، وأنَّ الجهاد فريضة الله على عباده"⁽¹⁾، "معتمدًا على عناصر مخلصه من الفلاحين والعمّال القاطنين مدينة حيفا، ومن باقي عناصر وفئات الشعب"⁽²⁾. انتقل الشّيخ من مرحلة التّعبئة المعنويّة التي استمرّت ما يقارب سبع سنوات إلى الجهاد الفعليّ بعد حادث البراق عام 1928⁽³⁾، فحاض معارك كثيرة ضدّ الإنجليز، كان آخرها معركة يعبّد التي استشهد فيها الشّيخ ورفاقه عام 1935، ودفن في حيفا⁽⁴⁾.

وعلى الرّغم من مضيّ سنوات طويلة على استشهاد الشّيخ لا تزال فكرته وتضحياته منارة للشّعب الفلسطينيّ إلى يومنا هذا؛ فتجدهم يسمّون أبناءهم باسمه تارةً، ويتمسّون دربه في الجهاد تارةً أخرى. رحم الله الشّيخ عزّ الدّين القسام، وجزاه الله عن أهل فلسطين خير الجزاء.

تبيّن للباحث مما سبق، أنّ للصوفيّة دورًا فاعلاً في الجهاد ينفي عنهم الشّائعات التي تناقلها الناس دون تتبّت أو مناقشة علمية من أنّهم دراويش لا يهتمّون بالجهاد وقضايا أمّتهم، وقد دافع عنهم الشّيخ أبو الحسن النّدويّ رحمه الله، فقال: "ولمّا هجم الغزاة الصّليبيّون على العالم الإسلاميّ في القرن التّاسع عشر، هبّ لمقاومتهم المسلمون من كلّ ناحية من نواحي العالم الإسلاميّ، وكان فيهم عدد كبير من شيوخ الطّريقة، ورجال التّصوّف"⁽⁵⁾.

"ولقد كان لمدرستي الغزالي والجيلاني رضي الله عنهما أعظم الأثر في جيش صلاح الدّين الأيوبي رحمه الله؛ حيث تربّى الجيش على هاتين المدرستين، وكانت النّتيجة فتح بيت المقدس"⁽⁶⁾. وختامًا فلا يمكن للباحث إغفال تراجع دور الصّوفيّة على السّاحة الجهاديّة في يومنا هذا، مع أنّ منهجهم من أفضل المناهج لإعداد مقاتلين أشداء، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

-
- (1) الشقيري، أحمد، أربعون عامًا في الحياة العربيّة والدّوليّة، دار النّهار للنّشر، بيروت، 1969م، ص256.
- (2) حمودة، سميح، دراسة في حياة وجهاد الشّيخ عزّ الدّين القسام، جمعية الدراسات العربيّة، القدس، ط2، 1986م، ص41. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: حمودة: الشّيخ عزّ الدين القسام.
- (3) حمودة: الشّيخ عزّ الدين القسام، ص54.
- (4) الزركلي، الأعلام، 267/6.
- (5) النّدوي، ربانية لا رهبانية، ص111.
- (6) مقابلة مع الدّكتور عمر الصّالحي، خادماً الطّريقة القادرية، بتاريخ 2024/4/19م، في مسجد مخيم شعفاط، القدس. وسيشار إليها عند إعادة ذكرها هكذا: مقابلة مع الدّكتور عمر الصّالحي. والشّيخ عمر الصّالحي أشعري العقيدة، حنفي المذهب، قادري الطّريقة. من مواليد مدينة القدس عام 1957م، درس في مدارس القدس حتى الثّانوية العامّة، وحصل على شهادة الليسانس من أزهر مصر عام 1980م، وكان الأوّل على دفعته، وحصل على درجة الماجستير والدكتوراة في التفسير وعلم القرآن، وهو إمام وخطيب مسجد أبي عبيدة في مخيم شعفاط، وله العديد من المؤلفات العلميّة النّافعة، منها: عظم المنة في رفع الحرج عن هذه الأمّة، وإثبات نبوة سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم بالدليل العقلي والنقلي، وهما مطبوعان، وله تفسير للقرآن الكريم أسماه تاج التّفسير وهو مخطوط.

إن آثار الصوفيّة في الحياة الإسلاميّة واضحة وضوح الشّمس في رابعة النّهار، ولا يمكن لذي لبّ أن يماري فيها، فلطالما تصدّر السّادة الصّوفيّة جميع ميادين الحياة، فأبدعوا وتركوا آثارًا مباركة، فأحبّهم النّاس، ورأوا فيهم قادة يلتفتّ حولهم، إذ لامسوا صدقهم وإخلاصهم وأنّهم طلاب آخرة، لا يرون الدنيا إلا كما وصفها الله في كتابه: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيغُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا^ط وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ ﴿ [الحديد:20].

الفصل الثالث: التفسير الإشاري

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: تعريف التفسير الإشاري لغةً واصطلاحًا.
- المبحث الثاني: أدلة التفسير الإشاري من الكتاب والسنة.
- المبحث الثالث: شروط قبول التفسير الإشاري.

الفصل الثالث:

التفسير الإشاري:

تفسيرًا الشيخين الجليلين الجيلاني والقشيري، رضي الله عنهما، هما من أبرز التفسيرات الإشارية، لذلك كان لزامًا توضيح معنى التفسير الإشاري، وبيان أدلته من الكتاب والسنة النبوية. "اختلف العلماء في التفسير الإشاري، وتباينت فيه آراؤهم؛ فمنهم من أجازها، ومنهم من منعه، ومنهم من عدّه زيفًا وضلالًا وانحرافًا عن دين الله تعالى، والواقع أنّ الموضوع دقيق، يحتاج إلى بصيرة ورويّة، وغوصٍ إلى أعماق الحقيقة؛ ليظهر إذا ما كان الغرض من هذا النوع من التفسير هو اتباع الهوى، والتلاعب بآيات الله كما فعل الباطنية، فيكون ذلك زندقةً وإلحادًا، أو الغرض منه الإشارة إلى أنّ كلام الله تعالى لا يحيط به بشرٌ؛ لأنّه كلامٌ خالق القوي والقُدّر، وأنّ لكلامه مفاهيمًا وأسرارًا وعجائب لا تتقضي، فيكون ذلك من محض العرفان وكمال الإيمان"⁽¹⁾.

ويقول الإمام السيوطي رحمه الله: "اعلم أنّ التفسير من هذه الطائفة - يعني التفسير الإشاري - لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني العربية ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكنّ ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له، وما دلّت عليه في عرف اللسان، ولهم أفهام باطنة، تُفهم عند الآية أو الحديث لمن فتح الله قلبه، فلا يصدّنك عن تلقّي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى

(1) حمزة، عمر يوسف، أصول التفسير ومناهجه، مكتبة الأقصى للنشر والتوزيع، الدوحة، قطر، ط2، 1415هـ/1995م، ص 214.

للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك؛ بل يُقَرُّون الظواهر على ظواهرها، مرادًا بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما ألهمهم" (1).

وفي هذا الفصل سيعرّف الباحث التفسيرَ الإشاريَّ، ويبين أدلته من الكتاب والسنة النبوية الشريفة، ويذكر شروط قبوله.

المبحث الأول: تعريف التفسير الإشاري لغةً واصطلاحًا:

أولاً: تعريف الإشارة لغةً:

جاء في لسان العرب: "أشار إليه وشورَ أوماً، يكون ذلك بالكف والعين وبالحاجب. وشورَ إليه بيده أي أشار... والمُشيرَةُ هي الإصبع التي يقال لها السبابة، ويقال للسبابتين المشيرتان، وأشار عليه بأمر كذا، أمره به" (2).

وفي المعجم الوسيط: "الإشارة تعيين الشيء باليد ونحوها، والتلويح بشيء يفهم منه المراد" (3). يتبين ممّا سبق ذكره أن الإشارة هي لفت انتباه الناظر بإشارة حسية غير لفظية، أي بالكف أو العين ونحوه.

ثانياً: تعريف التفسير الإشاري اصطلاحًا:

عرّفهُ الشَّيْخُ الزُّرْقَانِيُّ رحمه الله، فقال: "هو تأويل القرآن بغير ظاهره، لإشارات خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوّف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد منها" (4).

أمّا الشَّيْخُ الصَّابُونِيُّ المفسّر المعاصر رحمه الله، فعرفه قائلاً: "التفسير الإشاري هو أن يرى المفسر معنى آخر غير معنى الظاهر الذي تحتمله الآية الكريمة، ولكنّه لا يظهر لكلّ إنسان، وإنما يظهر لمن فتح الله قلبه وأنار بصيرته، وسلكه في ضمن عباده الصالحين، الذين منحهم الله الفهم والإدراك، كما قال تعالى في قصة الخضر مع موسى، على نبينا وعليهما الصلاة والسلام: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ

(1) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت911هـ، الإتيقان في علوم القرآن، مطبعة الباب الحلبي، القاهرة، 1951م، 2/185.

(2) ابن منظور، لسان العرب، 4/437.

(3) أنيس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، مطبعة مصر، القاهرة، 1380 هـ، 1/499. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: المعجم الوسيط.

(4) الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، عيسى الحلبي، القاهرة، ط1، 2/78.

عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ [الكهف:65]، وهذا النوع من العلم ليس من العلم الكسبي الذي ينال بالبحث والمذاكرة، وإنما هو من العلم اللدني، أي الوهبي، الذي هو أثر التقى والاستقامة والصلاح، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٨٢﴾ [البقرة:282]»⁽¹⁾.

ويُفهم من تعريفي الشيخ الرزقاني والشيخ الصابوني للتفسير الإشاري أنه فيض رباني، يكرم الله به خاصة عباده، المتدبرين لكلامه، بما لا يناقض ظاهر النص.

(1) الصابوني، محمد علي، التبيان في علوم القرآن، مكة، ط2، 1400هـ/1980م، ص 169 وما بعدها. وسيشار إليه عند غعادة ذكره هكذا: الصابوني، التبيان في علوم القرآن.

المبحث الثاني: أدلة التفسير الإشاري من الكتاب والسنة وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أدلته من القرآن الكريم:

أقام الباحثُ عُمُرُ الصّالحيُّ في رسالته المقدّمة لنيل درجة الدكتوراه دليله على التفسير الإشاري بأن ساق أربعة أدلة من القرآن الكريم، وأحاديث كثيرة للرّسول صلى الله عليه وسلم تدلّ على ما ذهب إليه الصوفيّة من التفسير الإشاري، ونقل كلامًا نفيسًا وهذا تلخيصه⁽¹⁾:

1- ما ورد من آيات تبين أنّ من وراء الفهم الظاهر للقرآن فهماً باطنًا يعلمه من يتدبر القرآن ويفهمه من شرح الله صدره، وفقه عن الله مراده، ومن ذلك:

• قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]، وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 78]؛ فهذه الآيات تبين أنّ هنالك فهماً باطنًا مرادًا لله، يفهمه من يفقه كلام الله ويتدبره.

2- ما ورد من آيات تدل على اشتمال القرآن على كلّ شيء، واحتوائه على كلّ مفهوم، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: 111]، فإذا كان القرآن تبيانًا لكل شيء، وتفصيلا لكل شيء، فلا شك أنّ ظاهر اللفظ لا يحتمل ذلك؛ بل ثَمَّةُ فُهْمٍ باطنٍ، ومن هنا كان التفسير الإشاري.

3- قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282]؛ فالتقوى وسيلة للعلم والفهم الدقيق عن الله.

(1) الصالحي، عمر يعقوب، مدرسة الشيخ الشعراوي في التفسير، دار الأبرار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2009م، ص 155 وما بعدها. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الصالحي: مدرسة الشيخ الشعراوي في التفسير.

قال الألويسي رحمه الله في مقدّمة تفسيره: "لا ينبغي لمن له أدنى مسكة من عقل، بل أدنى ذرة من إيمان أن ينكر اشتغال القرآن على بواطن يفيضها الله تعالى على بواطن من شاء من عباده"⁽¹⁾.

4- قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83].

قال الغزالي في (الإحياء): "ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادّعى فهم اسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدّعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب، أو يدّعي فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك"⁽²⁾.

هذه الأدلة مجتمعة تفيد أنّ القرآن له ظهْرٌ وَبَطْنٌ، ظَهْرٌ يفهمه كُلُّ من يعرف اللسان العربي، وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصائر، غير أنّ المعاني الباطنية للقرآن لا تقف عند الحدّ الذي تصل إليه مداركنا القاصرة، بل هي أمر فوق ما نظنّ، وأعظم مما نتصوّر.

المطلب الثاني: أدلته من السنّة الشريفة:

أمّا أدلّتهم من السنّة المطهّرة فكثيرة، وهذه بعض منها:

1- ما رواه البخاريّ في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: "كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنّ بعضهم وجد من نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنّ من علمتم، فدعاني ذات يوم، فأدخلني معهم، قال: فما رأيت أنّه دعاني إلّا ليريهم، فقال عمر: ما تقولون في قوله تعالى: إذا جاء نصر الله والفتح؟ قال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذا تقول يا ابن عباس؟ قالت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه إياه، فقال: إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً، فقال عمر: ما أعلم منها إلّا ما تقول"⁽³⁾.

فهذا الفهم الذي فهمه عمُرُ بنُ الخطّاب وابنُ عباس رضي الله عنهما دون الصحابة وهو التفسير الإشاري الذي هو من قبيل الفهم الباطنيّ للقرآن، يلهمه الله من يشاء من عباده، فالسورة فيها إشارة إلى نعي النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولكنّه لم يرد ظاهراً في النّصّ.

(1) الألويسي، محمود بن عبد الله الحسيني، ت1270 هـ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، 1408هـ/1987م، 7/1 وما بعدها.

(2) الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد، إحياء علوم الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، 291.

(3) صحيح البخاري، باب قوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ، حديث رقم 4686.

2- ما ورد في الحديث "أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمًا، فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ" فبَكَى أَبُو بَكْرٍ. وفي رواية فقال: فديناك يا رسول الله بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له ببكي، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علمنا أنه كان هو المخير" (1).

فَقَهُمُ أَبِي بَكْرٍ لِنَعِيِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْحَدِيثِ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْفَهْمِ الْإِشَارِيِّ، أَلْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهُ دُونَ الصَّحَابَةِ.

3- عن ابن مسعود رضي الله عنه، رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل آية ظهر وبطن" (2). فهذا نص صريح في أصل المسألة.

4- أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى أبي جحيفة رضي الله عنه، قال: "قُلْتُ لِعَلِيِّ: هَلْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ، أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، أَوْ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قَالَ: قُلْتُ: فَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: الْعَقْلُ، وَفَكَأَنَّ الْأَسِيرَ، وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ" (3).

وهنا يظهر من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن الله سبحانه يختص بعضًا من عباده بفهم في القرآن دون سواهم.

5- دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما بقوله: "اللهم فقّهه في الدين، وعلمه التأويل" (4).

فهذه آثار تشير صراحة إلى أن في القرآن إشارات ومعانٍ خفية، يدركها أهل الذوق والمعرفة، وهذه الأحاديث يعضد بعضها بعضًا، فإذا انضمت إلى غيرها من الأدلة، زادت في حجتها، ولم يبق مجال لدفعها.

(1) صحيح البخاري، حديث رقم 466.

(2) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت 911، الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ، ط1، 54/3.

(3) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، حديث رقم: 111.

(4) مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم: 3033. وقال عنه الشيخ الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.

المطلب الثالث: عمل الصحابة رضي الله عنهم وأقوالهم.

اهتمّ الصحابة الكرام رضي الله عنهم بالتفسير الإشاري، فوصلنا عنهم مرويات تثبت ذلك، اختار الباحث منها ما ورد عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المثالين الآتين:

1- ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، فقال: «حدثنا محمد بن فضيل عن هارون بن أبي وكيع عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:3]، قال: يوم الحج الأكبر، قال: فبكى عمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك؟ قال: يا رسول الله، أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل قط شيء إلا نقص، قال: صدقت»⁽¹⁾.

يُلاحظ من المثال السابق أنّ سيدنا عمر رضي الله عنه النقط من الآية الكريمة إشارة مفادها أنّ الأمر إذا تمّ أخذ بالتقصان، وهذا الفهم أقره عليه الرسول صلى الله عليه وسلم .

2- عن ابن عباس قال: «كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ، فَدَعَا ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُبِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:1] فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا نَحْمَدُ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكْذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا نَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمُهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. وَذَلِكَ عَلَامَةٌ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:3] فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ»⁽²⁾.

في هذا المثال نصّ واضح على أن للقرآن الكريم ظاهر وباطن، فقد فهم منه عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهما معنى لم يفتن له كبار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، من أنّ الآية فيها إشارة لذكر أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(1) ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد العبسي الكوفي، ت ٢٣٥ هـ، المصنف، تحقيق: سعد بن ناصر، دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1436هـ/2015م، كتاب الزهد، باب ما ذكر عن نبينا صلى الله عليه وسلم في الزهد، 287/19. والحديث مرسل؛ أبو وكيع عن عنترة بن عبد الرحمن الشيباني تابعي وسيتم الإشارة إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن أبي شيبة، المصنف.

(2) صحيح البخاري، سورة إذا جاء نصر الله، باب قوله فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا، حديث رقم 4970.

المبحث الثالث: شروط قبول التفسير الإشاري.

هنالك شروط لا بدّ من توافرها في التفسير الإشاري ليكون مقبولاً، أوردها الدكتور صلاح الخالدي رحمه الله تعالى في كتابه (تعريف الدارسين بمناهج المفسرين)⁽¹⁾، وهي أربعة:

- 1- أن لا يكون التفسير الإشاري منافياً للظاهر من النظم القرآني.
- 2- أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.
- 3- أن لا يكون له معارض شرعي أو عقلي.
- 4- أن لا يدّعي أنّ التفسير الإشاري هو المراد وحده دون الظاهر، فلا بدّ أن نعتف بالظاهر أولاً. وأضاف الشيخ الصابوني شرطين مهمين، هما⁽²⁾:

- 1- أن لا يكون التأويل بعيداً سخيلاً لا يحتمله اللفظ؛ كتفسير الباطنية قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل:16] أي أنّ الإمام عليّاً ورث النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
- 2- أن لا يكون فيه تشويش على أفهام الناس.

"هذه هي الشروط التي إذا توافرت في التفسير الإشاري كان مقبولاً، ومعنى كونه مقبولاً، عدم رفضه، لا وجوب الأخذ به، أمّا عدم رفضه، فلأنّه غير منافٍ للظاهر، ولا بالغ مبلغ التعسف، وليس له ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية، وأمّا عدم وجوب الأخذ به فلأنّه من قبيل الوجدانيات، والوجدانيات لا تقوم على دليل، ولا تستند إلى برهان، وإنما هي أمر يجده الصوفي من نفسه، وسرّ بينه وبين ربّه، فله أن يأخذ به، ويعمل على مقتضاه، دون أن يلزم به أحد من الناس سواه"⁽³⁾. ويفصّل الدكتور مساعد الطيّار في شروط قبول التفسير الإشاري تفصيلاً ملفتاً، فيقول: "هذه الفوائد والإشارات على قسمين:

(1) الخالدي، صلاح عبد الفتّاح، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دار القلم، دمشق، ط6، 1440هـ/2019 م، ص 514. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الخالدي، تعريف الدارسين. وذكر في كتابه أشهر كتب التفسير الإشاري مثل تفسير القرآن العظيم، لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري، المتوفى سنة 273هـ. وحقائق التفسير، لأبي عبد الرحمن، محمد بن الحسين السلمي، المتوفى سنة 412 هـ. وعرائس البيان في حقائق القرآن، لأبي محمد، روزبهان ابن أبي النصر البقلي الشيرازي الصوفي، المتوفى سنة 606هـ. وتأويلات القرآن، المشهور بتفسير ابن عربي، مطبوع على هامش عرائس البيان السابق ذكره، وهو منسوب لابن عربي، محيي الدين، محمد بن علي الحاتمي الطائي الأندلسي، المتوفى في دمشق سنة 638هـ.

(2) الصابوني، التبيان في علوم القرآن، ص 177 وما بعدها

(3) الصالحي، مدرسة الشيخ الشعراوي في التفسير، ص 167.

القسم الأول: أن تكون هذه الفوائد والإشارات صحيحة بذاتها، لا تخالفُ أمراً من أمورِ الشريعة، وهي على قسمين من حيث ربطها بالآية:

أولاً: أن يكون الربط صحيحاً؛ أي: أن يكون بين الفائدة المذكورة والآية ارتباطاً بوجه ما. ثانياً: أن يكون الربط بالآية غير صحيح، فالكلامُ باستقلاله صحيح، ولكن ربطه بالآية خطأ؛ لأن الآية لا تدلُّ عليه.

القسم الثاني: أن تكون هذه الفوائد والإشارات غير صحيحةً بذاتها، لأنها تحملُ خطأً ما، وفي هذه الحال فإن ربطها بالآية خطأ قطعاً⁽¹⁾.

ورحم الله الإمام الألويسي المفسر، صاحب (روح المعاني)؛ إذ كان بعد أن ينهي كل ما يتعلّق بظاهر الآية من إعراب وقراءات وبلاغة ومرويات مأثورة، وأقوال بعض أئمة التفسير بالرأي، يختم الآية بالتفسير الإشاري لها. وكان الإمام الألويسي رحمه الله يقول لنا: من امتلك أدوات التفسير جاز له أن يأتي بما فتح الله عليه من تفسير إشاري، لأنه ساعته سيكون كلامه مضبوطاً بظاهر النص، وسيمنعه فهمه للظاهر من الإتيان بمخالفات تناقض أصل الدين، لأنه تمكّن من العلوم التي يحتاجها المفسر. قال الإسنوي رحمه الله: "إذا أشكل عليكم خطاب الله ورسوله من علم الإشارة فقيسوه بظاهر الكتاب والسنة؛ فإن في الظاهر أعلام الباطن"⁽²⁾.

بذلك يكون الباحث قد استعرض بإيجاز التفسير الإشاري من حيث معناه، وأدلته، وشروط قبوله.

(1) الطيار، مساعد سليمان، مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، ط2، 1427هـ، ص 176.

(2) الإسنوي، محيي الدين، حسين يوسف، التفسير الإشاري للقرآن، دراسة علمية تأصيلية، مطبوعات العشيرة المحمدية، القاهرة، ط1، 1415هـ، 1994م، ص 30

الباب الثّاني: الشّيخ عبد القادر الجيلاني ومنهجه العامّ في التّفسير
وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: ترجمة الشّيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه.

الفصل الثّاني: منهج الشّيخ عبد القادر الجيلاني في تفسيره.

الفصل الأول: ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه.
وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه وألقابه.

المبحث الثاني: مولده وأسرته.

المبحث الثالث: صفاته الخلقية والخُلُقِيَّة وكراماته.

المبحث الرابع: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته.

المبحث الخامس: عقيدته.

المبحث السادس: وفاته رضي الله عنه وبعض أقواله.

المبحث السابع: بعض أوراده.

الفصل الأول:

ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه:

في هذا الفصل يستعرض الباحث أهم جوانب حياة الشيخ عبد القادر الجيلاني من الولادة إلى الوفاة، وأهم صفاته الخلقية والخلقية، وبعض شيوخه وأوارده، رضي الله عنه.

المبحث الأول: اسمه ونسبه وألقابه.

هو "الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام محيي الدين، أبو محمد، عبد القادر بن أبي صالح عبدالله بن جنكي دوست"⁽¹⁾.

وهو سيد شريف من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، "وينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما"⁽²⁾، سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وريحانته من الدنيا.

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 439/20. صلاح الدين، محمد بن شاکر بن أحمد، ت764هـ، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1974م، 373/2. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: محمد بن شاکر، فوات الوفيات.

(2) ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف ، ت 874هـ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، 371/5 (ما وقع من الحوادث سنة 561هـ) وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة. الزركلي، الأعلام، 47/4.

ومن أشهر ألقابه رضي الله عنه وأرضاه: "عالم بغداد، وسيّد الزّهاد، والباز الأشهب¹، وإمام المتصوّفين"⁽²⁾.

المبحث الثاني: مولده وأسرته.

ولد رضي الله عنه بجيلان⁽³⁾، "وهي بلاد متفرّقة وراء طبرستان، ويقال لها كيلان، والنسبة إليها جيليّ، وجيلانيّ وكيلانيّ"⁽⁴⁾.

كان ذلك في عام إحدى وسبعين وأربعمائة⁽⁵⁾.

نشأ سيدي عبد القادر الجيلاني في بيت صلاح وزهد، فقد "كان أبواه من الزّاهدين في الدّنيا مع القدرة عليها، فكانا من أهل الصّلاح والديانة والشّفقة على الخلق"⁽⁶⁾.

" وتتألّف أسرته من والده الذي توفّي مبكرًا، تاركًا عبد القادر وأخاه عبد الله الذي كان يصغره، ونشأ عبد الله أخوه في جيلان ومات فيها شابًا"⁽⁷⁾. فقامت والدته الكريمة بتربيته وتنشئته وهي: "أمّ الخير، أمة الجبار"⁽⁸⁾، فاطمة بنت السيّد عبد الله الصّومعيّ الزّاهد، وينتهي نسبها إلى الحسين بن علي على نبيّنا وعليهما الصلاة والسّلام"⁽⁹⁾.

(1) الباز الأشهب: لقب صوفي يطلق على من له صفة الغوث مثل عبد القادر الجيلاني، وهو نوع من أنواع الطيور الجارحة. المعجم العربي الأساسي، ص 128.

(2) الصلابي، علي محمد، العالم الكبير والمربي الشهير الشيخ عبد القادر الجيلاني، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م، ص216، وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الصلابي، الشيخ عبد القادر الجيلاني.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 439/20.

(4) الحموي، ياقوت بن عبد الله، ت626هـ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م، 201/2، وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ياقوت الحموي، معجم البلدان. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، ت911هـ، لبّ اللباب في تحرير الأنساب، دار صادر، بيروت، ص74.

(5) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 439/20، ابن الملقن، عمر بن عليّ، ت804هـ، طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1415هـ/1994م، ص246، وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن الملقن، طبقات الأولياء.

(6) الجيلاني، عبد القادر، ت561هـ، الفتح الرباني والقيص الرحماني، تحقيق خالد العطار، دار الفكر، بيروت، ط1، 1419هـ/1998م، ص15 (مقدمة الناشر). وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الجيلاني، الفتح الرباني.

(7) الصالحي، الطريقة القادرية في فلسطين، ص46.

(8) أمه: أي عبدة الممْلوكَة خلاف الحرّة وتقول يا أمة الله كما تقول يا عبد الله، المعجم الوسيط، 28/1.

(9) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 371/5.

وللشيخ عبد القادر رضي الله عنه ذرّية طيّبة مباركة، أشهرهم⁽¹⁾:

1- عبد الجبّار ابن عبد القادر الجيلاني، ت575هـ.

2- عبد العزيز بن عبد القادر الجيلاني، ت602هـ.

3- موسى بن عبد القادر الجيلاني، ت618هـ.

(1) الصالحي، الطريقة القادرية في فلسطين، ص51.

المبحث الثالث: صفاته الخلقية والخُلُقِيَّة وكراماته.

"كان رضي الله عنه نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر، طويل اللحية، أسمر، مقرون الحاجبين، ذا صوت جهوري" (1).

أما أخلاقه رضي الله عنه، فالمطلع في كتب الشيخ عبد القادر الجيلاني يرى صدق لهجة عجيب ينبك عن مقام رفيع في الخلق والدين والعلم.

"كان يأكل من عمل يده" (2)، كريم النفس، حسن الخلق، واسع الصدر، يقف مع الصغير، ويوقر الكبير، ويبدأ بالسّلام، ويجالس الضّعفاء، وكان يحب العلم والعلماء، ويتواضع للفقراء، وما قام لأحد من العظماء والأعيان، ولا ألمّ بباب وزير قطّ ولا سلطان" (3).

والشيخ عبد القادر صاحب همّة وجلد في تعليم الطّلاب والدّعوة إلى الله تعالى، " إذ كان يعطي في اليوم الواحد ثمانية دروس: في التفسير والحديث وعلومه، والأصول والتّصوّف، والفقهاء على المذهب الحنبلي، والنحو والقراءات" (4).

وأما كراماته رضي الله عنه فقد أورد صاحب فوات الوفيات في أثناء ترجمته لسيد عبد القادر الجيلاني أنّ العزّ بن عبد السّلام رحمه الله، قال: "ما نُقلت إلينا كرامات أحد بالتواتر إلا الشيخ عبد القادر" (5).

ونقل صاحب قلائد الجواهر رحمه الله كلاماً قريباً من كلام العزّ رحمه الله، وهذا نصّه: " ما علمنا فيما بلغنا من التّقات النّاقلين كرامات الأولياء أكثر ما وصل إلينا من كرامات القطب شيخ بغداد، محيي الدّين عبد القادر الجيليّ، رضي الله عنه" (6).

يعتقد الباحث أنّ من أعظم كرامات الشيخ عبد القادر الاستقامة على شرع الله، وليس هذا فحسب؛ بل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الذي مارسه لسنوات طويلة من عمره الشريف، فصدق فيه قول

(1) الشطنوفي، علي بن يوسف، بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، تحقيق جمال الدين فالح الكيلاني، المنظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم، فاس، المغرب، ط2، 2013م، ص115، وسيُشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الشطنوفي، بهجة الأسرار.

(2) الزركلي، الأعلام، 47/4.

(3) الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص117.

(4) الشعرائي، الطّبقات الكبرى، 109/1، بتصرّف.

(5) محمد بن شاكر، فوات الوفيات، 373/2.

(6) التادفي، محمد بن يحيى الحلبي، ت963هـ، قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط3، 1375هـ/1956م، ص137.

المولى عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكَتَبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:170]

وأكتفي بذكر كرامتين لسَيِّدي عبد القادر من بحر الكرامات التي أفاضها المولى القادر سبحانه على عبده عبد القادر .

"قال الشيخ أبو بكر العماد رحمه الله: كنت قرأت في أصول الدين، فأوقع عندي شكًا، فقلت: حتَّى أمضي إلى مجلس الشيخ عبد القادر، فقد ذكر أنه يتكلم على الخواطر، فمضيت وهو يتكلم، فقال: اعتقادنا اعتقاد السلف والصحاب، فقلت في نفسي: هذا قاله اتفاقًا¹، فتكلم ثم التفت إلى ناحيتي فأعاده، فقلت: الواعظ قد يلتفت، فالتفت إلي وقال: يا أبا بكر، فأعاد القول ثم قال: قم قد جاء أبوك - وكان غائبًا - فمتمت مبادرًا، وإذا أبي قد جاء"⁽²⁾.

ومن كراماته المهمة ما فتح الله سبحانه به على الشيخ من التوفيق في الدعاء، فالقارئ في أورد سيدي عبد القادر وأدعيته المختلفة طالع التوفيق الإلهي والمدد الرباني في تخير الدعاء وترتيبه.

ومن أدعية الشيخ المشهورة، حزب النصر، وورده اليومي بعد كل صلاة، اللذان سيأتي ذكرهما في المباحث القادمة بشيء من التفصيل.⁽³⁾⁽⁴⁾

وقد أفرد الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله مصنفًا في ترجمة الشيخ عبد القادر أسماه: غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر⁽⁵⁾، ذكر فيه عددًا كبيرًا من كراماته رضي الله عنه وأرضاه.

ونختم بقول الإمام اللقاني⁽⁶⁾ رحمه الله صاحب جوهرة التوحيد:

واثبتن للأوليا الكرامة
ومن نفاها فانبذن كلامه⁽⁷⁾

(1) أي مصادفة.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 442/20.

(3) المبحث العاشر من الفصل الأول من الباب الثاني، ص: 41.

(4) للاستزادة من كراماته رضي الله عنه، الصّفي، الوافي بالوفيات، 27/19، تحت اسم "الجيلي الشيخ المشهور".

(5) وهو مطبوع، ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد، ت773، The Baptist Mission Press، كلكتة، الهند، 1903م.

(6) هو إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني، أبو الإمداد، برهان الدين، فاضل متصوّف مصري مالكي، نسبته إلى لقانة من البحيرة بمصر، توفي بقرب العقبة عائداً من الحج عام 1041هـ، صاحب جوهرة التوحيد (وهي منظومة في العقائد)، الزركلي، الأعلام، 28/1.

(7) الباجوري، إبراهيم بن محمد، ت1276هـ، شرح جوهرة التوحيد، تحقيق مصطفى البغا، دار المصطفى للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1431هـ/2010م، ص279.

المبحث الرابع: شيوخه، وتلاميذه ومؤلفاته.

المطلب الأول: شيوخه.

درس الشيخ عبد القادر الفقه على الشيخ أبو سعد المخرمي⁽¹⁾، واسمه المبارك بن علي بن الحسين، وهو من أبرز شيوخ الشيخ عبد القادر وأكثرهم تأثراً به.

وأما شيخه في التصوف فالشيخ حماد بن مسلم الدباس⁽²⁾، المتوفى عام 525هـ، وفي الأدب كان شيخه يحيى بن علي التبريزي⁽³⁾، " مدرس الأدب واللغة في المدرسة النظامية في بغداد"⁽⁴⁾.

ومن شيوخ سيدي عبد القادر في الأصول: أبو الخطاب البغدادي محفوظ بن أحمد الكلوزاني⁽⁵⁾.

وفي الحديث سمع من المحدث يحيى بن عبد الوهاب بن منده⁽⁶⁾.

المطلب الثاني: تلاميذه:

للشيخ عبد القادر الكثير من التلاميذ النجباء، الذين حملوا طريقته من بعده ونشروها في الأمة المحمدية، فكانوا خير من حمل الأمانة، أشهرهم:

(1) ولد عام 446هـ، أفتى ودرس وعمل في القضاء، كان حسن السيرة، وبنى مدرسة بباب الأرح في بغداد، توفي عام 513هـ. ابن الجوزي، أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي، ت 597هـ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1412هـ - 1992م، 183/17. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد، ت 795هـ، ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1425هـ - 2005م ذيل طبقات الحنابلة، 266/1. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة.

(2) من أولياء الله أصحاب الكرامات، كان ورعاً عارفاً ناطقاً بالحكمة، انتفع بصحبته خلق كثير. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 596/19.

(3) إمام اللغة، أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري، وأقام بدمشق مدة ثم ببغداد، صنّف شرحاً لديوان المتنبي، وآخر لديوان الحماسة، توفي 502هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 271/19.

(4) من تحقيق شعيب الأرنؤوط على سير الذهبي، 269/19 " في الهامش".

(5) أحد أئمة المذهب الحنبلي، ولد عام 432هـ، له تصانيف كثيرة منها: الخلافة الكبرى والخلاف الصغير، والتمهيد في أصول الفقه. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، 274 /1.

(6) يحيى بن عبد الوهاب بن منده: ولد عام 434هـ في أصبهان، ورحل في طلب العلم وصنّف التصانيف وأملى وحدّث بالكثير وقدم بغداد، وكان حافظاً، فاضلاً، مكثرًا، صدوقًا، ثقة، بعيدًا من التكلف، توفي سنة 511هـ. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، 306/1.

1- عمر بن محمد السهروردي⁽¹⁾، ت632هـ، انتهت إليه تربية المريدين وتسليك المبتدئين، وكان رحمه الله كثير الحج، وفي آخر عمره عمي وأقعد، ومع ذلك فما أخلّ بشيء من أوراده، حتّى أنّه كان يحمل إلى الجامع.

2- موفق الدّين ابن قدامة المقدسي⁽²⁾، ت620هـ، الدمشقي الصالحي الحنبلي، صاحب المغني، ولد بجماعين بنابلس سنة 541هـ، كان من بحور العلم وأذكياء العالم، رحل إلى بغداد إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، ومكث مع الشيخ أربعين يوماً قبل وفاته، فنزل في مدرسة الشيخ عبد القادر، واشتغل عليه تلك الأيام وسمع منه.

المطلب الثالث: مؤلفاته:

للشيخ عبد القادر الكثير من المؤلّفات، أذكر نبذة يسيرة منها:

- 1- الغُنية لطالبي طريق الحق عزّ وجلّ. وهو مطبوع، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1417هـ/1997م.
- 2- الفتح الرّبّانيّ. وهو مطبوع، دار الفكر، بيروت، ط1، 1419هـ/1998م.
- 3- فتوح الغيب. وهو مطبوع، مكتبة مصطفى البايّ الحليّ، القاهرة، ط1، 1380هـ.
- 4- تفسير الشّيخ عبد القادر المُسمّى: الفواتح الإلهيّة والمفاتيح الغيبية الموضّحة للكلم القرآنيّة والحكم الفرقانيّة - الذي تتناوله هذه الدّراسة-، وهو مطبوع، مركز الجيلاني للبحوث العلميّة، استنبول، ط1، 1430هـ/2009م.
- 5- سرّ الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار. وهو مطبوع، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة، ط1، 1429هـ/2008م.
- 6- جلاء خاطر، وهو مطبوع، دار ابن القيم، دمشق، ط1، 1994م، بتحقيق خالد الزرعي وعبد الناصر سري.

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 446/3.

(2) الذهبي، سير اعلام النبلاء، 165/22.

المبحث الخامس: عقيدته.

عقيدة الشيخ عبد القادر الجيلاني هي عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي الإيمان بوحانية الله سبحانه، وكل ما جاء في القرآن والسنة من أسمائه وصفاته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، كما قال الله تعالى في كتابه ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11]، فالله سبحانه وتعالى موجود بلا كيف ولا جهة ولا مكان، فهو خالق الزمان والمكان.

وقد صرح الشيخ عبد القادر الجيلاني بذلك في كتبه المختلفة وخاصة في تفسيره بعقيدته هذه، ومن الأمثلة على ذلك قوله: " الله سبحانه وتعالى لا شبيه له ولا نظير، ولا عون ولا ظهير، ولا شؤيك له ولا وزير، ولا نذ ولا مشير " (1)

وكذلك قوله: " انفوا عنه جل جلاله ما لا يليق به، وأثبتوا له ما يليق به، وهو ما رضيه لنفسه، ورضيه له رسوله صلى الله عليه وسلم، إذا فعلتم هذا زال التشبيه والتعطيل من قلوبكم " (2)

وعند تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: 7] وتنزهه سبحانه عن المكان مطلقاً" (3).

وقد أفرد الباحث في الفصل الثاني باباً كاملاً تناول فيه آيات العقيدة في تفسير الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهي خير ما يُستدل به على عقيدته.

وقد خصص علي الصلابي فصلاً كاملاً في كتابه (العالم الكبير والمربي الشهير، عبد القادر الجيلاني) أثبت فيه أن الشيخ عبد القادر الجيلاني كان على أصول منهج أهل السنة في الأصول والفروع (4).

(1) الجيلاني، عبد القادر، الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ/1997م، 54/1. وسيتم الإشارة إليه عند إعادة ذكره هكذا: الجيلاني، الغنية.

(2) الجيلاني، الفتح الرباني، ص 62.

(3) الجيلاني، عبد القادر، الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، مركز الجيلاني للبحوث العلمية، استنبول، ط1، 1430هـ/2009م، 32/6. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الجيلاني، تفسير الجيلاني.

(4) الصلابي، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص21 وما بعدها.

المبحث السادس: وفاته رضي الله عنه وبعض أقواله.

كانت وفاته رضي الله عنه سنة إحدى وستين وخمسائة⁽¹⁾، وفي الجيلاني ليلة السبت 10 ربيع الثاني سنة 561هـ، جهزه وصلى عليه ولده عبد الوهّاب في جماعة من حضر من أولاده وأصحابه، ثم دفن في رواق مدرسته، وبلغ تسعين سنة من عمره رحمه الله وجزاه الله خيراً عن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم.

رحل عنا الإمام الشيخ عبد القادر بجسمه لكنّ أقواله لا زالت تلهم السائرين في طريق الله، وتأخذ بأيديهم إلى رحابه الطاهر جلّ وعلا، ومن أقواله رحمه الله:

- 1- "يا غلام: إيّاك والحسد؛ فإنّه بنس القرين، وهو الذي خرّب بيت إبليس وأهلكه، وحعله من أهل النار، وجعله ملعون الحقّ عزّ وجلّ، وملأئكته، وأنبيائه، وخلقه"⁽²⁾.
- 2- "يا غلام: لو كان عندك ثمرة العلم وبركته لما سعيت إلى أبواب السلاطين في حظوظ نفسك وشهواتها. العالم لا رجلاّن له يسعى بهما إلى أبواب السلاطين"⁽³⁾.
- 3- "يا غلام: لا تستعر كلمات الصالحين وتتكلم بها، وتدّعيتها لنفسك؛ العارية لا تخفى، اكتسب من مالك، لا من العارية، إزرع القطن بيدك، واسقه بيدك، وربّه بجهدك، ثمّ انسجه وخيطه والبسه"⁽⁴⁾.
- 4- "لا تشاركوا الحقّ عزّ وجلّ في تدبيره، وعلمه بنفوسكم وأهويتكم وطباعكم، واتّقوه فيكم وفي غيرهم، تعلّموا موافقة الحقّ عزّ وجلّ من عبادة الصالحين الموافقين"⁽⁵⁾.
- 5- "لو كنت عاقلاً من أهل اليقظة والمراقبة لخرست بين يدي الله عزّ وجلّ، ولرأيت جميع أفعاله نعمة في حقّك ونظراً لك، إذا وقعت ولم تتنازع، وشكرت ولم تكفر، ورضيت ولم تسخط، وسكّنت ولم تشكّ، يُقال لك: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36]"⁽⁶⁾.

(1) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، ت 630 هـ، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1417هـ/1997م، 326/9. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن الأثير، الكامل. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 20/450. ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 246.

(2) الجيلاني، عبد القادر، ت 561هـ، جلاء خاطر، تحقيق خالد الزرعي وعبد الناصر سري، دار ابن القيم، دمشق، ط1، 1994م، ص 15. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الجيلاني، جلاء خاطر.

(3) الجيلاني، جلاء خاطر، ص 17.

(4) الجيلاني، جلاء خاطر، ص 22.

(5) الجيلاني، الفتح الرباني، ص 111.

(6) الجيلاني، الفتح الرباني، ص 226.

المبحث السابع: بعض أوراده

للشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله الكثير من الأوراد المشهورة عنه، ومما تجدر الإشارة إليه أن المتتبع لهذه الأوراد يجد ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم متضمناً فيها، ومنتشعاً بها.

1- ورد يُقال دُبر كل صلاة مكتوبة⁽¹⁾:

حسبنا الله ونعم الوكيل (مائتين مرّة).

أستغفر الله العظيم (مائتي مرّة).

لا إله إلا الله الملك الحق المبين (مائة مرّة).

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم (مائة مرّة).

ولمن يضيق وقته عن ذلك، بإمكانه قصر المائتين على عشرين، والمائة على عشر.

2- بعض الأدعية المشهورة⁽²⁾:

أ- اللهم لا تكلني إلى نفسي في حفظ ما ملكتني، وما أنت أملكه مني، وامددي بدقائق اسمك الحفيظ، الذي حفظت به جميع الموجودات، واكسني بدرع من كفالتك وكفايتك، وقلّدي بسيف نصرك وحمایتك، وتوجني بتاج عزك وكرمك، وردني برداء منك، وركبني مركب النجاة، في الحياة وبعد الممات، بحق فرد جبار شكور، وامددي بدقائق اسمك القاهر، ما تدفع به من أردني بسوء، من جميع المؤذيات، وتولني بولاية العز، يخضع لها كل جبار عنيد، وشيطان مريد، يا عزيز يا جبار.

ب- اللهم سخر لي جميع خلقك كما سخرت البحر لموسى عليه السلام، ولين لي قلوبهم كما لينت الحديد لداود عليه السلام، فإنهم لا ينطقون إلا بإذنك، نواصيهم في قبضتك، وقلوبهم بيدك، تقلبها حيث شئت، يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على الإيمان بك، يا علام الغيوب، يا علام الغيوب، يا علام الغيوب.

3- مقتطفات من حزب النصر⁽³⁾:

اللهم إني أسألك يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الأوهام والظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا يخاف الدوائر، ولا تفنيه العواقب، يعلم مئاويل الجبال، ومكاييل البحار ... اللهم اقطع أجل أمل أعدائي، وشتت اللهم شملهم وأمرهم، وفرّق جمعهم، واقلب تدبيرهم، وبدّل أحوالهم، ونكس أعلامهم، وكلّ

(1) العلي، مخلف يحيى، الكنوز النورانية من أدعية وأوراد السادة القادرية، دار الريحانة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3،

2017م، ص 185. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: مخلف العلي، الكنوز النورانية.

(2) مخلف العلي، الكنوز النورانية، ص 186.

(3) مخلف العلي، الكنوز النورانية، ص 371.

سلاحهم... وارمهم بصواعق انتقامك، وابطش بهم بطشاً شديداً، وخذهم أخذ عزيز، إنك على كل شيء قدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم لا أدفعهم ولا أمنعهم إلا بك... اللهم بحرمة سيدنا محمد عندك، وبحرمتك عند سيدنا محمد أن تسترنا في الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير... اللهم إنني أسألك غمسة في بحر نور هيبتك، القاهرة الباهرة الظاهرة الباطنة القادرة المقنطرة، حتى يتلأل وجهي بشعاعات من نور هيبتك، تخطف عيون الحسدة والمردة والشياطين من الجن والإنس أجمعين... يا منور كل نور، ألبسني من نورك لباساً يوضح لي ما التبس علي من أحوالي الباطنة والظاهرة، واطمس أنوار أعدائي وحسادي، حتى لا يهتدوا إلي إلا بالذل والانقياد، والهلكة والنقار، فلا تبقى منهم باقية... بسم الله من قدامنا، بسم الله من ورائنا، بسم الله من فوقنا، بسم الله من تحتنا، بسم الله عن أيماننا، بسم الله عن شمائلنا، يا سيدنا يا مولانا فاستجب دعانا، وأعطنا سؤالنا، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين... وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين آمين.

الفصل الثاني: منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في تفسيره.
وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: التركيز على آيات العقيدة.

المبحث الثاني: اعتماده على التفسير بالمأثور.

المبحث الثالث: اهتمامه بالتفسير الإشاري.

المبحث الرابع: جزالة لغته وتمييز ألفاظه.

المبحث الخامس: احتواؤه على إشراقات روحية.

المبحث السادس: التكرار الواضح.

المبحث السابع: تفسيره للبسملة تفسيراً مختلفاً في كلّ سورة.

الفصل الثاني:

منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في تفسيره:

إن القارئ في تفسير الشيخ عبد القادر الجيلاني ليلاحظ منهجًا واضحًا يتبعه الشيخ في جلّ تفسيره، ويتسم بعدة سمات حاول الباحث الإحاطة بها في هذا الفصل، فنَبّه إلى تركيز الشيخ على آيات العقيدة، وذلك لأنه من المهمّ بيان عقيدة أهل التصوّف، والتي يعتبر الشيخ عبد القادر أحد أكبر مشايخ طرقها. وعلى خطى الأولين من المفسّرين كان التفسير بالمأثور حاضرًا عند الشيخ عبد القادر الجيلاني، فما من مفسّر إلّا واعتمد على الأحاديث النبويّة وما وصل إليه من مرويات عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم جميعًا.

ولأن تفسير الشيخ يُعتبر من التفسير الإشاريّة، كان لزامًا على الباحث أفراد مبحث عن اهتمام الشيخ بهذا النوع من التفسير الذي عبّر عنه الشيخ بلغة لم تخلُ من استخدام المصطلحات الصوفيّة، فبثّ إشراقاته الروحيّة على طول التفسير، وكأنتك تسمع الآيات غصّة طرية كما نزلت، وهذه الإشراقات وغيرها من الأفكار المهمّة كرّرها الشيخ بما يخدم تفسير الآية وسياقها.

المبحث الأول: التركيز على آيات العقيدة.

ركّز الشيخ عبد القادر الجيلاني في تفسيره على التوحيد وغرسه في القلوب؛ لأن معرفة الله سبحانه وعبادته هي مقصد الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الدَّارِيَات : 56]، وقوله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَلَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: 19] لذلك فإن جل هم الشيخ عبد القادر منصباً على تعليم عقيدة التوحيد، وتعليق القلوب بالله سبحانه وتعالى. وتضمن هذا المبحث جملة من آيات العقيدة وتفسير الشيخ عبد القادر لها:

أولاً: الإيمان بالله تعالى.

1- قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الْوَاقِعَةُ : 85].

قال الشيخ عبد القادر في تفسيرها: "(وَنَحْنُ) حينئذ (أَقْرَبُ إِلَيْهِ) إي: إلى المحتضر (مِنْكُمْ) وأعلم بحاله وشغله، لا قرب الحلول فيه، ولا الاتحاد معه؛ بل قرب ذي الظل إلى الظل، وذي الصورة إلى الصورة المنعكس في المرآة"⁽¹⁾.

ومعنى قول الشيخ سابقاً أن الله تعالى شديد القرب من عباده دون اتحاد معهم أو حلول فيهم، كما أنّ الظل شديد القرب من الجسم المنعكس عنه، إلا أنه يبقى مغايراً له، بصفاته وخصائصه، وكذلك الصورة المنعكسة في المرآة، فهي بلا شك لصاحب الصورة إلا أنها ليست ذاته.

2- قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : 3]

قال الشيخ عبد القادر في تفسيرها: "(هُوَ الْأَوَّلُ) الأزلي السرمدي السابق في الوجود (وَالْآخِرُ) الأبدى الدائم، المستمر فيه بمقتضى الجود حقاً (وَالظَّاهِرُ) المتحقق في العيان (وَالْبَاطِنُ) المكنون في عموم الأكوان، فانظر أيها المعتبر الناظر، هل بقي لغيره وجود ولسواه عين وشهود؟! (و) بالجملة: (هُوَ) بذاته (بِكُلِّ شَيْءٍ) ظهر من امتداد أظلاله وانعكاس أشعة نور وجوده (عَلِيمٌ) بذاته وحضوره، غير مغيب عنه مطلقاً"⁽²⁾.

بالنظر إلى هذا المثال يظهر أنّ عقيدة الشيخ عبد القادر في الله تعالى أنه سبحانه أول ليس قبله شيء، وآخر ليس بعد شيء، وظاهر ليس فوقه شيء، وباطن ليس دونه شيء.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 507/5

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 6/6

ومعنى قول الشيخ (امتداد أظلاله) أنها برهانٌ لوجود الله تعالى ، فهي مظاهر قدرة الله تعالى ووفيهما تتجلى عظمة الله وقوته، وتثبت وجوده سبحانه وتعالى.

واكتفى الباحث بذكر آيتين تبينان عقيدة الشيخ في الله تعالى، ولا شك أن الآيات كثيرة مستفيضة يصعب إدراجها كلها في بحث من هذا النوع، ولكن يتضح مما تقدم من تفسير الشيخ للآيات السابقة أن عقيدة الشيخ في الله تعالى يبرز فيها التوحيد والتنزيه مع إثبات ما أثبت الله لنفسه من صفات كصفة السمع والبصر.

ثانياً: عقيدته في الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

1- قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1]

يقول الشيخ عبد القادر في تفسيرها: " (جاعل الملائكة) أي الذي جعل الملائكة الذين هم سدنة سدته العلية وخدمة عتبه السنوية (رسلا) أي وسائل ووسائط بينه سبحانه وبين خواص عباده من الأنبياء والرسل والأولياء المؤيدين من عنده سبحانه بالرتبة العلية والدرجة الرفيعة، يبلغون إليهم من قبل الحق ما تفضلهم سبحانه من الوحي المتعلق بخير الدارين ونفع النشأتين، ولذلك صيرهم سبحانه (أولي أجنحة) متعددة، متفاوتة يسرعون بها نحو مصلحة بعثهم الله إليها وأمرهم بتبليغها"⁽¹⁾.

بالنظر إلى هذا المثال يتضح أن الشيخ عبد القادر يعتقد أن الله تعالى صور الملائكة عليهم السلام تبعاً للمهام الموكلة إليهم، فهم يفعلون ما يؤمرون، وأجل ما يفعلون تبليغ رسالته سبحانه وتعالى إلى الأنبياء والمرسلين.

2- قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: 75]

يقول الشيخ عبد القادر في تفسيرها: " (الملائكة) أي الأسماء والصفات الإلهية عبر عنه سبحانه بالملائكة المهيمين المستغرقين بمطالعة وجهه الكريم (حافين) صاقين محدقين محلّقين من حول العرش... (يسبّحون) وينزهون ذاته سبحانه عن سمات الحدوث، ويواظبون (بحمد ربهم) على ما وهب لهم المعرفة بعلو شأنه وسمو برهانه"⁽²⁾.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 4/445.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 5/139.

فكما أنّ الكون انعكاس لقدرة الله وصفاته فكذلك الملائكة عليهم السلام في خلقهم انعكاس لبعض صفات جمال وجلال الله تعالى، إذ إنّهُ الخلاق يخلق ما يريد، وهو المسيطر، فالملائكة عليهم السلام خاضعون له بتسليم تامّ دون أيّ عناد أو تكبر، وهم كما البشر عباد لله تعالى، صيرتهم معرفته سبحانه مستغرقين في حبه، محلّين حول عرشه تغشاهم السعادة بمعرفته، لاهجة قلوبهم بحمده، وكأنّ الشّرخ يشير إلى أن نأخذهم أسوة لنا في دوام قربهم من الله ، واستغراقهم في ذكره تعالى.

ثالثاً: الإيمان بالكتب السماوية:

1- قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:3-4]

قال الشّرخ عند تفسيرها: " (الكتب) أي القرآن الجامع الشّامل لما في الكائنات أعلاها وأدناها أولها وأخراها ملتبسا (بالحق) المطابق للواقع (مصدّقاً لما بين يديه) من الكتب السّالفة المنزلة على الأنبياء الماضين (وأنزل) أيضاً (التوراة والإنجيل) على موسى وعيسى عليها السلام مصدّقين لما مضى من الكتب السابقة... (أنزل الفرقان) أي الكتاب السماويّ الفارق بين الهداية والضلالة ليميّز الحق عن الباطل وآيات الله عن تسويلات الشّياطين" (1)

بالنظر إلى المثال السابق يظهر التأكيد على أنّ القرآن الكريم هو فرقان بين الحق والباطل، فمع توالي السنين وكثرة التحريف الذي طال الكتب السابقة، جاء القرآن الكريم بأيات محكمات بيّنات تفصل بين الحق والباطل، وذلك من تمام نعم الله على عباده، وإقامة الحجة عليهم.

2- قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:48]

قال الشّرخ في تفسيرها: "(وأنزلنا إليك) يا أكمل الرّسل وخاتم النّبیین (الكتب) الجامع لجميع الكتب السّالفة متلبسا (بالحق) والصدق (مصدّقاً لما بين يديه من) جنس (الكتب) المنزّل على الرّسل الماضين (و) مع كونه مصدّقاً (مهيمناً عليه) مستحضراً لما فيه يحفظ عن التحريف والتّغيير إذ الكتب الإلهية كلّ لاحق منها يحفظ حكم سابق، ويصونه عن التّطرّق والتّحريف، وإن كان مشتملاً على نسخ وتغيير إلهيّ بحسب الرّمانين ومقتضى المرتبتين" (2).

بالنظر إلى هذا المثال يتبيّن أن القرآن الكريم آخر الكتب السماوية نزولاً؛ فهو حافظ لكلّ الكتب

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 248/1 وما بعدها.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 510/1.

السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ كَمَا كَانَ كُلُّ كِتَابٍ قَبْلَهُ حَافِظٌ لِمَا سَبَقَهُ مِنَ الْكُتُبِ، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ اِحْتَوَى عَلَى أُصُولِ الْاِعْتِقَادِ الَّتِي أَشَارَ اللَّهُ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:19] فَعَدَّلَ مَا وَقَعَ مِنْ التَّحْرِيفِ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَأَكَّدَ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ تَوْحِيدِ وَصْحَةِ اِعْتِقَادِ.

رَابِعًا: الْإِيمَانُ بِالرَّسْلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

1- قَالَ تَعَالَى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:136]

قَالَ الشَّيْخُ عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ: " (لَا نَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ) بِالْإِيمَانِ وَالْإِنْكَارِ؛ بَلْ نُوْمِنُ بِجَمِيعِهِمْ وَنُصَدِّقُهُمْ؛ لِكُونِهِمْ هَادِينَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَإِنْ تَفَاوَتَتْ طَرَقُهُمْ (وَنَحْنُ لَهُ) لِتَوْحِيدِ اللَّهِ (مُسْلِمُونَ) مَنْقَادُونَ مُتَوَجِّهُونَ؛ وَإِنْ بُيِّنَ بِطَرَقٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَكُتِبَ مُخْتَلِفَةً بِحَسَبِ الْأَعْصَارِ وَالْأَزْمَانِ الْمُتَوَهِّمَةِ مِنْ تَجَلِّيَّاتِ الذَّاتِ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ"⁽¹⁾.

يَتَّضِحُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الشَّيْخَ عَبْدَ الْقَادِرِ يَقُولُ بِاِخْتِلَافِ الشَّرَائِعِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَاِخْتِلَافِ طَرَقِهِمُ الْمُؤَدِيَةِ كُلِّهَا فِي النِّهَايَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ الْمُحْضِ، وَجَاءَ هَذَا التَّبَايُنُ لِاِخْتِلَافِ الْعُصُورِ وَالْأَزْمَانِ وَتَطَوُّرِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ وَتَرَاكُمِ مَعَارِفِهِ، فَكَانَتْ كُلُّ رِسَالَةٍ أَرْقَى مِمَّا سَبَقَهَا، وَقَصِدَ الشَّيْخُ بِقَوْلِهِ: (الْأَزْمَانِ الْمُتَوَهِّمَةِ مِنْ تَجَلِّيَّاتِ الذَّاتِ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ)؛ فَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَزْمَانَ نَتَاجَ تَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اللَّذِينَ هُمَا خَلَقَ مَحْدَثٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، أَمَا اللَّهُ تَعَالَى جَلَّ فِي عِلَاةِ مَنْزَلِهِ عَنِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَتَجَلِّيَّاتُ اسْمِهِ (الْأَوَّلِ) الَّتِي لَا قَبْلَ شَيْءٍ وَاسْمِهِ (الْآخِرِ) الَّتِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ عَكَسَتْ صُورَةَ الزَّمَانِ الْمُنْحَصِرِ بَيْنَهُمَا فِيمَا يَدْرِكُهُ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ مِنْهُ.

خَامِسًا: الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

1- قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْخُلُقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:15]

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدَ الْقَادِرِ فِي تَفْسِيرِهَا: "قَالَ سُبْحَانَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ وَالِاسْتِبْعَادِ عَلَى الْمُنْكَرِينَ الْمُسْتَبْعِدِينَ بِالْحَشْرِ وَالْبَعْثِ: (أَفَعَيَّبْنَا) أَي تَنْكُرُونَ قَدْرَتَنَا عَلَى الْإِعَادَةِ وَتَظُنُّونَ أَنَّ صَرْنَا عَاجِزِينَ (بِالْخُلُقِ الْأَوَّلِ) أَي الْإِبْدَاءِ الْإِبْدَاعِيِّ عَنِ الْخُلُقِ الثَّانِيِ الْإِعَادِيِّ ... وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ قَدْرَتَنَا لَا تَنْصَفُ بِالِانْتِهَاءِ وَالْفَتْورِ، وَلَا بِالِانْقِضَاءِ وَالْقُصُورِ"⁽²⁾.

(1) الْجِيلَانِي، تَفْسِيرُ الْجِيلَانِي، 1/129 وَمَا بَعْدَهَا.

(2) الْجِيلَانِي، تَفْسِيرُ الْجِيلَانِي، 5/398.

إنّ لمن أصعب المشكلات توضيح الواضحات، وهذا حال منكري البعث، فهم في كل حال يبصرون خلق الله المبدع وكيف يحيي الله الأرض بعد موتها، ثم تراهم عاجزين عن فهم البعث كإعادة إيجاد للموجودات بعد إفنائها، فمثال الآية السابقة دليل عقلي بيّن لمن ألقى السمع وهو شهيد.

2- قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7]

قال الشيخ عبد القادر في تفسيرها: " (زعم) بل ادعى العلم المسرفون المعاندون (الذين كفروا) بالله وأنكروا قدرته على البعث والنشور (أن لن يبعثوا) من قبورهم، ولن يحشروا إلى المحشر للحساب والجزاء، وأصروا على هذا الزعم الفاسد والجهل الظاهر واعتقدوه حقًا وخيلوه صدقًا مكابرة وعنادًا (قل) لهم يا أكمل الرّسل بعدما بالغوا في إنكار البعث: (بلى) تبعثون أيها المنكرون الجاحدون (و) حقّ (ربّي) الذي ربّاني قابلاً لوحيه وإلهامه ومهبطاً لعموم أحكامه المنزلة من عنده (لتبعثنّ) البتّة (ثمّ) بعد البعث والحشر (لتنبؤنّ بما عملتم) أي جميع ما اقترفتن في النشأة الأولى، ولتحاسبنّ عليها وتجازرنّ بمقتضاه؛ بحيث لا يشدّ شيء منها (وذلك) التّفصيل والإحصاء (على الله) العليم البصير (يسير) وإن كان عندكم مشكلٌ عسير" (1).

يفسر الشيخ عبد القادر الجيلاني الآيات الدالة على البعث والحساب والنشور تفسيرًا مباشرًا في أغلب مواضع التفسير التي اطّلع عليها الباحث، فمفهوم البعث عند الشيخ واضح ثابت لا لبس فيه ولا تأويل، ويعتبر أنّ الإيمان باليوم الآخر من أقوى الدوافع لفعل الخيرات والإقبال على الله تعالى.

سادسًا: الإيمان بالقضاء والقدر.

1- قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]

(قال الشيخ عبد القادر في تفسيرها: (إنّا) بمقتضى كمال علمنا وشمول قدرتنا وإرادتنا المقتضية للحكم والمصالح خلقنا وأظهرناه من كتم العدم مقرونًا (بقدر) أي بمقدار نقّده في حضرة علمنا ولوح قضائنا، ونرتّب على المقدار المقدر وجود المقدور المخلوق، فنظّره على وفقه" (2)).

فهذا القدر محكوم بالحكمة الإلهية لمصلحة الوجود، والمخلوق المقدور محكوم بذلك القدر الصادر عن تمام علم الله وشموله.

2- قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 101/6.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 470/5.

ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٣﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٤﴾ [الحديد: 22-23]

قال الشيخ عبد القادر في تفسيرها: " (ما أصاب من مصيبة) أي ما حدث من حادثة مفرحة أو موحشة كائنة (في الأرض) أي في أقطار الآفاق من الخصب والرّخاء والزّلزلة والوباء إلى غير ذلك من المفرحات والموحشات الحادثة في الأنحاء والأرجاء (ولا) كائنة (في أنفسكم) من العوارض المسرّة والشّهوات الملذّة، أو من الأمراض والملّمات المؤلمة (إلا) ثبت حدوثها في ساعة كذا في آن كذا على وجه كذا (في كتاب) أي في حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه على اختلاف العبارات (من قبل أن نبرأها) نخلقها ونظهرها، أي ثبت حدوث الحادثة في وقتها في كتابنا، قبل أن نخلق الحادثة بزمان لا يعلم أحدٌ مقداره إلا نحن، ولا تستبعدوا من قدرتنا أمثال هذا (إن ذلك) الثّبت والتّقدير السّابق وإن كان عنكم عسير (على الله) القادر المقدر الغالب على عموم المقدرات (يسير) سهل في جانب قدرته وإرادته" (1).

بالنظر إلى هذا المثال يظهر لنا وضوح عقيدة القضاء والقدر عند الشّيخ عبد القادر؛ فهو يؤمن أنّ الله تعالى بعلمه القديم علم ما كان وما سيكون من أفعال العباد وغيرها من تصارييف الرّمان بعلمه القديم قبل إظهارها وتحققها على الواقع أو صدورها عن المكلفين، فهي تقع بالضبط كما هو مقدر في علم الله المحيط وكما هي مكتوبة في اللوح المحفوظ.

ولا يفهم من كلام الشّيخ من المثاليين السّابقين أنّ الإنسان مسير في أفعاله؛ بل مخير، كما وضّح الشّيخ ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البند: 10]؛ إذ قال رحمه الله: "أي طريق الخير والشرّ والهداية والضلال واختبرناه بهما، وابتليناه أي طريق يختار لنفسه، بعدما وفّقناه لكليهما ونبّهناه عليهما" (2). وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَالْتَمَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 8] يثبت الشّيخ الفكرة نفسها أنّ الله سبحانه أودع في الإنسان العقل الذي يختار به طريق الخير أو طريق الشرّ، بلغة أخرى، فإن الله تعالى من واسع رحمته أعطى الإنسان أسباب النّجاة، فأعطاه العقل وأرسل الرّسل عليهم السّلام وأنزل الكتب لتقوم حجّة الله البالغة على عباده (3).

بالنظر إلى الآيات الواردة في هذا المبحث يلاحظ الباحث أن :

1- خلو تفسير الشّيخ لآيات العقيدة من التفسير الإشاري في جّلها، ويرجّح الباحث أنّ هذا الأمر يعود إلى أنّ آيات العقيدة آيات محكمة، أحكمها الله لكي لا يدخل عقيدة المسلم أي لبس وشكّ ،

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 6/19.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 6/372.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 6/377.

- ولكي لا تكون الآية حمالة أوجه فينتج عن ذلك تمييع العقيدة وجعلها قابلة للأخذ والردّ والنقاش، وكى لا يتمكّن مُعرضٌ من إخراج معانيها عن سياقها الواضح وهذا من أوجه حفظ الله للدين.
- 2- براءة الشّيخ عبد القادر من عقيدة الحلول والاتّحاد، فنراه مرارًا وتكرارًا يؤكّد نفي هذه العقيدة الزّائفة.
- 3- يؤكّد الشّيخ أنّ الكائنات ما هي بالحقيقة إلّا مرايا لظهور أسمائه وصفاته جلّ وعلا، وأنّ الوجود الإلهيّ منبسّطٌ على ذرّات الأكوان بلا حلول واتّحاد واتّصال وانفصال.
- 4- يؤكّد الشّيخ على أنّ الإنسان محاسب بناء على كونه مخيّرًا وليس مسيّرًا، أودع فيه الخالق أدوات الاختيار وأقام عليه الحجج.

المبحث الثاني: التفسير بالمأثور⁽¹⁾ عند الشيخ عبد القادر الجيلاني. وفيه ثلاثة مطالب:

على نهج السابقين من علماء التفسير، لم يخلُ تفسير الشيخ عبد القادر الجيلاني من التفسير بالمأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصحابة الكرام، وفي هذا المبحث سيأتي بيان ذلك.

المطلب الأول: أسباب النزول⁽²⁾ عند الشيخ عبد القادر:

يركز الشيخ عبد القادر على أسباب النزول، فتراه لا يغفل آية لها سبب نزول إلا وأورده، ومن الأمثلة على ذلك:

1- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة:55]

أورد الشيخ سبب نزول الآية فقال: "نزلت في عليّ كرم الله وجهه؛ حين سأله سائل وهو راکع في صلاته، فرمى له خاتمه"⁽³⁾ (4).

2- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال:70]

أورد الشيخ سبب نزول الآية فقال: "رُوي أنها نزلت في العباس رضي الله عنه، كلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفدي نفسه وابني أخويه؛ عقيل ابن أبي طالب، ونوفل بن الحارث. فقال: يا محمد تركتني أتكف قريشاً ما بقيت، فقال صلى الله عليه وسلم: فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك، فقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث لي حدث فهو لك

(1) هو ما وصلنا من مرويات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم.

(2) هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبيّنة لحكمه أيام وقوعه.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 1/ 515.

(4) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب الميم، من اسمه محمد، ترجمة محمد بن عليّ الصائغ، حديث رقم 6232، الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، ت360هـ، المعجم الأوسط، تحقيق طارق عوض الله وأبو الفضل الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ/1995م، 218/6، وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الطبراني، المعجم الأوسط. وقال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم. الهيثمي، علي بن أبي بكر بن سليمان، ت 807 هـ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414 هـ/1994م، 7/ 17. وقال محقق مجمع البحرين: إسناده ضعيف جداً. الهيثمي، علي بن أبي بكر بن سليمان، ت 807 هـ، مجمع البحرين في زوائد العجمين الأوسط والصغير للطبراني، تحقيق عبد القدوس نذير، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1413 هـ/1996م، 20/6.

ولعبدالله وعبيدالله والفضل وقثم، وقال العباس: وما يدريك؟ قال صلى الله عليه وسلم أخبرني ربي. قال: أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل. فقال العباس رضي الله عنه، فأبدلني الله خيراً من ذلك إلى الآن عشرين عبداً، إن أدناهم ليضرب عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم" (1) (2).

3- قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:1]

أورد الشيخ سبب نزول الآية فقال: "روي أن خولة بنت ثعلبة ظاهر عنها أوس بن الصامت، وكان الظهار (3) والإيلاء (4) حينئذ من عداد الطلاق، فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حرمت عليه) فكررها، فأجاب صلى الله عليه وسلم كذلك، وبعدما أيست أخذت تشتكي إلى الله متضرعة خاشعة فجيعة، إذ لها أولاد صغار، ولا متعهدهم سواها، فقالت مناجية إلى الله مشتكية: اللهم إني أشكو إليك وأتضرع نحوك، فأنزل على نبيك ما يؤلف بيني وبين زوجي، وترحم على أولادي المعصومين، وهي على هذا فأوحى سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم الآية" (5) (6).

يلاحظ من الأمثلة السابقة أن منهج الشيخ عبد القادر في إيراد أسباب النزول أنه:

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 2/228.

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عباس بلفظ قريب، مسند الإمام أحمد، ت 241هـ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ/2001م، مسند بني هاشم، مسند عبدالله بن عباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم، 5/335. حديث رقم 3310. قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حسن، وإسناده ضعيف من رواية عكرمه. وأخرجه الحاكم في مستدركه بلفظ قريب من رواية عائشة أم المؤمنين، الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ت 405هـ، المستدرک على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ/1990م، وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الحاكم، المستدرک على الصحيحين. كتاب معرفة الصحابة، ذكر إسلام العباس رضي الله عنه واختلاف الروايات في وقت إسلامه، حديث رقم: 5409، وقال عنه الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه.

(3) هو أن يشبه الرجل زوجته بامرأة محرمة على التأبيد، أو بجزء منها، يحرم عليه النظر إليه؛ كالظهر والبطن، كأن يقول لها: أنت علي كظهر أمي.

(4) هو حلف زوج بالله تعالى أو صفة من صفاته على ترك وطء زوجته أبداً أو أكثر من أربعة أشهر.

(5) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 6/27.

(6) رواه أبو داود في سننه عن عائشة أم المؤمنين، كتاب الطلاق، باب في الظهار، حديث رقم: 2220، بلفظ قريب. قال الشيخ شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح.

1- يورد أسباب النزول دون أن ينقل السند أو المصدر الذي فيه هذه الرواية.

2- يعتمد الرواية دون الوقوف على صحتها من ضعفها.

3- يورد سبب النزول دون التعليق عليه.

المطلب الثاني: الاستشهاد بالحديث الشريف.

يستأنس الشيخ عبد القادر في تفسير بعض الآيات بالأحاديث النبوية الشريفة، إلا أنه لا يكثر من الاستشهاد بها، وقد بلغ عدد الأحاديث التي أوردها في تفسيره ستة وتسعين حديثاً فقط (1) ، أذكر منها على سبيل المثال:

1- عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:112]

[هود:112]

قال الشيخ بعد تفسيره للآية: " ولصعوبة الامتثال بهذه الآية الكريمة، قال صلى الله عليه وسلم : (شيبتي سورة هود) "(2)(3).

2- عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتِكِ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَلِّحِيَنَّ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي

عُذْرًا﴾ [الكهف:76]

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رحم الله أخي موسى؛ استحي فقال ذلك، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب" (4) (5).

3- عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ

الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب:26]

ساق الشيخ قصة بني قريظة وجاء بحديث النبي صلى الله عليه وسلم " من كان سامعاً ومطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة" (6)(7).

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، فهرس الأحاديث النبوية الشريفة، (من عمل المحقق) 493/6.

(2) سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الواقعة، حديث رقم: 3297، وقال: حديث حسن غريب.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 422/2.

(4) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام، قريياً من هذا اللفظ، ولفظه: " قال: رحمة الله

علينا وعلى موسى، لولا أنه عجل لرأى العجب، ولكن أخذته من صاحبة ذمامة، فقال: إن سألتك عن شيء بعدها

فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا، ولو صبر لرأى العجب" ، رقم الحديث: 2380.

(5) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 218 / 3.

(6) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، أبواب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماءً، حديث

رقم: 945.

(7) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 366/4.

4- أورد الشيخ عبد القادر عند تفسيره لسورة الزلزلة تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:4] فقال رضي الله عنه: "عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل عليّ كذا وكذا يوم كذا، فهذه أخبارها" (1)(2).

يُلاحظ مما سبق أنّ استشهاد الشيخ بالأحاديث النبوية الشريفة كان على النحو التالي:

- 1- أنّ الأحاديث التي استشهد بها كانت أقرب إلى أسباب النزول منها إلى شرح الآية بالحديث الشريف في بعض المواضع.
- 2- يورد الشيخ عبد القادر بعض الأحاديث استثناساً وتأكيداً لفهمه للآية في مواضع عدّة.
- 3- يورد الأحاديث من دون ذكر للسند أو المصدر.

المطلب الثالث: شواهد من التفسير بالمأثور عند الشيخ عبد القادر:

إنّ الآثار التي صحّت عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير معين للمرء على فهم كتاب الله ومعرفة معانيه ومقاصده، لأنهم عاصروا الوحي وشاهدوا تطبيقه من رسول الله صلى الله عليه وسلم على أرض الواقع في الحياة العملية؛ فقد استعرض الباحث في المطلبين السابقين استشهاد الشيخ عبد القادر بالأحاديث النبوية وأسباب النزول، وفي هذا المطلب سيأتي بيان اعتناء الشيخ بنقل ما أثر عن الصحابة الكرام من تفسير وغيره.

1- قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَحْدَةً فَلَهَا اللَّيْصُفُ﴾ [النساء:11]

نقل الشيخ عند تفسيرها قول ابن عباس، رضي الله عنهما، فقال: "مما ترك المتوفى وإن كانتا بنتين فقط فقد اختلف فيهما، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: حكمهما حكم الواحدة، وقال الباقر: حكمهما حكم ما فوق الاثنين" (3).

2- قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَّمُ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

(1) سنن الترمذي، أبواب الزهد، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، حديث رقم 2429، وقال حديث حسن صحيح.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 6/411.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 1/370.

قال الشيخ عند تفسيرها: "عن المرتضى الأكبر، المتحقق بمقام التسليم والرضا، علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أنه قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين" (1) (2).

3- قال تعالى: ﴿فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكُمْ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: 25]

قال الشيخ عند تفسيرها: "عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من تحدّث بحديث داود (3) عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء" (4).

إنّ القارئ في تفسير الشيخ عبد القادر ليلاحظ ندرة استشهاده بالمأثور عن الصحابة الكرام، وهذا طبيعي في التفسير الإشاري الذي يعتمد بشكل أساسي على الفتوحات والإلهامات الربانية.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 52/5.

(2) مقام الرضا والتسليم أعلى المقامات التي يصلها العبد. وسيفرد مقام الرضا بالبيان في بحث مستقل ص 168.

(3) سيأتي تفصيل قصة سيدنا داود عليه السلام المفتراة عليه ص 326.

(4) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 69/5. لم أجده، والقصة أوردها الإمام النسفي في تفسيره. النسفي، أبو البركات عبد الله

بن أحمد بن محمود، ت 710 هـ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب،

بيروت، ط1، 1419هـ/1998م، 150/3.

المبحث الثالث: اهتمامه بالتفسير الإشاري.

رَكَزَ الشَّيْخُ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ عَلَى التَّفْسِيرِ الْإِشَارِيِّ؛ فَلَمْ يَبْخُلْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً وَأَهْلَ التَّصَوُّفِ خَاصَّةً بِمَا أَفَاضَهُ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ عُلُومٍ لَدُنِّيَّةٍ⁽¹⁾؛ لِيَزِدَادَ تَعَلُّقَ هَذِهِ الْقُلُوبِ بِمَوْلَاهَا، وَلِكِي لَا تَلْتَقَتْ إِلَّا إِلَى رِضَاهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَالنَّاسُ فِي تَلْقَى الْإِشَارَاتِ عَلَى مَرَاتِبٍ كَمَا قَالَ ابْنُ عَجِيبَةَ⁽²⁾: وَأَمَّا الْإِشَارَاتُ فَيَدْرِكُهَا أَرْبَابُهَا مِنْ أَهْلِ الْفَنِّ، وَالنَّاسُ فِي إِدْرَاكِهَا وَعَدَمِهِ عَلَى أَقْسَامٍ:

1- فَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَفْهَمُ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَا يَعْرِفُ إِلَّا ظَاهِرَ الْعِبَارَةِ؛ وَهُمْ الْجَهَّالُ مِنَ عُمُومِ النَّاسِ.
2- وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ الْمَقْصُودَ، وَيَجِدُ الْحَقَّ بَعْدَ الْإِشَارَةِ؛ أَيْ بَعْدَ سَمَاعِ الْإِشَارَةِ؛ وَهُمْ أَهْلُ الْبِدَايَةِ مِنَ السَّائِرِينَ.

3- وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ الْإِشَارَةَ، وَيَجِدُ الْمَشَارَ إِلَيْهِ؛ وَهُوَ الْحَقُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ؛ وَهُمْ أَهْلُ الْفَنَاءِ فِي الذَّاتِ قَبْلَ التَّمَكُّنِ، وَلِهَذَا تَجِدُهُمْ يَتَوَاجِدُونَ عِنْدَ السَّمَاعِ وَيَتَحَرَّكُونَ، وَتَطْيِبُ أَوْقَاتِهِمْ، وَتَهَيِّمُ أَرْوَاحَهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَوَاجِدُونَ عِنْدَ الذِّكْرِ؛ لِأَنَّ الْإِشَارَةَ تَهَيِّجُ أَكْثَرَ مِنَ الْعِبَارَةِ، بِخِلَافِ الْمُتَمَكِّنِينَ قَدْ رَسَخَتْ أَقْدَامُهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ، وَتَحَقَّقَ وَصُولُهُمْ، فَاسْتَغْنَوْا عَنِ الْإِشَارَةِ وَالْمَشِيرِ.

يُظْهِرُ مِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ ابْنِ عَجِيبَةَ أَمِّيَّةَ التَّفْسِيرِ الْإِشَارِيِّ، وَبِخَاصَّةً لِّلْسَائِرِينَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَايَاتِ، لِذَلِكَ اِهْتَمَّ بِهِ مَشَايِخُ التَّصَوُّفِ. وَهَذِهِ نَبْذَةٌ يَسِيرَةٌ مِنْ تَفْسِيرِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ مِمَّا أَشَارَ فِيهِ إِلَى بَعْضِ الْإِشَارَاتِ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ:

1- قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحُجَّ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: 197]

قَالَ الشَّيْخُ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: "الْحُجُّ كِنَايَةٌ عَنِ الْمَوْتِ الْإِرَادِيِّ الْمَبْنِيِّ عَنِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ؛ وَهَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ أَوْصَافِ الْأَحْيَاءِ بِالْحَيَاةِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَمَنْ قَصَدَ الْحُجَّ الْحَقِيقِيَّ، وَالْحَيَاةَ الْحَقِيقِيَّةَ فَلَهُ أَنْ يَمِيتَ نَفْسَهُ مِنْ لَوَازِمِ الْحَيَاةِ الطَّبِيعِيَّةِ الْمُسْتَعَارَةِ؛ لِيَفُوزَ بِالْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ الْأَزَلِيَّةِ، وَالْبَقَاءِ الْأَبَدِيِّ السَّرْمَدِيِّ... وَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ إِلَّا لِّلسَالِكِ النَّاسِكِ الَّذِي جَذَبَهُ الْحَقُّ عَنِ نَفْسِهِ، مُتَدَرِّجًا مُرْتَقِيًا مِنْ عَالَمٍ إِلَى عَالَمٍ مِنَ الْعَوَالِمِ الْمُنْتَخَبَةِ عَنْهَا ذَاتَهُ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى مَقَامٍ وَمُرْتَبَةٍ طَوِيَّتِ الْمَرَاتِبُ كُلُّهَا عِنْدَهُ"⁽³⁾.

يَتَنَاوَلُ الشَّيْخُ عَبْدِ الْقَادِرِ فِكْرَةَ أُسَاسِيَّةً فِي التَّصَوُّفِ؛ وَهِيَ فِكْرَةُ الْحُجِّ؛ فَالْمُسْلِمُ كَمَا أَنَّهُ حِينَ يُؤَدِّي

(1) العلم اللدني: هو ما يفتح به سر القلب من غير سبب مألوف من خارج. الغزالي، إحياء علوم الدين، 24/3.

(2) ابن عجيبة، شرح الحكم العطائية، ص 171.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 171/1.

فريضة الحج، يحرم ويمتنع في أحرامه عن كل حظوظ النفس؛ من زينة وشهوة؛ حتى إنّه ليدع الطيب، وكلّ ذلك كناية عن ترك مألوفات النفس وشهواتها، ثم يلهج قلبه قبل لسانه " لبيك"، وينصرف بكليته إلى الاشتغال بالطواف الذي ما هو إلا " النفاذ القلوب ودورانها حول قدسيّة الله، وما السعي إلا التردّد بين علمي الرّحمة التماساً للمغفرة والرضوان... وما الرمي إلا رمز مقتٍ واحتقارٍ لعوامل الشرّ، ونزغات النفس، وما الذبح إلا إراقه لدم الرذيلة بيد اشتدّ ساعدها في بناء الفضيلة،... والعيد الإسلاميّ عقب الحج: إنما هو احتفالٌ عامٌّ في الأمة الإسلاميّة كلّها بمن انتهى بهم الحجّ إلى إسلام الوجهة لله" (1).

2- قال تعالى ﴿* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: 243]

(قال الشيخ عبد القادر في تفسيرها: "وبوجه آخر (ألم تر) أيها المغترّ الرائي (إلى الذين خرجوا من ديارهم) المألوفة المأنوسة... (و) الحال أنّهم (وهم أُلوف) متألّفون فيها مع بني نوعهم (حذر الموت) الإراديّ (فقال لهم الله) الهادي إلى توحيد الذات بلسان مرشديهم: (موتوا) عن إنابتم وهويتكم أيها المتوجّهون إلى بحر الحقيقة. فماتوا عن مقتضيات القوى البشريّة، ولوازم الحياة الطّبيعيّة بالكلّيّة، (ثم أحياهم) الله بالحياة الحقيقيّة والعلم اللدنيّ، والوجود العينيّ الحقّي، والبقاء الأزليّ السرمديّ، (إن الله) المتكفّل لأمر عباده (لذو فضل على الناس) الناسين منزلهم الأصليّ، ومقصدهم الحقيقيّ؛ بإيصالهم إلى ما هم عليه قبل نزولهم إلى فضاء الإمكان، (ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون) ولا يعقلون ولا يفهمون نعمة الوصول إلى الموطن الأصليّ، والمقام الحقيقيّ؛ حتى يقوموا بشكره ويتواظبوا عليه" (2).

يوجّه الشيخ عبد القادر المرید في هذا التفسير إلى المسارعة بالتخلّي عن حظوظ النفس والشّهوات الطّبيعيّة للجسد البشري؛ والذي عبر عنه (بالموت الإرادي)؛ إذ إنّ المكلف غالباً ما يميل إلى ما يألف من ناس ومكان وطبائع، ويرى نفسه منسجماً مع الآخرين حينما يفعل ما يفعلونه، وقد أطلق الشيخ على هذه الحالة (الديار المألوفة)، وحينئذ سماها (فضاء الإمكان)، فهؤلاء الألوفا خرجوا مما كانوا فيه على وجل للوصول إلى جنة العرفان، والتي أطلق عليها الشيخ (الموطن الأصلي).

3- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

[الأنفال: 72]

(1) الصالحي، عمر يعقوب جميل، أحكام الحجّ، فلسطين، القدس، 1434هـ، 2013م. ص 108 وما بعدها.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 205/1

قال الشيخ عند تفسيرها: "فيها إشارة إلى الذين هاجروا عن أنفسهم؛ شهواتها وأهوائها وطباعها الأمارة بالسوء، هاجروا إلى الله وطلب مرضاته وحبّه. جاهدوا بأموالهم، أنفقوها في كلّ طريق يحبّه الله؛ ليخلعوا من قلوبهم حبّ المال، والميل إليه، ليصفوا لهم حبيبهم، فيغدوا هو نصيرهم، وهو معتمدهم، لا المال؛ ليفوزوا بالله، فهو حسبهم عن كلّ ما دونه. (والذين ءاؤوا ونصروا) فيها إشارة للمرشدين الكاملين الذين يأخذون بأيدي السالكين الصادقين إلى الله، (بعضهم أولياء بعض) يتعاونون ويتناصرون؛ إلى أن يرتفع تعدّدهم، وتضمحلّ كثرتهم؛ إذ فني السالك والسلوك والمسلك، وبقي ما بقي لا إله إلا هو، لا شيء سواه، وكلّ شيء هالك إلا وجهه"⁽¹⁾.

يُلاحظ أنّ السادة الصوفيّة يركّزون على أن يصل المسلم إلى مرتبة الثقة بالله تعالى، والاستغناء به سبحانه عن كل ما سواه، حتى عن النعم التي وهبهم إياها. ومن أجمل الإشارات في هذا التفسير تشبيه الشيخ للمرشدين الكاملين الذين يأخذون بأيدي السالكين بالذين (أؤوا)؛ فحال العبد في بعده عن الله حال تيه وضياح وتشرّد.

4- قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:12]

قال الشيخ عند تفسيرها: "(إني أنا ربك) أي مطلوبك الحقيقيّ أي رببتك بأنواع اللطف والكرم، وابتليتك بأنواع البلاء في طريق المجاهدة؛ لتتوجّه إليّ فتعرفني، فالآن ارتفعت الحجب والقيود، وتحققت بمقام الكشف والشهود، (فاخلع نعليك) فاسترح عن الطلب بعد وجدان الربّ، وتمكّن في مقعد الصدق، (إنك بالواد المقدّس) عن رذائل الأغيار (طوى) أي طويت التوجّه إلى الغير، ولم يبق لك احتياج إلى الاستكمال"⁽²⁾.

إن القارئ ليعيش في هذه الإلهامات والإشارات تفاصيل فرح موسى الكليم عليه السلام؛ إذ استراح من البحث والمجاهدة والبلاءات؛ من فرار من القتل، وغربة عن الأهل والديار، والعمل لسنين طويلة حتّى تحقّق بمقام التسليم، فعاد إلى المكان الذي فرّ منه، وحاز الجائزة العظمى، ونال المنزلة القصوى؛ بأن كلّه حبيبته بقوله: (إني أنا ربك) فاسترح عما كنت فيه من بلاء وخوف وتعب، فإن عنايتي معك لا تنفك عنك ﴿قَالَ لَا تَخَافُ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:46].

5- ومن تفسيرات الشيخ عبد القادر الملقته، تفسيره (جنّة النعيم) بوصول العبد لمرتبة الرضا والتسليم؛ فهي الجنّة الحقيقيّة في الدنيا قبل الآخرة.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 2/229.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 3/282.

قال تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ التَّعِيمِ﴾ [الشعراء: 85]

قال الشيخ رضي الله عنه: "أي؛ من الذين يرثون من فضلك وجودك مرتبة الرضا والتسليم؛ إذ لا نعمة أجلّ منها، وأتمّ عند المنقطعين نحوك، والمتشوقين بليّاك" (1).

من لطائف هذه الإشارة أنها دعوة على لسان ابراهيم عليه السلام، طالباً من ربه أن يجعله وارثاً للمقام السامي في القرب والحب والخلة، ودأب السادة الصوفيّة على استخدام مصطلح الوراثة، للإشارة إلى تعاقب السيادة والمكانة من جيل لجيل.

ومن أفضل ما يُختم به هذا المبحث نصيحة للشيخ عبد القادر من تفسيره؛ قال رضي الله عنه: "عليك أيها المحمدي المواظب على تلاوة كتاب الله، المأزم للاسترشاد والاستهداء منه، أن تلاحظ أولاً منطوقات ألفاظه المفردة، ثم مفهومات الكلام المركب منها، ثم التأمل والتدبر في رعاية المطابقة لمقتضيات الأحوال الموردة لأجلها، ثم التعمق في الأساليب والأغراض المسوقة لها الكلام، ثم سرائر الأوامر والنواهي المورودة فيها، والبر والأمثال المشتملة عليها الكلام، ثم الحكم والمصالح الباعثة لإيراد الكلام على وجهها، ثم التقطن والتنبه من النظم المتلو المقروء على المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات التي هي العلل الغائيّة لإنشائه، والأسرار الباعثة لنظم كلماته وتأليف حروفه" (2).

وكأنّ الشيخ عبد القادر يقدّم لمن أراد أن يفسر القرآن تفسيراً إشارياً عدّة خطوات تتدرج بداية من فهم ألفاظه المفردة؛ وصولاً إلى المكاشفات والمشاهدات التي يتلقاها المسلم بقلبه عن مولاه.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 74/4.

(2) جيلاني، تفسير الجيلاني، 156/4.

المبحث الرابع: احتواؤه على إشراقات روحية.

احتوى تفسير الشيخ عبد القادر على العديد والعديد من الإشراقات الروحية، كيف لا؛ وهو تفسير إشاري، يحوي ما أفاضه الله الجواد الكريم على قلب عبده الصادق، ويقصد الباحث بالإشراقات الروحية ما طرأ على الشيخ من أفكار ليست ذات صلة وثيقة بالتفسير؛ إنما دونها من باب الإرشاد والتوجيه والنصح للسالكين. ومن هذه الإشراقات الروحية:

1- فضل الخلوة.

في خاتمة تفسير سورة الكهف، قال الشيخ رضي الله عنه: "عليك بملازمة العزلة، ومداومة الخلوة؛ حتى لا يلحقك من الخلطة الأمراض العصال... وإن شئت أن يسهل عليك الأمر، فاشغل جوارحك لكسب ضرورات معاشك في بعض الأحيان، واقنع بأقل المعيشة، وسدّ الرّمق، واحذر عن فضول العيش؛ فإن أكثر فحول الرجال قد استترق بفضول الأمانى والآمال... وقفنا بفضلك وجودك بما تحب منا وترضى"⁽¹⁾.

وينصح الشيخ بالعزلة، ودوام الخلوة؛ لينجو المرء من الرياء والسّمة والعجب، وأنواع الرّعونات، وأن يكتفي في طلب العيش بالكفاف، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الطريقة في التربية استخدمها الشيخ عبد القادر في زمانه رضي الله عنه، أمّا اليوم فالخلوة عند الطريقة القادرية في القلب "الجسم مع الخلق، والقلب مع الحق"⁽²⁾.

2- علو قدر النبي الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم.

في فاتحة تفسير سورة (ص)، قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: "فقال سبحانه مخاطباً لحبيبه الذي اختاره لرسالته إلى كافة البرايا بالدعوة العامّة، والتّشريع التامّ الكامل، المكمّل، المتمّم لمكارم الأخلاق، ومحاسن الشّيم المتعلقة بسلوك طريق التّوحيد... (ص) أيّها الصّفيّ، الصّافي مشربه عن الأمور المنافية لتوحيد الحقّ وإيجاده، وصرافة وحدته الذاتيّة، والصدق الصّادق في ادعاء الرّسالة والنّبوة بمقتضى الوحي الإلهيّ وإلهامه، والصّبور الصّابر على متاعب الدّعوة والتّبليغ وحمل أعباء الرّسالة"⁽³⁾.

يُعبّر الشيخ عبد القادر بعبارات روحانية سامية عند توصيف قدر النبيّ صلى الله عليه وسلم عند مولاه جلّ وعلا، إنّ كلمات الشيخ لتبعث في النفس الشوق للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ذلك الصّافي المُصَفّى، الصّابر الصّبور، الصدق الصّادق المُصدّق.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 235/3.

(2) مقابلة مع الدكتور الصالحي.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 55/5 وما بعدها.

3- معرفة النفس وأعوانها.

في خاتمة سورة (ص) قال الشيخ رضي الله عنه: "عليك أيها السالك المتأمل في مرموزات القرآن والمنتدبر في درك إشارات الخفية، تحت أستار ألفاظه وأحكامه، المتعلقة لتهديب الظاهر والباطن، وتصفية السر عن التوجه نحو الغير مطلقاً: أن تعرف أولاً ما في نفسك من أعونة الشيطان، وجنوده الأمانة بالسوء، المزعجة لك إلى قبول مأموراتها، المقتضية للبعد عن جادة العدالة التوحيدية الإلهية، التي هي صراط الله الأقوم، وتجاهد معها مهما أمكنك، وأعانك الحق ووفقك لتسخيرها إلى أن صارت مغلوباً لك، مقهورة تحت قهرك، حسب ما يسر الله ووفقك على غلبته. ثم بعد ذلك نبع من صدرك ينابيع الحكمة المترشحة من بحر الوحدة الذاتية، وجرى على لسانك ما أراد الله جريه وشاء، بعدما أفنك عنك، وأبقاك ببقائه، وصار سبحانه قلبك وسمعك وبصرك وجميع قواك"⁽¹⁾.

يدعو الشيخ مريد الحق إلى محاربة أعدائه: النفس والشيطان، مستعيناً بالله في مجاهدتهما، متتبعاً الطرق والمداخل التي يؤتى من قبلها فيسدّها، فلا يبقى لهما عليه سبيلٌ حتى إذا انقادت له النفس تفجرت في قلبه ينابيع الحكمة.

4- طاعة واتباع.

في خاتمة تفسير سورة الزخرف، قال الشيخ رضي الله عنه: "عليك أيها الموحد القاصد لتحقيق الحق الحقيقي، بالإطاعة والاتباع: أن تُصَفِّي همك في جميع حالاتك عما سوى الحق، وتخلّي قلبك عن الشواغل العائقة عن التوجه الحقيقي نحوه، وتستقيم على صراط التوحيد مستويًا، مائلاً عن كل طرفي الإفراط والتفريط، مقتصدًا إذ مرجع جميع الطرق والسبل السوية إلى الله إلى العدالة الإلهية، الفائضة منه سبحانه، ... وتقتفي في تهذيبك وتصفيتك أثر النبي صلى الله عليه وسلم المجلوب على العدالة الإلهية وخلافته ونيابته، وعليك الإعراض عن عرض عن الحق وأهله، وانحرف عن سواء السبيل، جعلنا الله وعموم عباده من زمرة أهل الهداية واليقين، وجنبنا من الضلال عن الطريق المستبين"⁽²⁾.

يدعو الشيخ عبد القادر مريد الحق في هذه الإشراقة إلى الاستقامة على طريق الحق؛ وذلك بتخليّة القلب عما سوى الله، مع الاتباع الكامل لسيدنا محمد، وتثبيت النفس بصحبة الصالحين.

5- التمسك بالحبلى المتين.

في خاتمة تفسير سورة المرسلات، قال الشيخ رضي الله عنه: "عليك أيها الموحد المحمدي القاصد لسلوك طريق الهداية والتوفيق، العازم على التحقّق والتّمكّن في مقعد صدق التوحيد والتّحقيق، يسر الله عليك مبتغاك، أن تتمسك بحبل القرآن المتين، وتتشبّث بأذيال هدايته وإرشاده، وتمتثل بما فيه من

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 96/5.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 283/5.

الأوامر والنواهي والأحكام الموردة فيه، وتتفطن بما رمز له وأشير إليه من المعارف والحقائق المصقّية لسرك على الالتفات إلى ما سوى الحقّ، المعدة لقلبك لفيضان الكشف والشهود، فلك أن تتبّل إلى الله حسب استعدادك، وتتخلّق بالأخلاق المحمّديّة التي هي القرآن، والتّوفيق بيد الله، والهداية عنده، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم⁽¹⁾.

يدعو الشّيخ في هذه الإشراقّة مريد الحقّ للتّمسك بالقرآن وهديه والامتثال لما فيه من معارف وحقائق؛ إذ إن القرآن شفاء لما في الصّدر، ففيه صفاء السّريّة، التي تهَيئُ القلب لتلقّي الواردات الالهية.

6- التحذير من فتنة الدنيا.

في خاتمة تفسير سورة التكوير، قال الشّيخ رضي الله عنه: "وإيّاك إيّاك الاغترار بحياة الدّنيا، الفرار الفرار، وما فيها من المزخرفات الخداعة الماكرة؛ فإنها دار العتوّ والاعتبار، لا منزل الإقامة والقرار، واللّائق بحال الفطن الذّكيّ أن لا يتمكّن فيها إلّا على وجه الصّرورة والاضطرار، لا على سبيل الرّضا والاختيار، جعلنا الله ممّن تتبّه ببطلان الدّنيا الدّنيّة، وعموم ما فيها، وعدم ثباتها وقرارها"⁽²⁾.

فالدّنيا دار الغرور، ومتاعها زائل، وفرحها منقوص، لا قرار للمؤمن فيها ولا راحة، فيجب أن تكون حال المؤمن فيها حال عابر السبيل، يكتفي منها بزاد الرّكاب، وهمّه منصرفٌ إلى وجهة وصوله، لا يعبأ أين ينام ليله، ولا بأيّ شجرة يستظلّ، ولا بأيّ ركوبة يركب، قلبه منشغل بسلوك الطريق السليم إلى مقصده، لا يرتاح إلّا قليلاً.

يُلاحظ الباحث من هذه الإشراقات الرّوحية أنّ كلام الشّيخ يدور حول قضية أساسية؛ وهي توحيد الله سبحانه وتعالى توحيداً مطلقاً؛ بنفي كلّ ضيّ وندب، وصرف القلب عمّا سواه، وأن يجعل العبد همّه همّاً واحداً، حاله حال من قال فيهم الله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:28].

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 266/6.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 306/6.

المبحث الخامس: جزالة لغته وتميز ألفاظه

تميّزت لغة الشيخ عبد القادر في تفسيره بالمتانة والعدوبة؛ فهي ذات وقعٍ مطربٍ على السمع، تكاد الروح تطير فرحاً عند تلقّي معانيه، وبخاصّة عند تناوله لمادّة التزكية التي هي ميدان الشيخ، مع كثرة إيراد رضى الله عنه لمصطلحات الصوفيّة، ويبين هذا المبحث ذلك من خلال الأمثلة التّالية:

1- قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر:32] قال الشيخ عند تفسيرها: "(ومنهم سابق بالخيرات) مواظب على الطّاعات، مشمّر دائماً بالأعمال الصّالحات، وفواضل الصّدقات، والإنفاق على طلب المرضاة للفقراء المهاجرين في سبيل الله، المنصرفين عن الدّنيا وما فيها (بإذن الله) وعلى مقتضى ما ثبت في كتابه، ونطق به لسان رسوله؛ وهم الأخيار المحسنون من الأولياء (ذلك) الإيراث والتّوريث، والإعطاء والاصطفاء، (هو الفضل الكبير) من الله إياهم في أولاهم، والفوز العظيم والنّوال الكريم لهم في آخرهم. جعلنا الله من خدامهم ومحبيهم، ومقتفي أثرهم"⁽¹⁾.

يلاحظ وصف الشيخ عبد القادر للمؤمنين الذين أعرضوا عن الدّنيا وأقبلوا على الله بالفقراء المهاجرين في سبيل الله، وهذا معروف عند السّادة الصّوفيّة؛ إذ يُسمّون السّالك (الفقير)؛ كما قال أبو مدين⁽²⁾ رضى الله عنه في وصفهم في قصيدته المشهورة:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله في شرح هذا البيت: "والفقراء جمع فقير، والفقير هو المتجرد عن الخلائق، المعرض عن العوائق، لم يبق له قبلة، ولا مقصد إلا الله تعالى، وقد أعرض عن كل شيء سواه، وتحقق بحقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله"⁽³⁾.

فهم لا يقصدون الفقر المعروف، وهو قلة ذات اليد؛ بل الافتقار إلى الله، وذلك مصداقاً لقوله سبحانه:

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 4/ 467.

(2) أبو مدين: شعيب بن حسين الأندلسي، الزاهد شيخ أهل المغرب، كان من أهل العمل والاجتهاد منقطع النظر في العبادة والتسك، توفي في تلمسان سنة 590 هـ. الذّهبي، سير أعلام النبلاء، 21/219.

(3) السكندري، أحمد بن محمّد، عطاء الله، ت 709 هـ، عنوان التّوفيق في آداب الطّريق (شرح قصيدة "ما لذة العيش" لشيخ الشّيوخ سيدي أبو مدين الغوث رضى الله تعالى عنه)، واحة أهل البيت لإحياء التراث والعلوم، فلسطين، 434/2012م، ص3، والقصيدة على البحر البسيط.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:15] ، وهم رضي الله عنهم بهذه الطريقة في الاصطلاح اقتفوا اثر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ وضع مصطلحات خاصة أضحت مصطلحات شرعية؛ مثل: المفلس، في قوله صلى الله عليه وسلم : "أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال صلى الله عليه وسلم : إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار"⁽¹⁾.

ومثل مصطلح (المفردون) كما جاء في الحديث " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له، جُمدان، فقال: سيروا، هذا جُمدان، سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذَّاكرون الله كثيراً والذَّاكرات"⁽²⁾.

2- قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر:50]

قال الشيخ عند تفسيرها: "(وما أمرنا) وحكمتنا الصادر المبرم منا في السرعة والمضاء... (إلا) فَعَلَّةٌ (واحدة) بلا ترتب وتراخ، وتوقف ومهلة (كلمح بالبصر) أي كنظرة سريعة بالظرف، هيهات هيهات، والله ما هذا التمثيل لسرعة نفوذ القضاء الإلهي إلا بحسب أحلام الأنام وبمقتضى أفهامهم وأوهامهم السخيفة، وإلا فلا يُكتنه سرعة قضائه أصلاً، حتى يُمثل ويشبه"⁽³⁾.

يلاحظ تفاعل الشيخ مع الآيات الكريمة، وتأثره بها؛ من خلال لغته التي كانت تتساب مظهرة حرقة الشيخ في بيان أن هذا التشبيه القرآني ما هو إلا لتقريب الصورة للأذهان القاصرة، وأن قضاء الله أسرع من أن يدرك فيُشبهه.

(1) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم 2581.

(2) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم 2676.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 470/5 وما بعدها.

3- قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى:14]

قال الشيخ عبد القادر في تفسيرها: " (قد افلح) وفاز بالدرجة القصوى والمرتبة العليا (من تزكى) وتطهر عن أدناس الطبائع، وأكدار الهيولى⁽¹⁾ من الميل إلى الدنيا، وما فيها من الملذات الفانية، والشهوات الغير الباقية، وتوجه نحو المولى بالعزيمة الخالصة"⁽²⁾.

عبر الشيخ عبد القادر بلفظة (الهيولى) بكثرة في تفسيره، ويقصد بها مادة الخلق الأصلية، ومراده من ذلك أن يترفع الإنسان عن ميولات الجسد البشري وشهواته؛ وذلك لأن (الهيولى) مادة الخلق لكل الخلائق؛ فالإنسان تخالطه طبائع حيوانية، وتخالطة نزوغ شيطانية، ولمة ملائكية؛ كذلك فإن الإنسان يتلون بألوان التراب والرمال الذي هو أصل خلقه، فالمتأمل في خلق الإنسان يجد كل عناصر الكون موجودة فيه ويتطبع بطبائعها.

(1) جاء في المعجم الوسيط: "الهيولى بضم الياء مخففة أو مشددة: مادة الشيء التي يصنع منها، كالخشب للكرسي، والحديد للمسمار، والقطن للملابس القطنية، والهيولى عند القدماء: مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة، قابلة للتشكيل والتصوير في شتى الصور، وهي التي صنع الله تعالى منها أجزاء العالم المادية. والهيولى التخطيط المبدئي للصورة أو التمثال. والهيولى القطن"، المعجم الوسيط، 2/1004.

(2) الجيلاني، تفسير الجلاني، 6/351.

المبحث السادس: التكرار.

كرّر الشيخ عبد القادر ألفاظاً وتراكيب كثيرة، فعلى طول التفسير يلاحظ القارئ تكرار بعض الجمل والتراكيب، ويرجح الباحث أنّ الشيخ عبد القادر كرر بعض العبارات لأهميتها تارة، وللتأكيد على معنى جديد يغيب عن الذهن تارة أخرى، وغيرها من الأهداف التي حاول الباحث في هذا الفصل استخلاصها، ومن الأمثلة على ذلك:

1- أظلال أسمائه :

يورد الشيخ هذه العبارة وما اشتقّ عنها بكثرة، ويقصد بها آثار أسماء الله الحسنى في خلقه؛ فقد أودع الله في مخلوقاته بعضاً من صفاته؛ لتقريب صفاته وأسمائه الكاملة إلى الأذهان القاصرة، وعبر الشيخ بكلمة «أظلال» بدلاً من آثار؛ وذلك لأننا ننتعم في أسمائه كما ينتعم الواحد منا بالظل في اليوم الحارّ. وهذا مثال يبين ذلك المعنى بجلاء: في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: 68]

قال الشيخ عند تفسيرها: "وكيف لا تعبدونه سبحانه، ولا تعرفونه أيها العقلاء المجبولون على فطرة الدراية والشعور مع أنه (هُوَ الَّذِي يُحْيِي) بامتداد أظلال أسمائه كل ما لاح عليه شمس وجوده، (ويُمِيتُ) يقبض تلك الأظلال بالإرادة والاختيار، وبالجملة: (فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا) أي: تعلقته إرادته ومشيئته بإحداث ما ظهر في عالم الأمر (فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ) بعد تعلق مشيئته: (كُن فَيَكُونُ)"⁽¹⁾.

وقد تكررت فيما أتيج للباحث أن يطالع عليه 15 مرة، في البقرة: 283، يونس: 19، الرعد: 16، مريم: 93، النور: 35، القصص: 85، العنكبوت: 20، الزمر: 62، غافر: 68، فصلت: 37، الشورى: 29، الزخرف: 14، الواقعة: عند تفسيره للبسملة، القيامة: مقدمة السورة، الإخلاص: 3.

2- الملائكة المهتمين المستغرقين:

يكرر الشيخ وصف الملائكة عليهم السلام بالمهتمين المستغرقين، وذلك لأنهم عرفوا الله حق عرفانه بما أطلعهم الله عليه من جماله وجلاله، فهاموا فيه حباً. فيفهم من كلام الشيخ وتكراره لهذه العبارة أنّ الملائكة عليهم السلام ليست مجرد مخلوقات خلقت للقيام بمهام محددة، وليست مخلوقات تخلو من العاطفة والعقل والمنطق؛ بل هم خلق عرفوا الله فاستغرقوا في عشق ذات الله جلّ وعلا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93]

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 5/178

قال الشيخ عند تفسيرها: " (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ) من الملائكة المهيمين المستغرقين بمطالعة جمال الله، المستوحشين من سطوة جلاله (وَالْأَرْضِ) أي: مَنْ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ المتوجهة نحو مبدعها طوعاً (إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ) المُمد لهم أطلال أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى، والمفيض عليهم من رشحات بحر وجوده، بمقتضى فضله وجوده (عَبْدًا) متذللاً مقهوراً تحت تصرفه، مصروفاً حسب قدرته وإرادته، محاطاً تحت حيطه حضرة علمه ولوح قضائه"⁽¹⁾

وقد تكررت فيما أتيح للباحث أن يطلع عليه أربع مرّات؛ في الأعراف: 11، مريم: 93، الزمر: 75، فصلت: 38.

3- الموطن الأصلي:

ويقصد به الشيخ عالم الذرّ؛ وهو الموطن الذي كانت به الأرواح حين أكرمها الله تعالى بخطابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172] ، وفي رأي الشيخ أن الإنسان سمّي إنساناً لnesiaه منزله الحقيقي؛ فقد ران على قلبه زخرف الدنيا، وأخذت فتنها لبّه، ولا يكون انجلاء ذلك إلا بالاستغراق بالذّكر وبدوام الفكر.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]

قال الشيخ عند تفسيرها: "﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذين نسوا الموطن الأصلي، والمنزل الحقيقي؛ بزخرفة الدنيا المانعة من الوصول إليه، عليكم الاتقاء من غوائلها، والاجتناب عن مخايلها؛ حتى لا تتخطوا عن مرتبتكم الأصلية ومكانكم الحقيقي"⁽²⁾.

ويلاحظ الباحث مما تقدّم أنّ الشيخ يكرّر بعض العبارات لأسباب منها:

- 1- لتأكيد المعنى المراد من التركيب، كما في مثال «أطلال أسمائه».
- 2- تغيير المفاهيم وتصحيحها؛ كما في مثال «الملائكة المهيمين».
- 3- لفت النظر إلى معنى جديد؛ كما في مثال «الموطن الأصلي».

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 274/3.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 363/1.

المبحث السّابع: تفسيره للبسملة تفسيرًا مختلفًا في كلّ سورة.

فسّر الشّيخ عبد القادر الجيلاني البسملة تفسيرًا مغايرًا في كلّ سورة من سور القرآن الكريم، وكان هذا التفسير للبسملة متوائماً مع روح السّورة، وجوّها العام، وكأنّه يلخّص الفكرة العامّة التي تناولتها السّورة. مثال ذلك:

1- تفسير الشّيخ للبسملة في بداية سورة مريم.

قال الشّيخ عند تفسيرها: " (بسم الله) الذي تجلّى على أنبيائه ورسله ببداية الكمالات الخارقة للعادات، (الرحمن) لهم يفتح عليهم أبواب المراتب بأسباب السّعادة (الرّحيم) لهم يوصلهم إلى أقصى المقامات وأعلى الكرامات"⁽¹⁾.

لا يخفى على مسلم ما حوته سورة مريم من ذكر معجزات رسول الله زكريّا عليه السّلام الذي وهب على الكبر يحيى عليه السّلام، ومولد سيّدنا عيسى بن مريم عليه السّلام بدون والد، ونطقه في المهد وغيرها من المعجزات، فجاء تفسير البسملة منسجماً مع هذه الكرامات والمعجزات.

2- تفسير الشّيخ الجيلاني للبسملة في سورة المعارج.

قال الشّيخ عند تفسيرها: " (بسم الله) الذي كشف ذاته على أرباب المحبّة والولاء بعد رفع الحجب والغطاء، (الرحمن) عليهم يوفّقهم بالصّعود إلى عالم الأوصاف والأسماء (الرّحيم) لهم يوصلهم إلى مرتبة البقاء بعد الفناء"⁽²⁾.

فسّر الشّيخ البسملة في سورة المعارج تفسيرًا منسجماً مع الجوّ العامّ للسّورة إذ أنّ سورة المعارج تحدّثت عن عروج الملائكة والرّوح إلى الله، وعن صفات المؤمنين التي تؤهّلهم للعروج في الدّرجات والمقامات الرّفيعة المقربة إلى الله سبحانه.

3- تفسير الشّيخ الجيلاني للبسملة في بداية سورة الإخلاص.

قال الشّيخ عند تفسيرها: " (بسم الله) الذي لا يُكتنه ذاته بمدارك مظاهره ومصنوعاته مطلقاً، (الرحمن) عليهم بتوصيف ذاته إياهم، (الرّحيم) لخواصّهم، يهديهم إلى سرائر معرفته وتوحيده"⁽³⁾.

فسّر الشّيخ البسملة في سورة الإخلاص تفسيرًا منسجماً مع روح السّورة وموضوعها، ألا وهو صفات الله تعالى وتوحيده.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 237/3.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 170/6.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 451/6.

بالنظر في المباحث السبعة السابقة، ومن خلال قراءة تفسير الشيخ عبد القادر الجيلاني ومطالعة، وجد الباحث أن الشيخ صاحب منهج واضح وثابت على طول تفسيره، وامتاز منهجه بعدة نقاط؛ منها:

1- جعل الشيخ عبد القادر لكلّ سورة افتتاحاً وختاماً، لخصّ فيهما التوجيهات التي تناولتها السورة الكريمة، والتزم في خاتمة السورة بتوجيهات ونصائح للسالك في طريق الحق، الذي يبغى الوصول إلى مرتبة التوحيد؛ بأن يقطع تعلق قلبه بكلّ شيء سوى الله سبحانه وتعالى، ويعيش مستغرقاً بمشاهدة الله في أفعاله وصفاته، وتدبيره وحكمه لمخلوقاته، ولطفه الخفي، ورزقه لعباده كافة، ونصرته لأولياته، وخذلانه لأعدائه، ومكره بهم، فيعيش عبداً لله، ومع الله، وإلى الله، وغيرها مما يحتاج السالك.

2- فسّر الشيخ عبد القادر البسملة بشكل مغاير في كلّ سورة بما ينسجم مع روح السورة وجوّها العام.

3- أدب الشيخ العالي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث أنه ما من موضع يأتي فيه على ذكر النبي صلى الله عليه وسلم إلا وقال: (يا أكمل الرسل)، وهذا من امتثال الشيخ عبد القادر لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]

4- لم يُفسّر الشيخ آيات العقيدة تفسيراً إشارياً.

5- يورد الشيخ في تفسيره مصطلحات السادة الصوفية بكثرة ويكررها.

6- لا يستشهد الشيخ بالتفسير المأثور عن الصحابة إلا نادراً.

7- يورد الشيخ نصّ السورة كاملاً؛ فيكون جزءاً من نصّ التفسير. مثال ذلك تفسير سورة العصر:

قال الشيخ عند تفسيرها: "(وَالْعَصْرِ) أقسم سبحانه بالعصر والدهر الذي هو عبارة عن بقاء الوجود الأزلي الأبدي ودوامه السرمدى (إِنَّ الْإِنْسَانَ) المجبول على فطرة المعرفة والإيمان حسب حصته اللاهوتية (لَفِي خُسْرٍ) عظيم، وخيبة بيّنة؛ بسبب اشتغاله بما لا يعنيه من لوازم بشريته المتعلقة بحصة الناسوت⁽¹⁾ (إِلَّا) الموقنين (الَّذِينَ آمَنُوا) بوحدة الحق، وتفتنوا باستقلاله في التصرفات الجارية في ملكه وملكوته (و) مع الإيمان والإذعان (عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) الدالة على إخلاصهم ويقينهم ونياتهم (و) مع ذلك (تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ) أي: أوصى بعضهم بعضاً لسلوك طريق الحق وتوحيده (وَتَوَاصَوْا) أيضاً (بِالصَّبْرِ) على مشاق الطاعات ومتاعب الرياضات الطارئة عليهم، من قطع المألوفات الإمكانية، وترك الذات البهيمية اللازمة للقوى البشرية. وفقنا الله على قلعها وقطعها".⁽²⁾

(1) الناسوت: الطبيعة البشرية، ويقابله اللاهوت بمعنى الألوهية. المعجم الوسيط، 895/2.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 425/6.

الباب الثالث: الشَّيْخُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقَشِيرِي وَتَفْسِيرُهُ
وفيه فصلان:

الفصل الأول: ترجمة الشَّيْخِ أَبِي الْقَاسِمِ الْقَشِيرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفصل الثاني: منهج الشَّيْخِ الْقَشِيرِي فِي التَّفْسِيرِ.

الفصل الأول: ترجمة الشيخ أبي القاسم القشيري رضي الله عنه
وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه ومولده ونشأته.

المبحث الثاني: صفاته وكراماته.

المبحث الثالث: عقيدته.

المبحث الرابع: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته.

المبحث الخامس: مقتطفات من شعره في الحبّ الإلهيّ.

المبحث السادس: وفاته.

الفصل الأول:

ترجمة الشيخ أبي القاسم القشيري رضي الله عنه:

في هذا الفصل يتناول الباحث ترجمة الشيخ أبي القاسم القشيري : اسمه، ونسبه، وولادته، وأسرته ونشأته، وما اتّصف به من صفات، وبعضاً مما تناقله الناس من كراماته، وشيوخه الذين أخذ عنهم العلم والتّصوّف، وتلاميذه الذين حملوا علمه ونشروه، وعقيدته، وأشهر مؤلّفاته، وبعضاً من أشعاره في الحبّ الإلهيّ، ووفاته رحمه الله. كما هو موضح فيما يلي:

المبحث الأول: اسمه ونسبه ومولده ونشأته.

"هو الإمام الزّاهد القدوة الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري النّيسابوري، الشّافعيّ، الصّوفيّ، المفسّر، صاحب الرّسالة"⁽¹⁾.

وزاد السيوطي على ذلك فقال: "شيخ خراسان، وأستاذ الجماعة، ومقدّم الطّائفة"⁽²⁾. "والقشيري بضمّ القاف وفتح الشّين المعجمة، وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء. هذه النّسبة إلى قشير بن

(1) الذهبي، سير أعلام النّبلاء، 227/18. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 366 /12. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، ت 681، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1900-1994م، 205/3. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن خلكان، وفيات الأعيان.

(2) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، ت 911هـ، طبقات المفسّرين، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1396هـ، ص73. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: السيوطي، طبقات المفسّرين.

كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، قبيلة من العرب ينتسب إليها كثير من المشاهير منهم الإمام مسلم بن حجاج صاحب الصحيح⁽¹⁾. "وهو من منطقة أَسْتَوَا⁽²⁾، من العرب الذين قدموا خراسان"⁽³⁾. ولد رضي الله عنه سنة 376هـ⁽⁴⁾. قال الخطيب البغدادي رحمه الله: "سألت القشيري عن مولده فقال: في ربيع الأول، سنة 376هـ"⁽⁵⁾.

قال عنه ابن الأثير رحمه الله: "أحد مشاهير الدنيا بالفضل والعلم والزهد، وأولاده وأهله كلهم فضلاء مشهورون"⁽⁶⁾.

توفي أبوه وهو صغير⁽⁷⁾، فربته أمه "وهي من بني سليم"⁽⁸⁾، "وتعلم الفروسيّة والعمل بالسلاح حتى برع في ذلك، ثم تعلم الكتابة والعربية"⁽⁹⁾.

قال الذهبي: "دفع إلى الأديب أبي القاسم اليميني⁽¹⁰⁾، فقرأ عليه الآداب، وكانت للقشيري ضيعة مثقلة بالخراج بأَسْتَوَا، فتعلم طرفاً من الحساب، وعمل قليلاً ديواناً"⁽¹¹⁾.

(1) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، ت630هـ، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، 1400هـ/1980م، 37/3. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن الأثير، اللباب. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 208/3.

(2) بالضم ثم السكون، وضمّ التاء المثناة وواو وألف، كورة من نواحي نيسابور، وهي من عيون نواحي نيسابور، وحدودها متصلة بحدود نسا، خرج منها خلق من العلماء. ياقوت الحموي، معجم البلدان، 175/1.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 205/3.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 207/3. ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 260. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 227/18. الصفدي، الوافي بالوفيات، 64/19.

(5) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 366/12.

(6) ابن الأثير، اللباب، 38/3.

(7) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 229/18. ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص258.

(8) ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي، ت774هـ، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، 131/12. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن كثير، البداية والنهاية.

(9) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 227/18.

(10) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: لم نجد ترجمة هذه النسبة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 229/18، الحاشية.

(11) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 229/18.

تزوج من ابنة شيخه الحسن أبي علي الدقاق "فاطمة أم البنين، الشَّيخة العابدة، النيسابورية، وأمّ أولاده... وكانت قانتة، متهجّدة، كبيرة القدر". توفيت رضي الله عنها سنة 480هـ⁽¹⁾.

وقد رزقه الله منها أربعة من العلماء المشهورين بالعلم والفضل؛ وهم: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الواحد، وعبد المنعم، وكلهم حدّث عنه⁽²⁾.

(1) الذَّهبي، سير أعلام النبلاء، 479/18. الذَّهبي، محمد بن أحمد بن قابماز، ت748هـ، العبر في خبر من غير، تحقيق محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 342/2. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الذَّهبي: العبر، ابن العماد، شذرات الذهب 348/5.

(2) الذَّهبي، سير أعلام النبلاء، 228/18.

المبحث الثاني: صفاته وكراماته.

" كان رحمه الله عديم النظير في السلوك والتذكير، طيب الأخلاق، غوّاصاً في المعاني... جمع بين الشريعة والحقيقة"⁽¹⁾، "وكان أملح خلق الله، وأظرفهم شمائل"⁽²⁾.

قال السيوطي: "وكان إماماً، قدوةً، مفسراً، محدثاً، فقيهاً، شافعيّاً، متكلماً، أشعريّاً، نحويّاً، كاتباً، شاعراً، صوفيّاً، زاهدّاً، واعظاً، حسنّ الوعظ، مليح الإشارة، حلّو العبارة، انتهت إليه رئاسة التّصوّف في زمانه"⁽³⁾. وقال عنه البخارزي: "لو قرع الصّخر بسوط تحذيره لذاب، ولو ارتبط إبليس في مجلس تذكيره لتاب"⁽⁴⁾.

ومن كراماته رضي الله عنه:

1- كان رحمه الله يحفظ كلّ ما يسمع، " فقد حصل أن راجعه شيخه في الفقه أبو إسحاق الإسفراييني"⁽⁵⁾، عندما رآه لا يكتب كبقية أقرانه، فقال له: هذا العلم لا يحصل بالسماع، ولا بدّ من الضبط والكتابة. فأعاد الشّيخ القشيريّ على شيخه جميع ما سمعه منه منذ أيام، فعجب منه وعرف محله فأكرمه، وقال له: ما تحتاج إلى درس؛ بل يكفيك أن تطالع مصنّفاً"⁽⁶⁾.

2- تجرّه في العلوم، فألى جانب موهبة الحفظ أكرمه الله تعالى بالفهم والهضم السّريع لمختلف العلوم، قال عنه الذهبي: "خارج في إحاطته بالعلوم عن الحدّ البشري"⁽⁷⁾. فقد كان القشيريّ "علامة في الفقه والتّفسير والحديث والأصول والأدب والشّعْر والكتابة وعلم التّصوّف"⁽⁸⁾.

3- روى الزّركشي: "أنّ الشّيخ أبا القاسم القشيريّ رأى النّبّي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لي أراك محزوناً؟ فقال: ولدي قد مرض واشتدّ عليه الحال، فقال

(1) الذهبي، سير أعلام النّبلاء، 229/18 وما بعدها

(2) ابن العماد، شذرات الذهب، 276/5.

(3) السيوطي، طبقات المفسّرين، ص 74.

(4) البخارزي، عليّ بن الحسن، ت 467هـ، دمية القصر وعصرة أهل العصر، دار الجيل، بيروت، ط1، 1414هـ، 993/2. وسيسار إليه عند إعادة ذكره هكذا: البخارزي، دمية القصر.

(5) ستأتي ترجمته في مبحث شيوخه، ص 98.

(6) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 206/3.

(7) الذهبي، سير أعلام النّبلاء، 231/18.

(8) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 205/3.

له: أين أنت عن آيات الشفاء؟ ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14]، ﴿وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: 57]، ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 69]، ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80]، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي عَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: 44]، فقرأ هذه الآيات عليه ثلاث مرّات فيراً⁽¹⁾. وهذه كرامة عظيمة للشيخ القشيري.

إن تراجم الرجال تزخر بعبارات الثناء والمدح على الشيخ القشيري رحمه الله، وإن علمه الغزير لهو الكرامة السنيّة؛ فمن لطيف قوله في الكرامات: "واعلم أنّ من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات، والحفظ من المعاصي والمخالفات"⁽²⁾.

(1) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر. ت 794 هـ، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط1، 1376هـ/1957م، 435/1.

(2) القشيري، عبد الكريم بن هوازن، ت465هـ، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود الشّريف، دار المعارف، القاهرة، 526/2.

المبحث الثالث: عقيدته.

ذكر الخطيب البغدادي رحمه الله أن عقيدة الشيخ القشيري هي عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب أبي الحسن الأشعري⁽¹⁾؛ أي يؤول آيات الصفات كما هو معلوم من مذهب الإمام الأشعري، وأكد ذلك الباخرزي حيث قال عنه: "ماهر في التكلّم، على مذهب أبي الحسن الأشعري"⁽²⁾، وقد صنّف الشيخ كتابًا في الدفاع عن عقيدة أبي الحسن الأشعري أسماه «شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة»⁽³⁾، وأفضّل ما يُستدلّ به على ذلك كلام الشيخ في تفسيره الذي بين أيدينا لآيات العقيدة، وتضمّن هذا المبحث جملةً منها، وتفسير الشيخ القشيري لها:

أولاً: الإيمان بالله تعالى.

1- وفي آية الفتح عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: 10]، قال رضي الله عنه: "يد الله: في المنّة عليهم بالتوفيق والهداية، فوق أيديهم: بالوفاء حين بايعوك، ويُقال: قدرة الله وقوته في نصرته دينه، ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم، فوق نصرهم لدين الله ورسوله"⁽⁴⁾.

2- عند قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: 48]، قال رضي الله عنه: "أنت بمرأى منّا؛ وفي نصرته منّا، في هذا تخفيف عليه وهو يقاسي الصبر"⁽⁵⁾.

فيلاحظ مما سبق أن الشيخ يؤول آيات الصفات فأول اليد بالقدرة والمنّة، والعين بالرعاية.

ثانياً: عقيدته في الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

1- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

(1) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 366/12. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 207/3. الذهبي: سير أعلام النبلاء،

18231، الصفدي، الوافي بالوفيات، 63/19.

(2) الباخرزي، دمية القصر، 993/2.

(3) سياي تي ذكره في المبحث الرابع، ص 101.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 211/3.

(5) القشيري، لطائف الإشارات، 246/3.

قال الشيخ عند تفسيرها: "ولم يكن قول الملائكة (أجعل فيها من يُفسد فيها) على وجه الاعتراض على التقدير، ولكن على جهة الاستفهام؛ فإن حمل الخطاب على ما يوجب تنزيه الملائكة أولى لأنهم معصومون"⁽¹⁾.

يَعْتَقِدُ الشَّيْخُ بِعَصْمَةِ الْمَلَائِكَةِ عَنِ الْعَصِيَانِ أَوْ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى فِعْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَيَنْزَهُهُمْ عَنِ كُلِّ ذَلِكَ.

2- ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِءِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: 7].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "حملة العرش من حول العرش من خواص الملائكة، مأمورون بالتسبيح لله، ثم بالاستغفار للعاصين، ... ويجتهدون في الدعاء لهم على نحو ما في هذه الآية وما بعدها؛ فيدعون لهم بالنجاة، ثم برفع الدرجات، ويحيلون الأمر في كل ذلك على رحمة الله"⁽²⁾. يعتقد الشيخ القشيري بالملائكة أنهم عباد الله، وهم مأمورون بأعمال مخصوصة، فحملة العرش من الملائكة مأمورون بالتسبيح والاستغفار للعباد، والدعاء لهم.

ثالثاً: الإيمان بالكتب السماوية.

1- قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "لما آمن نبينا صلى الله عليه وسلم بجميع ما أنزل من قبله أكرم بجميع أكرمه من قبله ... ولما آمنت أمته بجميع ما أنزل الله على رسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ضربوا في التكريم بالسهم الأعلى، فنتقدموا على كافة الأمم"⁽³⁾. وضح الشيخ القشيري كرامة من كرامات الأمة المحمدية، وهي إيمانها بجميع الكتب السماوية السابقة، التي أنزلها الله على رسله عليهم السلام، فنالت بذلك قدم السبق.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 33/1 وما بعدها.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 130/3.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 72/1.

2- قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا الَّذِينَ اسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: 44].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "يُخبر تعالى أنه استحفظ بني إسرائيل التوراة فحرفوها، فلما وكل إليهم حفظها ضيعوها. وأمّا هذه الأمة فخصهم بالقرآن، وتولّى سبحانه حفظه عليهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، فلا جرم لو غير واحد حركة أو سكوناً من القرآن لنادى الصبيان بتخطيئه"⁽¹⁾.

من ميزات الأمة المحمديّة أن حفظ الله لها كتابها السماويّ، خلافاً لأمم السابقة الذين أوكل الله لهم حفظ كتبهم، فحرفوها وضيعوها.

رابعاً : الإيمان بالرّسل عليهم الصّلاة والسّلام.

1- قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أي أفردنا كلّ واحد منكم معاشر الأنبياء بطريقة، وأمّا أنت فلا يدانك في طريقك أحد، وأنت المقدم على الكافة، والمفضل على الجملة"⁽²⁾.

يتضح من تفسير الشيخ للآية أن الله تعالى جعل لكلّ نبيّ طريقة وشرعة، وأنّ الله تعالى فضّل سيّدنا محمّداً صلى الله عليه وسلم وقدمه على سائر الأنبياء.

2- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أنه بفضله اختارهم واجتباهم، ومما أنعم به عليهم من الخصائص رقة قلوبهم، فهم إذا تلى عليهم الآيات سجدوا، وسجدوا ظواهرهم يدلّ على سجود سرائرهم"⁽³⁾. فالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام عباد الله المُجْتَبُونَ، اختارهم وأنعم عليهم بكل أصناف الكمالات البشريّة، فقلوبهم كما أجسادهم خاشعة للرحمن.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 265/1.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 267/1.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 244/2 وما بعدها.

خامساً: الإيمان باليوم الآخر:

1- قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُّهُ

دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ [النمل: 87]

قال الشيخ عند تفسيرها: "أخبر أن اليوم الذي ينفخ فيه في الصور هو يوم إزهاق الأرواح، وإخراجها عن الأجساد، فمن روح ترقى إلى عليين، ومن روح تذهب إلى سجين"⁽¹⁾. يتحدث الشيخ عن النفخة الأولى في الصور، وما يعقب ذلك من خروج الأرواح؛ فالمؤمنة إلى نعيمها والكافرة إلى جحيمها.

2- قال تعالى: ﴿وَوَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

[الجاثية: 28]

قال الشيخ عند تفسيرها: "كلُّ بحسابه مطالب؛ فأما الذين آمنوا فلقد فازوا وسادوا، وأما الذين كفروا فهلكوا وبادوا، ويقال لهم: أنتم الذين إذا قيل لكم حديث عقابكم كذبتهم مولاكم، فالיום كما نسيتمونا ننساكم، والنار ماواكم"⁽²⁾.

فمهما عاش الإنسان فلا بُدَّ من حساب بعد الموت، إما إلى جنة وحرير، أو إلى نار وسعير.

3- قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾ [النبا: 1-3]

قال الشيخ عند تفسيرها: "مختلفون بشدة إنكارهم أمر البعث، ولالتباس ذلك عليهم، وكثر مساءلتهم عنه، وكثرة مراجعتهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في معناه. تكرر من الله إنزال أمر البعث، وكما استدلل عليهم في حوارهِ بوجوه من الأمثلة، فهذا من ذلك"⁽³⁾.

يذكر الشيخ القشيري رحمه الله أن الله سبحانه وتعالى حاجج المشركين في مواضع كثيرة من كتابه في مسألة البعث بعد الموت، وهذا الموضع من جملة هذه المواضع.

سادساً: الإيمان بالقضاء والقدر:

عقيدة الإمام القشيري في القضاء والقدر تتلخص بقوله بخلق أفعال العباد بخيرها وشرها، فقد قال في رسالته القشيرية: "ولا يخرج عن قدرته مقدور ولا ينفك عن حكمه مفطور، ولا يعزب عن علمه معلوم

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 427/2.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 193/3.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 384/3.

ولا هُوَ عَلَىٰ فَعْلِهِ كَيْفَ يَصْنَعُ وَمَا يَصْنَعُ مَلُومٌ، ..فَعَلَ مَا يَرِيدُ وَيَذِلُّ لِحُكْمِهِ الْعَبِيدِ، لا يَجْرِي فِي سُلْطَانِهِ إِلَّا مَا يَشَاءُ، ولا يَحْصُلُ فِي مَلِكِهِ غَيْرَ مَا سَبَقَ بِهِ الْقَضَاءُ، ما عِلْمُ أَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْحَادِثَاتِ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ وَمَا عِلْمُ أَنَّهُ لا يَكُونُ مِمَّا جاز أَنْ يَكُونَ أَرَادَ أَنْ لا يَكُونَ، خالِقُ أَكْسَابِ الْعِبَادِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا"⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253].

قال الشيخ عند تفسيرها: "ولكنهم مُصْرَفُونَ بِالْمَشِيئَةِ الْأَرْثِيَّةِ، ومسلوبون من الاختيار الذي عليه المدار، وبه الاعتبار. والعبودية شدّ نطاق الخدمة وشهود سابق القسمة"⁽²⁾.

يتبيّن من تفسير الشيخ للآية السابقة قوله بعدم الاختيار، وأنّ عين العبودية الإيمان بعدالة الله في قسمته بين عباده. ولكن في آيات أخرى يثبت الشيخ أنّ للعبد إرادة كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19]، فيقول عند تفسيرها: "علامة من أراد الآخرة على الحقيقة أن يسعى لها سعيها، فإرادة الآخرة إذا تجرّدت عن العمل لها كانت مجرد إرادة، ولا يكون السعي مشكورا"⁽³⁾.

يتبيّن مما سبق أنّ الشيخ القشيري:

- 1- يؤوّل آيات الصّفات على مذهب أبي الحسن الأشعريّ.
- 2- ينزّه الملائكة عليهم الصّلاة والسّلام عن المعاصي والنّقص.
- 3- يجعل من كرامات الأمّة الإسلاميّة إيمانها بالكتب السابقة.
- 4- أنّ أفعال العباد بخيرها وشَرِّها من خلق الله، ولا اختيار لهم ولا إرادة

(1) القشيري، الرسالة القشيرية، 33/1.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 117/1.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 185/2.

المبحث الرابع: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته.

يتناول الباحث في هذا المبحث شيوخ الشيخ عبد الكريم القشيري الذين تلقى عنهم العلم، وأشهر تلاميذه الذين حملوا عنه العلم، وأهم مؤلفاته العلمية:

المطلب الأول: شيوخه

درس الشيخ عبد الكريم القشيري على عدد من المشايخ الأجلاء، منهم:

- 1- الشيخ أبو عليّ الدقاق، الحسن بن عليّ النيسابوريّ المعروف بالدقاق، وهو شيخ الإمام القشيريّ في التصوّف، كان إمام وقته في علم التصوّف، وتوفّي رضي الله عنه سنة 406هـ⁽¹⁾.
- 2- أبو إسحاق الإسفرايينيّ، وهو "الإمام العلامة الأوحّد، الأستاذ، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمّد بن إبراهيم، بن مهران، الإسفرايينيّ، الأصوليّ، الشافعيّ، الملقّب بركن الدّين... أحد المجتهدين في عصره... حدّث عنه الإمام أبو القاسم القشيري... توفّي يوم عاشوراء لعام 418هـ"⁽²⁾.
- 3- وتفقّه على محمّد بن بكر أبي بكر الطّوسيّ⁽³⁾. وهو "إمام أصحاب الشّافعيّ بنيسابور، وفقههم، ومدرّسهم، وله الدّرس والأصحاب، وله مع ذلك الورع والزّهّد والانقباض عن النّاس وترك طلب الجاه، والدّخول على السّلاطين... كان من أحسن النّاس خلقاً ومن أحسنهم سيرة... توفّي بنوقان - إحدى مدائن طوس - سنة عشرين وأربعمئة"⁽⁴⁾.
- 4- "ومن شيوخه في الحديث أبو نُعيم الإسفرايينيّ"⁽⁵⁾. وهو "الشيخ العالم، مُسند خراسان أبو نعيم عبد الملك بن الحسن بن محمّد بن إسحاق بن الأزهر، الأزهريّ، الإسفرايينيّ، طال عمره وتكاثر عليه المحدثون لقراءة الحديث، ولد في ربيع الأوّل سنة عشر وثلاث مائة، وتوفّي سنة أربع مائة"⁽⁶⁾.

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 206/3. الذهبي، العبر، 212/2، ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص257. ابن العماد، شذرات الذهب، 40/5.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 354/17. الذهبي، العبر، 234/2. ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد، ت851هـ، طبقات الشافعية، تحقيق عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1407هـ، ص170/1. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية. ابن العماد، شذرات الذهب، 90/5.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 228/18.

(4) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 121/4. ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، 179/1.

(5) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 366/12.

(6) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 71/17 وما بعدها. ابن العماد، شذرات الذهب، 524/4.

5- درس الأصول على محمد بن الحسن المعروف بابن فُوزك⁽¹⁾. وهو "الإمام أبو بكر بن فُوزك الأصبهاني، المتكلم، تصدّر للإفادة بنيسابور، وكان ذا زهدٍ وعبادةٍ، وتوسّع في الأدب، والكلام والوعظ والنحو... فأحيا الله تعالى به أنواعًا من العلوم، وظهرت بركته على المتفهمّة، ودفن في نيسابور"⁽²⁾.

المطلب الثاني: تلاميذه:

أخذ العلم عن الإمام أبو القاسم القشيري خلق كثير، فقد عاش طويلاً قرابة التسعين عامًا، فسمع منه الكثير من طلبة العلم، أشهرهم:

1- أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري، أشهر أبنائه الذين حملوا العلم عن أبيهم، كان إمامًا مناظرًا مفسرًا أديبًا علامة متكلمًا، وجرى له مع الحنابلة في زمن إقامته ببغداد أمور كثيرة وفتن، توفي سنة 514 هـ⁽³⁾.

2- عبد الوهاب بن شاه أبو الفتوح، الشاذياخي، الخرزى، النيسابوري. كان شيخًا صالحًا من اهل الخير والصلاح، سمع من القشيري رسالته، توفي سنة 535 هـ بنيسابور ليلة الجمعة⁽⁴⁾.

3- عبد الجبار بن محمد الخواري، أبو محمد، الشيخ، الإمام، المفتي، المعمر، الثقة، إمام جامع نيسابور، كان متواضعًا بصيرًا بمذهب الشافعي، ولد سنة 445 هـ، وتوفي في شعبان من العام 536 هـ⁽⁵⁾.

4- عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن البحيري، الشيخ الثقة، الصالح، مسند نيسابور، ولد سنة 453 هـ، ومات سنة 540 هـ⁽⁶⁾.

5- زاهر بن طاهر بن محمد الشّامي النّيسابوري، الشّرخ، العالم، المحدث، المفيد، المعمر، مسند خراسان، كان إمامًا في الحديث أكثرًا عالي الإسناد، صدوقًا في الرواية، ولد سنة 446 هـ، وتوفي سنة 533 هـ⁽⁷⁾.

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 18/ 228. ابن الملقن، طبقات الأولياء ص 258.

(2) ابن العماد، شذرات الذهب، 5/ 43.

(3) الذهبي، العبر، 2/ 403. ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، 1/ 285، ابن العماد، شذرات الذهب، 6/ 73.

(4) ابن نقطة، محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع، ت 629 هـ، التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، ط1، 1408 هـ/ 1988 م، ص 372. الذهبي، العبر، 2/ 447. ابن العماد، شذرات الذهب، 6/ 176.

(5) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 20/ 71. الذهبي، العبر، 2/ 250، ابن العماد، شذرات الذهب، 6/ 185.

(6) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 20/ 156. الذهبي، العبر، 2/ 458. ابن العماد، شذرات الذهب، 6/ 205.

(7) ابن الجوزي، المنتظم، 1/ 23. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 20/ 9. ابن العماد، شذرات الذهب، 6/ 168.

6- وجيه بن طاهر بن محمد الشّحامي، "الشيخ العالم العدل، مسند خراسان، النيسابوري، من بيت العدالة والرّواية، ولد سنة 455هـ، ورحل في طلب الحديث، وسمع من أبي القاسم القشيري"⁽¹⁾، قال عنه ابن الجوزي: "وكان شيخًا صدوقًا، صالحًا، حسن السّيرة، منور الوجه والشّيبة، سريع الدّعة، كثير الذّكر"⁽²⁾، "وكان خيرًا متواضعًا متعبّدًا، توفي سنة 541هـ"⁽³⁾.

المطلب الثالث: مؤلفاته.

صنّف الشيخ القشيريّ في مختلف العلوم الشّرعية، وبخاصّة في التّفسير والتّصوّف، ومنها:

- 1- " التّيسير في التّفسير، ويُقال له : التّفسير الكبير"⁽⁴⁾. وهو مطبوعٌ عدّة طبعات؛ منها:
 - طبعة دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر، 2022م، تحقيق عبدالله الميموني.
 - طبعة مؤسسة ابن العربي للبحوث والنشر، 2022م، اعتنت به فاطمة بنت محمد القاسمي.
- 2- لطائف الإشارات، من ثلاثة أجزاء، واشتهر بتفسير القشيريّ، وهو التّفسير الذي تناولته الدّراسة مقارنةً مع تفسير الشيخ الجيلاني. وهو مطبوع عدة طبعات، منها:
 - طبعة الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط3، 2000م، تحقيق إبراهيم بسيوني.
 - طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت، ط2، 1428هـ / 2007م، تحقيق عبد اللطيف حسن.
 - طبعة دار الغد الجديد، مصر، ط1، 2015م، تحقيق عبد الغني زايد.
- 3- الرسالة القشيريّة، أصّل فيها حقائق في التّصوّف وذكر فيها طائفة من رجالها، وهو مطبوع عدة طبعات، منها:
 - طبعة مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1409هـ / 1989م، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود الشّريف. ونشرتها دار المعارف كذلك بتحقيقهما.
 - طبعة دار اليمامة، دمشق، 2020م، تحقيق يوسف علي بدوي.
 - طبعة دار المناهج، جدة، السعودية، ط4، 2023م، تحقيق أنس محمد الشرفاوي.
- 4- ذكر الشّيخ السيوطي مصنّفًا للشيخ القشيريّ بعنوان نحو القلوب⁽⁵⁾، وهو مطبوع عدة طبعات؛ منها:

(1)الذهبي، سير أعلام النبلاء، 109/20.

(2) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك والأمم، 53/18.

(3) ابن العماد، شذرات الذهب، 211/6.

(4) الزركلي، الأعلام، 57/4.

(5) السيوطي، طبقات المفسرين، ص74.

- طبعة عالم الفكر، القاهرة، ط1، 1414هـ/1994م، تحقيق إبراهيم بسيوني، وأحمد علم الدين الجندي.
- طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2، 1426هـ/2005م، تحقيق مرسي محمد علي.
- طبعة الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2008م، تحقيق أحمد علم الدين الجندي.
- 5- كتاب شكايّة أهل السنّة بحكاية ما نالهم من المحنة⁽¹⁾، ردّ فيه على من هاجم أبا الحسن الأشعريّ، ودافع عنه فيه، وهو مطبوع، ولم أجد منه إلا طبعة واحدة لدار النور المبين للدراسات والنّشر في الأردن، ط1، 2016م، تحقيق محمد خالد ومحمد إدريس.
- 6- كتاب التّحبير في التّدكير، شرح فيه الشّيخ القشيري أسماء الله الحسنى، وهو مطبوع عدّة طبعات؛ منها:
 - طبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م، تحقيق إبراهيم بسيوني.
 - طبعة دار البيروني، بيروت، 2003م، قدم له محمد أمين الفاروقي.
 - طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت، 2005م، وضع حواشيه الشّيخ عبد الوارث محمد علي، ونشرته نفس الدّار في العام الذي يليه بتحقيق عاصم إبراهيم الكيالي تحت عنوان شرح القشيري لأسماء الله الحسنى.
- وغيرها الكثير من المصنّفات، ذكر طائفة منها صاحب هديّة العارفين⁽²⁾

(1) والكتاب عبارة عن رسالة بعثها الإمام القشيري رحمه الله إلى العلماء الأعلام في جميع بلاد المسلمين، وفيها ما جرى في نيسابور عام 445هـ من بدعة وجريمة لعن الإمام أبي الحسن الأشعري على المنابر رضي الله عنه؛ إذ أنّ الوزير الكندري -وهو معتزلي متعصب أشدّ التّعصب لمذهبه- استغلّ أمر السلطان طغرل بلعن المبتدعة على المنابر فأقحم اسم الإمام أبي الحسن الأشعري ضمنهم، فنجم عن ذلك فتنة عظيمة كبرى، امتدّت إلى سائر بلاد الشّرق، وبات الأشاعرة في هذه البلاد في هم وحزن وعمّ، وحُبس في هذه الفتنة الإمام القشيري، ثمّ إنّ أهل البلد وأحباب الإمام القشيري هجموا على السجن وخلصوا الإمام من سجنه، وترك الإمام بيته ووطنه وعشيرته ومضى يضرب في الأرض الواسعة عشر سنوات ينزل من بلد إلى بلد، وكان موضع تكريم وحفاوة من الجميع، فأقبل النّاس عليه يستمعون لدرسه أينما حلّ، وبعد أن ذهب للحجّ إلّقى بالعلماء الذين شرّدتهم المحنة وأنفقوا على إطاعة رأي الإمام القشيري فيهم، فصعد المنبر وخطب فيهم وقال: يا أهل خراسان: بلادكم بلادكم؛ إنّ الكندري غريمكم قُطّع إربًا إربًا، وها أنا أشاهده السّاعة، فضبط التّاريخ فكان في ذلك اليوم بعينه قتل الكندري زمن ألب أرسلان السبكي، طبقات الشافعية، 3/399 وما بعدها.

(2) البغدادي، إسماعيل باشا بن محمد أمين، ت1399هـ، هديّة العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، وكالة المعارف، إسطنبول، 1951-1955م، 608/1

المبحث الخامس: مقتطفات من شعره في الحب الإلهي

درج السادة الصوفيّة على التنفيس بالشعر عمّا يعتلج في صدورهم من مواجيد⁽¹⁾، ولأنّ لهم في الشعر بحبوحة من الكناية والتشبيه يوارون فيه مقاصدهم، وكان للشيخ القشيري اهتمام واضح بالشعر من حيث الاستشهاد به عند تفسير الكثير من الآيات، وكذلك فقد نقل عنه العديد من الأبيات الشعرية، ومما نُسب إليه رحمه الله، قوله⁽²⁾: [من الطويل]

وَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْهَوَى ذَاقَ سَلْوَةً فَإِنِّي مِنْ لَيْلَى لَهَا غَيْرُ ذَائِقِ

وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلْتُهُ مِنْ وَصَالِهَا أَمَانِي لَمْ تَصْدُقْ كَخَطْفَةِ بَارِقِ

وكان الشيخ عبد الكريم القشيري كثيرًا ما ينشد⁽³⁾: [من الكامل]

لَوْ كُنْتَ سَاعَةً بَيْنَنَا مَا بَيْنَنَا وَشَهِدْتَ حِينَ نُكْرِرُ التَّوَدِّيعَا

لَعَلِمْتَ أَنَّ مِنَ الدُّمُوعِ مُحَدَّثًا وَعَلِمْتَ أَنَّ مِنَ الْحَدِيثِ دُمُوعًا

ومن شعره أيضًا⁽⁴⁾: [من الطويل]

سَقَى اللَّهُ يَوْمًا كُنْتُ أَخْلُو بِوَجْهِكُمْ وَتَعَرُّ الْهَوَى فِي رَوْضَةِ الْأُنْسِ صَاحِكُ

أَقْمَنَا زَمَانًا وَالْعَيُونُ قَرِيرَةٌ وَأَصْبَحْتُ يَوْمًا وَالْجُفُونُ سَوَافِكُ

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31]، قال بعد أن فسّر الآية⁽⁵⁾:

وَمَا الْحُبُّ حَتَّى تَنْزِفَ الْعَيْنُ بِالْبُكََا وَتَخْرَسَ حَتَّى لَا تُحِيبَ الْمُنَادِيَا

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43]، قال بعد أن فسّر الآية⁽⁶⁾: [من الطويل]

(1) والوجد: هو ما صادف القلب من فزع أو غم أو رؤية معني من أحوال الآخرة، أو كشف حالة بين العبد والله. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، ص 669.

(2) الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 278.

(3) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 260.

(4) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 260.

(5) القشيري، لطائف الإشارات، 1/ 143.

(6) القشيري، لطائف الإشارات، 1/ 275. والبيت لابن الدمينية، عبد الله بن عبيد الله الأكلبي، ت 747 هـ. ديوان ابن الدمينية، صنعه أبو العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تحقيق أحمد راتب النفاخ، مكتبة دار العروبة، ص 17.

لَئِنْ سَاءَنِي أَنْ تَلْفَنِي بِمَسَاءَةٍ فَقَدْ سَرَّنِي أَنْي خَطَرْتُ بِبَالِكَا

وعند قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: 61]

نكر هذا البيت: [من الخفيف]

إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ ... لِ شَمْسِ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيْبُ (1)

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: 12] قال (2): [من الوافر]

كَلَّ مَارَبِي قَدْ نَلْتُ مِنْهَا ... سَوَى مَلْدُوذٍ وَجَدِي بِالْعَذَابِ

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 392/2. البيت للحلاج وهو من البحر الخفيف، الحلاج، ديوان الحلاج، ص120.
(2) الحلاج، الحسين بن منصور، ت309هـ، ديوان الحلاج، وضع حواشيه وعلق عليه محمد باسل العيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1423هـ/2002م، ص172. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الحلاج، ديوان الحلاج.

المبحث السادس: وفاته.

مات رحمه الله سنة 465هـ بنيسابور⁽¹⁾، "ودفن بالمدرسة باب الطّاق"⁽²⁾، بجانب شيخه أبي علي الدّقاق"⁽³⁾. رحمه الله رحمة واسعة، ونفعنا بعلومه ومصنّفاته، وجمعنا به في مستقرّ رحمته، بمحض كرمه وجوده.

قال ابن خلّكان: "لازم الدرس والوعظ إلى أن قارب انتهاء أمره فأصابه ضعف في أعضائه وأقام كذلك مقدار شهر ... وتوفي صبيحة يوم الأحد قبل طلوع الشمس سادس عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة"⁽⁴⁾.

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 8 / 245. ابن خلّكان، وفيات الأعيان، 3 / 207. الذهبي، سير أعلام النبلاء،

18 / 232. ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص 260.

(2) باب الطّاق: محلّة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي، تعرف بطاق أسماء. ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1 / 308.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 19 / 64.

(4) ابن خلّكان، وفيات الأعيان، 3 / 207 وما بعدها.

الفصل الثّاني: الشّيخ القشيري ومنهجه العامّ في التّفسير.
وفيه ستّة مباحث:

- المبحث الأوّل: اعتماده التّفسير الإشاري في معظم تفسيره.
- المبحث الثّاني: استعماله لفظ ظاهر التّفسير وباطن التّفسير.
- المبحث الثّالث: أسلوبه سهل ممتع.
- المبحث الرّابع: تجنّبه للاسترسال والإسهاب.
- المبحث الخامس: اهتمامه بإيراد الحقائق الصّوفيّة.
- المبحث السّادس: تفسيره للبسملة تفسيرًا مختلفًا في كلّ سورة.

الفصل الثّاني:

الشيخ القشيري ومنهجه العام في التفسير:

يلاحظ المتصفح لتفسير الشيخ القشيري منهجًا عامًا التزمه الشيخ على طول التفسير؛ فمع أنّ تفسير الشيخ القشيري من التفاسير الإشاريّة إلاّ أنّه اتّسم بالسهولة واليسر والاختصار والوضوح، وإنّه لمن الغريب عدم اشتهاره بين عامّة المسلمين مع ميزاته تلك، ويستعرض الباحث في هذا الفصل أهمّ معالم منهج التفسير عند الشيخ القشيري من خلال ستّة مباحث، هي:

المبحث الأول: اعتماده التفسير الإشاري في معظم تفسيره.

"يُعتبر تفسير القشيري عبد الكريم بن هوازن المتوفّى 465هـ لطائف الإشارات من أكمل التفاسير الصوفيّة الذي لم يذكره أحد بسوء، في الوقت الذي توجّه الطّعن للتفاسير الصوفيّة قبله وبعده"⁽¹⁾. إنّ عنونة الشيخ القشيري لتفسيره «لطائف الإشارات» تشدّد القارئ لالتقاط هذه الإشارات، فيجد نفسه أمام إشارات بديعة، ومعانٍ سامية جديدة، ومن هذه الإشارات:

1- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧٧﴾﴾^[1]

النساء: 97]

(1) مسلم، مساعد، أثر التطور الفكري في التفسير، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ/1984م، ص371.

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الإشارة منه إلى من أدركه الأجل وهو في أسر نفسه، وفي رق شهواته، ليس له عذر حيث لم يهاجر إلى ظلّ قريبته؛ ليتخلص من هوى نفسه؛ إذ لا حجاب بينك وبين هذا الحديث إلا هواك"⁽¹⁾.

يُستحضر من قول الشيخ حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (الأعمال بالنية، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه، ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم)⁽²⁾. فالمهاجر في الحقيقة من هجر نفسه وهواه.

2- قال تعالى: ﴿وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تَرْيَدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 28]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أي لا ترفع بصرك عنهم، ولا تقلع عنهم نظرك. ويُقال: لما نظروا بقلوبهم إلى الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بألا يرفع بصره عنهم، وهذا جزء في العاجل. والإشارة فيه كأنه قال: جعلنا نظرك اليوم إليهم ذريعة لهم إلينا، وخلفاً عما يفوتهم اليوم من نظرهم إلينا، فلا تقطع اليوم عنهم نظرك فإننا لا نمنع غداً نظرهم عنا"⁽³⁾. ويقصد الشيخ أن نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المؤمنين الذين يريدون وجه الله نظر عناية، ومحبة، وهو تصبيرٌ لهم إلى يوم لقاء الله عز وجلّ.

3- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: 31]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الأولياء هم الرواسي في الأرض وبهم يُرزقون، وبهم يُدفع عنهم البلاء، وبهم يوقى عليهم العطاء. وكما أنه لولا الجبال الرواسي لم تكن للأرض أوتاد، فكذلك الشيوخ الذين هم أوتاد الأرض فلولاهم لنزلت بهم الشدة"⁽⁴⁾. لا يخلو مكان على هذه البسيطة من ولي من أولياء الله، فهم ورثة الأنبياء، وحبّة الله على العباد من بعدهم، فكما وزع الله الجبال في الأرض تثبيتاً لها، جعل فيها أولياءه هادين مهديين. وتفسير الشيخ القشيري مليء عن آخره بالإشارات التي تعمر القلب بالإيمان، وتسليّ الروح بجميل كلام الله عز وجلّ⁽⁵⁾.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 221/1.

(2) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم 3898.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 218/2.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 291/2.

(5) القشيري، لطائف الإشارات، 95/1، 158/1، 277/1، 220/2، 263/2، 215/3، 328/3.

المبحث الثاني: استعماله لفظ «ظاهر التفسير» و«باطن التفسير».

عبر الشيخ خلال تفسيره بلفظ (ظاهر) و (باطن) للتعبير عن التفسير المباشر والتفسير الإشاري عند تفسيره لبعض الآيات، مثال ذلك:

1- قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 43].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "ثم في الظاهر أمرنا باستعمال التراب، وفي الباطن استشعار الخضوع واستدامة الذبول"⁽¹⁾.

جعل الله تعالى الماء طهوراً للإنسان، وكذلك التراب في حالة غياب الماء، وذلك يذكر الإنسان بأنه مخلوق من طين - ماء وتراب-، فوجب عليه الخضوع والانسياق لخالقه. وعبر الشيخ بلفظ الذبول، وهو لفظ شائع عند السادة الصوفية²، ويتضح معنى الذبول من خلال كلام الشيخ القشيري، إذ يقول: "أهل الحضور صفتهم الذبول والسكون والهيبة والوقار، والثوران أو الانزعاج يدل على غيبة، أو قلة تيقظ، أو نقصان اطلاع"³، وبضدّها تعرف الأشياء، فالذبول حال الخضوع والانكسار والتسليم لله، والذبول من علامات الحب لله تعالى⁴.

2- قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [إبراهيم: 32].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "في الظاهر رفع السماء فأعلاها، والأرض من تحتها دحاها، وخلق فيها بحاراً، وأجرى أنهاراً، وأنبت أشجاراً، وأثبت لها أنواراً وأزهاراً، وأمطر من السماء ماء مدراراً، وأخرج من الثمرات أصنافاً، ونوع لها أوصافاً، وأفرد لكلٍ منها طعاماً مخصوصاً، ولإدراكه وقتاً معلوماً، وأما في الباطن فسماء القلوب زينها بمصابيح العقول، وأطلع فيها شمس التوحيد، وقمر العرفان. ومرج في

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 209/1.

(2) قال السهروردي في معرض تعريفه للصوفية: "لما آثروا الذبول والخمول والتواضع والانكسار والتخفي والنواري كانوا كالخرقة الملقاة، والصوفة المرمية التي لا يرغب فيها". السهروردي، شهاب الدين عمر، ت632، عوارف المعارف تحقيق أحمد السايح وتوفيق وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1427هـ/2006م، 72/1.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 197/3.

(4) قال ذو النون المصري: "حجبت سنة الى بيت الله الحرام فلما وقفت بعرفة رأيت شابا عليه آثار الاصفرار والتحول والقلق والذبول فعلمت أنّ عنده من المحبة محصول". الحريفيش، شعيب، الروض الفائق في المواعظ والرفائق، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1368هـ/1949م، ص134.

القلوب بحريّ الخوف والرّجاء، وجعل بينهما برزخًا لا يبغيان؛ فلا الخوف يغلب الرّجاء ولا الرّجاء يغلب الخوف⁽¹⁾.

ينبّهنا الشّيخ رحمه الله إلى جميل صنع الله في الباطن كجميل صنعه في الظّاهر بل أشدّ؛ إذ القلوب محلّ نظره سبحانه وتعالى.

3- قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: 29]

قال الشّيخ القشيري عند تفسيرها: "في الظّاهر أشارت إلى الولد، وفي الباطن أشارت إلى الله"⁽²⁾؛ أي: انظروا إلى قدرة الله وآياته، وكيف جعل الطفل ينطق في مهده.

4- قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: 16]

قال الشّيخ القشيريّ عند تفسيرها: "في الظّاهر: عن الفراش قيامًا بحقّ العبادة والجهد والتهجّد. وفي الباطن: تتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال، ورؤية قدر النّفس، وتوّهم المقام؛ فإنّ ذلك بجملته حجابٌ عن الحقيقة، وهو للعبد سمٌّ قاتلٌ؛ فلا يساكنون أعمالهم ولا يلاحظون أحوالهم، ويفارقون مألّفهم، ويهجرون في الله معارفهم"⁽³⁾.

يُدّهش القارئ في تفسير الإمام القشيري من المعاني الفريدة والعلوم الجديدة التي يقع عليها القارئ كلّما غاص في بحر الشّيخ العميق، فيخبرنا الشّيخ أن المؤمن الحقيقي لا يرى أعماله ولا يلاحظ أحواله؛ بل هو مستغرق في أداء حقّ عبوديته لمولاه.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 2/125.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 2/240.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 3/26.

المبحث الثالث: أسلوبه سهلٌ ممتنعٌ.

امتاز أسلوب الشيخ القشيري باليسر والسهولة على علو معانيه وعمقها؛ فعلى غير عادة الصوفية فلم يكثر الشيخ من التعبير بمصطلحات الصوفية وتراكيبها، مثال ذلك:

1- قال تعالى: ﴿يَا حَيُّ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 12]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أي قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة منّا، خصصناك بها، لا قوة يد؛ ولكن قوة قلب، وذلك خير خصه الله تعالى به؛ وهو النبوة. ودلت الآية على أنه كان من الله له كتاب" (1).

يُلاحظ قوة تراكيب الشيخ مع سهولتها ووضوحها، واستنباط الشيخ من الآية أنّ نبي الله يحيى عليه السلام كان له كتاب من الله.

2- قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 132]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "فإنّ من شهد وتحقق بقوله: (نحن) سقط عنه التمييز بين رزق ورزق. ويُقال: خفف على الفقراء مقاساة قلة الرزق وتأخره عن وقت لوقت لقوله نحن" (2).
فالمؤمن المتحقق بوحداية الله يرى أنّ الله وحده الرزاق، فيطمئن أنّ رزقه لا محالة واصلٌ إليه، ثقة بقوله تعالى نحن نرزقك.

3- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: 31].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "كما أنّ في الأرض سبلاً يسلكونها ليصلوا إلى مقاصدهم كذلك جعل السبل إليه مسلوكة بما بين على ألسنتهم من هداية المريدين وقيادة السالكين، كما يسرّ بهداهم الاقتداء بهم في سيرهم إلى الله" (3).

فسر الشيخ القشيري السبل التي سهلها الله لعباده في الأرض بالطرق الصوفية التي بينها على لسان شيوخها وعارفيها، فأخذوا بأيدي السالكين إلى طريق الحق المبين.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 2/237.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 2/283.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 2/291.

4- قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ [الحج:35]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أي خامدين تحت جريان الحكم من غير استكراه ولا تمني خَرْجَة، ولا روم فُرْجَة؛ بل يستسلم طوعًا. ويُقال: الصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ، أي الحافظين معه أسرارهم، لا يطلبون السَّلوة باطِّلاع الخلق على أحوالهم"⁽¹⁾.

فالعبد يرضى بما رضى له مولاه، ولا يتمنى الخروج عنه، ويستسلم لمراد حبيبه طوعًا. وأشار الشيخ إلى طائفة من المؤمنين لا يطلبون المواساة من النَّاس استغناءً بنظر الله لهم، وصبرهم بالله ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل:127].

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 321/2.

المبحث الرابع: تجنبه للاسترسال والإسهاب.

حرص الشيخ في تفسيره على الإتيان بالمعنى المطلوب من الآية دون إطالة أو إسهاب في كثير من الآيات، فجاءت المعاني مناسبة من قلبه عن ربه. ومثال ذلك:

1- قال تعالى: ﴿فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 85].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "لما صدقت آمالهم قابلاً بالتحقيق، سنة منه سبحانه ألا يخيب راجيه، ولا يرد مؤمليه، وإنما علّق الثواب على قول القلب الذي هو شهادة عن شهوده، فأما النظر المنفرد عن البصيرة فلا ثواب عليه ولا إيجاب"⁽¹⁾.

يبين الشيخ في هذه الآية أنّ الثواب يكون على اعتقاد القلب وشهوده بوجود الحق سبحانه، أما النظر الخالي من التّفكّر والاعتبار فلا أجر عليه.

2- قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ [طه: 121].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "لما ارتكبا المنهية عنه ظهر ما يُستحيى من ظهوره، ولكن الله سبحانه، ألطف معهما في هذه الحالة بقوله: (فبدت لهما سوءاتهما) ولم يقل مطلقاً فبدت سوءاتهما؛ أي أنه لم يطلع على سوءاتهما غيرهما"⁽²⁾.

يلفت الشيخ انتباه القارئ لتفسيره إلى دقة النظم القرآني فبين الشيخ ذلك دون إسهاب أو إطالة.

3- قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنَ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 28].

قال الشيخ القشيري عن تفسيرها: "علمه القديم سبحانه لا يختصّ بمعلوم دون معلوم، وإنما هو شامل لجميع المعلومات، فلا يعزب عن علم الله معلوم"⁽³⁾.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 1/276.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 2/279.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 2/290.

علم الله سبحانه وتعالى محيط بكلّ شيء، فهو علام الغيوب، فكلّ شيء في علم الله معلوم.

4- قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: 37]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الإحسان كما في الخبر: (أن تعبد الله كأنك تراه)⁽¹⁾، وأمانة صحته سقوط التعب بالقلب عن صاحبه؛ فلا يستقل شيئاً، ولا يتبرّم بشيء"⁽²⁾.

يقول الشيخ رضي الله عنه إنّ علامة وصول العبد إلى مرتبة الإحسان أن لا يستقل من العبادة شيئاً، ولا يملّ منها.

(1) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة لقمان، باب قوله: إن الله عنده علم الساعة، حديث رقم 4777.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 322/2.

المبحث الخامس: اهتمامه بإيراد الحقائق الصوفية

لم يبخل الشيخ القشيري على المرید الصادق بتعليمه جملة من الحقائق التي لا يستغني عنها طالب الحق عز وجل، ومثال ذلك:

1- قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء:148].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "ويقال من علم أن مولاه يسمع استحيا من النطق بكثير مما تدعو نفسه إليه. ويُقال: الجهر بالسوء هو ما تسمعه نفسك منك فيما تحدث في نفسك من مساءة الخلق؛ فإن الخواص يُحاسبون على ما يتحدّثون في أنفسهم بما لا يطالب به كثير من العوام فيما يسمع منهم الناس" (1).

فكما قال الإمام الغزالي رحمه الله: "حسنة الأبرار سيئات المقربين" (2)؛ فالخواص من عباد الله يُحاسبون على خواطيرهم، فلما ارتقوا عن العوام كان من تمام العدل أن يُحاسبوا على قدر علمهم وقربهم، فما يُقبل من الطالب العادي لا يُقبل من الطالب المجتهد المتفوق على أقرانه.

2- قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف:18]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "هم مسلوبون عنهم، مُختطفون منهم، مُستهلكون فيما كوشفوا به من وجود الحق؛ فظاهرهم في رأي الخلق أنهم بأنفسهم، وفي التحقيق القائم عنهم غيرهم، وهم محو فيما كوشفوا به من الحقائق" (3).

يتحدّث الشيخ القشيري في تفسير هذه الآية عن مقام الفناء في الله تعالى، قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: "مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ فَنِيَ بِهِ غَابَ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُوَثِّرْ عَلَيْهِ شَيْئًا" (4). وسيُفرد مبحثٌ مستقلٌ للتعريف بهذا المقام الجليل (5).

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 236/1.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، 191/4.

(3) القشيري تفسير القشيري، 212/2.

(4) ابن عجيبة، شرح الحكم العطائية، ص 315

(5) الباب الرابع، الفصل الأول، المبحث العاشر، ص 213.

3- قال تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ [الكهف:22]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواص عباده ومن كان قريباً في الحال منهم ... لأن الحق سبحانه يستر أوليائه عن الأجانب، فلا يعلمهم إلا أهل الحقيقة، فالأجانب لا يعرفون الأقارب، ولا تُشكل أحوال الأقارب على الأقارب، كذلك قال شيوخ هذه الطائفة: الصوفية أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم"⁽¹⁾.

يلاحظ تعبير الشيخ بلفظ «الأجانب» عمّن لم يسلكوا طريق الصوفية، ولم يخبروا أحوالهم، فهم محجوبون عن معرفة ما يكاشف به (الأقارب) ألا وهم أهل الطريق.

4- قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: 17]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "قال تعالى في وصفه صلى الله عليه وسلم : : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾؛ فما التفت يمينا ولا شمالا، ولا طمع في مقام ولا في إكرام؛ تجرد عن كل طلب وأرب"⁽²⁾.
يعلّمنا الشيخ رضي الله عنه أعظم أدب في السلوك إلى الله تعالى؛ فإن السالك في طريقه إلى الحق لا يرجو من الله شيئا إلا حبه ورضاه، غير مكترث بما سوى ذلك.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 216/2.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 180/2.

المبحث السادس: تفسيره للبسملة تفسيراً مختلفاً في كل سورة.

فسّر الشيخ القشيري البسملة تفسيراً مغايراً عند بداية كل سورة، وجاء هذا التفسير منسجماً مع الجو العام للسورة وما حوته من أفكار ومعانٍ.

وللشيخ القشيري رأي في عدم وجود علة لإثبات البسملة في جميع سور القرآن الكريم وحذفها من بداية سورة التوبة، فيقول: "جرّد الله سبحانه هذه السورة عن ذكر (بسم الله الرحمن الرحيم) ليُعلم أنّه يخصّ من يشاء وما يشاء بما يشاء، ويُفرد من يشاء وما يشاء بما يشاء، ليس لصنعه سبب، وليس له في أفعاله غرضٌ ولا أربُّ، واتّضح للكافة أنّ هذه الآية أثبتت في الكتاب لأنّها منزّلة، وبالأمر هنالك مُحصّلة"⁽¹⁾، وكذلك الرّيادة والحذف في رسم البسملة في المصحف الشريف، يقول القشيري عند افتتاح سورة الحجر: "سقطت ألف الوصل من كتابة (بسم الله) وليس لإسقاطها علة، وزيد في شكل الباء من (بسم الله) وليس لزيادتها علة؛ ليُعلم أنّ الإثبات والإسقاط بلا علة"⁽²⁾، وقد فنّد آراء مخالفيه في ذات الموضوع.

وهذه أربعة أمثلة على تفسير الشيخ القشيري للبسملة:

1- تفسير البسملة في بداية سورة الأحزاب.

قال الشيخ القشيريّ عند تفسيرها: "بسم الله شهود وجوده يوجب لك تلقاً في تلفٍ، ووجود جوده يوجب لك شرفاً في شرفٍ؛ ففي تَلْفِكَ يكون هو عنك الخَلْفُ، وفي شرفك تصل إلى كلّ لطف"⁽³⁾. وجاء هذا المعنى منسجماً مع الجو العام للسورة؛ إذ تحدّثت سورة الأحزاب عن الجهاد، والذي هو تلف في سبيل الله، وجاء فيها كذلك ما أكرمنا الله تعالى به من صلّاته علينا، وأيُّ شرفٍ أعظم من هذا الشرف؟!؛

2- تفسير البسملة في سورة ق:

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 406/1.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 132/2.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 31/3، تفسير البسملة.

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "بسم الله اسم جبر أحوال من رحمه، متجبر بكبريائه على من أقصاه فقهره وحرمه. بسم الله لطيف يعلم خفايا تصنع العابدين، غافر لجلائل ذنوب العاصين"⁽¹⁾.
تتناول سورة ق فعل الله في الأقسام السابقة المكذبين لأنبيائه، وإكرامه للمتقين من عباده، غافر الذنوب وقابل التوب، رقيب على خلقه لا يعزب عنه خفايا الصدور.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 225/3.

3- تفسير البسمة في سورة الواقعة.

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "اسم جبار من اعتنى بشأنه أحضره بإحسانه؛ فإنّ أبي إلا تماديًا في عصيانه حال بينه وبين اختياره بقهر سلطانه، وإن لم يلزم هذه الطاعة ألجأه بالبلاء فيأتيها باضطراره"⁽¹⁾.

فكما هو معلوم من أنّ سورة الواقعة تتناول ثلاثة أصناف من الناس؛ وهم: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. فجاء كلام الشيخ في البسمة مشيرًا إلى هذه الأقسام الثلاثة.

4- تفسير البسمة في سورة الغاشية:

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "بسم الله كلمة من سمعها وفي قلبه عرفانه تلالأت أنوار قلبه، وتفرقت أنواع كربه، وتضاعفت في جماله طوارق حبه، وتحيرت في جلاله شوارق لبه، كلمة من عرفها -وفي قلبه إيمانه- أحبها من داخل الفؤاد، وهجر في طلبها الرقاد، وترك لأجلها كلّ همّ ومراد"⁽²⁾. تتحدث سورة الغاشية عن نعيم الجنة الذي أعدّه الله لعباده من أكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرايى مبثوثة، ومثال هذه الصورة قلب العارف بالله، مزينٌ بأنوار العرفان، وبألوان الشوق والحبّ لمولاه، فتراه يهجر في سبيل ذلك كلّ ما سواه.

استعرض الفصل السابق أهمّ سمات منهج التفسير عند الشيخ القشيري، وقد تبين منها ما يلي:

1- تفسير الشيخ القشيري للقرآن الكريم جاء تفسيرًا إشاريًا بامتياز؛ إذ إنّ تفسيره مليء بالإشارات التي لا يلتقطها إلا عارف بالله راسخ بالعلم.

2- فسّر الشيخ القشيري العديد من النصوص تفسيرًا باطنًا إلى جانب تفسيره لظاهر النصّ، مما جعل للألفاظ القرآنية معانٍ أكثر شمولًا وتأثيرًا.

3- يلاحظ أنّ لغة الشيخ القشيري لغة عصريّة يكاد المرء ينسى أنّ الشيخ القشيري من كبار أعلام القرن الخامس الهجري، فامتازت باليسر والسهولة.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 273/3، تفسير البسمة.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 416/3.

4- تجنّب الشّيخ الاسترسال والإسهاب حيث لا ضرورة لذلك، دون الإخلال بالتفسير التّام للآيات.

5- يعتبر الشّيخ القشيريّ من كبار أئمّة النّصوّف، فلا غرابة من إيراده لكثير من الحقائق الصّوفيّة، والعلوم الخاصّة، على طول تفسيره.

6- برز اهتمام الشّيخ بالبسملة من خلال تفسيرها تفسيراً مغايراً في مطلع كلّ سورة، وكأنّ الشّيخ يهيء القارئ للولوج إلى روح السّورة من خلال بسملتها. وقارن بين إثبات البسملة في جميع سور القرآن وحذفها في بداية سورة التوبة، وأنه ليس لحذفها في سورة التوبة علة؛ إلا أن الله تعالى أرادها كذلك.

الباب الرابع: دراسة مقارنة بين تفسير الجيلاني والقشيري في منهج التفسير الصوفي.
وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: ذكر بعض المقامات في تفسيري الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري مع
المقارنة بينهما.

الفصل الثاني: دراسة مقارنة لمختارات من علوم أهل التصوف، وردت في تفسيري
الشيخين: الجيلاني والقشيري .

الفصل الثالث: دراسة تقييمية للتفسيرين في منهج التصوف.

الفصل الأول: ذكر بعض المقامات في تفسيريّ الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري مع المقارنة بينهما.

وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: التوبة.

المبحث الثاني: المراقبة.

المبحث الثالث: الصدق.

المبحث الرابع: الحب.

المبحث الخامس: الفقر.

المبحث السادس: الرضا.

المبحث السابع: الحياء.

المبحث الثامن: الفهم.

المبحث التاسع: الأدب.

المبحث العاشر: الفناء.

الفصل الأول:

ذكر بعض المقامات في تفسيريّ الشّيخ الجيلاني والشّيخ القشيري مع المقارنة بينهما:

يتناول هذا الفصل أهمّ مقامات السلوك عند السّادة الصّوفيّة، فتراهم يركّزون عليها في تربية السّالّكين، وقد تناولت هذه المقامات كتب عديدة، عنيت بشرحها وتفصيلها تفصيلاً دقيقاً، ومن أشهر هذه الكتب: كتاب إحياء علوم الدّين لحجّة الإسلام أبي حامد الغزالي، وكتاب الغنية لطالبي طريق الحق عزّ وجلّ للشّيخ عبد القادر الجيلاني، وكتاب الرّسالة القشيريّة، للشّيخ عبد الكريم القشيري، وكتاب منازل السّائرين لعبد الله الأنصاري الهروي.

وفي هذا المبحث يستعرض الباحث ما ورد في تفسير الشّيخين عبد القادر الجيلاني والشّيخ القشيريّ من هذه المقامات "والتي هي مدارج أرباب السلوك"⁽¹⁾ خلال تناولهما للآيات المتعلّقة بها. وجاء هذا الفصل في عشرة مباحث، ستتمّ مناقشتها من خلال تفسير ثلاث آيات عند الشّيخين، عبر المباحث الآتية:

(1) القشيري، الرّسالة القشيرية، 206/1.

المبحث الأول: التوبة.

من رحمة الله تعالى بعباده أن جعل باب التوبة مفتوحاً ما دام في العبد عرق حياة، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْزَرَ»⁽¹⁾، والتوبة واجبة على كل مسلم ومسلمة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ [التحريم: 8].

وعرّف الإمام القشيري التوبة فقال: "التوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع"⁽²⁾، وعند الشيخ الجيلاني نحو من هذا التعريف⁽³⁾. وعرّف الشيخ أبو الحسين النوري التوبة: "أن تتوب من كل شيء سوى الله عز وجل"⁽⁴⁾، وعرّفها الإمام الغزالي في إحيائه فقال: "هي ترك المعاصي في الحال، والعزم على تركها في الاستقبال، وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال"⁽⁵⁾. وكان الإمام الغزالي عرّف التوبة بذكر شروطها الثلاثة: الإقلاع، الندم، والعزم. قال الإمام النووي رحمه الله: "قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: للتوبة ثلاثة شروط: أن يقلع عن المعصية، وأن يندم على فعلها، وأن يعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود إلى مثلها أبدًا، فإن كانت المعصية تتعلق بأدبي فلها شرط رابع، وهو: ردّ الظلّامة إلى صاحبها، أو تحصيل البراءة منه"⁽⁶⁾.

" والتوبة عند السادة الصوفية هي: التوبة عن الغفلة والتقصير"⁽⁷⁾.

وبدأ الباحث بمقام التوبة لأنها أول مقام في السلوك، قال الإمام القشيري: "التوبة أول مقام من مقام الطالبين"⁽⁸⁾، ووافقه الإمام النووي فقال: "التوبة أهم قواعد الإسلام، وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة"⁽⁹⁾، فقبل أن يبدأ المرید في طريق الله لا بدّ أن يتوب توبةً نصوحةً عن كلّ ما اقترفه من

(1) سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده. حديث رقم: 3537، وقال: حديث حسن غريب.

(2) القشيري، الرسالة القشيرية، ص 178.

(3) الجيلاني، الغنية، ص 228.

(4) القشيري، الرسالة القشيرية، 212/1. وسيأتي بيان مصطلح السوى في مبحث مستقل، ص 285.

(5) الغزالي، إحياء علوم الدين، 9/4.

(6) النووي، شرح صحيح مسلم، 2075/4.

(7) مقابلة مع الدكتور عمر الصالحي.

(8) القشيري، الرسالة القشيرية، ص 178.

(9) النووي، شرح صحيح مسلم، 2075/4.

عصيان، ويعزم صادقاً على عدم الرجوع إلى المخالفات والرعونات، ويعيد الحقوق إلى أصحابها إن كانت التوبة تتعلق بحق آدمي.

يقول سيدي عبد القادر الجيلاني: "تب من دعواك الكاذبة، حبّ الله لا يجيء بالتمني والكذب والنفاق والتصنع، تب واثبت على توبتك، فليس الشأن في توبتك، فالشأن في ثبوتك عليها، ليس الشأن في غرسك، الشأن في ثبوته وتغصينه وثمرته"⁽¹⁾. يحضّ الشيخ عبد القادر المرید الصادق على الثبات على التوبة من ادعاء توجّهه إلى الله تعالى مع مخالطة قلبه لما سواه.

وإمامنا في التوبة إلى الله حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو من هو؛ خير الخلق وحبيب الحق كان يتوب إلى الله في اليوم مئة مرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس: تُوبوا إلى الله، فإنّي أتوب في اليوم إليه مائة مرة»⁽²⁾.

يقول الإمام أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه⁽³⁾: " عليك بالاستغفار، وإن لم يكن هناك ذنب، واعتبر باستغفار النبي صلى الله عليه وسلم بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، هذا في معصوم لم يقترف ذنباً قط، وتقدّس عن ذلك، فما ظنك بمن لا يخلو عن العيب والذنب في وقت من الأوقات؟!"⁴

وأخبرنا القرآن الكريم عن أنبياء الله عليهم الصلوة والسلام أنّ حالهم كان المسارعة إلى التوبة إلى الله، والرجوع إليه؛ فهذا خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام يطلبان من الله التوبة بعدما فرغا من بناء بيت الله الحرام يطلبان التوبة، فقالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128]

وهذا كلّم الله موسى عليه السلام يطلب المغفرة له ولأخيه هارون عليه السلام بعد ما قاسياه مع بني إسرائيل، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: 151].

(1) الجيلاني، الفتح الرباني، ص 49.

(2) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، حديث رقم 2702.

(3) هو الإمام الشيخ القدوة شيخ الطريقة الشاذلية، أبو الحسن، علي بن عبد الله بن عبد الجبار المغربي الشاذلي، الزاهد، سكن الإسكندرية، وصحبه بها جماعة، وعنه أخذ الشيخ أبو العباس المرسي، توفي بصحراء عيذاب في منطقة تسمى حميثة، وكان متوجّها إلى بيت الله في أوائل ذي القعدة سنة 656هـ، وشيخه الشيخ عبد السلام بن مشيش. من أقوله رضي الله عنه: خصلة واحدة تحبط الأعمال، ولا ينتبه لها كثير من الناس، وهي: سخط العبد على قضاء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطُ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: 9]. الذهبي، العبر، 282/3.

(4) الصالحي، عمر يعقوب، صفوة الصفوة في عصرهم، بيت المقدس، 1443هـ/2021م، ص 94.

وكذلك نبي الله نوح عليه السلام، وهو من أولي العزم من الرسل دعا الله قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: 47]

وسيدنا داود عليه السلام أخبر الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَوَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: 24]، وابنه سليمان عليه السلام دعا الله قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: 35].

فإن كانت التوبة مطلوبة من الأنبياء وهم خيرة الخلق عليهم السلام، فكيف لا تكون مطلوبة منا ونحن أصحاب الذنوب والغفلة والتقصير. "والتوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأمة"⁽¹⁾. فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وإخوانه من الأنبياء والمرسلين قدوتنا في التوبة إلى الله، والإنابة إليه سبحانه وتعالى.

وقد ورد ذكر التوبة في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة، اختار الباحث منها ثلاث آيات، وهي:

1- قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118]

قال الشيخ عبد القادر عند تفسيرها: "ثم) بعدما أخلصوا في الإنابة والرجوع، وفوضوا أمورهم إليه سبحانه (تاب) الله (عليهم) أي أقرهم ووقفهم على التوبة (ليتوبوا) ويرجعوا إلى الله نادمين على ما صدر عنهم من المخالفة، فيغفر لهم، ويعفو عن زلاتهم، (إن الله) المصلح الموفق (هو التواب) الرجاع لعباده نحو جنابه حين صدرت عنهم المعاصي (الرحيم) لهم يرحمهم ويقبل توبتهم عند رجوعهم متضرعين مخلصين"⁽²⁾.

يرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوبة الصادقة هي التي يوفق الله سبحانه وتعالى عبده لها. وأن من معاني اسم الله الرحيم توبته على عباده المؤمنين .

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "لما صدق منهم اللجاء تداركهم بالشفاء وأسقط عنهم البلاء، وكذلك الحقّ يكوّر نهار اليسر على ليالي العسر، ويطلع شمس المحنة على نحوس الفتنة، ويدير فلك السعادة فيمحق تأثير طوارق النكائية، سنّة منه تعالى لا يبدلها، وعادة منه في الكرم يجريها ولا يحولها"⁽³⁾.

(1) الجيلاني، الغنية، ص228. الغزالي، إحياء علوم الدين، 9/4.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 302/2 وما بعدها.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 451/1 وما بعدها.

تحدّثت الآيات عن الثلاثة الذين خُلفوا، وكيف كانت عاقبة صدقهم في التّوبة رضى المولى عزّ وجلّ عنهم، فإنّه هو وحده التّواب الرّحيم، وتبديل عسرهم باليسر، وشقائهم بالسّعادة، فنجح الصّادق بالاختبار وذلّ المنافق بعد أن فضحه الله وأخزاه.

2- قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31]

قال الشّيخ عبد القادر عند تفسيرها: " (توبوا) رجالاً ونساءً (إلى الله) المبدئ المبدع لكم من كتم العدم (جميعاً أيها المؤمنون) بتوحيد الله، المصدّقون لكتبه ورسله (لعلكم تفلحون) وتفوزون بالفلاح والنّجاح عند الملك التّواب الفّتاح" (1).

يقول الشّيخ عبد القادر أنّ الأمر بالتّوبة واجب على جميع المؤمنين الموحّدين لله رجالاً ونساءً، وأنّ التّوبة طريق الفلاح والفوز عند الله التّواب.

وقال الشّيخ القشيري عند تفسيرها: "التّوبة الرّجوع عن المذمومات من الأفعال إلى أضعافها المحمودّة، وجميع المؤمنين مأمورون بالتّوبة، فتوبة عن الرّذيلة؛ وهي توبة العوام، وتوبة عن الغفلة؛ وهي توبة الخواص. وتوبة على محاذرة العقوبة، وتوبة على ملاحظة الأمر. ويُقال أمر الكافّة بالتّوبة: العاصين، بالرّجوع إلى الطّاعة من المعصية، والمطيعين، من رؤية الطّاعة إلى رؤية التّوفيق، وخاصّ الخاصّ من رؤية التّوفيق إلى مشاهدة الموقّف. ويُقال أمر الكلّ بالتّوبة لئلا يخجل العاصي من الرّجوع بانفراده. ويُقال مساعدة الأقوياء مع الضّعفاء رفقاً بهم من أمارات الكرم. ويُقال في قوله: (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) تبين أنّه أمرهم بالتّوبة لينتفعوا هم بذلك، لا ليكون للحقّ سبحانه بتوبتهم وطاعتهم تجمّل. ويُقال: أحوج النّاس إلى التّوبة من توهم أنّه ليس يحتاج إلى التّوبة" (2).

يجود علينا الإمام القشيري بدرر نفيسة في باب التّوبة، فيتناولها بشيء من التّفصيل، فالنّاس في التّوبة على مقامات؛ عوامهم يتوبون من المخالفات، وخواصهم يتوبون من الغفلة عن ذكر الحقّ سبحانه، وخاصّة الخاصّة مستغرقين في رؤية الموقّف، فهم في إحسانهم مشاهدين لله سبحانه وعنايته بعباده وتربيته لهم. ويؤكد الشّيخ القشيري مرّة أخرى على أنّ التّوبة التي يُعتدّ بها هي التّوبة التي كانت بتوفيق الله، ويختم الشّيخ بصاعقة تفرع القلوب الغافلة التي تتوهم أنّها ليست بحاجة إلى التّوبة؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى لم يُخرج عن دائرة الأمر بالتّوبة أيّ أحد من المؤمنين على اختلاف مراتبهم بالإيمان (جميعاً)، فأمر الكلّ بالتّوبة.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 490/3.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 365/2 وما بعدها.

3- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: 8].

قال الشيخ عبد القادر عند تفسيرها: " (توبة نصوحًا) خالصة لوجه الله، قالعة لعرق الالتفات إلى غير الله، نادمة على الذنوب الصادرة عنكم فيما مضى، مجتنبَةً عن التي ستأتي، مصفّية للنفس عن مطلق الكدورات المتعلقة بالغير، محلّية لها بالتقوى عن مطلق الرذائل العائقة عن التوجّه الخالص نحو المولى" (1).

فالتوبة الصادقة عند الشيخ عبد القادر هي التي تقلع من القلب الالتفات لغير الله، فيقصد المرید الله سبحانه بالعبادة والتوجّه والتوكّل، والإقبال على الله بكلّيته، فلا يرضى بعد توبته بغير الله سبحانه وتعالى صاحبًا ومدبرًا ووكيلًا، ومولى وناصرًا.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "التوبة النصوح: هي التي لا يعقبها نقض. ويُقال: هي التي لا تراها من نفسك، ولا ترى نجاتك بها؛ وإنما تراها بربك. ويُقال: هي أن تجد المرارة في قلبك عند ذكر الرّلة كما كنت تجد الراحة لنفسك عند فعلها" (2).

فالشيخ القشيري رحمه الله يعرف التوبة النصوح بذكر جزأين رئيسين لها؛ الأول: الصدق؛ فلا يعقب التوبة نكوص أو تراجع عنها، والثاني: مشاهدة العبد توفيق الله له للتوبة يلاحظ مما سبق: اتفاق الشيخين على أنه لا توبة إلا بتوفيق من الله عزّ وجلّ، وأنّ التوبة نعمة يجب على المؤمن شكرها، وأنّ التوبة ليست عن المعاصي فقط؛ فهي أشمل وأوسع من ذلك، فهل كان نبينا محمد صلي الله عليه وسلم حين يتوب إلى الله في اليوم مئة مرّة يتوب عن معصية؟! حاشاه صلي الله عليه وسلم . فيتوب المؤمن عن توجّه قلبه لغير الله، أو غفلته عن ذكره وانشغاله في مشاغل الحياة، أو ما يصيب قلبه من خوف أو حرص أو ركون إلى مخلوق.

وقد لاحظ الباحث عدّة ملاحظات أثناء إعداده لهذا المبحث، يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- كثرة ورود الاسمين الكريمين (التوّاب) و(الرحيم) معًا، وهذا يؤكّد الرحمة الخاصة المتمثّلة بالمغفرة والعفو. فالله سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين، يخرج عباده من ظلمات المعاصي والغفلة إلى نور الطاعة والقرب؛ فهو الذي علّم آدم عليه السّلام الكلمات التي تاب عليه بها.

2- جاء في سورة التّوبة عند الحديث عن توبة الله تعالى على الثلاثة الذين خُلفوا (إنّه بهم رؤوف رحيم)، وفي ختام السّورة وصف الله تعالى نبيّه (بالمؤمنين رؤوف رحيم)، وفي ذلك إشارة إلى مقام الخلافة، وأنّ المرسل يتخلّق بأخلاق مُرسله.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 6/124.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 3/334 وما بعدها.

3- من الملفت نداء الله تعالى للمؤمنين بعد ذكره توبته على الثلاثة الذين خُفوا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119] ، ففيه إشارة إلى أن بعد التوبة يبدأ السلوك؛ ف جاء الخطاب للمؤمنين خاصة، وأمرهم أن يكونوا مع الصادقين.

4- إن المؤمن الصادق دافعه الحقيقي للتوبة هو محبة الله سبحانه وتعالى لهذا الفعل، فهو لا يغفل عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]، فيكفيه أن مولاه يحب التوبة فيسارع في محبوبات حبيبه، ويستحضر كذلك قول المعصوم صلى الله عليه وسلم : «قال الله عز وجل: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ ذَكَرَنِي. وَاللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ صَالَتَهُ بِالْفَلَاةِ. وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي، أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أَهْرُولًا»⁽¹⁾.

(1) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، حديث رقم 2675. وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات، باب التوبة، حديث رقم 6309.

المبحث الثاني: المراقبة

إنَّ الواحد منَّا عندما يشعر بمراقبة أحد من النَّاس له، تضيق نفسه، ويختلَّ ميزانه، فيتمنَّى الخلاص من هذه المراقبة في أسرع وقت، لكنَّ العبد إن علم أنَّ الرَّقيب عليه يتَّصف بالرحمة، واللَّطف، والكرم، والعلم، والقدرة، وصفات الكمال كلِّها، اطمأنت نفسه وهدأت، وعلم أنَّ الله تعالى لا يصدر عنه إلا كل خير: ﴿قَالَ لَا تَخَافًا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46] ، ورحم الله الإمام الشاذلي إذ قال في دعائه: "وعين الله ناظرة إلينا، بحول الله لا يُعَدُّ علينا"⁽¹⁾.

عرَّفها حجة الإسلام الغزالي، فقال: "هي ملاحظة الرَّقيب، وانصراف الهمِّ إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره، يُقال إنَّه يراقب فلانًا ويراعي جانبه"⁽²⁾، فالاشتغال بمراقبة الله تعالى هي حالة ملازمة للعبد؛ لأنَّه يعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى مطلع على سرِّه قبل علانيته.

والأصل فيها ما جاء في حديث جبريل عليه السَّلام عندما سأل النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الإحسان، فأجابه: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»⁽³⁾، قال الإمام القشيري: "إشارة إلى حال المراقبة؛ لأنَّ المراقبة علم العبد باطِّلاع الرَّبِّ سبحانه وتعالى عليه واستدامته لهذا العلم مراقبة لربه وهذا أصل كلِّ خير"⁽⁴⁾. فمن علم أنَّ الله رقيب عليه اجتهد في إرضائه وطلب محابَّته، وهذا الحال لا يصدر عنه إلا كلِّ خير في الدارين.

وينبَّه الشَّيخ عبد القادر أنَّها لا تتمَّ إلا بأربع خصال⁽⁵⁾:

1- أولها: معرفة الله تعالى.

2- والثَّانية: معرفة عدوِّ الله إبليس.

3- والثَّالثة: معرفة نفسك الأمانة بالسَّوء.

4- والرَّابعة: معرفة العمل لله تعالى.

ولو عاش إنسان دهرًا في العبادة مجتهدًا ولم يعرفها ولم يعمل عليها لم تنفعه عبادته، وكان على الجهل ومصيره إلى النَّار، إلا أن يتفصَّل الله عليه برحمته⁽⁶⁾ "وفصَّل الشَّيخ في شرحها تفصيلًا وافيًا، فحواه⁽⁶⁾ أنَّ نظر الإنسان منصبًّا في المراقبة على أربع؛ أولها: أن يعرف العبد صفات ربه جلَّ وعلا؛

(1) مخلف العلي، الكنوز النورانية، ص 363، من حزب البحر للإمام الشاذلي رضي الله عنه.

(2) الغزالي، أحياء علوم الدين، 398/4.

(3) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام، حديث رقم 50.

(4) القشيري، الرسالة القشيرية، 329/1.

(5) الجيلاني، الغنية، 309/2 وما بعدها.

(6) الجيلاني الغنية، 310/2 وما بعدها.

وأنته عليم قريب يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأنه كاف لعبده، ودود رحيم به، فمن عرف ربّه وثق فيه وتوكل عليه. وثانيها: أن يعرف المرء عدوّه كما أخبر الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6]، فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم أصل عند المسلم لا يستغني عنه⁽¹⁾، فلا يدخر جهداً في محاربتة، وطلب العون في ذلك من الله. وثالثها: أن يعرف نفسه الأمانة بالسوء، وأنها أعدى له من إبليس، فإن إبليس تزول وسوسته بالاستعاذة، والنفس لا تزول وساوسها إلا بتأديبها وتربيتها، قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: 53]، "فهي حيّة ما دامت حيّة"⁽²⁾. ورابعها: إخلاص العمل لله تعالى، وأن لا يطلب المسلم في فعله غير وجه الله. ولا يميلن في هذا كلّ لأحد غير الله تعالى، فهو المعين على تمام ذلك، فلسان حاله «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ، أَصْلِحْ لِيْ شَأْنِيْ كُلَّهُ، وَلَا تَكُنْ لِيْ إِلَى نَفْسِيْ طَرْفَةَ عَيْنٍ»⁽³⁾.

وقدم الشيخ الجيلاني لسالكي طريق الحق برنامجاً عملياً مفصلاً ومجرباً، فقال الشيخ عبد القادر: "ولأهل المجاهدة والمحاسبة وأولى العزم عشر خصال جربوها لأنفسهم، فإذا أقاموها وأحكموها بإذن الله تعالى وصلوا إلى المنازل الشريفة"⁽⁴⁾، واستفاض في شرحها في كتابه الغنية، وهذا تلخيص لها:

1- أن لا يحلف المسلم بالله لا صادقاً ولا كاذباً، لا عامداً ولا ساهياً. وهذا يورث تعظيم الله تعالى في القلب.

2- تجنّب الكذب لا هازلاً ولا جاداً.

3- الإيفاء بالوعد، وإن استطاع أن لا يعد أحداً أصلاً فذلك أقوى لأمره وأقصد لطريقه.

4- يجتنب اللعن لكلّ الخلق، وأن لا يؤذي ذرّة (نملة) فما فوقها.

5- أن لا يدعو على أحد وإن ظلمه، ولا يصدر عنه في حقّه قول ولا فعل، ويحتمل ذلك لله تعالى.

6- أن لا يحكم على أحد من أهل القبلة بشرك أو كفر أو نفاق.

7- كفّ الجوارح عن الهمّ بالمعاصي الظاهرة والباطنة جميعها أو الإتيان بها.

(1) محاضرة في مادة أساليب البيان للدكتور شحادة حميدي البخيت العمري، جامعة القدس أبو ديس، بتاريخ 2023/3/10

(2) مقابلة مع الدكتور عمر الصالحي.

(3) سنن النسائي الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، نوع آخر، حديث رقم 10330. علمه النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة فاطمة على نبيينا وعليها السلام.

(4) الجيلاني، الغنية، 314/2.

8- اجتناب طلب شيء من الناس ما أمكنه ذلك، ففي ذلك عزّ المؤمن.

9- أن يقطع أمله من كل الناس، فلا يُطمع نفسه في شيء مما في أيديهم، وذلك يورث الثقة بالله تعالى.

10- التواضع، وهي أهم الخصال، وهي أصل الطاعات كلّها، وفروعها وكمالها.

وقد ورد ذكر المراقبة في كتاب الله تعالى في عدّة مواضع، اختار الباحث منها:

1- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]

قال الشيخ عبد القادر عند تفسيرها: "(إنّ الله) المحيط بكم وبأحوالكم (كان عليكم) دائماً (رقيباً) حفيظاً يحفظكم عما لا يغنيكم إن أخلصتم التوجّه"⁽¹⁾.

يُلاحظ أنّ الشيخ عبد القادر الجيلاني عرّف الرقيب بمعنى الحفظ؛ يحفظهم عن كلّ ما سواه، فلا غنى إلا به، إن كان التوجّه خالصاً لوجهه.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "مطلعاً شهيداً، يعدّ عليك أنفاسك، ويرى حواسك، وهو متولّى خطراتك، ومنشئ حركاتك وسكناتك. ومن علم أنّه رقيب عليه فبالحريّ أن يستحيي منه"⁽²⁾. فمن علم أنّ الله رقيب عليه تولّد عنده الحياء من الله سبحانه وتعالى أن يراه على معصية.

2- قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: 108]

قال الشيخ عبد القادر عند تفسيرها: "(يستخفون) خيانتهم (من الناس) مع بعدهم عنهم، (ولا يستخفون من الله وهو معهم) والرقيب عليهم أقرب من وريدهم"⁽³⁾.

يفسر الشيخ الجيلاني الرقابة في هذا الموضع بالعلم والإحاطة.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "(يستخفون من الناس) الغالب على قلوبهم رؤية الخلق، ولا يشعرون أنّ الحقّ مطلع على قلوبهم، أولئك الذين وسم الله قلوبهم بوسم الفرقة"⁽⁴⁾.

فالشيخ يصف هذا الصنف من الناس الذي انشغل بمراقبة الخلق عن مراقبة الحقّ. فاستحقوا عقوبة الطرد.

3- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 117]

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 364/1.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 195/1.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 435/1.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 223/1.

قال الشيخ عبد القادر عند تفسيرها: " (أنت الرقيب) المحافظ (عليهم) المتوَلَّى لأموهم تضلّهم وتهديهم، ترشدهم وتغويهم (وأنت) المنزّه بذاتك عن جميع الأكوان (على كلّ شيء) من الأمور الكائنة (شهود) حاضر غير مغيب"⁽¹⁾.

يُلاحظ تكرار الشيخ الجيلاني لتفسير الرقابة بالحفظ كما في الآية السابقة من سورة النساء. ويقول الشيخ القشيري عند تفسيرها: "فلما فارقتهم كان تصرفهم في قبضتك، على مقتضى مشيئتك، فأنت أعلم بما كانوا عليه من وصفي وفاقهم وخلافهم، ونعمتي إقتصادهم وإسرافهم"⁽²⁾. يُلاحظ أنّ الشيخ القشيري فسّر الرّقابة بمعنى أوسع، فلم يقتصر على معنى العلم والإحاطة؛ بل خرج عنه إلى معنى التصرف في ملكه على وفق مشيئته جلّ وعلا.

4- قال تعالى: ﴿الَّذِي يَرِنُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: 218]

قال الشيخ عبد القادر عند تفسيرها: "وكيف لا يرحمك يا أكمل الرسل ولا يكفيك مؤونة أعدائك (الذي يراك) أي القيوم القادر الذي يشاهدك (حين تقوم) من منامك خلال الليل طلبًا لمرضاته، ورفعًا لحاجاتك نحوه"⁽³⁾.

جمع الشيخ عبد القادر في هذه الآية بين معاني الرقيب الثلاثة: العلم والإطلاع، والحفظ، والتصرف في الملك.

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخلق، فإنّ من علم أنّه بمشهد من الحقّ راعى دقائق أحواله، وخفايا أموره مع الحقّ"⁽⁴⁾.

يوجّهنا الشيخ القشيري رضي الله عنه إلى عدم الالتفات إلى الخلق، والاستغراق في مشاهدة الحقّ ومراعات دقائق الأقوال والأفعال والنّوايا في معاملة الله تعالى.

5- قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: 52]

قال الشيخ عبد القادر عند تفسيرها: " (وكان الله) المطلع على مقادير أفعال عباده (على كلّ شيء) مما جرى في ملكه وملكوته (رقيبًا) يراقبه ويحافظه إلى أن يكمل، ثمّ يمنع عنه على مقتضى حكمته البالغة"⁽⁵⁾.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 549/1.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 284/1.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 103/4.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 407/2.

(5) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 387/4.

جمع الشَّيخ عبد القادر في تفسيره لهذه الآية بين معنبي الحفظ والتَّصَرَّف في ملكه. ويُلاحظ موافقة الشَّيخ عبد القادر للشَّيخ القشيري في تفسيره للمراقبة في الآية السَّابِقة -آية المائة: 117- في إخراج معنى المراقبة إلى معنى التَّصَرَّف في ملكه وفق حكيمته البالغة.

أما الشَّيخ القشيري فلم يتعرَّض لتفسير اسم الله الرَّقِيب في هذا الموضوع⁽¹⁾.

6- قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: 14]

قال الشيخ عبد القادر عند تفسيرها: " (ألم يعلم) ذلك النَّاهي المباهي، المبالغ في العتو والعتاد (بأنَّ الله) القادر المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام (يرى) يعلم ويبصر جميع ما صدر عنه من المجادلة والمرء، فيجازيه على مقتضى علمه وخبرته"⁽²⁾.

فالله سبحانه وتعالى رقيب على عباده، يكافئ المطيع بإنعامه، ويعاقب المسيء بأشكال انتقامه وفق علمه وخبرته.

وقال الشَّيخ القشيري عند تفسيرها: "والتَّخْوِيفُ برؤية الله تنبيه على المراقبة، ومن لم يبلغ حال المراقبة لم يرتقِ منه إلى حال مشاهدة"⁽³⁾.

يعلِّمنا الشَّيخ القشيري أنَّ مقام المراقبة لا بدَّ منه قبل الدَّخول منه إلى مقام المشاهدة، الذي هو أرقى وأكمل، وبهذا يتضح أهمِّية مقام المراقبة في سلوك العبد إلى مولاه؛ لأنَّ به التَّرقِّي إلى مشاهدة مولاه، وهو مقام الإحسان الذي حصَّت عليه الشَّريعة الغزاء؛ بل هو لبِّ الدِّين الحنيف.

يُستنتج من تفسير الشَّيخين للآيات السَّابِقة ما يلي:

1- فسَّر الشَّيخ عبد القادر الجيلاني اسم الله الرَّقِيب بمعانٍ ثلاثة: الحفظ، والعلم والإحاطة، التَّصَرَّف الملك.

2- فسَّر الشَّيخ القشيري اسم الله الرَّقِيب بالعلم والإحاطة، والتَّصَرَّف بالملك. ولم يتطرَّق إلى معنى الحفظ.

3- أنَّ مقام المراقبة باب الدَّخول إلى مقام المشاهدة.

4- المؤمن يحاسب نفسه على أدقِّ الأمور، حتَّى الحقيقير منها؛ لأنَّه يعلم أنَّ النَّاقِد بصيرٌ.

5- مقام المراقبة يورث في قلب المؤمن الاطمئنان والثَّقة بمولاه.

وفي أثناء الإعداد لهذا المبحث خطرت بعض الخواطر للباحث؛ وهي:

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 43/3

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 400/6.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 437/3.

1- في بداية سلوك المسلم في مقام المراقبة يجد الصعوبة البالغة في ذلك، ولكنه مع تعود هذا الحال، وتذوق ثمرة هذه المجاهدة، يجد نفسه في راحة عظيمة، فيصبح هذا الحال سجيّة له، وخلقًا ملازمًا لا ينفك عنه، يمارسه دون تكلف .

2- بدون عون الله تعالى لعبده وتأييده له في حربه مع شيطانه ونفسه لن يفلح في الوصول إلى مقام المراقبة. ﴿لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83]

3- التواضع خلق عظيم يزهد فيه الكثير من الناس، مع أنه فيه رفعتهم التي يبحثون عنها. قال صلى الله عليه وسلم : «ما تواضع أحدٌ لله إلا رفَعَهُ اللهُ»⁽¹⁾.

4- إنّ اسم الله الرّقيب ما هو إلا انعكاس لربوبية الله تعالى، فالمرّي يراقب أحوال من يرّيه، فيوجهه ويعينه ويصلحه، حتى ينشئه خير نشأة.

(1) صحيح مسلم، كتاب البرّ والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، حديث رقم 2588.

المبحث الثالث: الصدق.

الصدق خلق لا ينفك عن المؤمن، فهو طريقه إلى الجنة، قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا¹، " فهو عماد الأمر وبه تمامه، وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة"⁽²⁾.

وقد عُرف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالصادق الأمين قبل النبوة . و"الصادق هو: الاسم اللازم من الصدق، والصديق هو: المبالغة منه، وهو من تكرر منه الصدق، فصار دأبه وسجيته، وصار الصدق غالبه، وأقل الصدق استواء السر والعلانية، والصادق الذي صدق في أقواله، والصديق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله"⁽³⁾، وهنا يتوقف في كلام الشيخ رحمه الله؛ إذ إنَّه عرف الصديق بمن تكرر منه الصدق، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لولا أنَّه تكرر منه الصدق لما أسماه بالصادق، وهم أهل اللغة وأبناؤها.

ثم إنَّ الشيخ القشيري رحمه الله حصر في تعريفه هذا لفظه (الصادق) على من يصدق في أقواله، مع أنَّ الأفعال تدخل في الصدق أيضًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: 15]، وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: 8]. فالله سبحانه وتعالى وصف الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ونصروا الله ورسوله بالصادقين.

وقد أدخل الشيخ الغزالي في الصدق ستة معانٍ؛ وهي: "صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها"⁽⁴⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿إيا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ ، حديث رقم 6094.

(2) القشيري، الرسالة القشيرية، 363/2.

(3) القشيري، الرسالة القشيرية، 363/2.

(4) الغزالي، إحياء علوم الدين، 39/5.

وعزّفه الإمام جعفر الصادق⁽¹⁾، رضي الله عنه فقال: "الصدق هو المجاهدة، وأن لا تختار على الله غيره، كما لم يختار عليك غيرك؛ فقال تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج:78]"⁽²⁾. فالصدق عند الإمام جعفر رضي الله عنه يقوم على ركنين أساسيين: المجاهدة، وإيثار الله على ما سواه.

ومما يكثر شيخنا الصالح من ترديده قوله: " من رافق السعيد يسعد وتلوح عليه أنواره، ومن رافق الشقي يشقى ويحترق بناره"⁽³⁾.

والصدق عند الشيخ الجيلاني رحمه الله هو: "الفرض الدائم، فمن لم يؤدّ الفرض الدائم لا يُقبل منه الفرض المؤقت"⁽⁴⁾. وأفضل ما بيّن كلام الشيخ قول حجة الإسلام الغزالي: "الصدق في مقامات الدّين، كالصدق في الخوف، والرّجاء، والتّعظيم، والرّهد، والرّضا، والتّوكل، والحبّ، وسائر هذه الأمور"⁽⁵⁾.

ومن العجيب أنّ الشيخ الجيلاني رحمه الله ختم كتابه (الغنية) بمقام الصدق، وختمه قائلاً: "إذا طلبت الله بالصدق أعطاك مرآة تنظر فيها كلّ شيءٍ من عجائب الدّنيا والآخرة"⁽⁶⁾.

ومن أهمّ وأيسر طرق تحصيل الصدق: صحبة الصادقين؛ لقوله صلى الله عليه وسلّم: « مثلُ الجليس الصّالح والجليس السّوءِ كحاملِ المسكِ ونافخِ الكيرِ، فحاملِ المسكِ إمّا أن يُحذيكَ، وإمّا أن يتباعَ منه، وإمّا أن تجدَ منه ريحًا طيِّبةً، ونافخِ الكيرِ إمّا أن يُحرقَ ثيابك وإمّا أن تجدَ منه ريحًا مُنتنةً »⁽⁷⁾.

يُفهم من كلام الشيخ عبد القادر أنّ الصدق باب للدّخول إلى مقام الحبّ، فيصبح العبد يرى بنور الله، ويتولّى الله تعليمه وإمداده، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»⁽⁸⁾.

(1) هو " الإمام الصادق، شيخ بني هاشم، أبو عبد الله جعفر بن محمّد بن علي ابن الشهيد أبا عبد الله الحسين ریحانة النبي صلى الله عليه وسلم ، وسبطه ومحبوبه ابن أمير المؤمنين أبي الحسن عليّ بن أبي طالب، القرشي، = الهاشمي العلوي، النّبويّ، المدني، أحد الأعلام، مكثّر بالزّواياة عن أبيه، وكانا من جلة علماء المدينة، ولد سنة 80هـ وتوفّي سنة 148هـ". الذهبي، سير اعلام النبلاء، 255/6. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 327/1 وما بعدها، ابن العماد، شذرات الذهب، 216/2.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، 46/5.

(3) مقابلة مع الدكتور عمر الصالحي.

(4) الجيلاني، الغنية، 335/2.

(5) الغزالي، إحياء علوم الدّين، 44/5.

(6) الجيلاني، الغنية، 335/2.

(7) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، حديث رقم 2101. وصحيح مسلم، كتاب البرّ والصّلة والأدّاب، باب استحباب مجالسة الصّالحين، ومجانبة قرناء السّوء، حديث رقم 2628.

(8) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم 6502.

وجاء ذكر الصدق في كتاب الله في مواضع كثيرة؛ منها:

1- قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ [المائدة: 119]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "ينفع الصادقين) الذين صدقوا في النشأة الأولى (صدقهم) السابق (لهم) في هذه النشأة لهؤلاء الصادقين (جنات) متنزهات المعارف والحقائق (تجري من تحتها الانهار) مملوءة بمياه المكاشفات والمشاهدات المثمرة للحياة الأبدية، والبقاء السرمدي (خالدين فيها أبدا) لا يتحولون عنها أصلاً (رضي الله عنهم) لتحققهم بمقام الصدق والإخلاص (ورضوا عنه) لإيصالهم إلى غاية ما جُبلوا عليه لأجله بلا منتظر (ذلك) الوصول والتحقق هو (الفوز العظيم) والفضل العميم، واللطف الجسيم، لأهل العناية الفائزين من عنده بهذه المرتبة العلية" (1).

يفسر الشيخ ثواب الصادقين تفسيراً إشارياً؛ ففسر الجنات بمتنزهات المعارف والحقائق، التي تجري من تحتها أنهار المكاشفات والمشاهدات، وأنهم نالوا رضى الله عنهم لتحققهم بمقام الصدق والإخلاص، وهم كذلك راضون عن الله؛ لأنه وفقهم لبلوغ هذا المقام السني.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "من تعجل ميراث صدقه في دنياه؛ من قبل حصل له من الناس، أو رياسة عُدت له، أو نفع وصل إليه من جاه أو مال، فلا شيء له في آجله من ثواب صدقه؛ لأن الحق سبحانه نصّ بأن يوم القيامة ينفع فيه الصادقين صدقهم، ورضاء الحق سبحانه إثبات محلّ لهم، وثناؤهم عليهم، ومدحه لهم، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله، ورضائهم عن الحق سبحانه في الآخرة وصولهم إلى مناهم، فهو الفوز العظيم والنّجاة الكبرى" (2).

ينبه الشيخ القشيري على معنى دقيق، وهو أن لا يطلب الصادق عوضاً عن صدقه في الدنيا، فإن فعل ذلك حرم جزاءه الأخرى؛ فالشيخ فهم من الآية أنّ ثواب الصادق في الآخرة فقط.

2- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: 119]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "يا أيها الذين آمنوا) مقتضى إيمانكم التقوى عن محارم الله (اتقوا الله) عن مخالفة أمره (وكونوا) في السراء والضراء (مع الصادقين) المصدقين لرسوله، المتابعين له في جميع أموره" (3).

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 550/1.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 285/1.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 304/2.

يوضح الشيخ الجيلاني أنّ الصادق يصدّق الرسول صلى الله عليه وسلم ويتّبعه في جميع أمورهِ، على كلّ أحواله، في المنشط والمكروه.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "يا أيّها الذين آمنوا برسل الله، يا أيّها الذين آمنوا من أهل الكتاب، كونوا مع الصادقين المسلمين، يا أيّها الذين آمنوا في الحال: كونوا في آخر أحوالكم مع الصادقين؛ أيّ استديموا الإيمان. استديموا في الدنيا الصدق تكونوا غداً مع الصادقين في الجنّة... ويُقال الصدق نهاية الأحوال، وهو استواء السرّ والعلانية، وذلك عزيزٌ. وفي الزبور⁽¹⁾: «كذب من ادّعى محبّتي، وإذا جنّه الليل نام عني». والصدق كما يكون في الأقوال يكون في الأحوال، وهو أتمّ أقسامه"⁽²⁾.

ويلاحظ أنّ الإمام القشيري رحمه الله يعتبر مقام الصدق نهاية الأحوال، وعرفه في هذا الموضع بأنّه استواء السرّ والعلانية؛ فالإنسان باطنه كظاهره؛ كالكتاب المفتوح كما يُقال، ويبين الشيخ أنّ العمل يدخل في الصدق من خلال استشهاده بما جاء في الزبور.

3- قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَ الصّٰدِقِيْنَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِيْنَ عَذَابًا أَلِيْمًا ۗ﴾ [الأحزاب: 8]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "ليسأل) سبحانه في النشأة الأخرى أنبياءه ورسله صلوات الله عليهم عن أحوال العباد (الصادقين) الممتثلين لأوامر الله، المجتنبين عن نواهيه (عن صدقهم) وإخلاصهم في أعمالهم، ونياتهم فيها، وأحوالهم، ومواجيدهم، واعتقاداتهم، وتلقّيمهم لقبول الحقّ، والمحافظة عليه؛ ليشهد الانبياء لهم، فيفوزوا إلى ما أعدّ لهم من المراتب والمقامات، وأنواع السّعادات والكرامات، مع أنّ علمه سبحانه بحالهم يغني عن شهادتهم"⁽³⁾.

يقول الشيخ الجيلاني إنّ الله سبحانه وتعالى يسألُ الأنبياء عن أقوامهم، ولا سيّما عن الصادقين منهم، وهو أعلم بهم، يسألهم عن تفاصيل أحوالهم وأخبارهم ونياتهم واعتقاداتهم. ويُلاحظ أنّ الشيخ عبد القادر لم يذهب إلى المعنى المتبادر وهو سؤال الله سبحانه للصادقين أنفسهم؛ بل جعل سؤال الله تعالى للأنبياء عليهم السّلام عن الصادقين من أقوامهم.

ويرى الباحث أنّ ما دفعه إلى ذلك هو السياق؛ إذ إنّ الآية السّابقة تحدّثت عن الأنبياء، وبخاصّة أولي العزم⁽⁴⁾ منهم، عليهم الصّلاة والسّلام جميعاً، وكانّ الشيخ رجّح أنّ اللام في بداية هذه الآية هي للتعليل.

(1) كتاب داوود عليه السّلام.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 452/1.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 352/4.

(4) أذكّركم تبرّكاً بذكّركم عليهم السّلام، وهم سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم، ونوح عليه السّلام، وإبراهيم عليه السّلام، وموسى عليه السّلام، وعيسى عليه السّلام.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "يسألهم سؤال تشريف لا سؤال تعنيف، وسؤال إيجاب لا سؤال عتاب، والصدق أن لا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب، ولا في أعمالك عيب. ويقال: من أمارات الصدق في المعاملة وجود الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق، والصدق في الأحوال تصفيتها من غير مداخلة إعجاب، والصدق في الأقوال سلامتها من المعارض فيما بينك وبين نفسك، وفيما بينك وبين الناس التبعاد عن التلبس، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبري من الحول والقوة، ومواصلة الاستعانة وحفظ العهود معه على الدوام، والصدق في التوكل: عدم الانزعاج عند فقد، وزوال الاستبشار بالوجود"⁽¹⁾.

يستفيض الشيخ في شرح الصدق وتفاصيله في هذه الآية؛ فهو يضيف تعريفاً جديداً للصدق؛ فهو يشمل: إخلاص النية لله تعالى، بحيث لا يشوبها شائبة رياء، واليقين في الاعتقاد، فلا يشوبه شك ولا ريب، والاجتهاد في تصحيح الأعمال؛ فلا يعتريها نقص ولا عيب.

فالصادق لا يلاحظ المخلوق، حتى نفسه التي بين جنبيه؛ لأن همة وشغله لخالقه، ويدفع عنه خاطر العجب بمعرفته أن لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فهو يعلم علم اليقين أن الموفق هو الله.

ويمثل الشيخ على الصدق في مقام التوكل بعدم الحزن على المفقود، ولا الفرح بالموجود، تمثلاً بقوله تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 23]؛ فالصادق المتحقق لا يركن إلا لمولاه، فإن فقد شيئاً فله غنى بمولاه عما فقد، وإن وجد ففرحه بمولاه أعظم مما وجد.

4- قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(من المؤمنين) المشمرين لإعلاء دين الله، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم على العزيمة الكاملة الصادقة (رجال) أبطال كاملون في الإخلاص والشجاعة والوفاء (صدقوا) في جميع (ما عاهدوا الله عليه) أي أنجزوا مواعيقهم، ووفوا عموم عهودهم التي عهدوا مع الله ورسوله"⁽²⁾.

يقرر الشيخ عبد القادر أن من أهم صفات الرجال الذين يحبهم الله الصدق في جميع أحوالهم، وبخاصة في القيام بمواعيقهم وعموم عهودهم التي عاهدوا الله ورسوله عليها، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم في موضع آخر: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: 20].

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 33/3.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 363/4.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "فمنهم من خرج من دنياه على صدقه، ومنهم من ينتظر حكم الله في الحياة والممات، ولم يزيغوا عن عهدهم، ولم يراوغوا في مراعاة حدّهم، فحقيقة الصّدق حفظ العهد وترك مجاوزة الحدّ. ويُقال: الصّدقُ استواءُ الجهر والسّرّ، ويُقال: هو الثّباتُ عندما يكون الأمرُ جدًّا"⁽¹⁾. ويُلاحظ أنّ الشيخ القشيري ساق ثلاثة تعريفات للصّدق؛ أوّلها: حفظ العهود مع الله والالتزام بأوامره جلّ وعلا، وثانيها: أن تكون سريرة المرء كعلانيته، وثالثها: الثّبات في المدلهمات.

5- قال تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(في مقعد صدق) هو مقام التّسليم والرّضا بمقتضيات القضاء (عند ملك) يملكهم ويتكفل بأموّهم وجميع حوائجهم (مقتدر) على تدبيرها، بمقتضى الحكمة المطلقة. جعلنا الله من زمرة المتّقين المتمكّنين في مقعد الصّدق عند الملك المقدر العليم الحكيم"⁽²⁾. يقول الشيخ عبد القادر إنّ الصّادقَ الحقيقيّ هو الذي يسلم لله في قضائه، ويرضى عنه في أحكامه، فيظهر صدق المؤمن مع ربّه عند الشّدائد والبلايا، وإلاّ في حال الرّخاء فالكلّ يحسن الرّضا. وغاية التّصديق اليقين بعلم الله المطلق وحكمته البالغة، وقدرته على تدبير أمور العباد.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "(في مقعد صدق) أي في مجلس صدق (عند ملك مقتدر) أراد به عنديّة القربة والزّلفى، ويُقال مقعد الصّدق أي مكان الصّدق، الصّادق في عبادته من لا يتعبّد على ملاحظة الأطماع، ومطالعة الأعواض، ويُقال: من صدق في العبوديّة تحرّر عن المقاصد الدنيّة"⁽³⁾. ينبّه الشيخ على مقام رفيع جليل، وهو الصّدق في معاملة الله، فالصّادق الحقيقيّ هو الذي يعبد الله لا طمعًا بجنّة، ولا خوفًا من نار، ولا طلبًا لعوض دنيويّ أو أخرويّ، ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [سورة البقرة: 177] وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿[الليل: 20-21]، فهمّه منصبٌّ على رضى مولاه، فكلّ مقصدٍ دون الله دنيّ. يا رب أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي. وقد أورد ابن الجوزي وابن كثير رحمهما الله أثرًا عن عليّ زين

(1) القشيري، لطائف الاشارات، 3/36 وما بعدها.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني/ 5/472.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 3/260 وما بعدها.

العابدين ابن الحسين⁽¹⁾ رضي الله عنهما أنه قال: " إن قَوْمًا عبدوا الله رهبة؛ فتلك عبادة العبيد، وآخرون عبدوه رغبة؛ فتلك عبادة التَّجَار، وآخرون عبدوه محبةً وشكرًا؛ فتلك عبادة الأحرار"⁽²⁾.

6- قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:8]

قال الشَّيخ الجيلاني عند تفسيرها: "... (أولئك) السَّعداء المقبولون الباذلون مهجهم في طريق الحق وتقوية دينه القويم، وصراطه المستقيم، ونصرة رسوله الكريم (هم الصادقون) المقصرون على الصدق والإخلاص، ظاهرًا وباطنًا"⁽³⁾.

يُلاحظ أنَّ الشَّيخ عبد القادر فهم من الآية قصرَ وَصْفِ الصِّدْقِ على الَّذِينَ بذلوا مُهَجَهُمْ، وأغلى ما يملكون في سبيل الله، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كان الصِّدْقُ مقامًا عزيزًا يصعب نيله إلا بالتَّوْفِيقِ المحض من الله تعالى.

وقال الشَّيخ القشيري عند تفسيرها: "(أولئك هم الصادقون) والفقير الصَّادق هو الذي يترك كلَّ سبب وعلاقة، ويفرِّغ أوقاته لعبادة الله، ولا يعطف بقلبه على شيء سوى الله، ويقف مع الحق راضيًا بجريان حكمه فيه"⁽⁴⁾.

إنَّ المرید الصَّادق عند الإمام القشيري هو الذي لا يتعلَّق قلبه بغير الله؛ فهو لا يخشى ولا يرجو أحدًا إلا الله، ولا يقصد غيره بعبادة أو حب، ويرضى عن الله وقدره، حلوه ومزّه.

(1) هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ابن عبد المطلب، الهاشمي العلوي المدني، السيّد الإمام زين العابدين، حدّث عن أبيه الحسين الشَّهيد، وكان معه يوم كربلاء، وله حينها 23 سنة، وهو مكثر الحديث، وله أحاديث في الصحيحين، كان يصلّي في كلِّ يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات. ومما يُروى عنه أنه وقع حريق في بيته وهو ساجد فجعلوا يقولون: يا ابن رسول الله: النَّار! فما رفع رأسه حتّى طُفئت، فقيل له في ذلك، فقال: ألهمتني عنها النَّار الأخرى. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 4/386.

(2) ابن الجوزي، ابو الفرج، عبد الرحمن بن علي، ت597هـ، صفة الصفة، تحقيق أحمد علي، دار الحديث، القاهرة، 1421هـ/2000م، 1/354. و ابن كثير، البداية والنهاية، 9/105.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 6/48 وما بعدها.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 3/304.

- ومن خلال قراءة الباحث لتفسير الشيخين للآيات التي ورد فيها ذكر الصدق، ظهر له ما يلي:
- 1- الصدق من صفات الرجال الذين امتدحهم الله في كتابه، وهو خصلة لا تتفكّ عن مؤمن، وهذا المعنى نجده يتكرّر عند الشيخين.
 - 2- اتفق الشيخان على أنّ الصادق الحقيقيّ هو الذي يبتغي وجه الله بأعماله، وليس له مطمع دنيويّ أو أخرويّ.
 - 3- اتفق الشيخان على أنّ الصدق يدخل في معناه إخلاص النوايا، واليقين في الاعتقاد، والاجتهاد في الأعمال.
 - 4- اتفق الشيخان على أنّ التسليم والرّضا هما مقام الصدق الحق.
 - 5- اتفق الشيخان على أنّ أعظم منافع الصدق مع الله هو نيل رضوانه سبحانه وتعالى، فذلك هو الفوز العظيم.
 - 6- يفسّر الشيخ الجيلاني الصدق بالاتباع للنبيّ صلى الله عليه وسلم في كلّ أحواله وأموره.
 - 7- يذكر الشيخ القشيري علامة من علامات الصدق، وهي عدم الحزن على المفقود، وعدم الفرح بالموجود.
 - 8- يقول الشيخ القشيري إنّ حبّ الله تعالى للصادقين؛ فسؤالهم سؤال تشريف لا تعنيف، وهو من نعيم الآخرة.
 - 9- يقول الشيخ الجيلاني إنّ أقصى درجات الصدق بذلّ النفس في سبيل الله تعالى.
 - 10- يشير الشيخ القشيري إلى أنّ الصادق يجني ثواب صدقه في الآخرة فقط.

وفي أثناء الإعداد لهذا المبحث خطرت بعض الخواطر للباحث؛ وهي:

- 1- المؤمن يعيش عمره محاولاً إثبات صدق حبه لله تعالى، فهو في تقلّباته في الحياة وتصاريقها من يسر وعسر يسعى جاهداً أن يُري الله من نفسه خيراً وصدقاً، بأنّه لا يرتضي بمولاه بدلاً.
- 2- مقام الصدق لا يتمكّن منه إلا من أدام التّوبة والمراقبة؛ لأنّهما حالة ملازمة للصادق.
- 3- الصادق مُقبِلٌ بكلّيته على الله عزَّ وجلَّ، يسمع من ربّه، ويصمّ أذانه عمّا سواه.

المبحث الرابع: الحب

إنَّ أسعد الخلق على الإطلاق الذين ظفروا بحبِّة الله، فأكرمهم بأن يشربوا من كأس محبته، ومحبته نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54]، ففازوا في الدارين؛ في الدنيا بأن حازوا هذا الوسام، الذي تتناول له أعناق المؤمنين على مرِّ العصور، وفي الأخرى بأن كانوا مع حبيبيهم كما طمأنهم حبيب الحق بقوله: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ»⁽¹⁾، فقترت أعينهم، وهدأت نفوسهم، وأصلح بالهم.

وإن كان الواحد منَّا يسمع عن أخبار المحبِّين - حب الرجل للمرأة والعكس - فيعجب كلَّ العجب من حالهم، وكيف يمسي الواحد منهم ويصبح وهو لا يفتر عن ذكر حبيبه، بل يجافيه النوم، ويصير شغله الشاغل، وهمَّه الأول لقاء محبوبه؛ ولو أن يظفر بنظرة إلى الحبيب، وهذا حبُّ مخلوقٍ لمخلوقٍ، فكيف بحب المخلوق للخالق إن دَاخَلَ شِعَافَ القلب؟! فهل يُلام صاحبه عندها إن قَدَّمَ روحه رخيصةً طمَعًا في نيل رضا محبوبه، أو طمَعًا في الوصول إلى حضرة القدوس الودود: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: 5].

وقد ذكر حجة الإسلام الغزالي أسبابًا تقوي محبة الله في القلب⁽²⁾، ملخصها: أولاً: معرفة الله تعالى، فمن عرف الله سبحانه وتعالى أحبَّه؛ لأنه تعالى الكامل العظيم، الكريم الرحيم، الغفور الودود، والنفس مولىة بحبِّ الجمال، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أخبرنا «إنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»⁽³⁾، فمن عرف الله سبحانه، لا محالة أحبَّه.

ثانياً: تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها؛ فإنَّ القلب مثل الإناء؛ لا يتسع للعسل مثلاً ما لم يخرج منه الخل، وكمال الحب في أن يحب المرء الله عزَّ وجلَّ بكلِّ قلبه، وحديث الإمام الغزالي هنا عن كمال الحب، وإلا فالله سبحانه وتعالى برحمته يعلم أنَّ هناك محبوباتٍ أخرى في القلب، ولكن أن يكون حبُّ الله ورسوله مقدماً عليها جميعاً: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ أُقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24]. ومن المهمَّ العلمُ بأنَّ الإمام الغزاليَّ جعلَ إخراج حبِّ غير الله من القلب مقدماً على معرفة الله؛ ليحصل كمال المحبة.

وقد عرَّفَ الشَّيخ القشيري المحبة في رسالته بتعريفاتٍ كثيرة، رأى الباحث تلخيصها في النقاط التالية:

(1) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي، حديث رقم

3688. وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحبَّ 2639.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، 315/4.

(3) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، حديث رقم 91.

1. استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من محبوبك.
2. استيلاء ذكر المحبوب على القلب، فلا يغيب حتى يتذكره، والتعافل بالكليّة عن النفس.
3. أن تهب كلّك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء.
4. محو ما سوى المحبوب من القلب، وسقوط كلّ محبة من القلب إلا محبة الحبيب.
5. العتاب على الدوام؛ فالمحب لا يرضى من نفسه أحوالها مهما بلغت في الحب؛ فهو يرى نفسه مقصرة على الدوام.
6. الحب الصادق لا ينقص بالجفاء، ولا يزيد بالبر.
7. إنّ المحب لمن أحب مطيع.
8. إثارة محبوبات الحبيب على محبوبات النفس.
9. حسرته واحتراقه، وهي علامات تظهر على الجسد، يتبعها السهر وتجافي النوم عن صاحبه.
10. الحب الصادق يورث الهيبة للمحبوب في نفس المحب.
11. الخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب؛ بفناء علم المحبة.
12. الصبر على البلاء من المحبوب؛ بلّ كلّ ما يصدر من المحبوب محبوباً.
13. المحب لا يقنع من محبوبه بشيء؛ فهو في طلب دائم للزيادة في الوصل.
14. لا ينتظر من محبوبه أيّ نفع، ولا حاجة عنده، ولا أرب إلا الوصال الدائم.
15. الخشية من الفقد؛ فالمحب يُلازمه الوجل من فوات محبوبه، أو خسارة مقامه عنده.

وذكر الشيخ القشيري تعريفاً جامعاً للمحبة، نسبه إلى الحارث المحاسبي⁽¹⁾ رحمه الله: "المحبة مئلك إلى الشيء بجليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرّاً وجهراً، ثم علمك

(1) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري الأصل، الزاهد المشهور؛ أحد رجال الحقيقة، وهو ممن اجتمع له علم الظاهر والباطن، وله كتب في الزهد والأصول، توفي 243هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 57/2. الخطيب البغدادي، 104/9. السبكي، طبقات الشافعية، 275/2.

بتقصيرك في حبه⁽¹⁾، وكأنَّ الشَّيخَ المحاسبي رحمه الله أحاط بتعريفه هذا بجلِّ التعريفات سابقة الذكر.

أمَّا عن الأسباب المورثة للمحبَّة، فهي كثيرةٌ، منها: "قراءةُ القرآنِ بالتدبُّر، ودوامُ ذِكْرِ اللهِ في كُلِّ حَالٍ باللسانِ والقلبِ، والعمل والحال، وإيثار مَحَابِئِهِ على محابِّكَ عند غلبة الهوى، ومشاهدة برِّه وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة؛ فإنَّها داعيةٌ إلى محبَّته، ومجالسة المحبِّين الصادقين، والتقاط أطيب ثمرات كلامهم، ومباعدة كلِّ سببٍ يحوِّلُ بينَ القلبِ وبينَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ"⁽²⁾.

وهذه بعض الآيات الكريمة التي تحدَّثت عن المحبَّة، جعلنا اللهُ سبحانه من أهلها بمحض كرمه وتوفيقه:

1- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165]

قال الشَّيخُ الجيلاني في تفسيرها: "والذين آمنوا) بالله (أشدَّ حبًّا) منهم (الله) المحيط للكلِّ، الحقيق بالحقيَّة، لحرصهم الألوهيَّة والزبوبيَّة، والتحقُّق والوجود، والهويَّة، والذَّات، والحقيَّة، والصفات، على اللهُ لا على غيره؛ إذ لا غير في الوجود، لا إله إلا هو، كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه، له الحكم في النشأة الأولى، وإليه الرجوع في النشأة الأخرى. أدقنا حلاوة اليقين، وارزقنا محبة المؤمنين الموقنين"⁽³⁾.

"حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ"⁽⁴⁾؛ فالمؤمن المحبِّ لا يرى على الحقيقة في هذا الكون إلا محبوبه أينما ولى وجهه؛ فهو إن نظر إلى مخلوق من مخلوقات الله رأى إبداع الله فيه، وكيف صورَه وأمدَّه بالحياة، وأنته حيٌّ قيومٌ على مخلوقاته، فهو لا يرى إلا صفات محبوبه وتجلياتها في كلِّ خلقه، فلا يغفل عنه قيِّد أنملةٍ، وهذا حال المحبِّ.

وقال الشَّيخُ القشيري في تفسيرها: "ليس المقصود من هذا ذكر محبَّة الأغيار للأصنام، ولكن المراد منه مدح المؤمنين على محبتهم، ولا تحتاج إلى كثيرٍ محبَّةٍ حتى تزيِّد على محبَّة الكُفَّارِ للأصنام، ولكن مَنْ أَحَبَّ حبيبًا استكثر ذِكرُهُ؛ بل استحسَن كل شيءٍ منه. ويُقال: وجه رجحان محبَّة المؤمنين اللهُ على محبَّة الكفار لأصنامهم أن هذه محبَّة الجنس للجنس، وقد يميل الجنس إلى الجنس، وتلك محبَّة مَنْ لَيْسَ بِجِنْسٍ لَهُمْ؛ فذلك أَعَزُّ وَأَحَقُّ. ويُقال: إنَّهم أحبُّوا ما شاهدوه، وليس بعجيبٍ محبَّةُ ما هو لك مشهودٌ؛ وأمَّا المؤمنون فإنَّهم أحبُّوا مَنْ حَالٌ بينهم وبين شهودِه رداءُ الكبرياء على وجهه. ويُقال: الذين

(1) القشيري، الرسالة القشيرية، 490/2.

(2) عيسى، حقائق عن التَّصَوُّف، ص 260 وما بعدها.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 146/1.

(4) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب الهوى، 448/7. قال عنه الشيخ الأرنؤوط صحيح موقوفًا، وهذا

إسناد ضعيف.

آمنوا أشدَّ حُبًّا لله؛ لأنهم لا يتبرأون من الله سبحانه وإن عذبهم. الكافر تبرأ من الصنم، والصنم من الكافر؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166]. ويقال: محبة المؤمنين حاصلة من محبة الله لهم؛ فهي أتم، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ محبتهم للأصنام من قضايا هواهم. ويقال: محبة المؤمنين أتم وأشدُّ لأنها على موافقة الأمر، ومحبة الكفار على موافقة الهوى والطبع، ويقال: إنهم كانوا إذا صلحت أحوالهم، واتسعت ذات يدهم اتخذوا أصناماً أحسن من التي كانوا يعبدونها قبل ذلك في حال فقرهم فكانوا يتخذون من الفضة - عند غناهم - أصناماً ويهجرون ما كان من الحديد، وعلى هذا القياس! وأما المؤمنون فأشدَّ حُبًّا لله؛ لأنهم عبدوا إلهاً واحداً في السراء والضراء⁽¹⁾.

عقد الشيخ القشيري مقارنة بين حب الكفار لأصنامهم، وبين المؤمنين وحبهم لله سبحانه وتعالى، وأن ذلك من الله سبحانه مدحاً للمؤمنين على محبتهم، وإظهاراً لها، وذلك من عدة وجوه هي: أولاً: محبة الكفار لأصنامهم هي من قبيل محبة الجنس لجنسه؛ فقد يكون الصنم بشراً مثلهم، أو أن يكون التماثل بينهم في كونهم مخلوقات مثلهم، كمن عبد الشمس مثلهم، وهذا من الطبيعي؛ إذ إن الإنسان يميل إلى جنسه. وأما محبة المؤمنين لله تعالى فهي محبة من ليس كمثله شيء، وهذا أعز وأحق.

ثانياً: محبة الكفار لأصنامهم محبة صادرة عن مشاهدة ورؤية، وهذا لا يُستغرب، فالعين تحب الاستزادة مما يعجبها، فتتطبع المحبة في القلب. أما المؤمنون فمحبتهم لله سبحانه وتعالى على الرغم من أنه جلّ وعلا لا تدركه الأبصار فهو يدركها. وهذا أعظم وأجل من الأول.

ثالثاً: أن الكافرون محبتهم متقلبة؛ إذ إنهم يتبرأون من أصنامهم كما أخبر تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166]. أما محبة المؤمنين لربهم فلا تتحول ولا تتبدل وإن عذبهم.

رابعاً: محبة المؤمنين ناتجة عن محبة الله لهم، أما الكفار فمحبتهم لأصنامهم نابعة من هواهم.

خامساً: محبة المؤمنين أشد وأعز لأنها اتباع لأمر، أما محبة الكفار فمصدرها أهواؤهم.

سادساً: الكفار يهجرون أصنامهم التي صنعوها من الحديد حال فقرهم إلى غيرها من الفضة في حال غناهم، ويبيعونها إذا افقروا، أما المؤمنون فيعبدون إلهاً واحداً في السراء والضراء.

2- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ [آل عمران: 31]

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 82/1.

قال الشيخ الجيلاني في تفسيرها: " (إن كنتم) أيها الأطلال المنهكون في بحر الغفلة والضلال، (تحبون الله) أي تدعون محبة الله المظهر لكم من العدم، وتطلبون التوجه إلى جنابه، والتقرب نحو بابه، (فاتبعوني) بأمره وحكمه، (يحبكم الله) أي يقربكم إلى جنابه، ويوصلكم إلى شرف لقائه، (ويغفر) يستر ويضمحل، (لكم) عن أبصاركم وبصائركم، (ذنوبكم) التي حُجبت بها عن مشاهدة جمال الله وجلاله، ومعانيه أسمائه وصفاته، (والله) الهادي لكم إلى صراط توحيدِهِ، (غفور) لكم يرفع موانع وصولكم، (رحيم) لكم يوصلكم إلى مطلوبكم"⁽¹⁾.

يقول الشيخ الجيلاني: إن علامة المحب المتابع لمحبيه، والله سبحانه وتعالى يُقيم الحجة على كل من ادعى حبه؛ فجعل أتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم دليلاً على محبته. وفي الآية أن المحبة لا تتم بالإدعاء دون العمل. وفي هذه الآية يأخذ الله سبحانه وتعالى بأيدينا إلى طريق محبته، وهذا من تمام رحمته بعباده، ودلهم على اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم ليغفر لهم الذنوب التي تحجب العبد عن محبة الله تعالى؛ فناسب هذا المعنى خاتمة الآية (غفور رحيم).

وقال الشيخ القشيري في تفسيره: " (تُحِبُّونَ اللَّهَ) مَشُوبٌ بِالْعِلَّةِ، وَ (يُحِبُّكُمُ اللَّهُ) بلا علة؛ بل هو حقيقة الوصلة. ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه، وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية، وتقتضى منه تلك الحالة إيثاره سبحانه على كل شيء، وعلى كل أحد. وشرط المحبة ألا يكون فيها حظٌ بحالٍ؛ فَمَنْ لَمْ يَقْرَأْ عَنْ حَظْوَةٍ بِالْكَلِيَّةِ فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ شَيْءٌ. وَمَحَبَّةُ الْحَقِّ لِلْعَبْدِ إِرَادَتُهُ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ وَلَطْفَهُ بِهِ، وَهِيَ إِرَادَةُ فَضْلِ مَخْصُوصٍ، وَتَكُونُ بِمَعْنَى تَنَائِهِ سَبْحَانَهُ عَلَيْهِ وَمَدْحِهِ لَهُ، وَتَكُونُ بِمَعْنَى فَضْلِهِ الْمَخْصُوصِ مَعَهُ، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ مِنْ صِفَاتِ فِعْلِهِ. وَيَقَالُ: شَرُطُ الْمَحَبَّةِ امْتِحَاءُ كَلْبِكَ عَنكَ لِاسْتِهْلَاكَكَ فِي مَحْبُوبِكَ، ... وَهَذَا فَرْقٌ بَيْنَ الْحَبِيبِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ قَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾. وَقَالَ الْحَبِيبُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾؛ فَإِنْ كَانَ مَتَّبِعَ الْخَلِيلَ مِنْهُ إِفْضَالًا، فَإِنَّ مَتَابِعَ الْحَبِيبِ مَحْبُوبُ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ، وَكَفَى بِذَلِكَ قَرِيبَةً وَحَالًا. وَيَقَالُ: قَطَعَ أَطْمَاعَ الْكَافَّةِ أَنْ يَسْلَمَ لِأَحَدٍ نَفْسَ إِلَّا وَمَقْتَدَاهُمْ وَإِمَامَهُمْ سَيِّدَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَقَالُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَحَبَّةَ غَيْرَ مَعْلُولَةٍ، وَلَيْسَتْ بِاجْتِلَابِ طَاعَةٍ، أَوْ التَّجَرُّدِ عَنِ آفَةٍ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: يُحِبُّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، بَيْنَ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَبْدٌ لَهُ فَنُونَ كَثِيرَةٌ ثُمَّ يَحِبُّ اللَّهُ وَيَحِبُّهُ اللَّهُ. وَيَقَالُ: قَالَ أَوْلَا: (يُحِبُّكُمُ اللَّهُ) ثُمَّ قَالَ: (وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) وَالْوَاوُ تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ الْمَحَبَّةَ سَابِقَةٌ عَلَى الْغَفْرَانِ؛ أَوْلَا يَحِبُّهُمْ وَيَحْبُونَهُ، وَبَعْدَهُ يَغْفِرُ لَهُمْ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، فَالْمَحَبَّةُ تَوْجِبُ الْغَفْرَانَ؛ لِأَنَّ الْعَفْوَ يَوْجِبُ الْمَحَبَّةَ. وَالْمَحَبَّةُ تَشِيرُ إِلَى صِفَاءِ الْأَحْوَالِ، وَمِنْهُ حَبَبُ الْأَسْنَانِ؛ وَهُوَ صِفَاؤُهَا. وَالْمَحَبَّةُ تَوْجِبُ الْإِعْتِكَافَ بِحَضْرَةِ الْمَحْبُوبِ فِي السَّرِّ. وَيَقَالُ أَحَبُّ النَّبِيِّ إِذَا اسْتِنَاخَ فَلَا يَبْرَحُ بِالضَّرْبِ. وَالْحُبُّ حَرْفَانِ: حَاءٌ

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 265/1 وما بعدها.

وباء، والإشارة من الحاء إلى الرّوح، ومن الباء إلى البدن؛ فالمحب لا يدخر عن محبوبه لا قلبه ولا بدنه»⁽¹⁾.

الإمام القشيريّ شيخ في الحُب؛ فهو لا يبخل على طالب الحقّ بالعلم الموصّل لحبه سبحانه، فبيدأ الشيخ ببيان أنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ عباده المؤمنين بلا علة؛ فهو الغنيّ عنهم، بعكسهم؛ فهم فقراء إليه. وعرف الشيخ المحبة بأنها: حالة لطيفة يجدّها العبد من نفسه تحمّله على موافقة أمر مولاه بالرّضا الكامل، وإثاره سبحانه على كلّ شيء.

وتحدّث الشيخ القشيريّ عن شرطي المحبة؛ وهما: فناء المحبّ عن حظوظه بالكلية؛ فهو لا يطمح إلا برضى محبوبه، واستغراق المحبّ في محبوبه لدرجة يغفل فيها عن نفسه وأحوالها.

ثمّ بيّن الشيخ حقيقة محبة الله لعبده؛ وأنّها إرادته بإحسانٍ ولطفٍ خاصّ. ويقارن الشيخ بين حبيب الله محمّد صلى الله عليه وسلم، وخليه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؛ فمتّبع الخليل منسوب إلى الخليل نفسه: (فمن تبعني فإنه مني) أمّا متّبع الحبيب محمّد صلى الله عليه وسلم فمحبوبٌ للحقّ سبحانه (فاتبعوني يحببكم الله). ويلفت الشيخ الانتباه إلى معنى دقيق؛ وهو أنّ لا وصول إلى مقام المحبة إلا من باب حبيبه محمّد صلى الله عليه وسلم.

ويقول: إنّ محبة الله ليست جكرًا على المطيعين فقط؛ بل لربّما أحبّ العاصي ربّه، وقادته هذه المحبة إلى ترك كلّ مخالقاته طمعًا في رضا الله عنه (يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم). ورجّح الشيخ القشيري أنّ الواو في الآية للتّرتيب؛ فالمحبة سابقة على الغفران، فهي سببٌ لغفران الله تعالى ما تقدّم من ذنوب وما تأخّر.

وختم الشيخ تفسير الآية بمعانٍ لغويّة للمحبة؛ منها: قولهم «أحبّ البعير» إذا استناخ، فلا يبرح إلا بالضرب. وفيه إشارة إلى أنّ المحبّ لا يتوب عن حبه ولا يتزحزح عنه مهما تعرّض لمحنّ.

وقوله: إنّ كلمة (حُبّ) من حاءٍ وباءٍ، فيها إشارة إلى الرّوح والبدن، فالمحبّ لا يدخر عن محبوبه روحًا ولا بدناً.

3- قال تعالى: ﴿يَنَاطُيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ [المائدة: 54]

قال الشيخ الجيلاني في تفسيرها: " (يا أيها الذين آمنوا) لا تحزنوا بصنيع (من يرتد منكم عن دينه) بعد إيمانه وقبوله الإسلام، ولا تبالوا بشأنه (فسوف يأتي الله) من فضله ولطفه (بقوم يحبهم) الله

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 1/143.

ويوقّتهم على الإيمان، ويوصلهم إلى مرتبة اليقين والعرفان (ويحبّونه) إلى حيث بذلوا مهجهم في سبيله طوعاً ورضاً، إعلاءً لكلمة توحيدِهِ، ونصر دين نبيّه⁽¹⁾.

يُعرّف الشّيخ الجيلاني حبّ الله لعباده المؤمنين بأنّه توفيقهم للإيمان، وتوصيلهم إلى مرتبة اليقين والعرفان؛ فالحُبُّ من الله عنايةٌ خاصّةٌ، وإكرامٌ مَحْضٌ. والمؤمن إنْ صدّق في حبّ الله تعالى بذل في سبيل إرضائه الغالي والتّنفيس.

وقال الشّيخ القشيري عند تفسيرها: "جعل صفة من لا يرتدّ عن الدّين أنّ الله يحبه ويحبّ الله، وفي ذلك بشارة عظيمة للمؤمنين؛ لأنّه يجب أن يُعلم أنّ من كان غير مرتدّ فإنّ الله يحبه. وفيه إشارةٌ دقيقة؛ فإن من كان مؤمناً يجب أن يكون لله محبّاً، فإذا لم تكن له مَحَبَّةٌ فالخطر بصحّة إيمانه. وفي الآية دليل على جواز مَحَبَّةِ العبد لله، وجواز محبة الله للعبد. ومحبّة الحقّ للعبد لا تخرج عن وجوه: إمّا أن تكون بمعنى الرّحمة عليه، أو بمعنى اللّطف والإحسان إليه، والمدح والتّناء عليه. أو يُقال إنها بمعنى إرادته لتقريبه وتخصيص محلّه. وكما أن رحمته إرادته لإنعامه فمحبّته إرادته لإكرامه، والفرق بين المحبّة والرّحمة على هذا القول أن المحبّة إرادة إنعام مخصوص، والرّحمة إرادة كلّ نعمة فتكون المحبّة أخصّ من الرّحمة، واللّفظان يعودان إلى معنى واحد؛ فإنّ إرادة الله تعالى واحدة وبها يريد سائر مراداته، وتختلف أسماء الإرادة باختلاف أوصاف المتعلّق. وأمّا محبة العبد لله سبحانه فهي حالة لطيفة يجدها في قلبه، وتحمله تلك الحالة على إثثار موافقة أمره، وتترك حظوظ نفسه، وإيثار حقوقه سبحانه بكلّ وجه. وتحصل العبارة عن تلك الحالة على قدر ما تكون صفة العبد في الوقت الذي يعبر عنه؛ فيقال: المحبّة ارتياح القلب لوجود المحبوب، ويقال: المحبة ذهاب المحبّ بالكلية في ذكر المحبوب، ويقال المحبّة خلوص المحبّ لمحبوبه بكل وجه، والمحبّة بلاء كلّ كريم، والمحبّة نتيجة الهمة فمن كانت همته أعلى فمحبّته أصفى، بل أوفى، بل أعلى. ويقال: المحبّة شكر لا صحو فيه، ودّهش في لقاء المحبوب يوجب التعطّل عن التّمييز، ويقال: المحبّة بلاء لا يرجى شفاؤه، وسقام لا يُعرف دواؤه. ويقال: المحبّة غريمٌ يُلازمك لا يبرح، ورفيق من المحبوب يستوفى له منك دقائق الحقوق في دوام الأحوال. ويقال: المحبّة قضية توجب المحبّة فمحبّة الحقّ أوجبت محبّة العبد (يحبّهم ويحبّونه) لولا أنّه يحبّهم لما أحبّوه، ولولا أنّه أخبر عن المحبّة فأنّى تكون اللّطينة ذكر المحبّة؟ ثم بيّن الله تعالى صفة المحبّين فقال (أدلة على المؤمنين أعرّة على الكافرين). يبذلون المهج في المحبوب من غير كراهة، ويبذلون الأرواح في الذبّ عن المحبوب من غير ادّخار شظية من الميسور⁽²⁾.

يبحر الإمام القشيري في بحر الحبّ الذي لا شاطئ له، ذاكراً في الآية بشارة وإشارة وطائفة من الدّقائِق واللّطائف، أمّا البشارة فهي للمؤمنين؛ أنّ الله تعالى يحبّكم؛ لأنّه يُعلم من الآية بمفهوم المخالفة

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 514/1.

(2) القشيري، لطائف الإشارات 269/1.

أن غير المرتد محبوب لله. والإشارة أن كل مؤمن لا يخلو من درجة محبة لله، ومن لم تكن له محبة في صحة إيمانه شك بنص الآية.

ويستدل الشيخ بالآية على جواز محبة الله للعبد، وجواز محبة العبد لله، وقد يُظنّ هذا أنه أمر بديهي، لكن الأمر دقيق؛ إذ إن معرفة العبد لعظمة الله الذي ليس كمثلته شيء قد تُدخل عليه توهم: أنني لمثلي أن يحبه الله الغني عن كل خلقه؟ فيأتي الخطاب الإلهي مطمئناً لكل محب: إن الله يحبك، فكما أنه سبحانه العلي العظيم، فهو الرحيم، القريب، الودود.

ثم يسوق الشيخ مقارنة بين المحبة والرحمة، خلاصتها أن المحبة إرادة إنعام من الله تعالى لفئة خاصة؛ وهم المؤمنون، أما الرحمة فعامّة.

ثم يستعرض الشيخ تسعة تعريفات للمحبة، كل واحد منها أحلى من الآخر، تدور حول تعلق القلب بالمحبوب، وإثاره على كل شيء في الوجود، حتى على نفسه التي بين جنبيه. ويختتم الشيخ تفسير الآية بذكر فائدة مهمّة؛ وهي أن محبة الله تعالى لعباده المؤمنين سابقة لمحبتهم له.

4- قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً﴾ [طه:39]

قال الشيخ الجبيلاني في تفسيرها: "(و) بعدما أمر عدوك بأخذك والتقاطك من البحر (ألقى) من كمال قدرتي، ووُفِّرَ حولي وقوتي في نفس فرعون وزوجته آسيا رضي الله عنها، وأهل بيته، (عليك) على حفظك وحضانتك يا موسى، (محبة) في قلوبهم مع شدة عداوتهم معك، وكانت تلك المحبة صادرةً، (مني) فظاهراً حفظاً لك، وإظهاراً لكمال قدرتي بأن أربيك في يد عدوك؛ لتكون سبباً لهلاكه"⁽¹⁾.

المحبة جند من جنود الله؛ فالله سبحانه وتعالى وضع محبة سيدنا موسى عليه السلام في قلب فرعون وزوجته وأهل بيته؛ ليتم قدر الله سبحانه؛ فيحفظ سيدنا موسى عليه السلام من القتل، وتظهر القدرة الإلهية في تربيته في بيت عدوه.

وقال الشيخ القشيري في تفسيرها: "أي أحببتك. ويُقال في لفظ الناس: فلان ألقى محبته على فلان؛ أي أحبه، ويُقال: ألقى عليك محبة مني، أي طرحت في قلوب الناس محبة لك؛ فالحق إذا أحب عبداً فكل من شاهده أحبه. ويُقال: لملاحه في عينيه، فكان لا يراه أحد إلا أحبه. ويُقال: ألقى عليك محبة مني؛ أي أثبت في قلبك محبتي؛ فإن محبة العبد لله لا تكون إلا بإثبات الحق سبحانه ذلك في قلبه"⁽²⁾.

(1) الجبيلاني، تفسير الجبيلاني، 289/3.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 260/2.

يُشير الشيخ القشيري إلى الحديث الشريف: "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيْلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيْلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيْلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ فَيَبْغِضُوهُ جِبْرِيْلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ" (1). ويثبت الشيخ أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ للعبد تكون سابقةً لمحبة العبد لربه، ويُلاحظ أَنَّ الشَّيْخَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَدَّمَ مَعْنَى مَحَبَّةِ اللَّهِ لِسَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلَ الْمَعْنَى الْمُتَبَادِرَ مِنْ تَفْسِيرِهَا، وَهُوَ وَضَعُ الْقَبُولِ لِسَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْأَرْضِ، وَالزَّمَامَ قَبُولِ النَّاسِ مَحَبَّتَهُ مَعْنَى ثَانَوِيًّا.

وَمِنْ خَيْرٍ مَا يُخْتَمُ بِهِ هَذَا الْمَبْحَثُ قَوْلُ سَيِّدِنَا الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ: "إِذَا صَحَّتْ عِبَادَتُكَ لَهُ أَحَبَّكَ، وَقَوِيَ حُبُّهُ فِي قَلْبِكَ، وَأَنْسَكَ بِهِ، وَقَرَّبَكَ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ، وَلَا طَلَبٍ لَكَ صَحْبَةً غَيْرِهِ، فَتَكُونُ رَاضِيًا عَنْهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، فَلَوْ ضَيَّقَ عَلَيْكَ الْأَرْضَ بِرَحْبِهَا، وَسَدَّ عَلَيْكَ الْأَبْوَابَ بِسِعَتِهَا، لَمْ تَسْخَطْ عَلَيْهِ، وَلَمْ تَقْرَعْ بَابَ غَيْرِهِ... يَخْطُو قَلْبَكَ إِلَيْهِ خَطْوَةً، وَيَخْطُو حُبَّهُ إِلَيْكَ خَطْوَاتٍ، هُوَ إِلَى لِقَاءِ الْمُحِبِّينَ أَشْوَقَ مِنْهُمْ: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: 212]" (2).

ومن خلال دراسة الآيات السابقة عن المحبة يتبين للباحث ما يلي:

1- فصل الشيخ القشيري الحديث عن المحبة عند تفسيره للآيات القرآنية المتعلقة بحب الله تعالى، بخلاف الشيخ الجيلاني، الذي جاء حديثه عن مقام المحبة في تفسيره مقتضياً موجزاً؛ بل مختصراً جداً.

2- حب الله تعالى لعباده المؤمنين هي توفيقهم للإيمان، وتوصيلهم لمرتبة اليقين والعرفان.

3- محبة العبد لله هي حالة لطيفة يجدها في قلبه، تحمله على إثارة أوامر محبوبه وحقوقه على نفسه وأهله وماله.

4- المحبون عرف كل منهم المحبة على حسب مقامه ورتبته، والحالة التي يعايشها، والوجد الذي يجده.

5- محبة الله تعالى لعباده المؤمنين سابقة لحبهم له (يحبهم ويحبونه).

6- مقام المحبة الكاملة لا يصل له العبد بسهولة؛ بل دونه قطع المغاوير، وبذل الأرواح. وأقل ذلك قلب ليس فيه طمع في الدنيا ولا في الآخرة.

(1) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدا حبه إلى عباده، حديث رقم 2637.

(2) الجيلاني، الفتح الزباني، ص 50 وما بعدها.

أيها العاشق معنى حُسْنِنَا مهْرِنَا غَالٍ لِمَنْ يَطْلُبُنَا
جَسَدٌ مُضْنَى وَرُوحٌ فِي الْعَنَا وَجُفُونٌ لَا تَدُوقُ الْوَسْنََا
وفؤادٌ ليس فيه غَيْرُنَا فَإِذَا مَا شِئْتِ أَدِّ الثَّمْنََا
فَافَنْ إِنْ شِئْتِ فَنَاءً سَرْمَدًا فَالْفَنَا يُذْنِي إِلَى ذَاكَ الْغَنَا
وَإِخْلَعِ النَّعْلَيْنِ إِنْ جِئْتِ إِلَى ذَلِكَ الْحَيِّ فَفِيهِ قُدْسُنَا
وَعَنِ الْكُونَيْنِ كُنْ مُنْخَلِعَا وَأَزَلْ مَا بَيْنَنَا، مِنْ بَيْنِنَا⁽¹⁾

7- الاتِّبَاعُ لِلنَّبِيِّ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِلَامَةُ مَحَبَّةِ اللَّهِ؛ فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي مِتَابَعَةِ الْحَبِيبِ، زَادَ عَلَيْكَ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ.

8- الْحَبُّ حِرْفَانٌ (حَاءٌ وَبَاءٌ)، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَحَبَّ لَا يَدَّخِرُ عَنْ حَبِيبِهِ لَا رُوحًا وَلَا بَدَنًا.

9- الْعَبْدُ الْمَحْبُوبُ مِنَ اللَّهِ يَرْضَى عَنْهُ سَاكِنُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ.

10- لَا يَخْلُو مُؤْمِنٌ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ قَلَّتْ دَرَجَةُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ.

ومما خطر للباحث في أثناء إعداد هذا المبحث ما يلي:

1- أَنَّ كُلَّ التَّعْرِيفَاتِ الَّتِي حَاوَلْتُ تَعْرِيفَ الْمَحَبَّةِ تَوَقَّفَتْ عِنْدَ وَصْفِ حَالِ الْمُحِبِّ، وَأَثَرُ الْمَحَبَّةِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَبَيِّنْ أَيُّ مِنْهَا كُنْهَ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَحَقِيقَتَهَا، وَكَأَنَّ اللَّفْظَ يَقْصُرُ عَنْ وَصْفِهَا.

2- الْمَحَبُّ مُسْتَغْرَقٌ مَعَ حَبِيبِهِ؛ فَجَسْمُهُ مَعَ الْخَلْقِ، وَقَلْبُهُ مَعَ الْحَقِّ. كَمَا قَالَتْ رَابِعَةُ الْعَدَوِيَّةُ⁽²⁾ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: [مِنَ الْكَامِلِ]

فَالْجِسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ ... وَحَبِيبُ قَلْبِي فِي الْفُؤَادِ أَنْيْسِي⁽³⁾

(1) تنسب هذه القصيدة لابن عربي، والحلاج، والعز بن عبد السلام، لكن الأقرب أنها لمحمد بن عمر بن الأقوم المعروف بالأعرج (ت 643 هـ)، شاعر وصوفي

[1704580896081252729/litamim/status/https://twitter.com](https://twitter.com/litamim/status/1704580896081252729)

(2) هي أم الخير، رابعة ابنة إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك، الصالحة المشهورة؛ كانت من أعيان عصرها، أخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة، توفيت عام 135هـ، وقبرها يزار، وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 285/2 وما بعدها.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 287/2.

3- إنَّ الْمُطَالَعِ فِي كِتَابِ السُّلُوكِ وَالتَّرْبِيَةِ لَا سِيَّمَا (الرَّسَالَةَ الْقَشِيرِيَّةَ) وَ(إِحْيَاءَ عُلُومِ الدِّينِ) يَجِدُ اسْتِفَاضَةً وَشَرْحًا طَوِيلًا لِمَقَامِ الْمَحَبَّةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الْمَقَامَ هُوَ غَايَةُ كُلِّ عَارِفٍ، وَمَقْصَدُ كُلِّ مُؤْمِنٍ، فَنَاسِبُ الْإِطَالَةِ عِنْدَ تَنَاوُلِهِ.

4- الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ؛ فِي الدُّنْيَا مَعَ اللَّهِ الَّذِي يَتَوَلَّى لَهُ كُلَّ أُمُورِهِ «كَانَتْ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ»⁽¹⁾. الْحَدِيثُ، وَفِي الْآخِرَةِ الْعِنْدِيَّةِ فِي مَقْعَدِ الصِّدْقِ.

5- خَيْرُ الرِّزْقِ رِزْقُ الْحَبِّ؛ لِأَنَّ الْمُحِبَّ يَرْضَى بِفِعْلِ حَبِيبِهِ فِيهِ وَلَوْ نُشِرَ بِالْمَنَاشِيرِ.

(1) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم 6502.

المبحث الخامس: الفقر.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَحْشَى عَلَيَّكُمْ، وَلَكِنْ أَحْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»⁽¹⁾. فالدنيا ليست مذمومة لذاتها؛ بل إن تمكنت من قلب المرء، وشغلته عن الله، كان هنا محلّ الذمّ؛ وإلاّ فالدنيا فيها يُعرف الله تعالى، ويُقام أوامره؛ من جهادٍ وإنفاقٍ وَزَكَاةٍ، وغيرها من أعمال البرّ. والشّرع الحنيف ذمّ الحرص على الدنيا واختيارها على الآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: 18].

وقد عرّف الكاشاني⁽²⁾ رحمه الله الفقر فقال: "هو رجوع المرء إلى عدمه الأصليّ، بحكم السّبق الأزليّ، حتّى يرى وجوده وعمله ومقامه كلّها فضلاً من الله، وامتناناً محضاً"⁽³⁾.

وعرّفه الدكتور عمر الصّالحي: بأنّه التّجرّد عن حول النّفس إلى حول الله تعالى وقوّته؛ فنحن مفتقرين إلى الله في أنفاسنا وفي كلّ شيء"⁽⁴⁾.

وأهل الله عندما فضّلوا الفقر على الغنى كان ذلك من وجوه، هي:

- 1- لكي يتخفّف العبد ما أمكنه من العوائق التي تشغله عن الله، فيصفو له وقته، ولعلّ هذا السّبب هو السرّ من دعاء النّبّي: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كِفَافًا»⁽⁵⁾، فلا يحتاجون إلى أحدٍ، وفي الوقت نفسه لا تلهيهم كثرة الأموال عن المقصد الحقيقيّ في هذه الدّنيا؛ وهو معرفة الله تعالى، وحبّه سبحانه.
- 2- لأنّ وجود المال يخلق أنساً في القلب له، وتعلّقاً به، ونوع ركون إلى الدّنيا، وهم يغارون على الله أن يكون في سرّهم ميلاً وأنس بما سواه. ويخافون أن يكونوا ممّن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ

(1) صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب الجزية والموادعة مع هل الحرب، حديث رقم 3158. وصحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم: 2961.

(2) هو عبد الرزاق (جمال الدين) بن أحمد (كمال الدين) ابن أبي الغنائم محمد الكاشي (أو الكاشاني أو القاشاني) (ت 730هـ)، وهو صوفي مفسر، من العلماء. له كتب، منها: (كشف الوجوه الغر) في شرح تائيه ابن الفارض، و(اصطلاحات الصوفية)، وله (شرح منازل السائرين) للهروري الحنبلي، و(السراج الوهاج) في تفسير القرآن، و(شرح فصوص الحكم لابن عربي)، و(تأويلات القرآن) (ورسالة في القضاء والقدر) و (شرح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأدواق والأحوال).

(3) الكاشاني، عبد الرزاق، ت 730 هـ، معجم إصطلاحات الصّوفية، تحقيق عبد العال شاهين، دار المنار، القاهرة، ط1، 1413هـ/1992م، ص279، وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: الكاشاني، معجم إصطلاحات الصوفية.

(4) مقابلة مع الدكتور عمر الصّالحي.

(5) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم 1055، من رواية عُمارة بن القعقاع.

لِقَاءَنَا وَرِضْوًا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنُونُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٨﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ لِنَارٍ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩﴾ [يونس: 7-8].

3- لأن "ورود الفاقات أعياد المريدين، فالخواص فرحهم بإقبال الملك عليهم، ووجود قلوبهم، وصفاء وقتهم من كدرات الأغيار، والغالب أن هذه المعاني إنما توجد عند الفاقة والحيرة والاضطرار... ولأن النفس كلما ضيقت عليها رحلت إلى عالم الملكوت، وفي ذلك العالم راحتها وفرحها ومسررتها"⁽¹⁾.

والفقر الذي يتحدث عنه الصوفية ليس الفقر الظاهر فحسب، بل لا ينفك عنه الفقر الباطن، وهي كسوة القلب، ورب غني لم يشغله الغنى عن الله عز وجل؛ مثل سيدنا سليمان عليه السلام، وخديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وغيرهم.

وكم من فقير شغلته الفقر وصرفه عن حب الله ومعرفته. فالفقير الصادق لا يبالي إن أقبلت عليه الدنيا أو أدبرت؛ لأن له شغلاً بمولاه، يشغله عن الدنيا وما فيها، فإن كان غنياً كانت الدنيا في يده ولم تكن في قلبه، فأخذها بعد أن عرف حقيقتها، فلم تفتنه؛ بل أدى حق المال الذي هو مستخلف فيه.

وهو مع مولاه إن قبضه أو بسطه، أغناه أو أفقره، أصحّه أو أسقمه، تراه مشغولاً بفرض الوقت؛ فهو ابن يومه، بل ابن ساعته؛ يشتغل بحق الله المطلوب منه في هذه الساعة، فإن كان في أداء فرض صلاة مثلاً أقبل بوجهه وقلبه عليها، وإن وجبت الزكاة عليه انشغل بإخراجها وإيصالها إلى مستحقيها، وإن كان مع زوجته وعباله كان معهم متأسباً بهدي نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فعلمهم وأدبهم وبأسطهم وخدمتهم، وسعى في قضاء حوائجهم بحسب وسعته.. وهكذا في سائر تقاليد الدهر إن كان عالماً أو متعلماً أو قاضياً أو حاكماً، وهكذا.. فإذا فرغ نصب أقدامه لمولاه باتاً له حبه وشوقه للقائه، متلبساً بالعجز عن الشكر والفقر الكامل للذات العلية «أفلا أكون عبداً شكوراً»⁽²⁾.

ومن علامات الفقير إلى الله:

1- "السكون عند العدم، والإيثار عند الوجود"⁽³⁾؛ فالفقير الصادق لا يحزن على المفقود، ويؤثر عند إنعام الله تعالى عليه.

2- "سقوط المطالبات، وانتفاء الاختيار، والرضا بما يجريه الحق"⁽⁴⁾؛ فالفقير الصادق ليس له مطالب إلا الرضا والقرب، ويوكل أمره كله لله، يختار له ما شاء، ويرضى بما يجري عليه من قضاء.

(1) ابن عجيبة، شرح الحكم، ص 329.

(2) صحيح البخاري، أبواب التهجد، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم الليل حتى ترم قدماه، حديث رقم: 1130.

وصحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم 2819.

(3) القشيري الرسالة القشيرية، 435/2، عزاها للشيخ النوري رضي الله عنه، وقد تقدمت ترجمته ص 5

(4) القشيري، الرسالة القشيرية، 436/2، عزاها للجنيد رضي الله عنه، وقد تقدمت ترجمته ص 5

3- "العتاء أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْأَخْذِ"⁽¹⁾؛ فَالْجُودُ عِنْدَهُ عَيْنُ الْأَخْذِ؛ فَمَطْلُوبُهُ غَيْرُ مَطْلُوبِ النَّاسِ، وَلَكِنْ مَحَبَّتُهُ وَرِضَاهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى. لِسَانِ حَالِهِ يَقُولُ: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: 59].

4 - "لا يرى لنفسه حاجة إلى شيء من الأسباب"⁽²⁾؛ فقد أفرَد قلبه للمُسَبَّبِ، مالك الملك، فلم يتعلَّق قلبه بغيره، وإن عمل بالأسباب فلا يركن إليها مطلقاً، لأنَّ قلبه مستغرق في مطالعة أنوار الجلال والجمال.

وقد جاء ذكر الفقر في كتاب الله في مواضع كثيرة؛ منها:

1- قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَاقًا وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَالِمٌ﴾ [البقرة: 273]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "الْفُقَرَاءُ (الَّذِينَ أَحْصَرُوا) تَمَكَّنُوا (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) مَشْرَمِينَ لِفَنَاءِ فِيهِ بِحَيْثُ (لَا يَسْتَطِيعُونَ) مِنْ غَايَةِ اسْتِغْرَاقِهِمْ فِي مَطَالَعَةِ جَمَالِهِ (ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ) لَطَلَبِ الرِّزْقِ الصَّوْرِيِّ وَمِنْ غَايَةِ اسْتِغْنَائِهِمْ عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ) بِحَالِهِمْ (أَغْنِيَاءَ مِنْ) أَجْلِ (التَّعَفُّفِ) الْمُرْتَكِزِ فِي جِبَلَتِهِمْ (تَعْرِفُهُمْ) وَتَنْتَبِهَ عَلَى حَالِهِمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ الْمُنْفِقُ لِرِضَاءِ اللَّهِ (بِسِيمَاهُمْ) مِنْ ضَعْفِ الْقُوَى وَرِثَاةِ الْحَالِ، وَهُمْ مِنْ غَايَةِ رَجْوَعِهِمْ وَرُكُونِهِمْ عَنِ الدُّنْيَا نَحْوَ الْمَوْلَى (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَاقًا) إِمَامًا مَتَمَنِّينَ رَاجِحِينَ بِمَا عِنْدَهُمْ، بَلْ رَزَقَهُمُ اللَّهُ الْمَتَجَلِّي فِي الْإِفَاقِ يَرْزُقُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. وَبَعْدَمَا سَمِعْتُمْ أَوْصَافَ هَؤُلَاءِ الْوَالِهِينَ فِي مَطَالَعَةِ جَمَالِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ، بَادِرُوا إِلَى تَقْوِيَةِ مَزَاجِهِمْ لِيَسْعَدُوا بِالسَّعَادَةِ الْعِظْمَى الَّتِي لَا مَرْتَبَةَ أَعْلَى مِنْهُ (وَ) اعْلَمُوا أَنَّ (وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ) خُصُوصًا لِهَؤُلَاءِ (فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ) بِذَاتِهِ (عَالِمٌ) يَجَازِيكُمْ بِمَقْتَضَى عِلْمِهِ . رَبَّنَا اجْعَلْنَا مِنْ خُدَّامِهِمْ وَتَرَابِ أَقْدَامِهِمْ"⁽³⁾.

يتحدَّث الشيخ عبد القادر عن الفقراء في المصطلح الصَّوْفِيِّ، وعن وصفهم؛ فهم في غاية الاستغراق في مطالعة جمال محبوبهم، وحال هذا الاستغراق بينهم وبين سعيهم في طلب الرِّزْقِ كباقي الخلق؛

(1) القشيري الرسالة القشيرية، 436/2، عزاها لأبي حفص، وهو: عمرو بن سلمة النيسابوري، الإمام القدوة الرياني، شيخ خراسان، أبو حفص، كان حداداً، وهو أول من أظهر طريق التصوّف بنيسابور، توفي سنة 264هـ رحمه الله، من أقواله: من لم يزن أحواله كلَّ وقتٍ بالكتابِ والسُّنةِ، ولم يَنْهَهُمْ خَوَاطِرُهُ، فَلَا تَعُدُّهُ الذَّهَبِي، سير اعلام النبلاء، 510/12.

(2) القشيري، الرسالة القشيرية، 437/2. عزاها لمحمد المسوحي، وهو محمد بن عبد الكريم المسوحي، كان من المجتهدين في العبادة، ذكره المالكي في تراجمه للطبقة الرابعة. المالكي، ابو بكر، عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ/1994م، 414/1.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 232/1.

فهم مستغنون بالله عن الدنيا وما فيها، فيأتي التّوجيه الإلهي للإنفاق على هذه الفئة من الناس والتي لا يعرفها إلا أصحاب البصيرة.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أخذ عليهم سلطان الحقيقة كلّ طريق، فلا لهم في الشّرق مذهب، ولا لهم في الغرب مضرب. كيفما نظروا رأوا سُرادقات التّوحيد محدقة بهم... لا يسلم لهم نفس مع الخلق... والفقير الصادق واقف مع الله بالله، لا إشراف للأجانب عليه، ولا سبيل لمخلوق إليه، تنظره عين الأغيار في لبسة سوى ما هو به قال تعالى: (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ النَّعْمِ)، فأما من كان ذا بصيرة فلا إشكال عليه في شيء من أحوالهم. تعرفهم يا محمد- أنت- بسيماهم، فليست تلك السّيماء مما يلوح للبصر ولكنها سيماء تتركها البصيرة. لا إشراف عليهم إلا بنور الأحديّة. ويقال (تعرفهم بسيماهم): استبشار قلوبهم عند انكسار نفوسهم، وصياح أسرارهم إلى العرش، نشاطا عنه عند ذبول ظاهرهم عن الانتعاش. ويقال: تكسّر الظّاهر عند تكسّر الباطن وبالعكس من هذه لا يسألون النّاس إلحافا؛ فإن جرى منهم من الخلق بدون الإلحاف سؤال- لما يشير إليه دليل الخطاب- فذلك صيانة لهم ولسرّ قصّتهم؛ لئلا يلاحظهم الخلق بعين السّؤال، وليس على سرّهم ذرة من الإثبات للأغيار. ويقال: (أحصروا في سبيل الله) وقفوا على حكم الله، وأحصروا نفوسهم على طاعته وقلوبهم على معرفته، وأرواحهم على محبّته، وأسرارهم على رؤيته"⁽¹⁾.

يؤكد الشيخ القشيري تعريف الفقير الصادق؛ فهو واقف مع الله بالله، لا يلتفت إلى الخلق ولو بمقدار النّفس؛ لأنّ سلطان الحقيقة مهيمن عليه. ولا يعرف هذا الصنف من النّاس إلا من نور الله بصيرتهم، وعلامتهم فرحهم بحال فقرهم الذي هم عليه، فهم في الظّاهر ذابلون، وفي الباطن محلّقون بأرواحهم نحو مولاهم. وإن جرى منهم سؤال للنّاس، كان ذلك بغير إلحاح، ويجري الله عليهم ذلك الحال إخفاءً لسرّهم، وهم في الحقيقة يطلبون من الله سبحانه؛ لأنّهم لا يشهدون غيره معطيّا مانعا. فهم قد أوقفوا أسرارهم على رؤية الله، وأرواحهم على محبّة الله.

وفي الآية بيان لفضيلة الفقر؛ "إذ إنّ الحقّ سبحانه وتعالى في معرض المدح، ثمّ قدّم وصفهم بالفقر على وصفهم بالإحصار، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر"⁽²⁾.

2- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: 60]

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 1/125 وما بعدها.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، 4/193.

وقال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "بين سبحانه مصارف الصدقات، فقال: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ) أي: الزكوات يُصرف (لِلْفُقَرَاءِ) وهم الذين لا مال لهم ولا مكسب لهم من الحرث وغيره، كأنه يكسر فقار ظهرهم الفاقة والاحتياج (وَالْمَسَاكِينَ) الذين لهم مكسب وصنعة، لكن لا تفي لعيالهم كأن الاحتياج أسكنهم في زاوية المسكنة والهوان"⁽¹⁾.

يفسر الشيخ عبد القادر في هذه الآية الفقر المعروف، وهو قلة العَرَض، ولا يتطرق إلى مصطلح الفقر عند الصوفيّة. وفرّق الشيخ بين «الفقير» و«المسكين»؛ فالفقير هو الذي لا حِرْفَة له يَتَكَسَّبُ منها، والمسكين عنده صنعة أو حرفة لكن دخله الذي يدرّه منها لا يكفي.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الفقر مراتب: أولها الحاجة، ثم الفقر، ثم المسكنة، فذو الحاجة من يرضى بدنياه وتسدّ الدنيا فقره، والفقير من يكتفي بعقباه وتجبر الجنة فقره، والمسكين من لا يرضى بغير مولاه لا إلى الدنيا يلتفت، ولا بالآخرة يشتغل، ولا بغير مولاه يكتفي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَسْكِينًا وَأَمِتْنِي مَسْكِينًا، وَأَحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ»⁽²⁾، وقال صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ»⁽³⁾؛ لأنّ عليه بقیّة؛ فهو بقیّته محجوب عن ربّه. ويحسن أن يقال: إنّ الفقر الذي استعاذ منه ألا يكون له منه شيء، والمسكنة المطلوبة أن تكون له بلُغَة، ليتفرّغ بوجود تلك البلُغَة إلى العبادة؛ لأنّه إذا لم تكن له بلُغَة شغله فقره عن أداء حقّه، ولذلك استعاذ منه. وقوم سمّت هممهم عن هذا الاعتبار، وهذا أولى بأصولهم؛ فالفقير الصادق عندهم من لا سماء تُظَلُّه ولا أرض تُقَلُّه ولا معلوم يشغله؛ فهو عبد بالله لله، يردّه إلى التّمييز في أوان العبوديّة، وفي غير هذا الوقت فهو مُصْطَلِمٌ⁽⁴⁾ عن شواهد، واقف برّبّه، منشقّ عن جملته. ويقال: الفقير من كُسر فقاره - هذا في العربية-. والفقير عندهم: من سقط اختياره، وتعطلت عنه دياره، واندرست - لاستيلاء من اصطلمه - آثاره، فكأنّه لم تبق منه إلا أخباره، ويُقال: المسكين هو الذي أسكنه حاله بباب مقصوده، لا يبرح عن سُدَّتِه، فهو معتكف بقلبه، لا يغفل لحظة عن ربّه"⁽⁵⁾.

يذكر الشيخ القشيري ثلاث مراتب للفقر، ويعرّفها، وهي: المرتبة الأولى: الحاجة؛ فصاحب الحاجة يرضى بالدنيا عن الآخرة. والمرتبة الثانية: الفقر؛ فالفقير من يكتفي بعوضه في الآخرة، وأن تكون

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 269/2 وما بعدها.

(2) سنن الترمذي، أبواب الزهد، ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، حديث رقم 2352، وقال: هذا حديث غريب.

(3) سنن أبي داود، باب تفرع أبواب الوتر باب في الاستعاذة، حديث رقم: 1544، قال عنه الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح. وقال الحاكم في مستدركه: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُحَرِّجَاهُ". الحاكم، المستدرک على الصحيحين، 725/1.

(4) الاصطلام: هو الوله الغالب على القلب، وهو قريب من الهيمان. الكاشاني، معجم إصطلاحات الصوفيّة، ص 55.

(5) القشيري، لطائف الإشارات، 429/1 وما بعدها.

الجنة جزاءه. والمرتبة الثالثة: المسكنة؛ وهي أعلى المراتب؛ فالمسكين لا يرضى بغير مولاه، لا يريد دنيا ولا أخرى؛ بل يريد وجه الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:28].

ويستشهد الشيخ على قوله بحديثين للرسول صلى الله عليه وسلم ، ويحاول الاجتهاد في تفسيرهما؛ إذ يقول: إنَّ المسكنة التي سألتها رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه هي أن يُرزق كفافاً، فلا يشغله طلب الرزق عن أداء حقِّ ربِّه، وتقرَّغه صلى الله عليه وسلم للاشتغال به سبحانه وتعالى. والفقير الصادق عند الصوفيَّة كما يقول القشيريُّ هو عبد بالله لله، غلب على قلبه الهيام والوله في محبة مولاه، فهو ذاهلٌ عن مطالعة ما سواه.

ويختم الشيخ بتعريف المسكين، وهو الذي لا يبرح عن باب مقصوده، فهو معتكف بقلبه على أعبائه، ولا يغفل لحظة عن ربِّه.

3- قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:32]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (إن يَكُونُوا فُقَرَاءَ) عند النكاح (يُغْنِيهِمُ اللَّهُ) المصلح لأحوالهم (من فضله) وسعة جوده ورحمته لعباده بعد النكاح، (وَاللَّهُ) المدبرُ لأمر عباده، المتكفلُ لأرزاقهم (واسعٌ) يوسع عليهم من رزقه (عليمٌ) برثاثة حالهم، مغنٍ علمه بهم عن سؤالهم"⁽¹⁾.

لم يفسر الشيخ الجيلاني الآية تفسيراً إشارياً؛ بل تحدّث عن الفقر المعروف؛ وهو قلة ذات اليد. وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "يغنيهم الله في الحال، أولاً بالنفس ثم غنى القلب، وغني القلب غني عن الشيء، فالغني عن الدنيا أتم من الغني بالدنيا. ويقال: إن يكونوا فقراء في الحال يغنيهم الله في المستأنف والمال"⁽²⁾.

ينبّه الشيخ القشيري المرید الصادق إلى السعي إلى مقام الاستغناء بالله سبحانه عما سواه، فالقلب المستغني عما سوى الله هو أغنى القلوب، وقد يكون الرجل الغني من أهل الدنيا فقيراً في الباطن، فغناه مرهون بوجود ماله، أما الغني بالله فلا يكثرث أقبلت الدنيا أم أدبرت، فغناه بالحي الذي لا يزول ملكه.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 491/3.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 366/2.

4- قال تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:24]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (فَقَالَ) ملتجئاً إلى ربه: (رَبِّ إِنِّي) من شدة جوعي وضعفي (لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ) ورزقتني من موائد إفضالك وإنعامك (مِنْ خَيْرٍ) وصل إلي، حينئذٍ (فَقِيرٌ) محتاج مريد⁽¹⁾. يلاحظ الباحث أنّ الشيخ الجيلاني لم يفسّر الفقر في معظم الآيات تفسيراً إشارياً، واكتفى بتفسير ظاهر النص.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "قيل طلب قوة تزيل جوعه، وقيل طلب حالاً يستقلّ بها. والأحسن أن يقال: جاع فطلب كسرة يسدّ بها رمقه، والمعرفة توجب سؤال ما تحتاج إليه من الله قليلاً أو كثيراً... ويقال: من كمال البلاء على موسى أنّه وافى الناس وكان جائعاً، وكان مقتضى الرّفق أن يطعموه، ولكنّه قبض القلوب عنه، واستقبله من موجبات حكم الوقت أن يعمل عمل أربعين رجلاً؛ لأنّ الصخرة التي نحاها عن رأس البئر وحده كان ينقلها أربعون رجلاً، فلما عمّل عمل أربعين رجلاً تولى إلى الظلّ، وقال: إن رأيت أن تطعمني بعد مقاساة اللّتيا والّتي.. فذلك فضلك. قال ذلك بلسان الانبساط، ولا لسان أحلى من ذلك. وسنة الشكوى أن تكون إليه لا منه.. بل منه إليه ويقال: تولى إلى ظلّ الأنس، وروح البسط، واستقلال السرّ بحقيقة الوجود. ويقال: (قَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) فزدني فقراً فإنّ فقري إليك يوجب استعانتني بك"⁽²⁾.

يعلمنا الشيخ القشيري أنّ العارف بالله يسأل الله كلّ احتياجاته، قليلها وكثيرها، وأنّ الله تعالى في تربيته لعبده قد يقبض القلوب عن مساعدته، ليتحقّق بتمام فقره إلى الله، فتلك أسمى المراتب. وأنّ العبوديّة الحقّة أن تشتكي لمولوك لا منه. وإذا فرغ العبد من أداء ما كلف به تولى إلى جنّة الأنس وظلّها، واطمئنان سرّه بشهوده حقيقة الوجود.

5- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:15]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) النَّاسُونَ عهود الله ومواثيقه التي واثقكم بها ربكم مع أنّكم تنسون نعمه، وتذهلون عن حقوق كرمه، (أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ) المحتاجون بالذات المقصرون على الافتقار، (إِلَى اللَّهِ) الذي أظهركم من كتم العدم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، وربّاكم بأنواع النعم، سيّما العقل المفاض، الذي هو مذكركم عن مبدئكم ومنشئكم، فلم تشكروا نعمة مبدعكم ومربّيكم أيّها الغافلون الجاهلون مع أنّكم محتاجون إليه. (وَاللَّهُ) الْمُنَزَّهٌ بذاته عن شكر الشّاكرين وكفر الكافرين، (هُوَ الْغَنِيُّ) المنحصر على الغنى الذاتي، بحيث لا احتياج له ولا استكمال أصلاً؛ إذ كماله سبجانه كلّها بالفعل؛

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 171/4.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 434/2 وما بعدها.

بحيث لا ترقب في شؤونه مطلقاً، (الْحَمِيدُ) المحمود في نفسه على الوجه الذي يليق بشأنه؛ إذ لا يتأتى عن مصنوعاته الحمد الحقيقي بذاته⁽¹⁾.

يثبت الشيخ عبد القادر حقيقة أن كل مخلوق محتاج إلى خالقه في كل تفصيل من تفاصيل حياته؛ فهو الذي أظهره من العدم، ومنّ عليه بالنعم. والله سبحانه وتعالى هو الغني الوحيد على الحقيقة؛ لأن كل ما دونه مفتقر إليه.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الفقر على ضربين؛ فقر الخلق وفقر الصفة، فأما فقر الخلق فهو عام لكل أحد، فكل مخلوق مفتقر إلى خالقه، فهو قد حصل من العدم؛ فهو مفتقر إليه ليبيده وينشيه، ثم بعد ذلك مفتقر في حال بقائه إليه، ليديمه ويقيه، فالله سبحانه غني، والعبد فقير؛ العبد فقير بعينه، والله غني بعينه. وأما فقر الصفة فهو التجرد؛ فقفر العوام التجرد من المال، وفقر الخواص التجرد من الأعلال؛ ليسلم لهم الفقر. والفقر على أقسام: فقر إلى الله، وفقر إلى شيء هو من الله معلوم أو مرسوم وغير ذلك. ومن افتقر إلى شيء استغنى بوجود ذلك الشيء؛ فالفقير إلى الله هو الغني بالله، والافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله؛ فالمفتقر إلى الله مستغن بالله، والمستغني بالله مفتقر إلى الله. ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخضوع، ومن آفات الغنى امتزاجه بالتكبر. وشرف العبد في فقره، وكذلك ذلّه في توهمه أنه غني... ومن الفقر المذموم أن يئس الحق على صاحبه مواضع فقره إلى ربّه، ومن الفقر المحمود أن يشهده الحق مواضع فقره إليه. ومن شرط الفقير المخلص ألا يملك شيئاً ويملك كل شيء. ويقال: الفقير الصادق الذي لا يملكه شيء. ومن آداب الفقير الصادق إظهار التشكر عند كمال التكسر. ومن آداب الفقر كمال المعنى وزوال الدعوى. ويقال: الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى. وحقيقة الفقر المحمود تجرد السرّ عن المعلولات وإفراد القلب بالله. ويقال: الفقر المحمود العيش مع الله براحة الفراغ على سرمد الوقت من غير استكراه شيء منه بكل وجه. قوله: (وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) الإشارة منه: أن يعطي حتى يُحمد. ويقال: الغني إذا أظهر غناه لأحد فإما للمفاخرة أو للمكاثرة - وجلّ قدر الحق عن ذلك - وإما ليجود ويتفضل على أحد. ويقال: لا يقول لنا أنتم الفقراء للإزراء بنا؛ فإنّ كرمه يتقدّس عن ذلك؛ وإنما المقصود أنّه إذا قال: والله الغني، وأنتم الفقراء أنه يجود علينا. ويقال: إذا لم تدع ما هو صفته - من استحقاق الغنى - أولاك ما يغنيك، وأعطاك فوق ما يكفيك⁽²⁾.

يستفيض الشيخ القشيري في شرح مقام الفقر؛ فيذكر كلاماً طويلاً، تلخيصه:

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 4/457 وما بعدها.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 3/64 وما بعدها.

• أن الْفَقْرَ على نوعين: فقرِ الْخَلْقَةِ، ويشترك فيه كلُّ مخلوقٍ؛ إذ أوجدهم الله من العدم. وَفَقْرِ الصِّفَةِ، وهو التَّجَرُّدُ، وهو على قسمين: تجرُّدِ العوامِ من المال، وتجرُّدِ الْخَوَاصِّ من كلِّ سَبَبٍ وَعِلَّةٍ تَصْرِفُهُمْ عن فقرهم لله.

• قَسَمَ الْفَقْرَ إلى قسمين: فقرٍ إلى الله، وهي أَنَّ كلَّ فقيرٍ إلى الله هو غنيٌّ بالله، كما نقول: وجهان لعملية واحدة. وفقرٍ إلى شيءٍ هو من الله؛ كالفقرِ إلى أيِّ مَتَاعٍ دُنْيَوِيٍّ لا يتوقَّر للمرء.

• ثمَّ ذَكَرَ الشَّيْخُ طَائِفَةً من آدابِ الْفَقِيرِ إلى الله تعالى، فمنها: أَنَّهُ ليس صَابِرًا على الْفَقْدِ فَحَسْبُ؛ بل إِنَّهُ شَاكِرٌ لمولاه؛ لثقتَه بِكَمَالِ عِلْمِ الله وَحِكْمَتِهِ. وَأَنَّهُ لا يشكو الله لمخلوقٍ أَبَدًا؛ فهو راضٍ عن مولاه، يقلِّبه كيف يشاء. ومن آدابه أيضًا أَنَّ الْفَقِيرَ قلبه عامر بمولاه، لا مكان فيه لسواه.

• يذكر الشيخ نكتة لطيفة؛ وهي: أَنَّ الْغَنِيَّ من أهل الدُّنْيَا يفاخر على غيره بغناه، ولكنَّ الله سبحانه يذكر لنا أَنَّهُ هو الْغَنِيُّ لينبِّهنا على السُّؤالِ منه، ليجود علينا من واسع عطائه.

ويحضر الباحث في هذا المقام الحكمة العطائية القائلة: "تحقق بأوصافك يُمدِّك بأوصافه، تحقق بذلك يمدِّك بعزِّه، تحقق بعجزك يُمدِّك بقدرته، تحقق بضعفك، يمدِّك بحوله وقوته"⁽¹⁾.

6- قال تعالى: ﴿اللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: 38]

قال الشَّيْخُ الْجِيلَانِي عند تفسيرها: "وَاللَّهُ الْغَنِيُّ" الْمَسْتَعْنِي بِذَاتِهِ عن عموم صدقاتكم ومطلق طاعاتكم وعباداتكم (وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ) الْمُقْصُورُونَ على الْفَقْرِ وَالْإِحْتِيَاجِ الذَّاتِي إلى ما عنده، سبحانه من أنواع الْإِنْعَامِ وَالْإِحْسَانِ"⁽²⁾.

وقال الشَّيْخُ الْقَشِيرِيُّ عند تفسيرها: "وَالْفَقِيرُ الصَّادِقُ من يشهد افتقاره إلى الله. وصدق الْفَقِيرُ في شهود فقره إلى الله. ومن افتقر إلى الله استغنى بالله، ومن افتقر إلى غير الله وقع في الدَّلَّ وَالْهَوَانَ. ويقال: الله غني عن طاعتكم، وأنتم الْفُقَرَاءُ إلى رحمته. ويقال: الله غني لا يحتاج إليكم، وأنتم الْفُقَرَاءُ لأنكم لا بديل لكم عنه"⁽³⁾.

يؤكد الشَّيْخُ الْقَشِيرِيُّ أَنَّ الْفَقِيرَ الصَّادِقَ مُسْتَعْنِيً بِاللَّهِ، وذلك يورثه الْعِزَّةَ، بعكس الْغَنِيِّ عن كثرة العرض؛ فلن يجد الْعِزَّةَ بِمَالِهِ ولا بِجَاهِهِ. وَالْإِنْسَانَ الْعَاقِلَ يعلم أَنَّهُ لا يستغني عن الله طرفة عين، فلا بديل له عنه وعن رحمته.

(1) ابن عجيبة، شرح الحكم العطائية، ص333.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 5/358.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 3/207.

يُلاحظ من تفسير الشّرخين للآيات السّابقة ما يلي:

- 1- لا يفسّر الشّرخ الجبلاني آيات الفقر تفسيراً إشارياً، إلّا على النّدر، ويكتفي بتفسير ظاهر النّص.
 - 2- يسهب الشّرخ القشيري في شرحه وتفسيره لآيات الفقر، فيذكر تعريفاته وأنواعه وأقسامه وآدابه وصفات المفقر إلى الله والغنيّ به.
 - 3- كلّ فقير إلى الله هو غنيّ بالله، حقيقتان لا تتفكّ إحداها عن الأخرى.
 - 4- إنّ المخلوق الذي أظهره الله من العدم مفقر بجلّته إلى خالقه، فلا يزول افتقاره إليه طرفة عين.
 - 5- من أعظم علامات الفقر إلى الله فرحه بحاله تلك، فلا يرجو منها فكاكاً؛ لأنّه شهد بها استغناؤه عن كلّ ما سوى الله. ولا يدرك هذه السّمة إلّا من نور الله بصيرتهم.
 - 6- من أعظم آداب الفقير أن لا يستغني بشيء دون الله.
 - 7- الفقر كسوة للقلب؛ فقد يكون المرء غنياً وقلبه عامر بالفقر إلى مولاه؛ لأنّه صاحب بصيرة وعلم. يقول الباحث: ولا يُفهم من هذا المبحث الدّعوة إلى الكسل، وهجر العمل والاكتساب، فليس هذا من الدّين في شيء، فالإسلام دعا إلى العمل؛ "والأنبياء عليهم السّلام هم قدوتنا، وهم أكثر النّاس حرصاً على أن يعملوا بأيّ عمل يكفيهم النّاس وسؤالهم، فمنهم من كان نجاراً، ومنهم من كان حدّاداً، ومنهم من عمل بالتجارة، قال سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم: « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ»⁽¹⁾»⁽²⁾.
- ويجيب أستاذنا القواسمي عن الحكمة من ذمّ الدّنيا في ديننا الحنيف فيقول: "ولا يخفى أنّ مراد كلّ من ذمّ الدّنيا من الشّارع صلى الله عليه وسلم، أو غيره من صالحى المؤمنين الدّنيا الرّائدة عن الحاجة، أمّا ما يُحتاج إليه فليس من الدّنيا في شيء، بل هو مطلوب؛ إذ النّكتة في ذمّ الدّنيا إنّما هو الاشتغال بها عن عبادة الله عزّ وجلّ لا غير، فمن عصمه الله أو حفظه عن الوقوع فيما يلهي عنه تعالى فلا حرج عليه"⁽³⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، حديث رقم 2072.

(2) القواسمي، عبد السميع فوزي، أخلاقنا الإسلامية في التّعاملات الماليّة، <https://n9.cl/8ne1p>، ص 7. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: القواسمي، أخلاقنا الإسلامية في التّعاملات الماليّة.

(3) القواسمي، أخلاقنا الإسلامية في التّعاملات الماليّة، ص 21.

ومن الجيد ختم هذا المبحث بطائفة من الأحاديث النبوية، التي تناولت فضائل الفقر:

- 1- سبق الفقراء بالدخول إلى الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: «يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ»⁽¹⁾.
- 2- الفقر المتعفف الراضي ينال محبة الله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ، الْفَقِيرَ، الْمُتَعَفِّفَ، أَبَا الْعِيَالِ»⁽²⁾.
- 3- الفقير القنوع هو الغني على الحقيقة، قال صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»⁽³⁾.
- 4- الفقير القانع من المفلحين، قال صلى الله عليه وسلم: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كِفَافًا، وَقَنِعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»⁽⁴⁾.

(1) سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، حديث رقم 2354. وقال حديث حسن صحيح.

(2) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب فضل الفقراء، حديث رقم 4121.

(3) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، حديث رقم 6446.

(4) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، حديث رقم 1054.

المبحث السادس: الرضا.

الرضا مقام عزيز سأله النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه، «وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بِالقَضَاءِ»⁽¹⁾، ولا يذوق الإنسان حلاوة الإيمان إلا بالرضا، قال صلى الله عليه وسلم: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»⁽²⁾.

و"الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا؛ فمن أكرم بالرضا فقد لُقي بالترحيب الأعظم، وأكرم بالتقريب الأعلى"⁽³⁾، "والرضا أحسن أحوال أرباب الكشف والشهود"⁽⁴⁾.

والنفس مطمئنة راضية عن الله، مرضية منه سبحانه؛ قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٧٨﴾﴾ [الغاشية: 27-28].

وعرّف الشيخ عبد القادر رحمه الله الراضي فقال: "هو الذي لا يعترض على تقدير الله عزّ وجلّ"⁽⁵⁾.
وعرّف الشيخ أبو علي الدقاق رحمه الله الرضا فقال: "ليس الرضا أن لا تحسّ بالبلاء؛ إنّما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء"⁽⁶⁾.

وعرّفه الشيخ النوري فقال: "هو سُرُورُ القلب بمرّ القضاء"⁽⁷⁾.
ويلاحظ من التعريفات السابقة للرضا أنّ الراضي عن الله يتقلب بين عدم الاعتراض على تقادير المولى، والتصبر معها، وبين السرور بها.

وأبدع الإمام القشيري حين عبّر عن اختلافاتهم بالتعريف فقال: "تكلم الناس في الرضا؛ فكلّ عبّر عن حاله وشربه؛ فهُم في العبارة عنه مختلفون، كما أنّهم بالشرب والنصيب من ذلك متفاوتون"⁽⁸⁾.
والرضا على قسمين كما أورد الشيخ القشيري⁽⁹⁾: رضا بالله، ورضا عنه؛ أمّا الرضا به أن ترضاه مدبرًا، والرضا عنه أن ترضى عنه فيما يقضي.

(1) سنن النسائي، كتاب السهو، نوع آخر، حديث رقم 1306.

(2) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا، فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصي الكبائر، حديث رقم: 34.

(3) القشيري، الرسالة القشيرية، 342/2.

(4) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 151/2.

(5) الجيلاني، الغنية، 330/2.

(6) القشيري، الرسالة القشيرية، 342/2. وقد تقدّمت ترجمة الشيخ أبو علي الدقاق ص 83.

(7) القشيري، الرسالة القشيرية/ 344/3. وقد تقدّمت ترجمة الشيخ النوري ص 5.

(8) القشيري، الرسالة القشيرية، 342/2.

(9) القشيري، الرسالة القشيرية، 343/2.

ويربط حجة الإسلام الغزالي رَجْمَهُ اللهُ بين المحبّة الرّضا، فيقول: "إذا ثَبَّتَ حُبُّ اللهُ تعالى في القلب، واستغرق ألْهَمٌ به أورث الرّضا، فلا يخفى أَنَّ الحُبَّ يورث الرّضا بأفعال الحبيب"⁽¹⁾. فمتى تمكّنت المحبّة من القلب رضي العبد عن كلّ أفعال محبوبه.

ويورد الشّيخ الغزالي قِصَّةً عجيبةً في بيان ما سبق؛ فيقول: "دخل جماعة من النّاس على الشّبلي⁽²⁾ رحمه الله تعالى في مارستان قد حُبس فيه، وقد جَمَعَ بين يديه حجارةً، فقال: من أنتم؟ فقالوا: محبّوك. فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة، فتهاربوا، فقال: ما بَالُكُمْ ادعيتم محبتي، إن صدقتم فاصبروا على بلائي"⁽³⁾.

وينقل الشّيخ القشيري عن شيخه الدّقاق رحمهما اللهُ قوله: "طريقُ السّالّكين أطولُ، وهو طريق الرّياضة، وطريق الخواصِّ أقربُ، لكنّه أشقُّ؛ وهو أن يكونَ عمَلُكَ بالرّضا، ورضاك بالقضاء"⁽⁴⁾. ولا جَرَمَ أَنَّهُ أصعبُ؛ إذ إنَّ خروجَ الإنسان عن اختياره وأهواء نفسه لا يُنالُه إلّا صاحبُ معرفةٍ تَمَكَّنَتْ مِنْ قَلْبِهِ. فالواحد منّا يسلمُ لمن يثق بعلمه وبراعته في تخصّص ما، فيوكل إليه تنفيذ طلبه ثقةً به، والله المثل الأعلى.

ويدلّنا الشّيخ عبد القادر الجيلاني على وصفةٍ لتحصيل الرّضا، يمكن تلخيصها بالآتي⁽⁵⁾:

- إدامة ذكر الموت؛ فإنّ ذكره يهون المصائب والآفات.
 - لا تتهم الله على نفسك وعلى مالك وعلى ولدك؛ بل قل: ربّي أعلم بي منّي.
 - الدّعاء والتّضرّع إلى الله بطلب الرّضا.
 - دوام الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ على سائر الأحوال؛ لأنّ سَعَةَ الرزق مع عدم الشُّكْرِ فتنةٌ، وضيق الرزق مع عدم الصَّبْرِ فتنةٌ أيضاً.
 - العلم أن الاعتراض على الحقّ عزّ وجلّ حرامٌ، يُظلم به القلب والوجه.
- ويحدّثنا الشّيخ من الأعداء الذين يتربّصون بنا لإيقاعنا في مصيدةِ السّخَطِ على الله، "نفسك وهواك وشيطانك وأقرانك السّوء، جميع هؤلاء يكرهون اختيار الله عزّ وجلّ، فلا توافقهم، ولا تلتفت إليهم، وإلى

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، 347/4.

(2) هو أبو بكر الشّبلي البغدادي، اسمه دُلْف بن جَدْر، وقيل: جعفر بن يونس، شيخ الطائفة، صحب الجنيد، وكان فقيهاً عارفاً بمذهب مالك، وكتب الحديث، وقال الشّعْر في الغزل والمحبّة، وله ألفاظ وحكم وحال وتمكّن. توفي عام 334هـ. الذهبي، سير اعلام النبلاء، 368/15 وما بعدها.

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، 350/4.

(4) القشيري الرسالة القشيرية، 343/2

(5)الجيلاني، الفتح الزباني، ص 208.

إعراضهم وتسخطهم على ربك عز وجل، اسمع ما يأمر به القلب والسر؛ فإنهما يأمران بالخير، وينهيان عن الشر⁽¹⁾.

والعارف بالله لا يرضى بما هو دون الله عز وجل، ولا تُلْفته العطايا عن المعطي، يقول القشيري عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:5]: «أَفْتَرَضَىٰ بِالْعَطَاءِ عَنِ الْمَعْطِي؟ قال: لا»⁽²⁾.

وقد ورد ذكر الرضا في كتاب الله في عدّة مواضع؛ منها:

1- قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة:119]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) لتحقّقهم بمقام الصدق والإخلاص، (وَرَضُوا عَنْهُ) لإيصالهم إلى غاية ما جُبلوا عليه لأجله بلا منتظر، (ذَلِكَ) الوصول والتحقّق، هو (الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) والفضل العميم، واللطف الجسيم لأهل العناية الفائزين من عنده بهذه المرتبة العلية"⁽³⁾.

الصادقون ينالون رضوان الله تعالى؛ لأنهم أدّوا ما عليهم من صدق وإخلاص، وهم رَضُوا عن الله سبحانه وتعالى؛ لأنه أوصلهم إلى غايتهم التي خُلِقُوا مِنْ أَجْلِهَا؛ وهي عبادته ومعرفته.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "ورضاء الحق سبحانه إثبات محلّ لهم، وثنائُهُ عليهم، ومدْحُهُ لهم، وتخصيصُهُم بأفضاليه، وفُنُونِ نَوَالِهِ. ورضائُهُم عن الحق سبحانه في الآخرة، ووصولُهُم إلى مُنَاهُم، فهو الفوز العظيم، والنّجاة الكبرى"⁽⁴⁾.

يقول الشيخ القشيري إنّ رضى الله تعالى عن العبد هو تخصيصُهُ بمزيد إفضالٍ وإنعامٍ في الدّنيا والآخرة. ولكن الباحث يميل إلى توسيع معنى رضى الله عن العبد كما قال الإمام الغزالي رحمه الله: "فرضوان الله عن العبد تقصر أفهام الخلق عن إدراكه، وَمَنْ يَقْوَى عَلَيْهِ فَيَسْتَقِل بِإِدْرَاكِهِ مِنْ نَفْسِهِ؟!"⁽⁵⁾، ورضى المؤمنين عن الله في الآخرة أن أوصلهم إلى دار رضوانه تعالى.

2- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة:59]

(1) الجيلاني، الفتح الربّاني، ص 210.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 430/3.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 550/1.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 285/1.

(5) الغزالي، إحياء علوم الدّين، 344/4.

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "وَلَوْ أَنَّهُمْ) كانوا مؤمنين كما ادَّعوا، (رَضُوا) في تقاسيم الغنائم وغيرها على (مَا آتَاهُمْ اللَّهُ) وأعطاهم من فضله؛ إذ هو الحكيم في قِسْمَةِ أرزاقِ عبادِهِ على تفاوتِ درجاتِهِمْ، (وَرَسُولُهُ) المستخلف له، الْمُلهَمُ من عنده، (وَقَالُوا) من كمال إخلاصهم وتفويضهم كسائر المؤمنين: (حَسْبُنَا اللَّهُ) المدبر الكافي لأمرنا يكفيننا علمه بنا، (سَيُؤْتِينَا اللَّهُ) المتكفل بأرزاقنا، (مِنْ فَضْلِهِ) وَسَعَةِ لُطْفِهِ وَجُودِهِ ما يكفيننا (و) سيعطينا (وَرَسُولُهُ) النائب عنه بإذنه من الغنائم والصدقات ما يشبعنا ويغنيننا (إِنَّا) بعدما آمنا بالله، وتحققنا بتوحيده بإرشاد رسله، (إِلَى اللَّهِ) الباقي بالبقاء الأزلي السرمدي لا إلى غيره من الأضلال والأموال والمزخرفات الفانية، (رَاغِبُونَ) ليرزقنا مِنْ فوائِدِ رِزْقِهِ المعنوي، وفوائِدِ توحيدِهِ الدَّاتي؛ أي: هم لو رَضُوا كما رضي المؤمنون الموقنون، واعترفوا كما اعترفوا لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً وتقريباً في قلوبهم"⁽¹⁾.

يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني إنَّ الْمُؤْمِنَ كاملَ الإيمانِ يفوض أمره إلى الله تعالى، ويكتفي بتدبيره وعلمه؛ لأنَّه على يقينٍ أنَّ الله سبحانه وتعالى أعلم بما يصلح له من أمور دينه ودنياه، وأنَّ مقام الرضا يورث ثباتاً في الدين، ويقيناً في القلب.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "لو وقفوا مع الله بسرِّ الرضا لَأَتَتْهُمْ فُتُونُ العطاء، وتحقيقاتُ المُنَى، وَلَحَفَظُوا مَعَ اللَّهِ عند الوجدان ما لهم من الأدب، من غير معاناةٍ تَعَبٍ، ولا مُقاساةٍ نَصَبٍ، ولكنَّهم عَرَجُوا في أوطان الطَّمع، فوقعوا في الدَّلَّ والحرب"⁽²⁾.

يخبرنا الشيخ القشيري أنَّ عاقبة الرضا السُّرور وزوال التَّعب والنَّصب وتحقيق المني، وأنَّ الطَّمع طريق الدَّلَّ والإبعاد عن الله، نعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك.

وفي هذه الآية حثُّ لنا -معاشر المؤمنين- على التَّطَلُّع إلى مقام الرضا؛ فَمِنْ كَامِلِ رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أن بيَّن لهم أنَّ عاقبة رضاك الظُّفر بالخير الدنيوي والأخروي.

3- قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:100]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(وَالسَّابِقُونَ) في الإيمان، المبادرون إلى التَّصديق وقبول الأحكام (أَلْأُولُونَ) الأقدمون بمتابعة الرِّسول صلى الله عليه وسلم، (مِنَ الْمُهَاجِرِينَ) الذين هاجروا من مألوفات نفوسهم ومشتهيات طباعهم إلى الفناء في الله، (وَالْأَنْصَارِ) الأبرار الذين سَلَكُوا نَحْوَ الْحَقِّ بالرياضاتِ المجاهداتِ الشاقَّةِ المزيحة لِذَرَنِ التَّعلقاتِ، وَرَيْنِ الإضافاتِ المانعة من التَّوجه الحقيقي. (وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ) وَاقْتَفَوْا أَثَرَهُمْ من أهل الطَّلَب والإرادة (بِإِحْسَانٍ) أي: بلا تمايلٍ إلى الرِّياء والسَّمعة والعجب،

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 2/269.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 1/428.

أولئك المبرورون، المقبولون (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) لتحقيقهم بمرتبة الإخلاص والتسليم، (وَرَضُوا عَنْهُ) لإيصالهم إلى مقرّ التّوحيد، وفضاء الفناء المثمر للبقاء الأبدي، والحياة السّرمديّة، (وَأَعَدَّ لَهُمْ) سبحانه في حوزة حمايته وروضة بقاءه، (جَنّاتٍ منّزهات، تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ) من العلوم والمعارف، (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) لا يتحوّلون عنها أصلاً، (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) واللّطف الجسيم لأهل العناية من أرباب الولاية والمحبة، المنخلعين عن جلباب ناسوتهم مطلقاً⁽¹⁾.

يبين الشّيخ الجيلاني طريق الوصول إلى رضى الله سبحانه وتعالى؛ وهو اتّباع السّابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار بإحسان وإخلاص، وأنهم وصلوا إلى هذه الدّرجة العليّة برضاهم عن الله سبحانه وتعالى، في العسر واليسر؛ فرضوا عن الله سبحانه وتعالى لأنّه أشهدهم صفات جلاله وجماله، فَتَسَلَّوْا عنها عند نزول قَارِعَاتِ الْقَدَرِ.

وقال الشّيخ القشيريّ عند تفسيرها: "يقال: رضاهم عن الله قضية رضاء الله عنهم، فلولا أنّه رَضِيَ عنهم في آزاله فمتى وصلوا إلى رضاهم عنه؟!"⁽²⁾.

يخبرنا الشّيخ القشيريّ عن قضية مهمّة قلّما يلتفت إليه؛ وهي أنّ رضا الله تعالى عن العبد سابق لرضا العبد عن مولاه، ودليل الشّيخ في ذلك قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾؛ فقدّم رضاه على رضاهم، وكان الشّيخ يشير بإشارة خفيّة إلى أنّ العبد مهما قدّم لمولاه من طاعات فرضا الله سبحانه وتعالى عن عبده هو بمحض فضله وكرمه وجوده الأزلي، لا بسابقة عمل من العبد.

4- قال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: 130]

قال الشّيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(سَبِّحْ) ونزّه ربّك عمّا يقولون من إنكار يوم الجزاء تسبيحاً مقروناً (بِحَمْدِ رَبِّكَ) شكراً لنعمائه وآلائه الواصلة إليك، وداوم عليه (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ) بعد انتباهك من منام غفلتك، وقبل اشتغالك في أمور معاشك، (وقَبْلَ غُرُوبِهَا) بعد فراغك عن كسب المعاش، وقبل استراحتك بالمنام، (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ) المعدّ للاستراحة إن أيقظت فيها، (فَسَبِّحْ وَ) سَبِّحْ أيضاً (أَطْرَافَ النَّهَارِ) إذا فرغت عن الاشتغال، (لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) عن الله في جميع الأوقات، ويرضى الله فيها"⁽³⁾.

يقول الشّيخ الجيلاني إنّ تسبيح الله سبحانه وتعالى وتنزيهه وحمده وشكره بكرةً وعشيّاً هي طريق موصّل إلى باحات الرضا عن المولى عزّ وجلّ التي لا يصلها العبد إلّا برضى الله عنه، وفوائد ذكر الله وثماره معلومة لكلّ مؤمن.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 292/2 وما بعدها.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 442/1.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 322/3.

ولم يتطرق الشيخ القشيري إلى تفسيرها⁽¹⁾.

5- قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[المجادلة:22]

قال الشيخ الجلاي عند تفسيرها: " (رَضِيَ اللَّهُ) المتجلبى عليهم بالرضا، (عَنْهُمْ وَرَضُوا) أيضاً، (عَنْهُ) سبحانه بالتقويض والتسليم إليه، (أُولَئِكَ) السعداء المقبولون عند الله، (حِزْبُ اللَّهِ) وحوامل آثار أوصافه وأسمائه الذاتية، وقوابل عموم كلياته وشئونه وتطوراته، (أَلَا) أي: تنبهوا أيها الأظلال المستظلون بظلاله الممدودة مِنْ أَرَلِ الدَّاتِ إِلَى أَدْبِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ. (إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الفائزون من لدنه بالفوز العظيم، والفضل الجسيم، والكرم العميم"⁽²⁾.

مِنْ أعظم نِعَمِ الله على عبده أن يُنسب العبد إلى مولاه، ويحسب عليه (حزب الله) وأيُّ شَرَفٍ أرفع من هذا الشرف؟ وأيُّ عِزٍّ تتناول إليه الأعناق أسنى من هذا العِزِّ؟ والشَّيْخُ عبدُ القادر يُبَيِّنُ لنا أن الواصلين إلى مَقَامِ الرِّضَا هم أهل الله الذين نالوا السَّعادة والقبول والفلاح. ولم يتطرق الشيخ القشيري إلى تفسيرها⁽³⁾.

6- قال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ [البينة:8]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (جَزَاؤُهُمْ) الذي استحقوه بإيمانهم وأعمالهم، (عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ عَدْنٍ) منتزهات علمٍ وعينٍ وحقٍّ، (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أي: جَدَاوِلُ المعارف والحقائق المتجددة، المرشحة من بحر الحقيقة. (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) دائمين فيها سَرْمَدًا، وبالجملة: (رَضِيَ اللَّهُ) المتفضل المنعم العليم الحكيم، (عَنْهُمْ) وعن أعمالهم ونياتهم وأخلاقهم فيها (وَرَضُوا) أيضاً (عَنْهُ) سبحانه بما قسم الله لهم، وَأَفَاضَ عليهم بمقتضى استعداداتهم وقابلياتهم، وبالجملة: (ذَلِكَ) الأجر الجزيل والرضا الجميل (لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ) وخاف من سَخَطِهِ وَغَضَبِهِ، فامتثل أوامره، واجْتَنَبَ نواهيه، واتَّصَفَ بالتقوى عن مطلق محارمه ومحظوراته. جعلنا الله من زمرتهم.

خاتمة السورة: عليك أيها الراجي لقبول الحق والرضا أن تُصَفِّي سِرِّكَ عن مُطْلَقِ الرُّعُونَاتِ المنافية للرضا عما جرى عليه القضاء، وتخلِّي ضميرك عن الميل إلى مطلق البدع والأهواء المبعدة عن

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 2/282.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 6/41.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 3/300.

التقرب نحو المولى، فك التّسليم والرّضا، والتّبئُّل نحو الحقّ في السّراء والضّراء، والتّوكّل عليه في الخصب والرّخاء؛ فإنّه لا يتحرّك في ملكه إلّا ما يشاء⁽¹⁾.

يبين الشّيخ عبد القادر الجيلاني أنّ العبد الذي ملأت خشية الله جنانه، فامتثل أوامره، واجتنب نواهيه، يكافأ من الكريم الوُدود بنيل رضا الله عنه. ويذكر الشّيخ في خاتمة تفسيره للسورة طريقاً موصلاً إلى مقام الرّضا، وهو تصفية القلب عن مطلق الشّهوات والأهواء التي تبعث في النّفس السّخط، وترك البدع والأهواء التي تحول بين العبد ومولاه، ويلاحظ أنّ الشّيخ يؤكّد على ما جاء في مقدّمة المبحث من التّحذير من أعداء الإنسان؛ نفسه وهواه وشيطانه.

قال الشّيخ القشيريّ عند تفسيرها: " (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)، فلم تَبَقْ لهم مطالبَةٌ إلّا حَقَّقَهَا لهم (ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ) أي: خافه في الدّنيا. والرّضا سرور القلب بِمَرِّ القضا، ويقال: هو سكون القلب تحت جريان الحكم"⁽²⁾.

يُلاحظ أنّ الشّيخ القشيريّ في تفسيره للآية ساق تعريفين اثنين للرّضا؛ وهما سرور القلب بِمَرِّ القضا، وسكون القلب تحت جريان الحكم، والتّعريفان يدوران حول فكرة واحدة: الاطمئنان إلى اختيار الله للعبد. وفي هذا المقام يحضّر الباحث قول الإمام الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما: "من أتكل على حسن اختيار الله له لم يَمَنَّ غَيْرَ ما اختار الله له"⁽³⁾.

7- قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (الليل: 21)

قال الشّيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ) عن الله، بالفوز بشرف اللّقاء عند كشف الغطاء. اللهمّ ارزقنا لقاءك يوم نلقاك.

خاتمة السورة: عليك أيها الطّالب لرضاء الله، والرّاجي مطالعة جمال الله وجلاله أن تحسن الأدب مع الله في عموم أحوالك في النّشأة الأولى، وتزكّي نفسك عن مطلق الأمانى والآمال الشّاغلة عن التّوجه نحوه، فعليك التّبئُّل والاجتهاد على وجه الإخلاص والتّوفيق من الله يهديك إلى سبيل الرّشاد. وإيّاك إيّاك أن تلتفت إلى مزخرفات الدّنيا الدّنيّة، فإنها تلهيك عن الدّرجات العليّة الأخرويّة، وتغويك إلى الدّركات الهويّة الجهنميّة... جعلنا الله ممن تتفّر عن الدّنيا وما فيها"⁽⁴⁾.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 408/6 وما بعدها.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 440/3.

(3) القشيري، الرسالة القشيرية، 344/2. الجيلاني، الغنية، 331/2.

(4) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 384/6.

يَدُلُّ الشَّيْخُ عبد القادر طالب مقام الرِّضا إلى التزام الأدب الكامل مع الله تعالى، في جميع أحواله الظَّاهرة والباطنة، والسَّعي في تركية النَّفس وتخليتها من كلِّ شاغل يشغلها عن الله، ويحدِّر الشَّيخ من الدُّنيا والافتتان بها؛ فالمريد حاله حال الإعراض عن الدُّنيا والنَّفور منها. وقال الشَّيخ القشيريُّ عند تفسيرها: "يرضى الله عنه ويرضى هو بما يعطيه"⁽¹⁾. يفسِّر الشَّيخ القشيري الآية بظاهر النَّص، ولا يتطرَّق إلى التفسير الإشاريِّ فيها.

ومن خلال دراسة الآيات السابقة عن الرِّضا يتبيَّن للباحث ما يلي:

- 1- الرِّضا مقام غالٍ يختصُّ الله به سبحانه وتعالى خيرة عباده، فيعيشون في جنَّة الرِّضا والتَّسليم، قبل جنَّة الرِّضوان والتَّعيم.
- 2- كَلَّتِ الألسن عن تفسير رضى الله عن عباده المؤمنين، وانحسرت العقول عن التَّعبير عنه، فعبر كلُّ بما ذاق وعَرَفَ.
- 3- رضوان الله تعالى عن عبده المؤمن أكبر من كلِّ نعمة أو عطية منه سبحانه، ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: 72].
- 4- الأنبياء عليهم السَّلام طلبوا مقام الرِّضا من الله تعالى، فالحبيب محمَّد صلى الله عليه وسلم سأل الله الرِّضا بعد القضاء، وسيِّدنا موسى عليه السَّلام قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾﴾ [طه: 84]، وسيِّدنا زكريَّا عليه السَّلام سأل الله ولداً يبلغ مقام الرِّضا، قال تعالى: ﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رِضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: 6].
- 5- رضا الله تعالى سبب لرضا العبد، وهو سابق له.
- 6- وردت (رضي الله عنهم ورضوا عنه) في كتاب الله في أربعة مواضع، في الحديث عن: الصِّدق، وخشية الله، واتباع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع أوامر الله، واجتناب نواهيه، فكلُّ ذلك سبيل لنيل رضوان الله تعالى.
- 7- مقام الرِّضا طريق مختصر للوصول إلى حضرة القدوس جلَّ وعلا.
- 8- أهل الله لا تشغلهم النِّعمة عن المنعم. ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 37]. وفي أثناء إعداد هذا المبحث خطرت للباحث خواطر، هي:

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 428/3.

1- يرغبنا الله تعالى بمقام الرضا، ويشوفنا إليه، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة:59]، فهو سبيل لنيل العطاء الواسع من الله.

2- الرضا عن الله تعالى يورث الزاحة للقلب والفكر، فيدخل العبد جنّة النعيم في الدنيا قبل الآخرة.
3- يتدرج العبد في مقام الرضا بدأً من عدم الاعتراض على مولاه، فالثقة بمراده، ثم السرور باختياره.
4- مقام الفقر ومقام الرضا مقامان متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، وكلاهما يسوقان صاحبهما إلى الفلاح. قال صلى الله عليه وسلم: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كِفَافًا، وَقَنِعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»⁽¹⁾.

5- قضاء الله تعالى نافذ لا محالة؛ فالمؤمن العاقل يوطن نفسه على الرضا بقاء الله وقدره، لكي لا تُقوت عليه نيل رضا الله تعالى، يقول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ قَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ قَلَهُ السَّخَطُ»⁽²⁾.

6- من تجرّع غصة الصبر على القضاء أرضاه الله، لأنّ الجزاء من جنس العمل: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ صُرِّ وَعَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 84].

7- سمى الله تعالى خازن الجنة (رضوان) ليُبشّر عباده المؤمنين بالرضا الدائم الذي سينالونه بدخولها، يقول تعالى في الحديث القدسي: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أُسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»⁽³⁾.

(1) سبق تخريجه ص 147.

(2) سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، حديث رقم: 2396، وقال عنه: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(3) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، حديث رقم: 6549.

المبحث السابع: الحياء .

الحياء خلق متوارث من لدن الأنبياء السابقين إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، توارثه الناس قرناً بعد قرن، قال صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»⁽¹⁾. فالحديث يدل على أن خلق الحياء خلق أصيل من أخلاق دين الإسلام، الذي جاءت به سائر الأنبياء ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19].

وكان نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم شديد الحياء «أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خَدْرِهَا»⁽²⁾، وأخبرنا أن الحياء من الإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم : «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً. وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»⁽³⁾، وقد روي «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعْظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ»⁽⁴⁾. وعزّف الإمام الجنيد الحياء فقال: "هو رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد من بينهما حالة تسمى الحياء"⁽⁵⁾.

وذكر الإمام القشيري تعريفات للحياء ولم ينسبها لأحد، منها:

"الحياء: نوبان الحشا؛ لإطلاع المولى، وانقباض القلب بتعظيم الرب. ومن صورته: أن المرء إذا جلس يعظ الناس ناداه ملكاه عظ نفسك بما تعظ به أخاك، وإلا فاستح من سيدك؛ فإنه يراك"⁽⁶⁾. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "الحياء: خلق يبعث صاحبه على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق"⁽⁷⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت، حديث رقم 6120.

(2) صحيح البخاري، باب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: 3562. وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كثرة حياته صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم: 2320.

(3) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، حديث رقم: 9. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان، حديث رقم: 35.

(4) صحيح البخاري، كتاب الحياء، باب الحياء من الإيمان، حديث رقم 24. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان، حديث رقم: 35.

(5) القشيري، الرسالة القشيرية، 370/2.

(6) القشيري، الرسالة القشيري، 370/2.

(7) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد، ت852هـ ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، مصر، ط1، 1380-1390هـ، 52/1. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن حجر، فتح الباري.

وقال ابن القيم: "الحياء مشتق من الحياة، والغيث يسمى حياً - بالقصر - لأن به حياة الأرض والنبات والدواب وكذلك سميت بالحياة حياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه فهو ميت في الدنيا شقي في الآخرة"⁽¹⁾.

وقال أبو بكر الوراق⁽²⁾: "ربما أصلي لله تعالى ركعتين، فأنصرف عنهما وأنا بمنزلة من ينصرف عن السرقة من الحياء"⁽³⁾.

وذكر الشيخ القشيري أنواعاً للحياء، هي⁽⁴⁾:

- 1- حياء الجنانية: كما في قصة سيدنا آدم عليه السلام عندما أكل من الشجرة.
- 2- حياء التقصير: ومثاله قول الملائكة عليهم السلام: "سُبْحَانَكَ مَا عِبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ"⁽⁵⁾.
- 3- حياء الإجلال: ومثاله سيدنا إسماعيل عليه السلام وحالة خوفه من الله، قد تسربل بجناحه⁽⁶⁾.
- 4- حياء الكرم، حياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ كان يستحي من ضيفه أن يقول أخرجوا، ﴿إِنَّ دَالِكُمْ كَانَ يُؤْذَى الْتِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: 53].
- 5- حياء الحشمة: كحياء الإمام علي رضي الله عنه في سؤال النبي عن بعض الأحكام الخاصة، لمكان السيدة الزهراء منه.
- 6- حياء الاستحغار: كحياء سيدنا موسى عليه السلام في طلب الدنيا من الله؛ لحقارتها في نفسه، فجاءه التعليم الإلهي: "سلني حتى ملح عجبك"⁽⁷⁾.

(1) ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب، ت ٧٥١ هـ، الداء والدواء، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم، الرياض، ط4، 1440هـ، ص170.

(2) هو الإمام المحدث محمد بن اسماعيل بن العباس البغدادي المستملي الوراق، ولد 293هـ وتوفي 378هـ. قال عنه أبو بكر البرقاني: ثقة ثقة. قال محمد بن أبي الفوارس: أبو بكر بن إسماعيل متيقظ حسن المعرفة، وكان كتبه ضاعت. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 388/16. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 388/2.

(3) القشيري، الرسالة القشيرية، 370/2.

(4) القشيري، الرسالة القشيرية، 369/2.

(5) الحاكم، المستدرک على الصحيحين، حديث رقم 8739، 529/4.

(6) الطبراني، المعجم الأوسط، حديث رقم 9283، 114/9.

(7) ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن شهاب، ت 795هـ، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تحقيق وليد سلامة، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 1422هـ/2002م، ص 241. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم.

7- حياء الإنعام: حياء الربّ سبحانه يدفع إلى العبد كتاباً مختوماً بعد ما عبر الصراط وإذا فيه فعلت ما فعلت ولقد استحييت أن أظهر عليك فاذهب فإنّي قدّ غفرت لك.⁽¹⁾

يقول ابن رجب الحنبلي رحمه الله: "الحياء نوعان: أحدهما: ما كان خُلُقاً وجبلة غير مكتسب، وهو من أجل الأخلاق التي يمنحها الله العبد ويجبله عليها... والثاني: ما كان مكتسباً من معرفة الله تعالى، ومعرفة عظّمته، وقربه من عباده، واضطلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين وما تُخفي الصدور، فهذا من أعلى خصال الإيمان"⁽²⁾.

ومن الله تعالى على قوم بلغوا مبلغاً سامياً في الحياء من الله عز وجلّ، روى الإمام القشيري في رسالته عن بعضهم: "خرجنا ليلة فمررنا بأجمة، فإذا رجل نائم وفرس عند راسه ترعى، فحرّكناه، وقلنا له: ألا تخاف أن تنام في مثل هذا الموضع المخوف وهو مسبح؟! فرفع رأسه، وقال: أنا أستحيي منه أن أخاف غيره. ووضع رأسه ونام"⁽³⁾.

وكان من دعاء الشيخ عبد القادر الجيلاني: "واكس وجوهنا منك الحياء"⁽⁴⁾.

وقد ورد ذكر الحياء في كتاب الله تعالى في مواضع، منها:

1- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: 26]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "ثم لما طعن الكفار في غاية استكبارهم وعتوهم ونهاية استعظامهم نفوسهم، واعتقادهم الأصالة في الوجود، والاستقلال بالآثار المترتبة عليه الصادرة منه ظاهراً على الكتاب، والرسول المنزل عليه قائلين بأن ما جئت به وسميته وحياً نازلاً إليك من عند الله الحكيم لا يدل على كلام من يُعتمد به ويُعتمد عليه، فضلاً عن أن يدل على أنه كلام الحكيم المتّصف بجميع أوصاف الكمال المستحق للعبادة؛ لأن ما مُثل به فيه هي الأشياء الخسيسة الخبيثة والضعيفة الحقيرة، مثل الكلب والحمار والذباب والنمل والتحل والعنكبوت وغيرها، والكلام المشتمل على أمثال هذه الأمثال لا يصدر من الكبير المتعال؟! ردّ الله عليهم وروّج أمر نبيه صلى الله عليه وسلم، فقال: (إنّ الله) المستجمع لجميع الأوصاف والأسماء، المقتضية لظواهر الكائنات، المرتبة لمراتب الموجودات الظاهر على جميع المظاهر بلا تفاوت، كظهور الشمس وإشراقها على جميع الآفاق، وسريان الروح في جميع الأعضاء (لا يستحى) استحياء من في فعله ضعف وعافية وضيعة، بل لله سبحانه (أن

(1) ابن المنقذ، أسامة بن مرشد بن علي، ت584هـ، لباب الآداب، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، ط2، 1407هـ/1987م، 284/1.

(2) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ص 214.

(3) القشيري، الرسالة القشيرية، 369/2.

(4) الجيلاني، الغنية، 254/2.

يَضْرِبُ مَثَلًا) بمظهر (مَا) من المظاهر غير المتفاوتة في المظهرية؛ إذ له بذاته من جميع أوصافه وأسمائه ظهور في كلِّ ذرّة من ذرات العالم بلا إضافة، فلا تفاوت في المظاهر عنده، وما ترى في خلق الرّحمن من تفاوت، وسواء كانت (بِعُوضَةٍ) مستحقة عندكم أو أحقر منها (فَمَا فَوْقَهَا) في الحقارة والخساسة كالبقّ والنمل، فلا يبالي الله في تمثيلها؛ إذ عنده الكلّ على السواء⁽¹⁾.

من رحمة الله تعالى البالغة بعباده أن وضح لهم مقاصده ومراده منهم بضرب الأمثال، وهو جلّ شأنه أخبرنا أنّه لا يستحي أن يضرب المثل - مهما كان في نظر الناس حقيراً - ، فكلّ مخلوقاته عنده سواء. وينبّهنا الشيخ الجيلاني إلى تنزيه الله تعالى، فهو سبحانه لا يستحي كأحدنا حياء ضعف وفاقه ومرضى؛ وهذا من نافلة القول ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:43].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الاستحياء من الله تعالى بمعنى التّرك، فإذا وصف نفسه بأنه يستحي من شيء فمعناه أنه لا يفعل ذلك وإذا قيل لا يستحي فمعناه لا يبالي بفعل ذلك. والخلق في التّحقيق بالإضافة إلى وجود الحقّ أقلّ من ذرّة من الهباء في الهواء، لأن هذا استهلاك محدود في محدود. فسيان في قدرته العرش والبعوضة، فلا خلق العرش أشقّ وأعسر، ولا خلق البعوضة أخفّ عليه وأيسر، فإنّه سبحانه متقدّس عن لحوق العسر واليسر. فإذا كان الأمر بذلك الوصف، فلا يستحي أن يضرب بالبعوضة مثلاً كما لا يستحي أن يضرب بالعرش فما دونه مثلاً"⁽²⁾.

يوضّح الشيخ القشيري معنى الاستحياء إذا نُسب إلى الله سبحانه وتعالى، ويقول أنّه بمعنى التّرك، فهو سبحانه (لا يستحي)؛ أي لا يبالي بضرب المثل، لأنّ الخلق بالنسبة إلى خالقهم سواء من العرش إلى البعوضة.

2- قال تعالى: ﴿طَفِقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الاعراف:22] [طه: 121]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(وَ) بعدما نزع لباسهما ظهر سواءتهما (طَفِقًا) أخذًا (يَخْصِفَانِ) يلصقان ويلزقان (عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ) أشجار (الْجَنَّةِ) قيل: هي التّينة، وقيل: الكرمة (وَ) بعدما ما بدا منهما ما بدا (أَلَمْ أَنهَكُمَا) موبخاً مقرّعاً: (نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا) أيها المعتديان المسرفان (عَنْ تَلْكُمَا الشَّجَرَةَ) وأقلّ لكم إنّ الشّيطان لكم عدوّ مُبِينٌ) ظاهر العداوة، فلم تسمعا قوله، وتتبعوا أمره؟ فلمّا سمعا من ربّهما ما سمعا (قَالَ) متضرّعين متدلّلين معترفين على زلّتهما: (رَبَّنَا) يا من ربّنا على الكرامة لمقتضى فضلك وجودك (ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا) بمتابعة عدونا (وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا) لم تتجاوز عنا (وَ) لم (تَرْحَمْنَا) بفضلك (لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) خسراناً عظيماً"⁽³⁾.

تشير الآية الكريمة إلى الحياء الفطري عند الإنسان؛ من خلال ردّة فعل والدَيْنَا: آدم وحواء عليهما

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 57/1 وما بعدها.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 30/1.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 95/2.

السّلام بعد انكشاف سواتهما، بالمبادرة إلى التقاط أوراق الشّجر وستر نفسيهما. قال الشّيخ القشيري عند تفسيرها: "كانت لا تصل يده إلى الأوراق حين أراد قطافها ليخصفها على نفسه، فلو لم تصل يده إلى تلك الشجرة التي هي شجرة المحنة لكان ذلك عناية بشأنه، ولكن وصلت يده إلى شجرة المحنة، تتمة للبلاء والفتنة، ولو لم تصل يده إلى شجرة السّتر إبلاغاً في القهر لَمَا خالف الأمر، ولما حصل ما حصل. (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَ الشَّجَرَةِ) فكان ما داخلهما من الخجل أشدّ من كلّ عقوبة؛ لأنهما لو كانا في الغيبة عند سماع النّداء فإن الحضور يوجب الهيبة، فلما ناداهما بالعتاب حلّ بهما من الخجل ما حلّ"⁽¹⁾.

يقول الشّيخ القشيري أنّ شدة حياء آدم وحواء عليهما السّلام من الله هي أكبر من كلّ عقوبة أخرى؛ إذ كيف يُعصى من غمرنا بالنّعم وأغنانا بفضله عمّن سواه، فالمحبّ الصّادق يكفيه العتاب عن العقاب.

3- قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: 25]

قال الشّيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا) أي: إحدى المرأتين (تَمْشِي) نحوه (عَلَى اسْتِحْيَاءٍ) تام منه"⁽²⁾.

لم يتطرّق الشّيخ الجيلاني في تفسيره لهذه الآية لمقام الحياء المعروف عند السّادة الصّوفية. وهنا لفتة أنّ الشّيخ نسب الحياء لسيدنا موسى عليه السّلام في أثناء مشي المرأة باتجاهه، مع أنّ المتبادر من التّفسير أنّ الحياء صدر من المرأة. والمعنى الذي أشار إليه الشّيخ عبد القادر لا يُستبعد. قال الشّيخ القشيري عند تفسيرها: "قيل إنما استحيت لأنها كانت تخاطب من لم يكن لها محرماً، وقيل لَمَا دعت للضيافة تكلمت مستحيية؛ فالكريم يستحي من الضيافة"⁽³⁾.

كذلك الشّيخ القشيري لم يتطرّق في هذه الآية للتّفسير الإشاري كعادته، فذكر أقوال المفسّرين في سبب حياؤها، ونبه على معنى دقيق وهو أنّ الكريم يستحي من الضيافة.

ومن اللطائف في هذا الموضوع أنّ شبه الجملة «على استحياء» يجوز أن يتعلق بالفعل «تمشي»، فيكون حالاً للمشي؛ أي أنّها كانت تمشي والحياء يُجلّها، والوقف حينئذٍ عند قوله: ﴿تمشي على استحياء﴾، ويبدأ بقوله: ﴿قالت إن أبي﴾. ويجوز أن تتعلق شبه الجملة بالفعل «قالت»؛ أي أنّها كانت

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 328/1.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 171/4.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 434/2.

تحدّث مع سيّدنا موسى عليه السّلام بحياءٍ بالغٍ، والوقف حينئذٍ عند قوله: ﴿فجاءته إحداهما تمشي﴾، ويبدأ بقوله: ﴿على استحياء قالت﴾. وكلا المعنيين صحيح⁽¹⁾.

4- قال تعالى: ﴿تَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: 37].

قال الشّيح الجيلاني عند تفسيرها: "تَخَشَى النَّاسَ) من أن يعيّرُوك بمناكحة زوجة عتيقك ودعيك، ويرموك بما لا يليق بشأنك، مع أنك بريء عنه (وَاللَّهِ) المطلّع على جميع ما ظهر وبطن (أَحَقُّ) وأولى من (أَنْ تَخْشَاهُ) وتستحي منه؛ إذ هو سبحانه غيور ينتقم ممّن يشاء"⁽²⁾.

فسّر الشّيح عبد القادر الخشية في هذه الآية بالحياء؛ فسيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم غلب عليه الحياء من النَّاس عندما أمره الحقّ تعالى بإخبار زيد أن يُطلق زوجته، ومن ثم تكون زوجة للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لأنّ زيدًا كان متبنّي له قبل تحريم التّبني، فعظم ذلك في نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم، إلى أن جاء الأمر القاطع من الله تعالى بفعل المطلوب.

قال الشّيح القشيري عند تفسيرها: "أيّ وتخشى عليهم أن يقعوا في الفتنة من قصّة زيد، وكانت تلك الخشية إشفافًا منك عليهم، ورحمة بهم. ويُقال: وتستحيي من النَّاس والله أحقّ أن تستحيي منه"⁽³⁾.

يظهر أدب الشّيح القشيريّ وغيرته على النبيّ صلى الله عليه وسلم من خلال تفسيره لهذه الآية؛ إذ إنّ فسّر الخشية منه صلى الله عليه وسلم على النَّاس أن يقعوا في فتنة عظيمة في الدّين من قصّة زيد رضي الله عنه، والمعنى بعيدٌ، والله أعلم. وذكر قولًا آخر فسّر فيه الخشية بالحياء كما سبق توضيحه في تفسير الشّيح الجيلاني للآية نفسها .

5- قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: 53]

قال الشّيح الجيلاني عند تفسيرها: " (إِنَّ ذَالِكُمْ) أي: اللّبث على أيّ وجه (كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ) صلى الله عليه وسلم (مِنْكُمْ) أن يخرجكم حسب مقتضى حميته البشريّة؛ لأنّه صلى الله عليه وسلم حييّ حليم، يصبر على أذاكم ولا يخرجكم عنوة (وَاللَّهُ) المصلح لأحوال عباده، المنبّه لهم مصالحهم (لَا يَسْتَحْيِيهِ مِنَ) إظهار كلمة (الْحَقِّ) التي يجب إيصاله إلى المؤمنين؛ ليترسّخ في قلوبهم ويتمرّنوا عليه ويتصفوا به"⁽⁴⁾.

(1) الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد ت 444هـ، المكتفى في الوقف والابتداء، تحقيق: محيي الدين رمضان، دار عمار، عمّان، الطبعة الأولى، 1422هـ/2001م، ص156.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 376/4.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 40/3.

(4) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 388/4.

كان صلى الله عليه وسلم يستحيي أن يقول لضيوفه المدعويين لطعامه إذا ما انتهوا من تناوله أن ينصرفوا، على الرّغم من الأذى الذي كان يلحقه ببقائهم؛ فهو صلى الله عليه وسلم صاحب مَهَمَّاتٍ عظيمةٍ، تشغله وتأخذ من وقته الشّيء الكثير، والله سبحانه وتعالى يوجّه عباده إلى امتثال الأدب الكامل مع نبيّه صلى الله عليه وسلم، فهو جلّ وعلا (لا يستحيي من الحق).

قال الشّيخ القشيري عند تفسيرها: "أمرهم بحفظ الأدب في الاستئذان، ومراعاة الوقت، ووجوب الاحترام فإذا أذن لكم فادخلوا على وجه الأدب، وحفظ أحكام تلك الحضرة، وإذا انتهت حوائجكم فاخرجوا، ولا تتعافلوا عنكم، ولا يمنعنكم حسن خلقه من حفظ الأدب، ولا يحملنكم فرط احتشامه على إبرامه... حسن خلقه صلى الله عليه وسلم جرّهم إلى المباشطة معه، حتى أنزل الله هذه الآية"⁽¹⁾.

يُرَبِّي الشّيخ القشيري مريده على أدب دقيق، وهو: لا يحملنك حسن خلق معلّمك وتواضعه لك على تجاوز حدّ الأدب معه، فيجب الحفاظ على حرمة المعلّم والأدب الكامل معه.

والشّيخان الجيلاني والقشيري رحمهما الله لم يتطرّقا إلى مقام الحياء في هذه الآية كما عودانا في جلّ تفسيريهما أن يتناولوا مثل هذه الموضوعات.

وقد أشار الشّيخ عبد القادر الجيلاني إلى خلق الحياء الذي يتناوله المبحث عند تفسيره لسورة الشعراء؛ فعند قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ﴾ [الشعراء:46] قال الشّيخ عبد القادر: "متذلّلين واضعين جباههم على تراب المذلة استحياءً من مقابلة أباطيلهم معه"⁽²⁾.

وعند قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:90] قال "أزلفت الجنة" أي قرّبت (للمتّقين) الذين يتّقون ويحذرون عن محارم الله استحياءً منه، وطلبًا لمرضاته، بحيث يرونها ويسرعون إليها تشوّقًا وتحننًا، وينتظنون أنّهم يدخلون فيها خالدين مؤبّدين"⁽³⁾.

فيشير الشّيخ عبد القادر في الآيتين إلى خلق الحياء الذي يدفع المؤمن لاجتتاب محارم الله، والحرص أن لا يراه الله سبحانه وتعالى إلّا في مرضيه.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 43/3.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 65/4.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 75/4.

أما الشيخ القشيري فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَكِن يُرِيدُ لِيُظَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6] قال الشيخ القشيري: "وكما أنّ للظاهر طهارة فللسرائر أيضاً طهارة، فطهارة الأبدان بماء السماء؛ أي المطر، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل ثم بماء الحياء والوجل"⁽¹⁾.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105] قال: "خوفهم برؤيته سبحانه لأعمالهم، فلما علم أنّ فيهم من تتقاصر حالته عن الاحتشام لأطلاع الحقّ قال: (وَرَسُولُهُ) ثم قال لمن نزلت رتبته: (وَالْمُؤْمِنُونَ). وقد خسر من لا يمنعه الحياء، ولا يردعه الاحتشام، وسقط من عين الله من هتك جلباب الحياء... ومن لم يمنعه الحياء عن تعاطي المكروهات في العاجل سيلقى غب ذلك، وخسرانه عن قريب في الأجل"⁽²⁾.

يبين الشيخ القشيري أنّ الذين يتعاملون مع الله بهذا الخلق العظيم - الحياء - قلة قليلة، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]: "وحياة النفوس بماء السماء من حيث الغذاء، وحياة القلوب بماء الرحمة، وحياة الأسرار بماء التعظيم. وأقوام حياتهم بماء الحياء، وعزيز هم"⁽³⁾.

وشبه الشيخ القشيري خلق الحياء الذي يتحلّى به المؤمن بالماء الذي يطهر القلوب من داء الركون إلى الدنيا ومغرياتها، ومن الغفلة عن الذكر؛ فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: 48] قال: "الطهور هو الطاهر المطهر، وماء الحياء يطهر قلوب العارفين عن الجنوح إلى المساكنات، وما يتداخلها في بعض الأحيان من الغفلات"⁽⁴⁾.

ومن خلال دراسة الآيات السابقة، ومن خلال المبحث كاملاً يتبين ما يلي:

- 1- الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري لم يتطرقا إلى مقام الحياء المعروف عند السادة الصوفية.
- 2- الحياء خلق كريم، لا يأتي إلا بخير، وهو من الإيمان.
- 3- الحياء نوعان: خلقي جبلي، والثاني مكتسب ناتج عن معرفة الله تعالى.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 1/405.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 1/444.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 2/500.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 2/540.

4- قلة الآيات التي تناولت خلق الحياء في القرآن الكريم. ويُرجح الباحث أن سبب ذلك أن الحياء فطرة فطر الله الناس عليها، لا تحتاج إلى كثير بيان، ولأن الحياء يتداخل بشكل كبير مع المراقبة التي تناولها القرآن باستفاضة؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: 14].

5- كثرة الأحاديث الشريفة التي حضت على خلق الحياء؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ»⁽¹⁾.

6- لا ينبغي للحياء أن يمنع الإنسان من طلب العلم؛ فقد مدحت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها نساء الأنصار؛ إذ لم يمنعهن حياؤهن من التّفقه في الدين؛ فقالت: «نِعَمَ النِّسَاءِ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ؛ لَمْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهُنَّ فِي الدِّينِ»⁽²⁾.

7- أصل السادة الصوفية لمقام الحياء من السنة النبوية المطهرة القولية والعملية.

8- يستحضر الباحث حكمة الإمام ابن عطاء الله السكندري: "المؤمن إذا مُدِح استَحْيَى من الله أن يُثْنَى عليه بوصف لا يشهده من نفسه"⁽³⁾؛ فالمؤمن إن مُدِح بما ليس فيه تولّد عنده حياء من ربه؛ إذ ستر عيوبه عن الخلق وأظهر لهم الجميل، وأمّا من يطرب بمديح ما ليس فيه "فهو الفاسق الذي ألقى جلباب الحياء"⁽⁴⁾، فقد توعدّه الله بالعذاب الأليم؛ قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُجِبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 188].

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان، حديث رقم: 37.

(2) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، حديث رقم: 129. وصحيح مسلم، كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم، حديث رقم: 332.

(3) ابن عجيبة، شرح الحكم، ص 285.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 439/3.

المبحث الثامن: الفهم.

إنَّ من أوسع عطايا الله لعبده أن يُكرمه بفهم خطابه، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: 79]، فذكر الله سبحانه وتعالى منته على عبده سليمان عليه السَّلام بتفهمه وتعليمه، وليست العبرة بالعلم وحده؛ فالمعول على الفهم، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»⁽¹⁾.

وقد عرّف الشَّيخ محمّد هاشم البغدادي الفهم، فقال: "الفهم هو: سرعة خاطر تبعث في القلب إدراك معاني الخطاب، من علم، وفقه، وعمل، وينتج عن نفحة إلهية كاملة في الجبلة"⁽²⁾.

قال أبو حمزة الصّوفي⁽³⁾: [من الطويل]

نَهَانِي حَيَائِي مِنْكَ أَنْ أَكْتُمُ الْهَوَىٰ وَأَعْنَيْتَنِي بِالْفَهْمِ مِنْكَ عَنِ الْكُشْفِ⁽⁴⁾

ويلاحظ أنّ الشَّيخ أبا حمزة الصّوفي جمع في هذا البيت بين مقامي الحياء والفهم.

يقول القشيري رحمه الله: "كما أنّ الماء قد يصحبه ما يكدره، ويخلص بعضه مما يشوبه، فكذلك الإيمان وفهم القرآن في قلوب المؤمنين حين تُخلّص من نزغات الشَّيطان، ومن الخواطر الرديّة"⁽⁵⁾.

وقد ذكر حجّة الإسلام موانع لفهم القرآن⁽⁶⁾، وأنّ أكثر النَّاس مُنعوا عن فهم القرآن لأسباب، ملخصها:
1- أن يقف المرء مع مخارج الحروف، فيُشغل بها عن المعنى.

2- تقليد مذهبٍ والجُمُودُ معه، والتَّعَصُّبُ له، كمن يعتقد في الاستواء على العرش: التَّمَكُّنُ، فكيف له أن يصل إلى تنزيه الله عن المكان والجهة؟

3- الإصرار على ذنْبٍ أو كِبْرٍ أو هَوَىٍّ مُطَاعٍ في الدُّنْيَا، فكلّ ذلك يورث صدأ القلب؛ فالقلب مثل المرأة، والشَّهوات مثل الصِّدَأِ، ومعاني القرآن مثل الصّورة التي تتراءى في المرأة، وكلّما خفّ عن القلب

(1) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم رب مبلغ أوعى من سامع، حديث رقم: 66.

(2) البغدادي، محمد هاشم، ت1995م، دستور الولاية، مطبعة النصر، نابلس، ط1، 1407هـ، 176/2، وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: محمد هاشم، دستور الولاية .

(3) هو أبو حمزة، محمد بن إبراهيم البغدادي، الصوفي، شيخ الشيوخ، جالس بشرًا الحافي، وصحب الجنيد، كان بصيرًا في القراءات، وكان كثير الزِّباط والغزو، من كلامه: علامة الصّوفي الصادق: أن يفتقر بعد الغنى، ويذل بعد العزّ، ويخفى بعد الشَّهرة، وعلامة الصّوفي الكاذب أن يستغني بعد الفقر، ويعزّ بعد الدّلّ، ويشتهر بعد الخفاء. ومن كلامه أيضًا: من المحال أن تحبه ثم لا تنكره، وأن تنكره ثم لا يوجدك طعم ذكره، ويشغلك بغيره. توفي سنة 269هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 165/13، وما بعدها.

(4) ذكره ابن الملقّن، طبقات الأولياء، ص 154.

(5) القشيري، لطائف الإشارات، 105/2.

(6) الغزالي، إحياء علوم الدين، 284/1 وما بعدها.

أثقال الدنيا قرب تجلي المعنى فيه.

4- حجاب النقل؛ كمن يعتقد أن لا معنى للقرآن الكريم إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد رحمه الله وغيرهما، وهذا من الحُجُبِ العظيمة.

فبسبب هذه الأربعة وغيرها من الأسباب تفاوت الناس في فهم كتاب الله، جاء في الصحيح عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال: «وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا عِنْدَنَا إِلَّا مَا فِي الْقُرْآنِ، إِلَّا فَهْمًا يُعْطَى رَجُلٌ فِي كِتَابِهِ»⁽¹⁾.

ومن الآيات الكريمة التي تناولت مقام الفهم:

1- قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 269].

وقال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ" أي: سرائر جميع الأعمال المأمورة لعباده (مَنْ يَشَاءُ) بفضله وجوده (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ) من العباد (فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) لا يحيط بكثرته إلا هو (وَمَا يَذَّكَّرُ) أي: ما يتعظ ويتذكر بهذه الآية (إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) الواصلون إلى لب الأمور، المائلون عن قشورها المتجهون إلى الله بالعزائم الصحيحة، المعرضون عن الرخص المؤدية إلى الجرائم⁽²⁾⁽³⁾.

يُسَيِّرُ الشَّيْخُ الْجِيلَانِي الحِكمة بمعرفة أسرار الأعمال التي أمر الله بها عباده من صلاة وصوم وزكاة، ولا يفهم ذلك إلا الذين يغوصون إلى لب الأمور، ولا يرضون بالقشور، أصحاب العزائم.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الحكمة: يحكم عليكم خاطر الحق لا داعي النفس، وتحكم عليكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان. ويقال: الحكمة صواب الأمور. ويقال: هي ألا تحكم عليك رعونات البشرية. ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره. ويقال: الحكمة موافقة أمر الله تعالى، والسَّفه مخالفة أمره. ويقال: الحكمة شهود الحق، والسَّفه شهود الغير"⁽⁴⁾.

يقول الشيخ القشيري إن من يؤتى الحكمة هو الذي اختار حكم الحق على اختيار نفسه، ورضي بحكم الله ونبذ حكم الشيطان.

2- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿١٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿١٧﴾ يَفْقَهُوا

(1) صحيح البخاري، كتاب الذيات، باب العاقلة، حديث رقم 6903.

(2) كشرب الخمر عند الضرورة.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 229/1.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 125/1.

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "وبعدما سمع موسى خطاب الله إياه (قَالَ) مشمّر الذيل إلى الذهاب طالباً التوفيق من ربّ الأرباب: (رَبِّ) يا من ربّاني بأنواع اللطف والكرم، وأعطاني الآيتين الكريمتين العظيمتين؛ لتكونا شاهدين على صدقي في دعواي، (أَشْرَحَ لِي صَدْرِي) أي: وسّع لبي؛ بحيث لا يخطر ببالي خوفٌ من العدو أصلاً. (وَ) مع ذلك (بَيَّنَّ) وسهّل (لِي أَمْرِي) هذا؛ بحيث لا أضطرب في تبليغي، ولا أستوحش من جاه فرعون وشوكته. (وَ) إذا شرعنا لأداء الرسالة (أَخْلَلْ) وارفع لكنةً عارضةً من مهابة العدو، سيّما هذا الطّاعي (عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي) كي (يَفْقَهُوا قَوْلِي) وغرضي منها"⁽¹⁾.
يفسر الشيخ الجيلاني دعوة سيّدنا موسى على نبيّنا وعليه السّلام الذي طلب فيها من الله أن يحلّ عقدة لسانه، لكي يفهم المدعوون قوله، وتصل دعوته إليهم على الوجه الأكمل؛ فعبر عن الفهم بالفقه.

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) : حتّى أطيع أن أسمع كلام غيرك بعدما سمعت منك. (وَإِخْلَلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي) حتّى ينطلق بمخاطبة غيرك، وقوّني حتّى أردد ما أرد، بك لا بي"⁽²⁾.

يسترعي الشّيخ القشيري انتباهنا إلى أنّ سيّدنا موسى على نبيّنا وعليه السّلام برئ من حوله وقوّته، وطلب من الله العون الكامل؛ لكي يواجه بالله كلّ ما يعرض له من عوائق.

3- قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: 79].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(فَفَهَّمْنَاهَا) أي: ألهمنا الحكومة الحقّة والفتوى في هذه القضية (سُلَيْمَانَ) وهو ابن إحدى عشرة سنة، فقال: الأرفق أن يُدفع الغنم إلى أصحاب الحرث؛ لينتفعوا من ألبانها وأصوافها، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم بسقيها وحفظها ورعايتها، حتى يعود إلى الذي كان، ثم يترادان ويتدافعان، فقال داود لسليمان: القضاء ما قضيت، فرجع عن حكمه، وحكّم بحكم ابنه"⁽³⁾.
يقول الشّيخ عبد القادر أنّ التّفهيم لسيدنا سليمان، على نبيّنا وعليه السّلام، كان عن طريق الإلهام، فألهمه الله تعالى الحكم الحقّ لهذه المسألة. والإلهام هو: "ما يُلقى في الرّوع بطريق الفيض، وهو مقام

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 286/3 وما بعدها.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 258/2 وما بعدها.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 362/3 وما بعدها.

المُحدِّثين (1)(2).

قال الشَّيْخُ القشيري عند تفسيرها: "أشركهم في حكم النبوة وإن كان بين درجتيهما تفاوت، ففي مسألة واحدة أثبت لسليمان عليه السلام بها خصوصية؛ إذ منّ عليه بقوله: (فَقَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) ولم يمنّ عليه بشيء من الملك الذي أعطاه بمثل ما منّ عليه بذلك، وفي هذه المسألة دلالة على تصويب المجتهدين⁽³⁾ وإن اختلفوا، إذا كان اختلافهم في فروع الدين"⁽⁴⁾.

فالشَّيْخُ القشيري رحمه الله يعتبر أنّ نعمة التّفهيم من الله تعالى لسيدنا سليمان على نبينا وعليه السّلام هي أعظم من نعمة الملك التي لم ينل مثلها أحد بعده، وإذا أراد الله سبحانه أن يُفهم عبده فهم، ولو حال دونه العلوم المعقّدة المستعصية.

وقد انفرد الشَّيْخُ الجيلاني عن القشيري في تفسيره لبعض الآيات في مقام الفهم في عدة آيات، هي:

1- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 243]

قال الشَّيْخُ الجيلاني عند تفسيرها: "(إِنَّ اللَّهَ) المتكفل لأمر عباده (لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ) النَّاسِ منزلهم الأصلي ومقصدهم الحقيقي بإيصالهم إلى ما هم عليه قبل نزولهم إلى فضاء الإمكان (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) ولا يعقلون ولا يفهمون نعمة الوصول إلى الموطن الأصلي والمقام الحقيقي حتى يقوموا بشكره ويواظبوا عليه"⁽⁵⁾.

يربط الشَّيْخُ الجيلاني بين الشكر والفهم، فمن لا يفهم النعمة على حقيقتها لا يشكر الله؛ فبقدر فهمك لدقائق هذه النعمة يكون استشارك للمنة فيها.

2- قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمِيئُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ

(1) المحدثون، جمع مُحدِّث، واختلف في تأويله. فقيل: مُلْهَم، قاله الأكثر. وقالوا المحدث هو الرجل الصادق الظن، وهو من ألقى في روعه شيء من قبل الملائة الأعلى، فيكون كالذي حدّثه غيره به. ابن حجر، فتح الباري، 50/7.

(2) ابن القيم، مدارج السالكين، 68/1.

(3) اختلف العلماء في تصويب المجتهدين في الفروع والأصول، وهي مسألة أصولية كلامية، عرفت في تراثنا الإسلامي بمسألة (التصويب)، وذهب جة الإسلام الغزالي إلى أن التصويب في الفروع مسألة قطعية، فقال في المستصفي: (والمختار عندنا وهو الذي نقطع به ونخطئ المخالف فيه أن كلّ مجتهد في الظنات مصيب"، الغزالي، محمد بن محمد الطوسي، ت 505هـ، المستصفي، تحقيق: محمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ/1993م، ص 352.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 298/2.

(5) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 205/1.

إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾
[يوسف:40].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ) لكتافة حجبهم وغلظ أعطيتهم وأغشيتهم (لَا يَعْلَمُونَ) ولا يفهمون سرّ سريان الوحدة في الكثرة، فحُجِّبوا بالمظاهر المتكثرة عن الوحدة الظاهرة فانصرفوا عن طريق الحق إلى الباطل"⁽¹⁾.

في إطار دعوة سيدنا يوسف عليه السلام لصاحبيه إلى دين الله الواحد القهار يبين لهما أنّ كلّ الموجودات هي في حقيقتها من موجد واحد، قهار لكلّ خلقه؛ فالمؤمن الحق لا يُحجب بالخلق عن مشاهدة الخالق، ولا يحجب بالنعمة عن مشاهدة المنعم. وهذا هو عين الفهم والفقّه.

3- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾
[النحل:108].

قال الشيخ عبد القادر عند تفسيرها: "أُولَئِكَ) المَجْبُولُونَ على الكفر هم (الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ) وختم (عَلَى قُلُوبِهِمْ) إلى حيث لا يفهمون، ولا يتفطنون بسرّ الإيمان والتوحيد أصلاً، ولا يتلذذون بآثارها؛ لغلظ حجبهم وكتافتها (وَ) على (سَمِعِهِمْ) إلى حيث لا يسمعون، ولا يبلون دلائل التوحيد وأماراتها من أرباب الكشف واليقين (وَ) على (أَبْصَرِهِمْ) إلى حيث لا ينظرون نظر عبّرة وبصارة إلى المظاهر والآثار المترتبة على الأوصاف الذاتية الإلهية (وَ) بالجملة: (أُولَئِكَ) البعداء المطرودون عن عزّ الحضور (هُمُ الْعَافِلُونَ) المقصرون على الغفلة والنسيان، التائهون في تيه الضلال والطغيان"⁽²⁾.

يقول الشيخ إنّ مَنْ طَبَعَ على قلبه حُرْم الفهم عن الله؛ لكتافة الرّان على قلوبهم، فلا يرون بنور الله فاستحقوا الطرد والإبعاد، والعياذ بالله.

4- قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص: 71]

يقول الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "أَفَلَا تَسْمَعُونَ) أمثال هذه التذكيرات ولا تفهمون معناها، ولا تستكشفون عن الحكم والمصالح المدرجة فيها أيها المَجْبُولُونَ على الفهم والاستكشاف؟!"⁽³⁾.

الفهم عن الله تعالى فطرة أودعها الله في بني البشر، وكذلك حبّ الاستكشاف، فتري الطّفل الرّضيع ما

(1) الجيلاني تفسير الجيلاني، 451/2.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 88/3.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 197/4.

إن يجبو حتى يبدأ باستكشاف كل ما حوله، تارة بلمسه، وأخرى بشمّه وتدوّقه، ولا يملّ ولا يتعب من ذلك أبداً.

5- ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر: 49]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ) ابتلاء منّا إياه، واختبار لننظر أيشكر أم يكفر؟ (وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ولا يفهمون فتنتنا واختبارنا، لذلك ينهمكون في بحر الكفران والطغيان" (1).
يقول الشيخ الجيلاني أنه لا بدّ للمؤمن في حال البلاء أن يتفكّر في مراد الله منه، فالله حين يبثلي المؤمن ببثليته لحكمة، متى فهمها الإنسان تحول البلاء إلى نعمة؛ وفي الحكّم " متى فتح لك باب الفهم في المنع صار المنع عين العطاء" (2).

6- قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: 29]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (فَلَمَّا حَضَرُوهُ) أي: القرآن وسمعوه، تعجّبوا من حسن نظمه واتساقه، وكمال بلاغته وفصاحته (قَالُوا) أي: بعضهم لبعض: (أَنصِتُوا) ولا تخالطوا أصواتكم حتى نسمع على وجهه؛ إذ هو كلام عجيب في أعلى مرتبة البلاغة (فَلَمَّا قُضِيَ) وتمّ قراءته وفهموا معناه وفحواه (وَلَّوْا) ورجعوا (إِلَىٰ قَوْمِهِمْ) حال كونهم (مُنذِرِينَ) بما يفهمون منه من الإنذارات والوعيدات القوم الذين بلغوا حدّ التكليف من إخوانهم يندرونهم بها عن الضلال والانحراف عن طريق الحق" (3).

أثنى الله سبحانه وتعالى على تصرف الجنّ إذ حثّوا بعضهم بعضاً على الإنصات حرصاً منهم أن لا يفوتهم دقيقة فهم، فالذي يستمع بقلبه تحضره الإلهامات الربّانية؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: 37].

7- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحجرات: 4].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (إِنَّ) المسرفين المسيئين (الَّذِينَ يُنَادُونَكَ) يا أكمل الرّسل (من وراء

(1) الجيلاني تفسير الجيلاني، 127/5.

(2) ابن عجيبة، شرح الحكم، ص 183.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 334/5.

أَلْحُرَّاتِ) حين كنت مستريحاً في خلوتك، فارغاً همك عن مقتضيات النبوة، متوجّهاً إلى ربك حسب ولايتك (أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) ولا يفهمون منزلتك عند ربك، ولا يتقنّون بخلوتك معه واستغراقك بمطالعة وجهه الكريم؛ إذ لو كان لهم عقل يوقظهم من مقام الغفلة ويرشدهم إلى مراعاة الأدب معك يا أكمل الرّسل⁽¹⁾.

يقول الشيخ الجيلاني: إنّ فهم مقام النبوة الشّريف يقود إلى الأدب الكامل مع الحضرة النبويّة؛ فلو أنّهم فهموا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم له ساعة مع ربّه، لا يسعه فيها غيره، لوقفوا عند حدود الأدب، ولتورّعوا عن نداء النبيّ، ولصبروا لحين خروجه لهم وإقباله عليهم صلى الله عليه وسلم.

وانفرد الشيخ القشيري عن الشيخ الجيلاني في تفسيره لبعض الآيات في مقام الفهم في عدة آيات، هي:
1- قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:124].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الإمام من يُقْتَدَى به، وقد حُقِّق له هذا حتى خاطب جميع الخلائق إلى يوم القيامة بالاعتداء به، فقال: (ملة أبيكم إبراهيم)؛ أي اتبعوا ملة إبراهيم يعني التوحيد، وقال: (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى) هذا هو تحقيق الإمامة. ورتبة الإمامة أن يفهم عن الحقّ ثم يفهم الخلق؛ فيكون واسطة بين الحقّ والخلق، يكون بظاهره مع الخلق لا يفتر عن تبليغ الرسالة، وبباطنه مشاهداً للحقّ، لا يتغير له صفاء الحالة، ويقول للخلق ما يقوله له الحقّ"⁽²⁾.

يقول الشيخ القشيري رحمه الله إن الإمام يفهم عن الله، ثم ينطلق إلى الأخذ بأيدي الناس إلى الله، فيفهمهم مراده منهم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:44]. وكذلك كلّ داعية إلى الله على بصيرة. يفهم الناس ما يفهمه عن الحقّ، وأمّا الذين يتفقهون في الدّين فهم الداعون إلى الله، وإنما يفهم الخلق عن الله من كان يفهم عن الله"⁽³⁾.

2- قال تعالى: ﴿وَالرَّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِء كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إل عمران: 7].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السّمع بحضور القلب، فما سنع لفهومهم من لائح التعريفات بنوا عليه إشارات الكشف، إن طولبوا باستدامة السّتر وطّي السّر تخارسوا

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 381/5.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 66/1 وما بعدها.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 453/1.

عن النطق، وإن أمروا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق، ونطقوا عن تعريفات الغيبة، فأما الذين أيدوا بأنوار البصائر فمستضيئون بشعاع شمس الفهم، وأما الذين ألبسوا غطاء الريب، وحرمو لطائف التحقيق، فتقسم بهم الأحوال وتترجم بهم الظنون، ويطيحون في أودية الريب والتلبيس، فلا يزدادون إلا جهلاً على جهل، ونفوراً على شك⁽¹⁾.

يقول الشيخ القشيري رحمه الله: ليس كل ما يفهم يقال، فكما وجَّهنا سيِّدنا علي رضي الله عنه، (حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟)⁽²⁾، وليس هذا فحسب؛ بل هم يمتثلون الأمر؛ إن أُذِنَ لهم بالتصريح صرَّحوا، أو بالكتمان كتَموا، وحافظوا على سرِّ الحبيب.

3- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَصَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:179].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أي لا يفقهون معاني الخطاب كما يفهم المحدثون ، وليس لهم تمييز بين خواطر الحق وبين هواجس النفس ووساوس الشيطان، ولهم أعين لا يبصرون بها شواهد التوحيد وعلامات اليقين فلا ينظرون إلا من حيث الغفلة، ولا يسمعون إلا دواعي الفتنة، ولا ينخرطون إلا مع سلك ركوب الشهوة"⁽³⁾.

يبين الشيخ القشيري أن الله سبحانه وتعالى عبادة يُحدِّثهم الله في بواطنهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيما مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَّمِ مُحَدِّثُونَ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمُرُ بِنِ الخَطَابِ»⁽⁴⁾، فهم يُكرمون من الله بالتفهيم، ثم يقومون بدورهم بتعليم النَّاس ما علَّمهم الله.

4- قال تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ [يوسف:1].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "ويقال وقفت فهوم الخلق عن الوقوف على أسراره فيما خاطب به حبيبه صلى الله عليه وسلم ، فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة، ولكنه أفرد الحبيب بفهمه، فهو سرَّ الحبيب صلى الله عليه وسلم بحيث لا يطلع عليه الرقيب.

جاء الختام في هذا المبحث مسكاً؛ إذ جاء الحديث عن فهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لخطاب

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 1/133.

(2) صحيح البخاري، كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، حديث رقم: 127.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 1/369.

(4) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حدثنا أبو اليمان، حديث رقم: 3469.

الله له، فكلّ الفهوم دون فهمه صلى الله عليه وسلم عاجزة قاصرة، قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أُنْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا»⁽¹⁾، فَلِإِنَّهُ صلى الله عليه وسلم أَعْلَمُنَا بِاللَّهِ، كَانَ فَهْمُهُ عَنِ اللَّهِ أَرْقَى، وَإِيمَانُهُ بِهِ أُنْقَى.

5- قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِ اللَّهَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:61].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "السنة المرادين مقرّ ذكره، وأسماعهم محلّ الإدراك الموصل إلى الفهم، والعيون مقرّ الاعتبار"⁽²⁾.

قصد الشيخ القشيري في عبارته مسامع القلب، وليست جارحة الأذن، فمن كان له قلب واعٍ فهم عن الله مراده، ﴿وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَعَيْةٌ﴾ [الحاقة:12].

6- قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:7].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الخطاب للكلّ والمراد منه الأمة، وأهل الذّكر العلماء من أكابر هذه الأمة والذين آمنوا بنبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويُقال هم أهل الفهم من الله، أصحاب الإلهام، الذين في محلّ الإعلام من الحقّ سبحانه، أو من يحسن الإفهام عن الحقّ"⁽³⁾.
يفسر الشيخ القشيري رحمه الله أهل الذّكر في هذه الآية بالعلماء الكبار من أمة سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهم أهل الفهم عن الله.

7- قال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي خَلْقِ﴾ [فاطر:1]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "... قيل الفهم عن الله"⁽⁴⁾.
يقول الشيخ إنّ النَّاسَ متفاوتون في فهمهم عن الله تعالى، فإن كان النّبِيَّانَ الكريمان داود وسليمان على نبينا وعليهما الصّلاة والسّلام قد فضّل الابنُ على الوالد في فهم مسألة، فما بالك بغيرهما من بني البشر!

8- قال تعالى: ﴿لَا يَمْسُهُو إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:79].

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم أنا أعلمكم بالله، حديث رقم: 20.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 423/2.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 287/2.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 59/3.

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "... ويقال: لا يفهم لطائفه إلا من طهر سره عن الكون"⁽¹⁾. جعل الشيخ القشيري رحمه الله طهارة القلب شرطاً للفهم عن الله، فمن صقل مرآة قلبه انعكست فيه صور المعرفة عن الله واضحة جلية.

ومن خلال دراسة الآيات السابقة في مقام الفهم، يتبين ما يلي:

- 1- اتفق الشيخان على أنّ الفهم خصوصية يمنّ الله تعالى بها على من شاء من عباده. فالمفهم هو الله تعالى، فمن أكرم بالفهم فقد أوتي خيراً كثيراً؛ بل هو أعظم الخير.
- 2- يقول الشيخ الجيلاني أنّ الفهم عن الله فطرة فطر الله الناس عليها.
- 3- يعتبر الشيخ القشيري أنّ مرتبة الإمامة لا ينالها إلا من يفهم عن الحق، ليقوم بدوره بتفهم الخلق.
- 4- يتفق الشيخان على أنّ من طهر قلبه عن الكون سطعت له أنوار الفهم عن الله.
- 5- يحول بين المرء وفهم كتاب الله حواجز؛ منها: حجاب النّقل، والتّركيز على التّجويد ومخارج الحروف دون المعنى، والعقيدة الفاسدة.
- 6- جاء لفظ الفهم في كتاب الله يتيمًا في آية واحدة فقط وهي: ﴿فَفَهَّمَهَا سُلَيْمَنَ﴾ [الأنبياء: 79]. وعُبر عنه بألفاظ أخرى، كالفقه والحكمة.
- 7- المُحدّثون يفهمون عن الله ثم يفهمون النّاس على قدر عقولهم.
- 8- الفهم من أهمّ صفات أهل الذّكر، إذ أحال الله السؤال عليهم. ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: 7].
- 9- لا يشكر الله حق شكره إلا من أكرم بالفهم، فعلى قدر الفهم لدقائق النعم يكون الشّكر.
- 10- الفهم يقود للأدب مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومقام الأدب ستتناوله الدّراسة في المبحث التّالي.
- 11- النّاس يتفاوتون في الفهم؛ فعلى قدر طهارة القلب يكون الفهم.
- 12- أكمل الأفهام على الإطلاق فهم النّبّي صلى الله عليه وسلم؛ إذ هو الأعمّ بالله تعالى.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 280/3.

وفي أثناء إعداد هذا المبحث خطرت للباحث خواطر؛ وهي:

1- ما من مؤمن إلا وله فَهْمٌ في كتاب الله، مهما قَصُرَ هذا الْفَهْمُ، فحاشا الإله الكريم أن يخاطب الناس بخطاب لا يفهمونه.

2- الاختبار بالشُّكر أصعب من الاختبار بالصَّبر؛ لأنَّ النعمة تَحْجُبُ المرء عن المنعم.

3- إذا طهر القلب من الرُّكُونِ إلى غير الله، أصبح مهبطاً لأنوار الفهم، والإلهامات الرِّبَانِيَّةِ.

المبحث التاسع: الأدب.

دأب المسلمون منذ فجر الإسلام على تأديب أولادهم على الخلق النبوي المحمدي، لأنه أكمل الأخلاق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:4]، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَا رَسُولَ اللَّهِ تُؤْفَىٰ وَالِدِي أَوْ اسْتُشْهِدَ وَلِي أَخَوَاتٍ صِغَارًا فَكْرِهْتُ أَنْ أَتَرَوَّجَ مِثْلَهُنَّ فَلَا تُؤَدَّبُهُنَّ وَلَا تَعُومَ عَلَيْهِنَّ فَتَرَوَّجْتُ نَيْبًا لِنَعُومٍ عَلَيْهِنَّ وَتُؤَدَّبُهُنَّ»⁽¹⁾.

والخلق الحسن هو ميزان الخيرية في هذه الأمة؛ فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَحْلَاقًا»⁽²⁾، وقد حصّ الإسلام على تأديب الأولاد، والعناية بأخلاقهم، قال صلى الله عليه وسلم: «لَأَنْ يُؤَدَّبَ الرَّجُلُ وَلَدَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَّصِقَ بِصَاحٍ»⁽³⁾.

فكما يربّ الوالد ولده على رفيع الآداب، فكذلك العلماء والشيوخ؛ يربّون المرید على أرفع الآداب مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأجلّها.

وحقيقة الأدب: "اجتماع خصال الخير؛ فالأديب هو: الذي اجتمعت فيه خصال الخير، ومنه المأدبة للمجمع"⁽⁴⁾. ولأهمية الأدب في السلوك، قال أبو عليّ الدقاق: "العبد يصل بطاعته إلى الجنة، وبأدبه إلى الله"⁽⁵⁾.

ويكثر الشيخ القشيري في رسالته في باب الأدب من النقل عن شيخه بشكل ملحوظ؛ وهذا إن دلّ على شيء دلّ على تأثر الشيخ القشيري بأدب مربّيه. ومن ذلك قوله: "سمعتُ الأستاذ أبا عليّ يقول: ترك الأدب يوجب الطرد، فمن أساء الأدب على البساط ردّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب، ردّ إلى سياسة الدواب"⁽⁶⁾.

وحكى الإمام القشيري عن شيخه الدقاق أدباً عظيماً يصعب الاقتداء به، عايشه من شيخه عن قرب؛ وهو أنّ الشيخ الدقاق لم يكن يستند إلى شيء في مجلسه. وهذا والله أعلم مراقبته لله، وهيبته منه سبحانه، والجلوس بالأدب الكامل مع الله. "وكان الأستاذ أبو علي رحمه الله تعالى لا يستند إلى شيء وكان يوماً في مجمع فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره؛ لأنّي رأيتّه غير مستند، فتنحى عن الوسادة

(1) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير باب استئذان الرجل الإمام، حديث رقم: 2967.

(2) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل، حديث رقم: 6035. وصحيح

مسلم، كتاب الفضائل، باب كثرة حياته صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: 2321.

(3) سنن الترمذي، أبواب البر والصلة باب ما جاء في أدب الولد، حديث رقم: 1951. وقال: حديث غريب.

(4) القشيري، الرسالة القشيرية، 445/2.

(5) القشيري، الرسالة القشيرية، 445/2.

(6) القشيري، الرسالة القشيرية، 446/2.

قليلاً، فتوهمت أنه توقى الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة، فقال: لا أريد الاستناد، فتأملت بعده حاله فكان لا يستند إلى شيء⁽¹⁾.

والشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله في كتابه (الغنية) يركّز كثيراً على الآداب، فيذكر مثلاً⁽²⁾ فصلاً في آداب العشرة، وفصلاً في آدابهم مع الأهل والولد، وفصلاً في آدابهم في السفر، وفصلاً في آدابهم في السماع.

ويذكر كلاماً دقيقاً في الأدب، فيقول: "حسن الأدب يكون في أداء الأمر، والانتهاه عن النهي، والرّضا بجريان المقدر، في النفس، والمال، والأهل، والولد، والخلائق أجمعين"⁽³⁾.

ويرى الباحث أن أجمع الآداب التي ذكرها الشيخ عبد القادر أدب الفقير مع الغني، ومع الله على وجه الخصوص، فقال: "وأدب الفقير إخراج الغني من قلبه، ويكون قلبه فارغاً من الغني وماله؛ بل من الدنيا والآخرة أجمع، ولا يجعل لشيء من الأشياء في قلبه موطنًا ومحلًا ومدخلًا؛ بل يتصقّى من ذلك كلّه، ويخلو منه، ثم يترقّب امتلاءه بربه عزّ وجلّ، فلا يكون لغيره وجود، ولا له حول ولا قوّة، فيأتيه عند ذلك فضل الله عزّ وجلّ، فحينئذ يحصل الغنى به عزّ وجلّ من غير تعبٍ ولا همّ"⁽⁴⁾.

والقوم في أدب المحبّ على مذهبين: فالشيخ الدقاق رحمه الله يرى ملازمة الأدب على الدوام للمحبّ، أمّا الجنيد رحمه الله فيرى سقوط شروط الأدب للمحبّ، قال الجنيد: "إذا صحّت المحبة سقطت شروط الأدب"⁽⁵⁾. فالإمام الجنيد رحمه الله يرى أن المحبة تورث صاحبها حالة قلبية، تجعله يسقط بعض الآداب في الظاهر، لكنّ باطنه عامرٌ بالحبّ الصادق لسيّده.

ومن الأمثلة على آداب الأنبياء عليهم السّلام في معاملة الله عزّ وجلّ:

1- سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم في رحلة المعراج؛ عندما راجع الله في عدد الصلوات، حتى وصلت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة استحيا أن يراجع الله سبحانه وتعالى بعدها، أدباً وتعظيماً وحياءً.

2- سيّدنا عيسى على نبينا وعليه السّلام عندما خاطب الله تعالى قائلاً: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]. فلم يقل عليه السّلام اغفر لهم مباشرة؛ بل أشار إلى ذلك إشارة؛ أدباً مع الحقّ.

(1) القشيري، الرسالة القشيرية، 446/2.

(2) الجيلاني، الغنية، 294/2.

(3) الجيلاني، الغنية، 197/1.

(4) الجيلاني، الغنية، 288/2.

(5) القشيري، الرسالة القشيرية، 448/2.

3- سَيِّدَنَا أَيُّوبَ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا دَعَا اللَّهَ ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَآتَى مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [الأنبياء: 83]. لم يقل (إني مسني الضر فارحمني)، أدباً مع الله، وخوفاً من وجود اختيار منه على اختيار الله.

يقول ابن عطاء الله السكندري: "ربما دلهم الأدب على ترك الطلب؛ اعتماداً على قسمته، واشتغالاً بذكره عن مسألته"⁽¹⁾.

والإنسان إذا داوم الأدب مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وخلقه، أصبح ذلك سجيّة عنده لا تكلف فيها، يقول ابن القيم: "أته يفنى عن مشاهدة الأدب بالكلية، لاستغراقه في شهود الحقيقة في حضرة الجمع التي غيبته عن الأدب. ففناؤه عن الأدب فيها: هو الأدب حقيقة، فيستريح حينئذ من كلفة حمل أعباء الأدب وأثقاله؛ لأنّ استغراقه في شهود الحقيقة لم يبق عليه شيئاً من أعباء الأدب"⁽²⁾.

والقرآن الكريم مليء بالآداب التي وجّه الله سبحانه بها عباده للكمال الخلقي والديني. وقد حاول الباحث التركيز على آيات الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأهميتها إذ تناولت مقام النبوة المحمدية. ومن هذه الآيات:

1- قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "كان فيه من إبهام سوء الأدب، وإن كان غرضهم الترقّب والالتفات، أشار سبحانه إلى نهيمهم عن هذا القول؛ رعايةً لمرتبة حبيبه صلى الله عليه وسلم وتأديباً للمؤمنين فقال: (يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا) مع نبيكم عند الخطاب له (رَاعِنَا) وإن كان مقصودكم صحيحاً، لكنّ العبارة توهم للمعنى الباطل؛ بل الأولى لكم، والأليق بحالكم أن تخاطبوا رسولكم إكراماً له وتعظيماً، (وَ) إن اضطررتم إلى الخطاب (قُولُوا) بدله (أَنْظِرْنَا) بنظر الرحمة والشفقة، (وَاسْمَعُوا) هذا القول بسمع الرضا والقبول وحافظوا عليه؛ لئلا تسيئوا الأدب معه، (وَ) اعلموا أن (لِلْكَافِرِينَ) المغتتمين للفرصة في أمثال هذه الكلمات (عَذَابٌ أَلِيمٌ) لهم في الدنيا والآخرة"⁽³⁾.

يقول الجيلاني: من كمال عناية الله تعالى بعباده أن وجههم إلى تجنّب الألفاظ التي قد تحمل معنيين، أحدهما مغلّب بالأدب، وفي هذا أدب كامل مع النبي صلى الله عليه وسلم.

(1) ابن عجيبة، شرح الحكم، ص 328.

(2) ابن القيم، مدارج السالكين، 373/2.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 109/1.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "قصود الأعداء في جميع أحوالهم - من أعمالهم وأقوالهم - قصود خبيثة فهم - على مناهجهم - يبنون فيما يأتون ويذرون. فسبيل الأولياء التّحرّز عن مشابهتهم، والأخذ في طريق غير طريقهم" (1).

يقول الإمام القشيري إنّ مخالفة العدو واجبة، ﴿غَيْرِ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: 7)، فأولياء الله يتحرّزون من مشابهتهم.

2- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: 62).

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "ثم أشار سبحانه إلى محافظة الآداب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورعاية حقوقه، وكمال الإطاعة والانقياد إليه؛ فقال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ) الموحدون الكاملون، المنكشفون بسرائر التوحيد الذاتي، هم (الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ) الجامع لجميع الأسماء والصفات المنسوبة إلى الذات الأحديّة، (وَرَسُولِهِ) الجامع لجميع مراتب المظاهر والمصنوعات، لا يخرج عن حَيْطَة مرتبته الجامعة الكاملة مرتبة من المراتب أصلاً، (وَ) بعدما عُرِّفتم جمعيتهم (إِذَا كَانُوا) مجتمعين (مَعَهُ) صلى الله عليه وسلم (عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ) أي: أمرٍ مشروطٍ حصوله بالاجتماع والاقترام كالزحف والجهاد والجمع والأعياد، (لَّمْ يَذْهَبُوا) ولم ينصرفوا من عنده صلى الله عليه وسلم ، (حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ) بالانفصاف والانصراف، وإن كنتم مضطرين إلى الإياب والذهاب. ثم كرّر سبحانه أمر الاستئذان على وجه أبلغ؛ تأكيداً ومبالغة؛ فقال مخاطباً لحبيبه صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ) في الذهاب والانصراف محافظة على الأدب (أُولَٰئِكَ) السعداء المستأذنون هم (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ) حقاً (بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) ويراعون الأدب معهما من صفاء بواطنهم وخلوص طويّاتهم، (فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ) يا أكمل الرّسل بعد اضطرارهم (لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ) وأمرهم المتعلق بمعاشهم (فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ) أي: أنت مُخَيَّرٌ في إذْنهم بعد اضطرارهم (وَ) بعدما أذنت لهم (اسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ) من ذنبهم الذي اختاروا من أمر الدنيا على أمر العقبي، واستأذنوا له واهتموا لشأنه (إِنَّ اللَّهَ) المطلع لاستعدادات عباده، (غَفُورٌ) يغفر لهم أمثال هذه الفرطات الاضطرارية، (رَّحِيمٌ) مشفق حينئذٍ عليهم بعدما ندموا في نفوسهم" (2).

يقول الشيخ عبد القادر إنّ المؤمنَ الكاملَ يعلم مقامَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، ويعرف جمعيتهم مع الله، فهو أولى مَنْ يعلمُ حقَّ لزومِ الأدب مع الجناب الشّريف، فإذا كان مع النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 60/1.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 514/3 وما بعدها.

لم يحب أن يتركه، أو أن يقوم من مجلسه، ولا يؤثر شيئاً من حظوظه على الظفر بمجالسة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعين له ذلك، ولا يخطر بباله، إلا إن واجهه ضروري من واجبات في رقبته، لا يستطيع غيره أن يؤديها عنه، فلا يقوم ولا يغادر مجلس النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن يستأذن منه، فإن أذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمغادرة، فذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم رأى أن هناك مصلحة له للمغادرة، والقيام على شأنه، ومباشرة بنفسه، وإن لم يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هذا مراده؛ لأنه أكرم بالمقام مع رسول الله، ولأنه يعلم أنه بدعوة من النبي تفضى حوائجها، فيجلس وهو فارغ القلب من الدنيا غير ملتفت. فيخبرنا الله سبحانه وتعالى أن من هذا حاله فلا يقوم حتى يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم هو المؤمن الحق؛ إذ وثقوا بالله ولياً ناصرًا ومعينًا ومؤيدًا لهم، ورسول الله هاديًا مؤتمنًا على أنفسهم وأهلهم.

ويظهر للباحث والله أعلم أن الله سبحانه وتعالى يوجهنا إلى تقديم المكوث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعدم الذهاب؛ إذ كشف لنا في هذه الآية أمره لنبيه بالاستغفار لمن قام، على الرغم من إذن النبي لهم بالقيام، فمراد الله من المؤمنين في كل زمان ومكان تقديم أمر الله ورسوله على كل شيء.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "شرط الاتباع موافقة المتبوع، وألا يتفرقوا فيصيروا أحزابا كما قال: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) و«إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»⁽¹⁾، والمريدون لشيخهم كالأمّة لنبيهم؛ فشرط المريد ألا يتنفس بنفس إلا بإذن شيخه⁽²⁾، ومن خالف شيخه في نفس - سرًا أو جهرا - فإنه يرى غبه سريعًا في غير ما يحبه. ومخالفة الشيوخ فيما يستسرونه عنهم أشد مما يظهر بالجهر بكثير؛ لأن هذا يلحق بالخيانة. ومن خالف شيخه لا يشم رائحة الصدق، فإن بدر منه شيء من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والإفصاح عما حصل منه من المخالفة والخيانة؛ ليهديه شيخه إلى ما فيه كفارة جرمه، ويلتزم في الغرامة بما يحكم به عليه. وإذا رجع المريد إلى شيخه بالصدق وجب على شيخه جبران تقصيره بهمة؛ فإن المريدين عيال على الشيوخ فرض عليهم أن ينفقوا عليهم من قوة أحوالهم بما يكون جبرانًا لتقصيرهم"⁽³⁾.

(1) سنن الترمذي، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم: 2682. ومسنده أحمد، تنقيح

مسند الأنصار، حديث أبي الدرداء، حديث رقم: 21714. قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حسن بشواهد.

(2) يُحمل كلام الشيخ القشيري على بداية سلوك المريد؛ لأنه يكون كالمرضى الذي هو بأمر الحاجة للطبيب الحاذق، لينجو من مرضه العضال. وتحامل البعض على السادة الصوفية لقول بعضهم: (المريد كالميت في يد الغاسل) وهم ما عنوا إلا هذه الحالة التي يكون فيها المرض قد تمكّن من قلب المريد، فيسلم لشيخه فيما ينصحه به من علاج، ثم إن من نافلة القول: أن لا طاعة إلا فيما يرضى الله ورسوله.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 2/375.

يفيض علينا الإمام القشيري في هذه الآية من بحر علمه اللدني، فيقول: إن هذه الآداب مع النبي صلى الله عليه وسلم يجب أن تُراعى أيضاً مع ورثة النبي صلى الله عليه وسلم؛ الذين هم العلماء، والشَّيخ المربِّي الذي يأخذ بيد المريدين إلى الله منهم. فيحذِرُ الشَّيخُ القشيريُّ المريدَ من عصيان شيخه أو مخالفة أوامره التَّربويَّة.

وينبهنَّا الشَّيخُ القشيريُّ إلى رَحْمَةِ الشَّيخِ بالمريد؛ كيف لا وهو وارثُ الأخلاقِ المحمديَّة؛ من رَحْمَةِ وَشَفَقَةِ على الخلق، وحرصٍ على هدايتهم. وكأنَّ الشَّيخَ القشيريَّ يُطمئنُ المريدَ في سلوكه إلى الله إن صدق في طلب الله، وتادَّب بقلبه قبل ظاهره مع شيخه نال المراد.

3- قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آدًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]

قال الشَّيخُ الجيلاني عند تفسيرها: "ومن جملة الآداب التي وحيبت عليكم رعايتها ومحافظتها بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ) ونداءه (بَيْنَكُمْ) بين أظهركم (كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) بالاسم واللَّقب فقط لا ضميمة تدل على تعظيمه وتوقيره؛ بل قولوا له وقت ندائه: يا نبيَّ الله؛ أو: يا خير خلق الله، أو: يا أكرم الخلق على الله، وأمثالها. أو لا تجعلوا دعاءه ومناجاته مع الله، ورفع حاجاته صلى الله عليه وسلم إليه سبحانه في الإجابة والقبول كدعاء بعضكم بعضاً، فإنَّ قُبْلَ مَرَّةٍ رَدٌّ أُخْرَى، بل رَدٌّ مَراراً كثيرة، فإنَّ دعاءه صلى الله عليه وسلم لا يُرَدُّ عند الله أصلاً، أو لا تقيسوا نداءه إليكم في الوقائع والأمور كدعاء بعضكم بعضاً، فإنَّ تُجيبوا مَرَّةً وتردوا أُخْرَى؛ بل عليكم أن تُبادروا لإجابة ندائه صلى الله عليه وسلم؛ سماعاً وطاعةً بلا مَطْلٍ وَتَسْوِيفٍ، وخافضين أصواتكم حين إجابته مسرعين إليها بالآلات والجوارح، ساعين إلى إنجاح سؤله ومطلوبه صلى الله عليه وسلم".⁽¹⁾

يقول الشَّيخُ عبد القادر إنَّ عناية الله سبحانه في تعليم عباده المؤمنين الأدب الكامل مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلا ينبغي مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم كما يخاطب أحدنا الآخر؛ بل يَجِبُ توقيره التَّوقير الكامل؛ مثل أن نقول: يا نبيَّ الله، يا خير خلق الله، يا أكرم الخلق على الله، ونحو ذلك. وجاء في الآية التَّحذير والوعيد لمن خالف أمر النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال الشَّيخُ القشيريُّ عند تفسيرها: "أي عَظَموه في الخطاب، واحفظوا في خدمته الأدب، وعانقوا طاعته على مراعاة الهيبة والتَّوقير"⁽²⁾.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 515/3 وما بعدها.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 376/2.

يوجّه الشيخ القشيري إلى عدم إغفال الهيبة في التعامل مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فالأدب الكامل مع الهيبة الكاملة أدب ظاهرٌ وأدب باطنٌ.

ويلوح للباحث أنّ مَنْ تَمَكَّنَ حبَّ الله ورسوله من قلبه جاءت هذه التوجيهات الإلهية في مراعاة الأدب الكامل مع النبي صلى الله عليه وسلم موافقةً لهواه ورغبته وطويته الصادقة، فلا يتكلف ذلك؛ بل يفرح وينشط لتطبيقه، مع السعادة والبشر الدائم في معاملة النبي صلى الله عليه وسلم .
ومن كامل رحمة الله ورأفته بعباده أن كان خُلق النبي صلى الله عليه وسلم مشتملاً على الرأفة والرحمة والخُلق العظيم، فلا يزداد من يعامل النبي صلى الله عليه وسلم إلا حباً له وإقبالاً عليه؛ لما يرى من جميل شمائله، وكمال شفقتة، وحرصه على نفع أمته.

4- قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿٦٣﴾

[الفرقان:63].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (و) المتذكرون لآلاء الله، المواظبون لأداء حقوقها حسب طاقتهم، هم (عِبَادُ الرَّحْمَنِ) الواصلون إلى مرتبة الرضوان، الفائزون بلقاء الرحمن، وهم (الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى) وجه (الْأَرْضِ) التي هي محل أنواع الفسادات (هَوْنًا) هَيَّيْنٍ لَيَّيْنٍ بلا منازعةٍ وجدالٍ مَعَ أَحَدٍ من بني نَوْعِهِمْ، وسوء خصالهم معهم من كبر وخيلاء، (و) هم من كمال سكينتهم ووقارهم، وتلطّفهم مع عباد الله (إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ) بعلو شأنهم ورفعة مكانهم بما يكرهون من الشتم والوقاحة والاستهزاء. (قَالُوا) من سلامة نفوسهم وطيب قلوبهم: (سَلَامًا) أي: تسليماً عليهم بلا تغيير وتأثر من قولهم، وتركاً لانتقامهم ومخاصمتهم، توطيئاً لنفوسهم على التسليم والرضا بجريان القضاء والحلم وكظم الغيظ" (1).

يبين الله سبحانه لنا بعضاً من صفات عباده، الذين نسبهم إلى رحمته (وعباد الرحمن)، وكأنّ الصفة الغالبة عليهم والخلق البارز فيهم هو الرحمة. ويشير الشيخ عبد القادر إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم : «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَخْرُجُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَخْرُجُ عَلَيْهِ النَّارُ، عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيَّيْنٍ سَهْلٍ» (2)، لا كبر ولا خيلاء، ولا جدال ولا منازعة، فهم على كمال السكينة والوقار، والأخلاق الحسنة مع عباد الله، قدوتهم في ذلك نبيهم صاحب الخلق العظيم.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: الذين استوجبوا رحمة الرحمن هم الذين وقفوا للطاعات، فبرحمته وصلوا إلى التوفيق للطاعة، وعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذين يستحقون غداً رحمته هم القائمون برحمته؛ فبرحمته وصلوا إلى طاعته، هكذا بيان الحقيقة، وبطاعتهم وصلوا إلى جنّته، هكذا لسان الشريعة. ومعنى

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 4/42 وما بعدها.

(2) سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب - لم يسمه-، حديث رقم: 2488، وقال عنه: حسن غريب.

(هُوناً) متواضعين متخاشعين، ويقال: شَرَطُ التَّوَاضِعِ وَحَدُّهُ أَلَا يَسْتَحْسِنُ شَيْئاً مِنْ أَحْوَالِهِ، حَتَّى قَالُوا : إذا نظر إلى رجله لا يستحسن شسع نعله، وعلى هذا القياس لا يساكن أعماله، ولا يلاحظ أحواله. قوله: (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً) قيل: سداد المنطق، ويقال: من خاطبهم بالقدح فهم يجابونه بالمدح له. ويقال: إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم، الطاعنون فيهم، العائنون لهم قابلوا ذلك بالرفق، وحسن الخلق، والقول الحسن، والكلام الطيب. ويقال: يخبرون من جفاهم أنهم في أمان من المجافة⁽¹⁾.

يبين الشيخ القشيري أن الخلق الطّاعي على عباد الرحمن هو التّواضع، وأنّ المتواضع الصّادق لا يستحسن شيئاً من أفعاله، بل يتّهم دائماً نفسه بالتّقصير على الدّوام، ولا يرى حسناته صالحةً للعرض على الله، يرى رياءه، وعدم إقامته لصلاته على الوجه الأكمل، وعدم صدقه في طلب الحق، فعيوبه شاخصة أمامه، لا تفارقه أبداً.

5- قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: 1]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "لا يخفى على أرباب المحبة والولاء، المتحقّقين بمقام التّسليم والتّأديب مع الله في عموم أحوالهم وأفعالهم: أنّ كمال العبوديّة والإخلاص إنّما يظهر بحسن الأدب، والمحافظة على أداء حقوق الرّبوبيّة، والوفاء على مقتضيات عهود الألوهيّة، وذلك إنّما يحصل برعاية حقوق من اختاره الله لرسالته، واصطفاه لخلّته وخلافته؛ إذ هو الوسيلة الموصّلة لعباد الله إلى الله، والهادي لهم إلى جناب قدسه. لذلك أوصى سبحانه خُصّ عباده لمحافظة الأدب مع الله ورسوله. فقال بعدما تيمّن باسمه العظيم: (بسم الله) المراقب لأحوال عباده (الرحمن) عليهم بتعليم الأدب إياهم (الرحيم) لهم بتلقين الرّضا والتّسليم.

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) مقتضى إيمانكم: مراعاة الأدب مع الله ورسوله، فعليكم أن (لَا تَقْدِمُوا) ولا تتقدّموا في أمر من الأمور وحكم من الأحكام (بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) أي: لا تبادروا بإمضاء الأحكام ما لم تشاوروا كتاب الله وسنة رسوله ولم تعرضوها عليهما (وَاتَّقُوا اللَّهَ) الغيور المطلع على ما في ضمائركم ونياتكم، واحذروا عن المسابقة والمبادرة في الأقوال والأحكام بمقتضى آرائكم وأهوائكم (إِنَّ اللَّهَ) المراقب عليكم في عموم أحوالكم (سَمِيعٌ) لأقوالكم (عَلِيمٌ) بنياتكم فيها⁽²⁾.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 392/2 وما بعدها.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 379/5 وما بعدها.

يقول الشيخ عبد القادر إن رأيت عبداً متأدباً مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بكامل الأدب فاعلم أنه عبد مخلص، تحقّق بالعبودية الكاملة لله تعالى؛ لأنّ توقير رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه من تعظيم الله عزّ وجلّ؛ لأنّه هو سبحانه الذي أرسله واختاره لحمل وحيه وتبيينه لعباده. ويشير الشيخ عبد القادر إلى مقام الوسيلة لنبيّنا صلى الله عليه وسلم، يهدي العباد إلى الله وجنابه القدسي.

ويلاحظ أنّ النداء للمؤمنين؛ لأنّهم عرفوا مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآمنوا به، فجاء طلب الأدب منهم لا من غيرهم من الجاحدين المعاندين، فإنّ المؤمن الصادق لا يشرع بأيّ عمل قبل أن يعرضه على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، إن وافق رضاهما عمل، وإلا اجتنب وابتعد، ليس هذا فحسب؛ بل يصل المؤمن من دوام متابعتة لله ورسوله إلى أن يصير هواه تبعاً لما جاء به الحبيب، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "يا أيّها الذين آمنوا): شهادة للمنادى بالشرف (لا تقدّموا) أمر بتحمّل الكلف قدّم الإكرام بالشرف على الإلزام بالكلف؛ أي لا تقدّموا بحكمكم (بين يديّ الله ورسوله)؛ أي لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله؛ أي لا تعملوا من ذات أنفسكم شيئاً. ويقال: قفوا حيثما وقفتُم، وافعلوا ما به أمرتم، وكونوا أصحاب الاقتداء والاتباع، لا أرباب الابتداء والابتداع"⁽¹⁾. يبدأ الشيخ القشيري تفسيره للآية بذكر لطيفة؛ وهي أنّ الله سبحانه وتعالى قدّم النداء للمؤمنين على التّكليف؛ وفيه بيان ما شرفوا فيه من إيمان ليهون التّكليف؛ لأنّ المؤمن إن جاءه الأمر من الله ورسوله قدّمه على ما سواه، وعبارة الإمام القشيري مُلفتة؛ تدلّ على كمال العبوديّة، والفخر بالعبوديّة لله تعالى، (لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله؛ أي لا تعملوا من ذات أنفسكم شيئاً) فالأمر اتّباع لا ابتداع.

6- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: 2].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "يا أيّها الذين آمنوا) من خصائص إيمانكم بالله وبرسوله أن (لا ترفعوأ أصواتكم) وقت التّكلم مع النبي صلى الله عليه وسلم، (فوق صوت النبي) ولا تخطوا أصواتكم مع صوته، بل (و) عليكم أن (لا تجهروأ له) صلى الله عليه وسلم (بالقول) مطلقاً (كجهر

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 219/3.

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ)؛ إذ الجهر بالقول معه مُخْلِ لِحُرْمَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَإِنَّمَا نَهَاكُمْ سُبْحَانَهُ عَنْهُ؛ كِرَاهَةً (أَنْ تَحْبَطَ) وَتَضِيْعَ (أَعْمَالِكُمْ) أَي: الصَّالِحَاتِ مِنْهَا (وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) إِحْبَاطُهَا وَضِيَاعُهَا⁽¹⁾.
 تعظيم النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتَمِّكِنٌ مِنْ قَلْبٍ كُلِّ مُؤْمِنٍ صَادِقٍ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ قَدْرَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ مَرْسَلٌ مِنَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ، فَيَسْعَى فِي طَلْبِ مَرْضَاتِهِ؛ لِأَنَّ فِيهَا رِضَا اللهِ تَعَالَى.
 وَإِنْ كَانَ الْوَاحِدُ مَنَّا يَلْتَزِمُ بِالْأَدَبِ الْكَامِلِ فِي حَضْرَةِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؛ فَلَا يَتَكَلَّمُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ دُونِ إِذْنٍ، وَلَا يَرْفَعُ صَوْتَهُ فِي حَضْرَتِهِ، فَمِنْ بَابِ أَوْلَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَدَابُ مَعَ حَبِيبِ الْمَلِكِ وَنَبِيِّهِ الْخَاتَمِ، وَخَلِيفَتِهِ فِي مَمْلَكَتِهِ.

وَقَالَ الشَّيْخُ الْقَشِيرِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: "أَمَرَهُمْ بِحِفْظِ حُرْمَتِهِ، وَمِرَاعَاةِ الْأَدَبِ فِي خِدْمَتِهِ وَصَحْبَتِهِ، وَأَلَّا يَنْظُرُوا إِلَيْهِ بِالْعَيْنِ الَّتِي يَنْظُرُونَ بِهَا إِلَى أَمْثَالِهِمْ. وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ بِخُلُقِهِ يُلَايِنُهُمْ فَيَنْبَغِي أَلَّا يَتَّبَسَّطُوا مَعَهُ مَتَجَاسِرِينَ، وَلَا يَكُونُوا مَعَهُ مَا يَعَاشِرُهُمْ بِهِ مِنْ تَخَلُّفٍ عَنْ حُدُودِهِمْ زَائِدِينَ. وَيُقَالُ: لَا تَبْدَأُوهُ بِحَدِيثٍ حَتَّى يَفَاتِحَكُمُ"⁽²⁾.

يَفْسِّرُ الشَّيْخُ الْقَشِيرِيُّ أَمْرَ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِعَدَمِ رَفْعِ الصَّوْتِ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَدَمِ الْجَهْرِ لَهُ بِالْقَوْلِ كَمَا يَجْهَرُ أَحَدُنَا لِلْآخِرِ فِي الْخُطَابِ؛ إِذْ مَقَامُ النَّبَوَّةِ لَهُ التَّوْقِيرُ الْكَامِلُ، وَيَنْبَغِي الشَّيْخُ الْقَشِيرِيُّ إِلَى أَنْ خُلِقَ النَّبِيُّ الْعَظِيمُ، وَلَيْنَ عَرِيكَتِهِ مَعَ الْخَلْقِ، قَدْ يَقُودُ الْبَعْضُ إِلَى نَسْيَانِ الْأَدَبِ، وَالتَّجَرُّؤِ عَلَى مِبَاسِطَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا مَا يَنْبَغِي عَلَى الْمُتَأَدِّبِ بِالْأَدَبِ الْكَامِلِ تَجَنُّبَهُ، وَأَنْ يَحَافِظَ عَلَى التَّوْقِيرِ وَالْحَشْمَةِ لِحَبَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

7- قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ لَكُمُ وَإِذَا قِيلَ أَنشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

﴿المجادلة: 11﴾

قَالَ الشَّيْخُ الْجِيلَانِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: "يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) مَقْتَضِي أَخْلَاقِكُمُ الْحَسَنَةَ، الْمُرُوثَةَ لَكُمْ عَنِ إِيْمَانِكُمْ وَعِرْفَانِكُمْ: (إِذَا قِيلَ لَكُمْ) وَقْتُ تَضْيِيقِكُمْ وَتَحْسَبِكُمْ: (تَفَسَّحُوا) وَتَوَسَّعُوا (فِي الْمَجَالِسِ) أَي: مُطْلَقِ الْمَجَالِسِ وَالْمَحَافِلِ (فَأَفْسَحُوا) وَوَسَّعُوا مِبَادِرِينَ بِلَا مَطْلٍ وَتَحَرَّجَ وَتَضَجَّرَ (يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ) وَيُوسِّعُ عَلَيْكُمْ فِي عُمُومٍ مَا تَرِيدُونَ الْوَسْعَةَ فِيهِ؛ بَلْ (وَإِذَا قِيلَ) لَكُمْ: (أَنْشُرُوا) وَانْهَضُوا، وَاخْرَجُوا مِنَ الْمَضَائِقِ وَالْمَجَالِسِ (فَأَنْشُرُوا) طَائِعِينَ رَاجِبِينَ، مَرِيدِينَ الثَّوَابَ مِنَ اللهِ بِتَوْسِيعِكُمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، وَلَا تَتَّوَهَّمُوا الْإِذْلَالَ بِالنَّشُوزِ؛ بَلْ (يَرْفَعِ اللَّهُ) الْقَادِرَ الْمُقْتَدِرَ عَلَى وَجْهِ الْإِنْعَامِ (الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ) وَنَشَرُوا عَنِ

(1) الجيلاني، لطائف الإشارات، 380/5.

(2) القشيري لطائف الإشارات، 219/3.

المضائق؛ لمصلحة إخوانه طوعاً درجات من القرب والمكانة؛ إذ المؤمن العارف المتمكن في مرتبة اليقين الحقي لا يتفاوت عنده المدح والذم، والإعزاز والإذلال، والمضرة والمسرّة، والمنح والمحن مطلقاً. (و) بالجملة: (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) من حضرة العلم الإلهي (دَرَجَاتٍ) لا يكتفه وصفها ولا حصرها، (و) بالجملة: (اللَّهُ) المطلع بضمائركم (بِمَا تَعْمَلُونَ) من الاستكبار والاستكراه، وتوهم الإذلال والاستكاف عن الامتثال (خَبِيرٌ) يجازيكم على مقتضى خبرته⁽¹⁾.

أدبٌ جديدٌ للمؤمنين، قد يُرى يسيراً في الظاهر، أو تافهاً عند من طُمست بصيرته، إلا أنه يحمل دلالاتٍ عميقة، لا تظهر إلا لمن تمكّن الإيمان من قلبه، وعلم بأنّ الأمور دقيقة وحقيرة مرجعها إلى الله.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "لكمال رحمته بهم وتماز أرفته عليهم، علمهم مراعاة حسن الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة دون أحكام العبادة في التمسح في المجالس والنظام في حال الرّحمة والكثرة، وأعزز بأقوام أمرهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحققهم بأركانه"⁽²⁾. يبيّن الشيخ القشيري أنّ من كمال رحمة الله، وتماز أرفته، أنّ علم عباده المؤمنين أمور عاداتهم،

ومن خلال دراسة الباحث للآيات السابقة، يتبيّن ما يلي:

- 1- لم يرد لفظ الأدب في كتاب الله، ولا اشتقاقاته؛ ولكن جاء بمعنى الخلق.
- 2- أعظم آداب المسلم وأهمّها إثارة أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم على كلّ شيء.
- 3- الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هو في حقيقته أدب مع الله؛ فَمَنْ عَظَّمَ الْمُرْسَلِ عَظَّمَ الرَّسُولَ.
- 4- من الآداب مع النبي صلى الله عليه وسلم عَدَمُ رَفْعِ الصَّوْتِ فِي حَضْرَتِهِ، وهذا الأدب يورث حالاً عند المؤمن فلا يُقدّم بين يدي الله ورسوله.
- 5- توقيف النبي صلى الله عليه وسلم علامة إيمان وتقوى، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات:3].
- 6- المؤمن الحق لا يرتضي عن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلاً؛ فهو لا يطيق أن يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم لا سيّما إن كان على أمرٍ جامع حتّى يستأنذه.
- 7- العلماء ورثة الأنبياء، فلا بُدَّ مِنَ الْحِرْصِ عَلَى الْأَدْبِ الْكَامِلِ مَعَهُمْ، كما نتأدّب مع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 34/6 وما بعدها.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 289/3.

- 8- من تعظيم النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نناديه بأفخم العبارات عند مناجاته، مثل: يا نبيَّ الله، يا خير خلق الله، يا أكرم الخلق على الله.
- 9- الهيبة والحرمة هي أدب القلب، لا يتم أدب الظاهر إلا بها.
- 10- من منة الله تعالى على خلقه، أن فطرهم على التمكّن من الخلق إن داوموا عليه، فيصير لهم سجيّة، يعملونه دون تكلف.
- 11- الاهتمام باختيار الألفاظ من جملة الآداب، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:104].
- 12- التّواضع خلق لا ينفكّ عن آداب المسلم بحال من الأحوال، ومن مراتبه أن لا يرضى المؤمن عن نفسه، ويتّهمها دائماً.
- 13- من تربية الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين أن وجههم للتأدّب بأدقّ الأمور، مثل: التّفسّح في المجالس.

وفي أثناء إعداد هذا المبحث، خطرت للباحث خواطر؛ وهي:

- 1- أمر الله تعالى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يستغفر لمن استأذنه بالقيام، وفي ذلك إشارة إلى كراهة القيام حتى مع الإذن.
- 2- الأدب مع الله تعالى منتهاه مقام الفناء، فالمتأدّب مع الله يفنى عن نفسه ومطالبها الدنيويّة والأخرويّة.
- 3- يتدرّج العبد في مقام الأدب، بدءاً بالأدب مع الخلق، انتهاءً بالأدب مع الحقّ.
- 4- قليل من الأدب تفضل الكثير من العلم والعبادة.
- 5- جعل الله تعالى الخلق الكريم، والأدب الرفيع صبغة في النَّفْسِ البشريّة، فهي بطبيعتها تميل إليها، وتسعى لتحصيلها.

المبحث العاشر: الفناء.

لا يوجد قائم بذاته إلا الله عز وجل، وكل ما دونه جلّ وعلاً موجوداً به، مفتقرٌ إليه؛ فالمؤمن الموقن بهذه الحقيقة لا يرى فاعلاً في الوجود ولا مؤثراً سواه سبحانه وتعالى، فيتولد من هذا العلم غيابٌ للإنسان عن نفسه والكائنات، وهذا الحال أطلق عليه السادة الصوفية مصطلح «الفناء». "أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد؛ لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً؛ لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق"⁽¹⁾.

وعرف الإمام ابن عجيبة رضي الله عنه «الفناء» فقال: "هو أن تبدو لك العظمة فتُنسيك كل شيء، وتُعَيِّبك عن كل شيء، سوى الواحد الذي ليس كمثل شيء، وليس معه شيء"⁽²⁾.

وللتوضيح يضرب الشيخ القشيري مثلاً بقصة سيدنا يوسف على نبينا وعليه السلام مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن، فيقول: "فهذا تغافل مخلوق عن أحواله، عند لقاء مخلوق، فما ظنك بمن تكاشف بشهود الحق سبحانه، فلو تغافل عن إحساسه بنفسه وأبناء جنسه فأى أعجوبة فيه؟!"⁽³⁾.

وأكد الإمام الغزالي المعنى ذاته، فقال: "فَعَزَبَ عن فَهْمٍ ما سوى الله تعالى حتى عَزَبَ عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها، وكان كالمدهوش الغائص في بحر عين الشهود الذي يضاها حاله حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهش وسقط إحساسهن. وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فني عن نفسه، ومهما فني عن نفسه فهو عن غيره أفنى؛ فكأنه فني عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود"⁽⁴⁾.

وهذه الحال ليست دائمة على العبد؛ بل تروح وتجيء بحسب ما يطرأ عليه، لذلك ترى السادة الصوفية ينظمون الشعر البديع في الشوق، وطلب الوصل. قال حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه: "هذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارةً تدوم، وتارةً تطرأ كالبرق الخاطف، وهو الأكثر. والدوام نادرٌ عزيزٌ"⁽⁵⁾.

ويذكر الشيخ القشيري رحمه الله ثلاث مراتب للفناء؛ وهي⁽⁶⁾:

-
- (1) الغزالي، إحياء علوم الدين، 4/245.
 - (2) ابن عجيبة، شرح الحكم، ص 315.
 - (3) القشيري، الرسالة القشيرية، 1/171.
 - (4) الغزالي، إحياء علوم الدين، 2/291.
 - (5) الغزالي، إحياء علوم الدين، 4/247.
 - (6) القشيري، الرسالة القشيرية، 1/170 وما بعدها.

1- الفناء عن الصفات الذميمة، والبقاء مع الصفات المحمودة؛ فمن ترك مذموم أفعاله يُقال أنه فني عن شهواته، فإن فني عن شهواته بقي بصدق إنابته.

2- الفناء عن نسبة شيء لغير مصدره، فالفعال هو الله، والموقوق هو الله؛ فيقال: فني عن مشاهدة الحدث من الخلق.

3- فناؤه عن شهود فنائه، باستهلاكه في وجود الحق؛ أي لا يعود مدرّكاً لحاله أو مقامه في حضرة الله عزّ وجل، فلا هو مُدرِكٌ لنفسه ولا لما سواها، لا يرى غير الحق لاستيلاء شهوده عليه.

والآيات التي تشير إلى مقام الفناء كثيرة، منها:

1- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: 54]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (يَقُومُ) الناقضون بعهدي، والمجاوزون لحدود الله (إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ) إليها مستحقاً للعبودية (فَتُوبُوا) عن هذا الاعتقاد والاتخاذ، وارجعوا متذللين (إِلَى بَارِيكُمْ) الذي يرأكم من العدم ليبرأكم عن هذا الظلم، وإذا تبتم ورجعتم (فَأَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ) الأمانة بهذا الظلم، بأنواع الرياضات وترك المشتبهات والمستلذات، وقطع المألوفات وترك المستحسنات الملومين عليها بأنواع الملامات، حتى تكون مطمئنة بما فتنتم بها، راضية بجريان حكم القضاء، مرضية بالفناء بل فانية عن الفناء (ذَلِكُمْ) المشار إليه من الإنابة والرجوع وإبراء الذمة والإذلال بأنواع الرياضات والفناء المطلق أيضاً (خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ) خالفكم الذي خلقكم للتوحيد والعرفان، وإذا تحقّق إنابتم وإخلاصكم فيها (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) قبل توبتكم ورضي عنكم (إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ) الرجّاع للعباد إلى التوبة والإنابة (الرَّحِيمُ) لهم بقبول التوبة وإن عظمت زلتهم⁽¹⁾.

يبين الشيخ عبد القادر أنّ طريق الفناء هو مجاهدة النفس وتطويعها بأنواع الرياضات؛ حتى تكون نفساً مطمئنة، ثم راضية عن الله في السراء والضراء، ثم مرضية، فتغنى عن نفسها وعن الخلق أجمعين، حتى يجذبها الودود جذبة تغنى عن فنائها؛ لأنّ العبد إذا استولى ذكر الله على قلبه انتفى إحساسه بغيره ثم لا يشعر بنفسه حتى لا يرى غير الحق، ﴿يَتَأَيَّتْهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧﴾ أُرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٨﴾﴾ [الفجر: 27-28].

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: " (فَأَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ) التوبة بقتل النفوس، إلا أنّ بنى إسرائيل كان لهم

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 76/1.

قتل أنفسهم جهراً، وهذه الأمة توبتهم بقتل أنفسهم في أنفسهم سراً، فأول قدم في القصد إلى الله الخروج عن النفس. ولقد توهم الناس أن توبة بنى إسرائيل كانت أشق، ولا كما توهموا؛ فإن ذلك كان مقاساة القتل مرة واحدة، وأما أهل الخصوص من هذه الأمة ففي كل لحظة قتل، وقتل النفس في الحقيقة النبوي عن حولها وقوتها، أو شهود شيء منها، ورد دعواها إليها، وتشويش تدبيرها عليها، وتسليم الأمور إلى الحق سبحانه بجملتها، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها، وانمحاء آثار البشريّة عنها، فأما بقاء الرسوم والهيكل فلا خطر له ولا عبرة به⁽¹⁾.

يلاحظ اتفاق الشيخين: القشيري والجيلاني في أنّ مقام الفناء لا مطمع فيه قبل تربية النفس وتأديبها؛ بل قتلها؛ أي موتها عن كل حركة لغير الله، فيصير هواها تبعاً للحبيب صلى الله عليه وسلم، وعندئذ تصلح لدخول حضرة القدوس. ويدع الشيخ القشيري في بيان أساليب قتل النفس، بعبارات تدل على التمكن من هذا المقام، فكلامه كلام الخبير المجرب.

2- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:

[200

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "يا أيها الذين آمنوا) بتوحيد الله، مقتضى إيمانكم الصبر على متاعب مسالك التوحيد، (أصبروا) على مشاق التكاليف الواقعة فيها، (وصابروا) غالبوا على القوى النفسانية العائقة عن الرياضات المزكية للأهوية الفاسدة، (ورابطوا) قلوبكم على المشاهدات والمكاشفات الواردة من النسمات الإلهية والنفسات الرّحمانية، (واتقوا الله) عن جميع ما يعوقكم ويشغلكم، (لعلكم تفلحون) تفوزون منه بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ربنا أفرغ علينا صبراً، وتوفنا مسلمين، واحشرنا مع الصابرين المرابطين، هب لنا من لدنك رحمة؛ إنك أرحم الراحمين.

خاتمة السورة: عليك أيها المحمدي المترصد لفيضان الكشف والشهود واليقين، ونزول الاطمئنان والتّمكين أن تتصبر بما جرى عليك من المصيبات والبلبات المشعرة للاختبارات الإلهية، وابتلائه عن رسوخ قدمك في جادة التوحيد، وصدق عزيمتك في مسلك الفناء، وعلو همّتك في التّحقّق بدار البقاء، وتربط قلبك بحقّ الذي هو أصلك وحقيقتك، مقبلاً عليه، متوجّهاً إليه، مجتنباً عن جميع ما يعوقك عنه⁽²⁾.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 47/1.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 360/1.

الشيخ عبد القادر طيبٌ حاذقٌ في ميدان تربية النفوس؛ خَبَرَ النَّفُوسَ بأنواعها، ومشى في طريق مجاهدتها، من أوله إلى منتهاه، عرف مواطن الهلاك ومواطن النجاة؛ بل عَلِمَ أَقْصَرَ الطَّرْقِ وأَوْضَحَهَا إلى حضرة الحق.

فجاءت خاتمة سورة آل عمران تريباً مجرباً لسلوك طريق الفناء. جعلنا الله من المتحققين فيه بمحض فضله وكرمه وجوده. وإن كان من كلمة تلخص نصيحة الشيخ فهي الصبر: على الطاعة، وعن المعصية، وعن شهوات النفس، ورعوناتها، وأهوائها. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»⁽¹⁾، وَعَلَيْكَ أَنْ تُعَلِّقَ قَلْبَكَ فِي اللَّهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِكَ، مع دوام الإقبال عليه جلّ وعلا وتجنّب كل ما يحول بينك وبينه لا إله إلا هو. وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "والصبرُ مُرٌّ مذاقُهُ إذا كان العبد يتحسّاه على الغيبة، وهو لذيذٌ طعمُهُ إذا شربَهُ على الشُّهُودِ والرُّؤْيَةِ. (وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) الفلاح الظفر بالبعية، وهمتهم اليوم الظفر بنفوسهم، فعند ذلك يتم خلاصهم، وإذا ظفروا بنفوسهم دَبَّحُوهَا بِسُيُوفِ المِجَاهِدَةِ، وَصَلَّبُوهَا على عيدان المكابدة، وبعد فنائهم عنها يحصل بقاؤهم بالله"⁽²⁾.

جزى الله عنا الشيخ القشيري خيرا الجزاء؛ إذ أرشدنا إلى تحويل مرارة الصبر إلى الشهد والعسل، وليس بين المرء وبينه إلا رؤية فعل الحبيب؛ فالمحبُّ يُحِبُّ كُلَّ أفعالِ حبيبه، ولا يجد فيها إلا العذوبة لا العذاب.

فلا شك أنهم يتجرعون أنواع المكاره في أثناء جهادهم لأنفسهم، لكن أعينهم على لقاء حبيبهم تهون عليهم، وتُسَلِّبُهُمْ وتربط على قلوبهم؛ إذ شاهدوا ببصيرتهم أن غمسة واحدة تُنْسِيهِمْ كُلَّ ما لاقوه من عناءٍ وغربةٍ.

3- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة:20]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "الَّذِينَ آمَنُوا) أي: تحققوا بمرتبة اليقين العلمي بتوحيد الله (وَهَاجَرُوا) عن بقعة الأماكن طالبين مرتبة أعلى منها، (وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) وطريق توحيده (بِأَمْوَالِهِمْ) أي: يبذل ما نسب إليهم من أمتعة الدنيا العائقة عن الوصول إلى فضاء الوحدة، (وَأَنْفُسِهِمْ) بمنعها عن مشتبهاتها ومقتضياتها، طالبين إفناء أنانياتهم وهوياتهم في هوية الحق، (أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ

(1) صحيح البخاري، كتاب الزكاة باب الاستغفار عن المسألة، 1469.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 192/1.

الله) وأعلى منزلة ومرتبته ما داموا سالكين سائرين (و) بعد وصولهم وانقطاع سلوككم (أُولَئِكَ) السعداء الواصلون (هُمُ الْفَائِزُونَ) بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر⁽¹⁾. يؤكد الشيخ عبد القادر أن وصول مقام الفناء لا بد أن يسبقه مجاهدة النفس وتربيتها وتأديبها، وترى الشيخ على طول تفسيره يؤكد هذه الفكرة؛ فكثيراً ما يمر ذكر الجهاد، أو بيع النفس لله تعالى، أو القتل في الجهاد فيشير مباشرة إلى مقام الفناء، بعد مجاهدة النفس وقتلها بأنواع الرياضات، كما يسميه الشيخ الموت الإرادي عن لوازم الهوية البشرية، بالإضافة إلى المعنى الظاهري للآيات من جهاد الأعداء ودفعتهم.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "(أمنوا) أي شاهدوا بأنوار بصائرهم، حتى لم يبق في سماء يقينهم سحاب ريب، ولا في هواء معارفهم ضباب شك، (وهاجروا) فلم يعرجوا في أوطان التفرقة، فتمحضت حركاتهم وسكناتهم بالله لله. (وجاهدوا) لا على ملاحظة عرض، أو مطالعة عوض، فلم يدخروا لأنفسهم من ميسورهم شيئاً إلا آثروا الحق عليه، فظفروا بالنعمة في قيامهم بالحق بعد فنائهم عن الخلق"⁽²⁾.

يبين الشيخ القشيري في تفسيره لهذه الآية مسألة مهمة في السلوك إلى الله تعالى؛ ألا وهي أن لا يبتغي السالك من وراء سلوكه إلى مولاه أي عرض من أعراض الدنيا، أو حتى أي عوض من مولاه؛ فهو لا يطلب إلا الله ورضاه.

4- قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(إِنَّكَ مَيِّتٌ) يعني: كيف لا يستقل سبحانه بالوجود والآثار المرتبة عليه، مع أنك يا أكمل الرسل وأشرف الكائنات وأفضلهم معطل في ذاتك وفي نشأتك هذه عن استناد ما ظهر منك إليك؛ إذ لا وجود لك من ذاتك (وَإِنَّهُمْ) أي: غيرك من أشخاص بالطريق الأولى (مَيِّتُونَ) معطلون عن آثار الوجود مطلقاً في هذه النشأة، بل كلكم أنتم وعموم العباد مسخرون تحت حكمه وأمره، ما عليكم إلا الامتثال والانقياد"⁽³⁾.

يتحدث الشيخ عبد القادر عن حقيقة أن الحياة الحقيقية فقط لله الواحد القهار: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 65]. وهو الذي أمد الكائنات بالحياة؛ فكل ما دون الله تعالى مفنقر إلى الله لا يملك لنفسه موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 2/246 وما بعدها.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 1/413.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 5/117.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "نعاه صلى الله عليه وسلم إليه، ونعى المسلمين إليهم ففزعوا بأجمعهم من مأتهم، ولا تعزية في العادة بعد ثلاث. ومن لم يتفرغ من مأتهم نفسه وأنواع همومه، فليس له من هذا الحديث شمة، فإذا فرغ قلبه من حديث نفسه، وعن الكون بجملته فحينئذ يجد الخير من ربّه، وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم" (1).

يقول الشيخ القشيري رحمه الله إنّ المسلم إن لم يقتل نفسه بسيف المجاهدات والمنازلات، فلا يطمح أن يذوق حالاً من أحوال أهل الفناء؛ لأنهم غابوا عن الكون بجملته، فلم يبق لهم همّ دنيا ولا همّ آخرة، مقصودهم محبوبهم (الصمد) ليس لهم مرادّ على مراده، ولا اختياراً على اختياره، تاهوا في مشاهدة كمالاته، ورضوا به عمّا سواه، فقربهم واجتباهم، وأصلح لهم شؤونهم كلّها، وأخرس أنفسهم عنهم فلم يكلمهم إليها طرفة عين: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ ۗ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۗ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ۗ﴾ [محمد: 4-6].

وقد انفرد الشيخ الجيلاني عن القشيري في تفسيره لبعض الآيات في مقام الفناء، منها:

1- قال تعالى: ﴿يَبَيِّنْ إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۗ﴾ [البقرة: 122].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "ثم لما خاطب سبحانه بني إسرائيل أولاً بإيفاء العهد الذي هو شعار الإيمان، وما يتعلّق بإيفاء العهد من الرجوع إليه، والإيمان بكتبه ورسله وعدم المبادرة إلى الكفر، وعدم استبدال آيات الله الدالة على ذاته علماً وعيناً وحقاً بالمزخرفات الفانية التي لا مداد لها أصلاً، وعدم لبس الحقّ الظاهر المكشوف المحقق بالباطل الموهوم المعدم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة المنبئين من التوجّه الفطريّ. والرجوع الحقيقيّ الأصليّ، الركوع والخشوع على وجه التذلل والانكسار، إلى أن يصل إلى الفناء في ذاته بل إلى فناء الفناء لينعكس البقاء" (2).

يلاحظ أنّ الشيخ عبد القادر لا يترك فرصة يمكن الإشارة من خلالها إلى مقام الفناء إلاّ ونبّه عليه، وشار إليه؛ لأنّ مقصد العارفين أن يفتنوا عن كلّ شيءٍ سوى مولاهم، ليبتغوا معه وحدهم، فيظفروا بالفوز العظيم، وذلك هو الفوز العظيم.

2- قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۗ﴾ [آل عمران: 142-143].

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 3/120.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 1/120.

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "أحسبون وتطمعون أيها المريدون، القاصدون سلوك طريق التوحيد، أنكم مستترون عند الله في السلوك، (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ) الوحدة الذاتية، (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ) أي: لم يفرق، ولم يميّز الله بعلمه الحضوريّ، (الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) في سبيله ظاهراً وباطناً، وبذلوا جهودهم فيها إلى أن بذلوا مهجهم، فَتَقَانُوا في الله حتى صاروا شهداءً حضراءً أمناءً عند الله، لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون عن المتقاعدين المتكاسلين. (و) أيضاً (يَعْلَمُ) وليميّز منكم (الصَّابِرِينَ) المتمكّنين في مرمى القضاء الرضا بما جرى عليهم من سهام التقدير، بلا إقدام ولا إحجام. (وَلَقَدْ كُنْتُمْ) أيها المحمّديون، المستكشفون عن سرائر التوحيد الذي، (تَمَوَّنَ الْمَوْتِ) الموصل إلى مرتبة اليقين العيني والحقي عند وصولكم إلى مرتبة اليقين العلمي، مسرعين عليها؛ شوقاً واستلذاً، (من قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ) متى ظهرت أمارات التوحيد، ولمع سراب الفناء، وبرق صوارم القضاء المفضية إلى هلاك الغير والسوى مطلقاً، (وَأَنْتُمْ) أيها الطالبون للوصول إلى جنّة الذات (تَتَطَرَّوْنَ) تبتطون وتعتبرون" (1).

ويلاحظ أنّ الشيخ عبد القادر لا يشرّح مقام الفناء، وكأنّ ذلك يرجع إلى أنّ هذا التفسير وضعه للسالكين الذين من المفروض لأمثالهم أن يكونوا خبروا مصطلحات الصوفيّة وفهموها.

فالشيخ هنا في تفسيره كمّن همّة منصبّ على قدح زناد العزم؛ ليشرع السالك بعدها في قصد طريق الفناء، فحال الشيخ كالحادي الذي يحدو بالأرواح، ويشوقها إلى بلوغ هذه المنازل الرفيعة، في المعرفة والقرب. ويبعث الشيخُ همّةً في الأرواح، ويذكرها بموطنها الأصليّ؛ فتسارع للتخلص من سجن الأشباح لتتعم باللقيا.

3- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا ۗ وَإِذَا آتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۗ وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ [النساء: 66-68].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا) فرضنا وأمرنا، (عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) في سبيلنا (أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ) المألوفة التي هي بقعة الإمكان، (مَا فَعَلُوهُ) أي: المأمور به (إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ) وهم المخلصون المبادرون إلى الفناء في الله؛ ليفوزوا بشرف بقائه، (وَلَوْ أَنَّهُمْ) من غاية تشوقهم وتعطشهم بمرتبة الفناء فيه، (فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) في أولاهم وأخراهم، (وَأَشَدَّ ثَبَاتًا) لقدّمهم في طريق التوحيد والعرفان. (وَإِذَا) أي: حين ثبتوا على طريق التوحيد أشدّ ثباتاً (لَأَتَيْنَاهُمْ مِّن

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 327/1.

لَدُنَّا) بلا صنع منهم، (أَجْرًا عَظِيمًا) هو الفوز بمرتبة الكشف والشهود. (وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) يوصلهم إلينا بلا اعوجاج ولا انحراف. اهدنا بلطفك صراطاً مستقيماً يوصلنا إلى ذروة توحيدك" (1).

يخبرنا الحق تعالى أن المبادرين إلى الفوز بشرف بقائه قلة في كل زمان ومكان، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:24] لأن الأعم الأغلب من الناس يركن إلى الدعة، ويؤثر الراحة على حربه مع نفسه، ويتناسى أن في ذلك الهداية والفوز العظيم.

ويلاحظ ورود مقام الفناء بعد الأمر باتّباع النبي صلى الله عليه وسلم، والتسليم له، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:65].

ويذكر الشيخ الجيلاني نصيحةً قيّمةً لطالبي طريق الفناء، فيقول في خاتمة تفسيره لسورة النساء: "فعليك أيها المرید، العازم لسلك طريق الفناء، الجازم، الحازم في هذا العزم أن تصفي أولاً سرك وسريتك عن التوجّه إلى غير الحق، وتجعل مطلبك ومقصودك الاستغراق والفناء في بحر الوحدة. لا يتيسر لك هذا إلا بعد كسر سفينة هويتك الباطلة، ولا يتيسر كسرها إلا بالرياضات الشاقة من الجوع والعطش والسهر المفرط، والانقطاع عن اللذات الحسية والمشتهيات النفسية بالتلذذ بالمودة والفناء، والصبر على البلاء، والرضا على ما جرى عليه القضاء، ومتى تحققت هذه الأمور فيك، وهن هويتك، وضعف سفينتك، وحينئذ يمكنك كسرها إن وقفت بها. زين بلطفك ظواهرنا بشريعتك، وبواطننا بحقيقتك، وأسرارنا بمشاهدتك وأرواحنا بمعابنتك، إنك على ما تشاء قدير، وبرجاء المؤمنين جدير" (2).

وقد انفرد الشيخ القشيري عن الجيلاني في تفسيره لبعض الآيات في مقام الفناء، منها:

1- قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "هذه كلمة تعجيب وتعظيم لما فيه العبد، أي لا ينبغي مع ظهور الآيات أن يجنح إلى الكفر قلبه. ويقال: تعرّف إلى الخلق بلوائح دلالاته، ولوامع آياته. فقال: (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا) يعني نطفة، أجزاؤها متساوية، (فَأَحْيَاكُمْ): بشراً اختص بعض أجزاء النطفة بكونه عظماً، وبعضها بكونه لحمًا، وبعضها بكونه شعراً، وبعضها بكونه جلدًا، إلى غير ذلك. (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) بأن يجعلكم عظاماً ورفاتاً، (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) بأن يحشركم بعد ما صرتم أمواتاً، (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) أي إلى ما سبق به حكم من السعادة والشقاوة. ويقال: (كُنْتُمْ أَمْوَاتًا) بجهلكم عنّا، (فَأَحْيَاكُمْ) بمعرفتكم بنا، (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) عن شواهدكم، (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) به بأن يأخذكم عنكم، (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) أي بحفظ أحكام الشرع؛

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 410/1.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 474/1.

بإجراء الحقّ. ويقال: (كُنْتُمْ أَمْوَاتًا) لبقاء نفوسكم، فأحياكم بفناء نفوسكم، ثم يميّتكم عنكم عن شهود ذلك؛ لئلا تلاحظوه فيفسد عليكم، ثم يحييكم بأن يأخذكم عنكم ثم إليه ترجعون بتقلّبكم في قبضته سبحانه وتعالى. ويقال: يحبس عليهم الأحوال فلا حياة بالدوام ولا فناء بالكلية، كما قالوا هذه حياة، وبيننا هم كذلك، إذ أدال عليهم فأفناهم، فإذا صاروا إلى الفناء أثبتهم وأبقاهم، فهم أبداً بين نفي وإثبات، وبين بقاء وفناء، وبين صحو ومحو، كذلك جرت سنته سبحانه معهم⁽¹⁾.

يبين الله سبحانه أنّ الأصل من الناس الإيمان؛ لكثرة الدلائل التي بثّها الله في كونه، ثم يذكر الشيخ القشيري وجوه التفسير للآية، ويختم بتبيينه أنّ سنة الله سبحانه قد جرت في هذه الدنيا على أن يُقلّب عباده بين البقاء والفناء؛ فكلما غابوا عن أنفسهم ومن حولهم ردّهم إليهم لينالوا أقسامهم الدنيوية، وليأخذوا بأيدي الطالبين إلى الله.

2- قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج:62].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "إذا بدا علم من الحقائق حصلت بمقداره شظية من الفناء لمن حصل له التجلي، ثم يزيد ظهور ما يبدو ويغلب، وتتناقص آثار التفرقة وتتلاشى، قال صلى الله عليه وسلم: «إذا أقبل النهار من هاهنا أدبر الليل من هاهنا»⁽²⁾ فإذا نأى العبد بالكلية عن الإحساس بما دون الله فلا يشهد أولاً الأشياء إلا للحقّ، ثم لا يشهدا إلا بالحقّ، ثم لا يشهد إلا الحقّ، فلا إحساس له بغير الحقّ، ومن جملة ما ينسأه، نفسه والكون كله»⁽³⁾.

الفناء مراتب يوضّحها القشيري، تبدأ بأن لا يرى العبد شيئاً إلا ويرى الله فيه، فهو سبحانه وتعالى ظاهر في كلّ شيء، ومن شدة قربه يخفى على الغافل، ثم يترقى فيشدها بالله وتصريفه سبحانه وتعالى لها، لسان حاله يقول: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله، ثم تغيب الأشياء، ويبقى الحقّ عزّ وجلّ، فلا يرى غيره. قال ابن عجيبة رحمه الله في شرحه لحكمة (كيف يحتجب الحق بشيء والذي يحتجب به هو فيه ظاهر، وموجود حاضر): "تعجب الشيخ ابن عطاء رضي الله عنه من تصوّر الحجاب في حقه تعالى مع أنّ كلّ ما يبرز من عنصر القدرة كلّهُ نورٌ من نورٍ ملكوته، فائضاً متدفقاً

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 32/1.

(2) في الحديث قلب. والصحيح: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»

صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب متى يحل فطر الصائم، حديث رقم: 1954.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 328/2 وما بعدها.

من بحر جبروته، فتحققت الوحدة وانتفى الحجاب بالكلية، فكل موجودٍ نور الحق فيه حاضرٌ موجودٌ⁽¹⁾.

3- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص: 85].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "(لرأدك إلى معاد) في الظاهر إلى مكة، وكان يقول كثيراً: «الوطن الوطن»⁽²⁾، فحَقَّقَ اللهُ سؤاله. وأما في السرِّ والإشارة فإنه (فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) أي يسر لك قراءة القرآن، والمعاد هو الوصف الذي كانت عليه روحك قبل حلول شجك من ملاذغات القرب ومطالعات الحق. وقيل الذي ينصبك بأوصاف التفرقة بالتبليغ وبسط الشريعة لرأدك إلى عين الجمع بالتحقق بالحق والفناء عن الخلق. ويُقال إن الذي أقامك بشواهد العبودية فيما أثبتك به لرأدك إلى الفناء عنك بمحقق في وجود الحقيقة"⁽³⁾.

يقول الشيخ القشيري رحمه الله أن في الآية تسلية لحضرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ يخاطبه مولاه: لا تحزن؛ فكما فَرَضْتُ عليك القرآن سَأَرُدُّكَ إلى مقام الفناء والبقاء⁽⁴⁾ معي، وما إخراجك عن هذا المقام إلا لتكون مع خلقي لتأخذ بأيديهم إليّ، وتدلهم عليّ، فتستطيع القيام بأعباء الدعوة. "من عرف الحقَّ شهده في كلِّ شيءٍ، ومن فني به غاب عن كلِّ شيءٍ، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئاً"⁽⁵⁾.

ومن خلال دراسة الآيات السابقة في الفناء، يتبين ما يلي:

- 1- طريق الفناء هو مجاهدة النفس وقتل صفاتها المذمومة.
- 2- إذا استولت على القلب مشاهدة الله تعالى وأفعاله، انتفى عنه إحساسه بنفسه وبغيره.
- 3- قتل النفس عند الشيخ القشيري معناه التبري من حولها وقوتها، أو شهود شيء منها، والتشويش عليها في تدبيرها، وتسليم الأمور جميعها إلى الحق تعالى.

(1) ابن عجيبة، شرح الحكم، ص393.

(2) لم أجده.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 2/448 وما بعدها.

(4) أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة به، وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين فمن المعلوم أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الآخر لا محالة فمن فني عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة. القشيري، الرسالة القشيرية، 1/170.

(5) ابن عجيبة، شرح الحكم، ص315.

- 4- الصّبر على طوارق القدر عند الشّيح الجيلاني علامة على الصّدق في طلب الله، والرّضا عنه دليل صدق العزيمة في مسلك الفناء.
- 5- ربط القلب وتعليقه بالله، والإقبال عليه تعالى، واجتناب كلّ ما يعوق عنه سبحانه هي أقصر الطّرق إلى منزل الفناء.
- 6- بيّن الشّيح القشيري أنّ مرارة الصّبر تتقلّب عسلاً إن استحضر العبد تقليب سيّده له فيه.
- 7- السّالكون طريق الفناء هم الفائزون بنصّ الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التّوبة : ٢٠].
- 8- يُعلّمنا الشّيح القشيري علماً يكاد يُنسى في هذه الأيام؛ وهو أنّ تطلب الله بصدق؛ بحيث لا تطلب منه عوضاً، ولا يكون عندك غرضٌ إلّا رضاه، والفوز بشرف لقاه.
- 9- اتفق الشّيخان على أنّ منزل الفناء لا مطمع فيه قبل مجاهدة النّفس وتغيير صفاتها الذّميّة، حتى تصيح مطمئنّةً، راضيةً مرضيّةً.
- 10- حال الفناء لا يدوم فيه العبد؛ بل يقلّبه الله بين الفناء والبقاء.
- 11- الرّوح تحنّ إلى موطنها الأصليّ، حين شُرُفتُ بالخطاب من ربّها النّبِرِ الوهّابِ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۗ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:172]، لذلك غاية مطلوبة العودة إليه، ولا يكون ذلك إلّا بالفناء عن الكل سواه عزّ وجلّ.

الفصل الثّاني: دراسة مقارنة لمختارات من علوم أهل التّصوّف، وردت في تفسيره

الشّيخين: الجيلاني والقشيري .

وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: التّوحيد.

المبحث الثّاني: القضاء والقدر.

المبحث الثّالث: الذّكر.

المبحث الرّابع: الزّهّد.

المبحث الخامس: السّرّ.

المبحث السّادس: مراتب النّفوس.

المبحث السّابع: السّوى.

المبحث الثّامن: القطب الغوث.

المبحث التّاسع: الوراثة المحمديّة.

الفصل الثّاني:

دراسة مقارنة لمختارات من علوم أهل التّصوّف، وردت في تفسيريّ الشيخين الجيلاني والقشيري:

في هذا الفصل يتناول الباحث بعضًا من علوم أهل التّصوّف، بالاعتماد على تفسيريّ الشيخين الجيلاني والقشيري، ويعقد بينهما المقارنة، حيث تناول تسعة من علوم القوم، على النحو التالي:

المبحث الأوّل: التّوحيد.

منذ بدء الخليقة والله سبحانه وتعالى يرسل رسله وأنبياءه دالّين عليه، معرّفين النّاس به، آخذين بأيديهم وقلوبهم إلى جنّة توحيده، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:25]. فغاية الرّسالات كلّها توحيدُ الله عزّ وجلّ، وتعريفُ النّاس به. وعرّف الإمام أبو عليّ الدّقائِقُ التّوحيد فقال: "التّوحيد هو الحكم أنّ الله واحدٌ، والعلم أنّ الشّيء واحدٌ أيضًا توحيد. يُقال: وحّدته، إذا وصفته بالوحدانية"⁽¹⁾. وعرّفه الإمام القشيري فقال: "معنى أنّه واحدٌ نفي القسيم لذاته، ونفي التّشبيه عن حقّه وصفاته، ونفي الشّريك معه في أفعاله ومصنوعاته"⁽²⁾.

(1) القشيري، الرّسالة القشيريّة، 462/2.

(2) القشيري، الرّسالة القشيريّة، 462/2.

وسئل الجنيد عن التوحيد فقال: "إفراؤ الموحّد بتحقيق وحدانيّته بكمال أحديّته أنّه الواحِد الَّذِي لَمْ يلد وَلَمْ يولد؛ بنفي الأضداد والأنداد والأشباه، بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿﴾ [الشورى:11] وَقَالَ رحمه الله: إِذَا تَنَاهَتْ عَقُولُ الْعُقَلَاءِ فِي التَّوْحِيدِ تَنَاهَتْ إِلَى الْحَيْرَةِ" (1).

فكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، والعجز عن الإدراك إدراكٌ. تَقَدَّسَ سبحانه عن الأنداد والأمثال. قال أبو سعيد الخزاز (2) رحمه الله: "أول مقام لمن وجد علم التوحيد، وتحقق بذلك فناء ذكر الأشياء عن قلبه، وانفراده بالله عزَّ وَجَلَّ" (3). وللشيخ عبد القادر الجيلاني كلام يوضح المعنى الذي أشار إليه الشيخ الخزاز:

"ويكشف له الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هو، فانيًا عن نفسه وصفاته، عن حوله وقوته وحركته وإرادته ومناه وديناه وأخراه، فيصير كأنه بلور مملوء ماء صافياً، تتبين فيه الأشباح، فلا يحكم عليه غير القدر، ولا يوجد غير الأمر؛ فهو فان عنه وعن حظّه، موجود لمولاه وأمره" (4).

ويكفي التوحيد فضيلةً أنّ من مات عليه مصيره إلى الجنة وإن دخل النار بدايةً، كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رِجْلِ أَبِي ذَرٍّ، وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ إِذَا حَدَّثَ بِهِذَا قَالَ: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ قَبْلَهُ، إِذَا تَابَ وَنَدِمَ وَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، غُفِرَ لَهُ" (5).

(1) القشيري، الرسالة القشيرية، 463/2.

(2) هو شيخ الصوفيّة القدوة أبو سعيد، أحمد بن عيسى البغدادي الخزاز، صاحب سري السقطي، وذا النون المصري، وهو أول من تكلم بعلم الفناء والبقاء، توفي 286هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 419/13. ومن أقواله: الاشتغال بوقت ماض تضييع وقت ثان. ابن عساكر، علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي، ت 571هـ، تاريخ دمشق، حقيق عمر العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، 1415هـ/1995م، 132/5.

(3) القشيري، الرسالة القشيرية، 467/2.

(4) الجيلاني، الغنية، 273/2.

(5) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الثياب البيض، 5827.

و للشيخ عبد القادر كلام في ذات السياق؛ إذ يقول: "ويعتقد أن المؤمن وإن أذنب ذنوبًا كثيرة من الكبائر والصغائر لا يكفر بها وإن خرج من الدنيا بغير توبة إذا مات على التوحيد والإخلاص، بل يُرد أمره إلى الله عزَّ وجلَّ إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه وأدخله النار، فلا يدخل بين الله تعالى وبين خلقه، ما لم يخبرنا الله بمصيره"⁽¹⁾.

وللعامة البوطي رحمه الله كلامٌ مهمٌّ في هذا السياق: "تتكون البنية الإسلامية من مجموع عناصر ثلاثة، هي: العقيدة، التشريع، الأخلاق. غير أن عماد ذلك كله إنما هو العقيدة، فهو الأساس الأول الذي لا بد منه، حتى إن هذه العقيدة إذا غمرت القلب كان صاحبه بذلك مسلمًا، وإن قصر في تطبيق العنصرين الآخرين، ولكنه يكتسب بذلك إثمًا يعرضه لعقاب الله تعالى"⁽²⁾.

ونقل الغزالي عن بعض العارفين -ولم يسمهم-: "لو عرضت عليَّ الشهادة عند باب الدار، والموت على التوحيد عند باب الحجرة لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة؛ لأنني لا أدري ما يعرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار"⁽³⁾. وهذا من تمام معرفتهم بالنفس البشرية وضعفها، وسرعة تقلب القلوب، والله سبحانه وتعالى علما في كتابه طلب الثبات على دينه، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:8].

قال يوسف بن الحسين⁽⁴⁾ رحمه الله: "توحيد الخاصة أن يكون بسرّه ووجهه وقلبه؛ كأنه قائم بين يدي الله تعالى يجري عليه تصارييف تدبيره وأحكام قدرته، في بحار توحيده بالفناء عن نفسه، وذهاب حسبه لقيام الحق سبحانه له في مراده منه، فيكون كما هو قبل أن يكون في جريان حكمه سبحانه عليه"⁽⁵⁾. ويلاحظ أن الشيخ يوسف بن الحسين ربط بين التوحيد وبين الفناء عند الخاصة؛ فهو فانٍ عن نفسه، مستغرقٌ مع مولاه، مُسلمٌ له أمره، لا يختلف حاله قبل نزول القضاء عمّا بعده.

والمريد الصادق عند الشيخ عبد القادر الجيلاني هو الذي يحرص على أن لا يخرم توحيده أدنى شرك، ففي باب الرزق مثلاً لا يعتمد على ماله، أو على سببه؛ بل على الرزاق جلّ وعلا؛ "نزّهوا الرّب

(1) الجيلاني، الغنية، 139/1 وما بعدها.

(2) البوطي، محمد سعيد رمضان، ت 2013م، كبرى اليقينيّات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط8، 1417هـ/1997م. ص26. وسيشار إليه عند إعادة ذكره هكذا: البوطي، كبرى اليقينيّات الكونية.

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، 124/1 وما بعدها.

(4) هو يوسف بن الحسين الرّازي، أبو يعقوب، الإمام، العارف، شيخ الصّوفيّة، أكثر التّرحال، وأخذ عن ذي النّون المصري، قال السلمي: كان إمام وقته، لم يكن في المشايخ أحد على طريقته في تذليل النفس وإسقاط الجاه، وقال القشيري: كان نسيج وحده في إسقاط التّصنّع، مات 304.الذهبي، سير أعلام النبلاء، 248/14.

(5) القشيري، الرسالة القشيرية، 466/2.

سبحانه عن أن يكون له شريك يرجعون إليه في الرزق، فصار مالهم الثقة بالحق عز وجل، واليأس مما في أيدي الناس، فسلم توحيدهم⁽¹⁾.

يقول حجة الإسلام الغزالي: "في هذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد، ثم إن كحل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه، ويقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى، فإن بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يُفْضِي به النقصان إلى المحو، فينمحي عن رؤية ما سوى الله، فلا يرى إلا الله؛ ليكون قد بلغ كمال التوحيد، وحيث أدرك نقصاً في وجود ما سوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد، وبينهما درجات لا تُحصى؛ فهذا تتفاوت درجات الموحدين، وكتب الله المنزلة على السنة رسله هي الكُحل الذي به يحصل أنوار الأبصار، والأنبياء هم الكحلون، وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض، وترجمته قول: «لا إله إلا الله»، ومعناه: أن لا يرى إلا الواحد الحق. والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون⁽²⁾.

فالإمام الغزالي يرى أن الناس يتفاوتون في درجات توحيدهم لله عز وجل؛ كلما زاد إدراك المرء للنقص فيما سوى الله زاد توحيدُهُ، وبلوغ درجة الكمال في ذلك عزيز، قال الإمام القشيري: "والوقوف على صدق التوحيد عزيز، وأرباب التوحيد قليل"⁽³⁾.

وكما هو معلوم ركز القرآن الكريم على موضوع التوحيد في مواضع كثيرة؛ منها:

1- قال تعالى: ﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(وَاللَّهُكُمْ) المظهر لكم أيها المؤمنون وإله الكافرين الكاتمين (إِلَهٌ وَاحِدٌ) لا تعدد فيه ولا اثنيّة؛ بل (لَا إِلَهَ) أي: لا موجود حقيقي (إِلَّا هُوَ) الموجود الحقيقي الحق؛ إذ لا كثرة في الوجود؛ بل هُوَ وَاحِدٌ في الذات، فَرُدُّ في الصفات، ليس كمثله شيء، (الرَّحْمَنُ) المبدئ لكم ولهم عامّة؛ بإشراق تجلياته، وَمَدَّ أظلاله على العدم في النشأة الأولى، (الرَّحِيمُ) المعيد لكم خاصّة إلى مبدئكم الأصلي، ومقصدكم الحقيقي في النشأة الأخرى"⁽⁴⁾.

يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني إن الموجود الحقيقي هو الله وحده؛ إذ جميع الموجودات مفترقة في وجودها إليه. وهذا هو كمال التوحيد؛ أن يرى العبد ربّه بنور بصيرته فاعلاً أُوْحَدَ في الوجود، مالكا لملكه، متصرفاً فيه وفوق مراده، يقول حجة الإسلام الغزالي: "وكمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا

(1) الجيلاني، الغنية، 229/2.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، 87/4.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 227/1.

(4) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 144/1.

من الله، وعلامته أن لا يغضب على أحدٍ من الخلق بما يجري عليه؛ إذ لا يرى الوسائط، وإنما يرى مسبب الأسباب⁽¹⁾.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "شرفهم غاية التشريف بقوله «والهكم»، وإن شيوخ هذه الطائفة، قالوا: علامة من يعده من خاص الخواص أن يقول له: عبي، وذلك أنتم من هذا بكثير؛ لأن قوله: (والهكم): وإضافة نعتهم من إضافته إياك إلى نفسه؛ لأن إلهيته لك بلا علة، وكونك له عبد يعوض كل نقصك وأفتك. ومتى قال لكم (والهكم)؟ حين كانت طاعتك وحركاتك وسكناتك أو ذاتك وصفاتك؟! لا بل قبل ذلك أزل الأزل حين لا حين ولا أوان، ولا رسم ولا حدثان. و(الواحد) من لا مثل له يدانيه، ولا شكل يلاقيه. لا قسيم يجانسه، ولا قديم يؤانسه. لا شريك يعاضده، ولا معين يساعده، ولا منازع يعانده. أحدي الحق، صمدي العين، ديمومي البقاء، أبدئي العز، أزلي الذات. واحد في عز سنائه، فرد في جلال بهائه، وتر في جبروت كبريائه، قديم في سلطان عزه، مجيد في جمال ملكوته. وكل من أطنب في وصفه أصبح منسوباً إلى العمى، فلولا أنه (الرحمن الرحيم) لتلاشى العبد إذا تعرض لعرفانه عند أول ساطع من باديات عزه⁽²⁾.

يبيّن الشيخ القشيري عظم رحمة الله تعالى علينا بنعمة الإيجاد، وخطابه لنا عز وجل بكلامه القديم (والهكم إله واحد)؛ فقد نسبنا الله عز وجل منذ القدم إليه، فلنا هذا الشرف من قبل استحقاقنا له. ويطنب الشيخ في ذكر صفات الله تعالى، وهذا حال المحب؛ لا يمل من ذكر حبيبه.

2- قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: 255]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "الله) أي: الذات الثابت الوجود والكائن الحق الحقيقي بالحقيقة والتحقق والتبوت، إياك أن تقصد بالألفاظ محتملاتها؛ إذ الغرض من التعبير التنبية، وإلا فكيف يعبر عنه وهو أجل من أن يحيط به العقول فيعبر عنه، أو يورد في قالب الألفاظ الذي (لا إله) أي: لا موجود، وإن شئت قل: لا وجود ولا تحقق ولا كون ولا ثبوت (إلا هو) هذا هو نهاية ما تنطق عنه أسنة التعبير عن الذات الأحديّة؛ إذ كل من التعبيرات والإدراكات والمكاشفات والمشاهدات، إنما ينتهي إليه، وبعد انتهائه إليه تكل وتجهل وتعمى وتدهش، ما للعباد وربّ الأرباب حتى يتكلموا عنه؟

(1) الغزالي، احياء علوم الدين، 4/29.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 1/81.

سوى أن الحق سبحانه لما ظهر لهم بذاته جميع أوصافه وأسمائه، أنزل عليهم على قدر عقولهم المودعة فيهم كلامًا جامعًا نبههم على مبدئهم بعد توفيق منه وجذب من جانبه؛ إذ أسهل الطريق بالنسبة إلى المحبوبين هو الألفاظ المنبّهة عن غيب الذات؛ إذ هو خالٍ عن المواد الغليظة والكدورات الكثيفة المزيجة لصفاء الوحدة⁽¹⁾.

يفسر الشيخ الجيلاني آية الكرسي، ويطنب في تفسيرها، كيف لا وهي أعظم آية في كتاب الله. فيقول الشيخ: مهما وصفت المولى عز وجل بصفات الكمال فلن توفيه حقه جل جلاله، فكيف تستطيع العبارة أن توفيه حقه وهو أجل من أن تحيط العقول به؟ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:110]. ويؤكد الشيخ عبد القادر على هذا المعنى بتعبير آخر فيقول: إن الله عرفنا نفسه بأسمائه وصفاته؛ إذ لا تدرکه الأبصار والعقول.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "(الله) اسم تفرّد به الحق سبحانه، فلا سمّي له فيه، قال الله تعالى: ﴿هَلْ نَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي هل تعرف أحدًا غيره تسمى (الله)؟ من اعتدّر في هذا الاسم الاشتقاق فهو كالمعارض؛ فهذا اسم يدل على استحقاق صفات الجلال، لا على اشتقاق الألفاظ، فلا يعارض ما لا يعارض فيه من الأقوال. قوله (لا إله إلا هو): إخبار عن نفي النظر والتشبيه، بما استوجب من التّقدس والتّزويه. ومن تحقّق بهذه القالة لا يرى ذرّة من الإثبات بغيره أو من غيره، فلا يرفع إلى غيره حاجته، ولا يشهد من غيره ذرّة، فيصدق إليه انقطاعه، ويديم لوجوده انفراده، فلا يسمع إلا من الله وبالله، ولا يشهد إلا بالله، ولا يقبل إلا على الله، ولا يشتغل إلا بالله، فهو محو عمّا سوى الله، فما له شكوى ولا دعوى، ولا يتحرك منه لغيره عرق، فاذا استوفى الحق عبداً لم يبق للحظوظ البتّة مساع. ثم إن هذه القالة تقتضي التّحقّق بها، والفناء عن الموسومات بجملتها، والتّحقّق بأنّه لا سبيل لمخلوق إلى وجود الحق سبحانه، فلا وصل ولا فصل ولا قرب ولا بُعد؛ فإن ذلك أجمع آفات لا تليق بالقدم⁽²⁾.

يشرح الشيخ القشيري في تفسيره لآية الكرسي بالتشبيه على اسم الله تعالى (الله)، فيقول إنّه اسم غير مشتق من جذر، ولا يمكن الاشتقاق منه؛ لأنّ هذا الاسم علم على الذات. ويبين الشيخ حال الموحد الحق بأنّه لا يطلب إلا من الله؛ لأنّه علم على الحقيقة أن الله وحده هو المعطي المانع، فلا يبيّن شكواه إلا لمولاه، ولا يشتغل قلبه إلا به، ولا حظ لأحد لديه سوى الله عز وجل.

3- قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:2]

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 215/1 وما بعدها.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 117/1.

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (اللَّهُ) أي: الذات الصمد المبدع المظهر الموجد الذي (لَا إِلَهَ) أي: لا مظهر ولا موجد (إِلَّا هُوَ الْحَيُّ) الدائم الثابت، الذي لا يقدر حياته الزمان ولا حصره المكان، ولا يشغله شأن عن شأن (الْقَيُّومُ) الذي لا يعرضه الفتور، ولا يعجزه كَرُّ الأعوام ومرَّ الدهور" (1).

يُلاحظ أَنَّ الشَّيْخَ عبدَ القادر يركِّز على صفة الصَّمديَّة عند المولى عَزَّ وَجَلَّ، وصفة الإبداع للخلق من العدم، وأَنَّهُ تعالى وحده المُوْجِدُ لهم.

وَقَسَّرَ اسم الله «الحيُّ» بأنَّه سبحانه الدائم الثابت؛ فيُلاحظ التَّنزيه لله عَزَّ وَجَلَّ، فهو حيٌّ لا كحياة المخلوقات، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:111]. وهو خالق الزَّمان، والمكان، فكيف يحصره مكان؟! قال الشيخ القشيريُّ عند تفسيرها: "فهو الذي لا يلهو فيشتغل عنك، ولا يسهو فتبقى عنه، فهو على عموم أحوالك رقيب سرِّك إن خلوت فهو رقيبك، وإن توسَّطت الخلق فهو رقيبك، وفي الجملة - كيفما دارت بك الأحوال - فهو حبيبك" (2).

يتحدَّث الشيخ القشيري عن رعاية الله عَزَّ وَجَلَّ لخلقه ورقابته عليهم، فهو سبحانه قيوم على خلقه، لا يشغله سمع عن سمع، محيط بأحوالهم، وهو معهم أينما كانوا، فهو حبيبهم.

4- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء:108]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (قُلْ) لقاطبة الأنام على سبيل الدَّعوة العامَّة والتبليغ التَّام: (إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) من ربِّي ما جعلني مبعوثاً إلى عموم عباده (أَنَّمَا إِلَهُكُمُ) أيها الواصلون إلى مرتبة التَّكليف (إِلَهٌُ وَاحِدٌ) أحد صمَدٌ لا يقبل التَّعدُّد، ولا يعرضه نقصانٌ، ولا يشغله شأنٌ عن شأن؛ بل (كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)، فَهَلْ أَنْتُمْ أيها العابدون (مُسْلِمُونَ) منقادون له، مُسْلِمُونَ توحيدَه، مُخْلِصُونَ في إطاعته وانقياده" (3).

يفسِّر الشيخ عبد القادر معنى اسم الله الواحد بأنَّه الأحد الصمد الذي لا يقبل التَّعدُّد، ولا يتعرَّض لنقصان، ولا يشغله شأن عن شأن.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "واحدٌ في ذاته، واحدٌ في صفاته، واحدٌ في أفعاله واحدٌ بلا قسيمٍ، واحدٌ بلا شبيهٍ، واحدٌ بلا شريكٍ. (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟) مخلصون في عقد التَّوحيد بالتبزي عن كُلِّ غَيْرٍ في حسابان صلاحيتَه للألوهية؟" (4).

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 248/1.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 132/1.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 375/3 وما بعدها.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 309/2.

يَعْبُرُ بنا الشَّيْخُ القَشِيرِيُّ إلى مَحِيطٍ لا سَاحِلَ له حين يَقولُ: اللهُ واحِدٌ في ذاتِهِ، واحِدٌ في صِفاتِهِ، فالشَّيْخُ هنا اعتَبَرَ الذَّاتَ غيرَ الصِّفاتِ، وهذا مَبْحَثٌ طَوِيلٌ حَارٌّ فيه أَهلُ العِلمِ، وتكلَّموا بِهِ، كلَّهم يَدورُ حولَ إجابةِ سَؤالٍ: هل الذَّاتُ غيرَ الصِّفاتِ؟ أم الصِّفاتُ عِينُ الذَّاتِ؟

ويرى الباحث أن تناول مثل هذه المواضيع منهجيَّ عنه في الشَّرْعِ، لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَقَرُّوا في آلاءِ اللهِ، ولا تَقَرُّوا في اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»⁽¹⁾.

5- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: 1-4]

قال الشَّيْخُ الجِيلاني عند تفسيرها: "هو الذَّاتُ المتَّصِفُ بالألوهية الغيبية والشهادة، المتعالية عن كليهما بحسب ذاته المتَّصِفُ بالألوهية والربوبية، المستجمعة لجميع شرائط الكمال حسب الأسماء والصِّفات الكاملة، الكامنة في تلك الذَّاتِ المتَّصِفُ بالأحدية المطلقة المنزهة عن التَّعدُّدِ والكثرة مطلقاً، المستقلُّ في الوجود والحياة والقيومية المستلزمة للديمومية والبقاء الأزليَّ الأبدِيَّ السَّرمديَّ، الذي كان لا يكال بقاءه ودوامه بمطلق الموازين والمقادير، ولا يحيط به وبقيوميته مطلق التدابير والتَّقادير. فكيف كان سبحانه محلاً للتقدير... وبالجملة هو سبحانه منفرد في توحيده، متوحد في انفراده، ومستقلُّ في استقلاله، بحيث (لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) لا قبله ولا بعده، بل لا إله سواه، ولا موجود غيره"⁽²⁾.

سورة الإخلاص هي سورة التَّوْحِيدِ بلا منازع، فيها وصف اللهُ تعالى نفسه لعباده، فهو سبحانه واحدٌ منفردٌ جامعٌ صفاتِ الكمالِ بأسرها، باقٍ أزليٌّ دائمٌ سَرمديٌّ، قيومٌ على خلقه، فهو الأولُ والآخرُ لا إله غيره.

قال الشَّيْخُ القَشِيرِيُّ عند تفسيرها: "ويقال: السُّورَةُ بعضُها تفسير لبعض؛ من هو؟ هو اللهُ. من اللهُ؟ الأحد. من الأحد؟ الصَّمَد. من الصَّمَد؟ الذي لم يلد ولم يولد. من الذي لم يلد ولم يولد؟ الذي لم يكن له كفواً أحد. ويقال: كاشف الأسرار بقوله: (هُوَ). وكاشف الأرواح بقوله: (الله) وكاشف القلوب بقوله: (أحد). وكاشف نفوس المؤمنين بباقي السورة. ويقال: كاشف الوالهيين بقوله: (هُوَ)، والموحِّدين

(1) البيهقي، شعب الإيمان، الإيمان بالله عز وجل، فصل في الإشارة إلى أطراف الأدلة في معرفة الله عز وجل وفي حدث العالم، حديث رقم: 120، 263/1. وأخرجه أبو الشيخ، عبد الله بن محمد الأصبهاني، ت 369 هـ، العظمة، تحقيق رضاء الله المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، ط 1، 1408 هـ، باب الأمر بالتفكير في آيات الله عز وجل وقدرته وملكه وسلطانه وعظمته ووحدانيتها، حديث رقم: 1، 210/1. قال عنه الألباني: وبالجملة فالحديث بمجموع طرقه حسن عند الألباني، محمد ناصر الدين، ت 1420 هـ، سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1415-1422 هـ/1995-2002 م، حديث رقم: 1788، 395/4.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 452/3 وما بعدها.

بقوله: (الله) والعارفين بقوله: (أحد) والعلماء بقوله: (الصمد) والعقلاء بقوله: (لم يلد ولم يولد)... ويقال: خاطب الذين هم خاص الخواص بقوله: (هو) فاستقلوا، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال: (الله)، ثم زاد في البيان لمن نزل عنهم. فقال: (أحد) ثم لمن نزل عنهم فقال: (الصمد)⁽¹⁾.
يبين الشيخ القشيري أن معرفة العباد للحق تتفاوت؛ فمنهم العامي، ومنهم العارف، ومنهم المحقق، فخاطبهم الحق كلاً على حسب علمه. وأن الله سبحانه وتعالى خاطب النفوس والقلوب والأرواح والأسرار.

ويلاحظ من دراسة الآيات السابقة من تفسيري الشيخين ما يلي:

1- من البدهي اتفاق الشيخين على أصل التوحيد ومعناه، وأن ذلك يظهر من خلال الإيمان بصفات الله الكاملة.

2- يمتلئ تفسيراً الشيخين عن آخرهما بشرح التوحيد وتوضيحه⁽²⁾.

3- يلاحظ أن الشيخ الجيلاني يبرز معنى التوحيد من خلال التركيز على أسماء الله وصفاته، بينما يركز الشيخ القشيري في توضيحه لمعنى التوحيد على علاقة العبد بأسماء الله وصفاته، وانعكاسها عليه.

4- يركز الشيخ القشيري على تفاوت درجات التوحيد عند الناس، عامهم وخاصهم، ويطنب في بيان ذلك.

5- يؤكد الشيخ الجيلاني مراراً في تفسيره على حقيقة أن الموجود الحقيقي هو الله وحده؛ إذ إن العبد الحق يواصل رؤية النواقص فيما سواه، حتى ينمحي في نظره كل شيء ما عدا الله عز وجل.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 460/3 وما بعدها.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 388/1، 103/3، 80/6، 441/6. القشيري، لطائف الإشارات، 136/1، 243/1، 131/2.

المبحث الثاني: القضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّنَّةِ، ففي حديث جبريل عليه السّلام المشهور، أجاب النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما سئل عن الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقْتُ⁽¹⁾. فنحن مطالبون بالإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه وممره.

ومما يعين المسلم على الرّضا بالقضاء والقدر علمه أنّ كل ما وقع عليه من تصارييف الزّمان هو بعلم الله القديم، وإرادته الحكيمة، وتدبيره البديع، فيعلم أنّه "لا يجري في سلطانه إلا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه غير ما سبق به القضاء، ما علم أنه يكون من الحادثات أراد أن يكون وما علم أنّه لا يكون ممّا جاز أن يكون أراد أن لا يكون، خالق أكساب العباد خيرا وشرها"⁽²⁾.

وقد عزّف الشّيخ البوطيّ رحمه الله القضاء والقدر فقال: "القضاء: هو علمُ الله عزّ وجلّ بالأشياء كلّها على ما ستكون عليه في المستقبل، أمّا القدر: فهو إيجاد تلك الأشياء بالفعل طبقاً لعلمه الأزلي، المتعلّق بها"⁽³⁾.

وقد أفرد الشّيخ عبدُ القادر الجيلانيّ في كتابه (الغنية) فصلاً مستقلاً عن القضاء والقدر أسماه: فصل (وينبغي أن يؤمن بخير القدر وشره، وحلو القضاء وممره)، جاء فيه:

"وأنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه بالحدز، وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب، وأن جميع ما كان في سالف الدّهور والأزمان، وما يكون، إلى يوم البعث والنّشور بقضاء الله وقدره المقدور، وأنّه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خطّ في اللّوح المسطور، وأنّ الخلائق لو جهدوا أن ينفعوا المرء بما لم يقضه الله تعالى لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروه بما لم يقضه الله عليه لم يستطيعوا"⁽⁴⁾.

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم عِظَمَ أَهْمِيَّةِ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ فَقَالَ: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذْبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُحِطِّنَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلَتْ النَّارُ»⁽⁵⁾.

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، حديث رقم: 8.

(2) القشيري، الرسالة القشيرية، 33/1.

(3) البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص 64.

(4) الجيلاني، الغنية، 140/1.

(5) سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في القدر، حديث رقم: 4699. قال عنه الشيخ الأرنؤوط: إسناده حسن.

وقد دلت الكثير من آيات الذكر الحكيم على عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، منها:

1- قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ [آل عمران:154].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (ثُمَّ) لَمَّا تَبَتَّم وَرَجَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ، وَنَدِمْتُمْ عَمَّا فَعَلْتُمْ، (أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ) امْتِنَانًا لَكُمْ وَتَفَضُّلاً، (مِّن بَعْدِ الْغَمِّ) الْمَفْرُط (أَمَنَةً) طَمَآنِينَةً وَوَقَارًا، حَيْثُ تَوَرَّثَ (نُّعَاسًا) رَقْدَةً وَنَوْمًا، (يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ) وَهُمُ الْمُتَحَقِّقُونَ بِمَقَامِ الْعِبَادِيَّةِ، الرَّاضُونَ بِمَا جَرَى عَلَيْهِمُ مِنَ الْقَضَاءِ، لَا تَتَشَوَّشُهُمُ السَّرَاءُ وَالضَّرَاءُ (وَطَآئِفَةٌ) مِنْ مَنَافِقِكُمْ، (قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ) أَي: أَوْفَعْتَهُمْ نَفُوسَهُمْ وَأَمَانِيَّتَهُمْ فِي الْهَمُومِ وَالْغَمُومِ الْمُبْعَدَةِ عَنِ مَقَامِ التَّقْوِيضِ وَالتَّسْلِيمِ إِلَى حَيْثُ (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ) ظَنًّا بَاطِلًا (غَيْرَ) ظَنَّ (الْحَقِّ)؛ بَل (ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)؛ حَيْثُ (يَقُولُونَ) لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتِكْشَافًا ظَاهِرًا، أَوْ اسْتِكْشَافًا خَفِيَّةً: (هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ) أَي: أَمْرُ اللَّهِ الَّذِي وَعَدْتَنَا وَالتَّوَكَّلْنَا عَلَيْهِ، (مِنْ شَيْءٍ) أَمُ الْأَمْرِ لِلْعَدْوِ دَائِمًا، وَالتَّوَكَّلْنَا لَهُ مُسْتَمِرًّا؟ (قُلْ) لَّهُمْ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ إِلزَامًا وَتَبْكِيَةً: (إِنَّ الْأَمْرَ) أَي: أَمْرٌ جَمِيعٌ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ (كُلَّهُ لِلَّهِ) أَوَّلًا، وَبِالذَّاتِ بَلَا رُؤْيَا الوَسَائِلِ وَالتَّوَكَّلْنَا فِي الْبَيْنِ، وَهَمٌّ مِنْ غَايَةِ عَمَاهُمْ، (يُخْفُونَ فِي) أَنفُسِهِمْ مِنْ الْبُغْضِ وَالتَّنَاقُ (مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ)؛ بَل يُبْدُونَ لِإِخْوَانِهِمْ، إِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ حَتَّى (يَقُولُونَ) مَتَهَكِّمِينَ، مُسْتَهْزِئِينَ: (لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا) مَهَانِينَ، مَظْلُومِينَ (قُلْ) لَهُمْ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ كَلَامًا نَاشِئًا عَنِ مَحْضِ الْحِكْمَةِ: لَا مَرَدَّ لِقَضَاءِ اللَّهِ، وَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ؛ بَلْ يَجْرِي فِي مَلِكِهِ مَا ثَبَتَ فِي عِلْمِهِ. وَاعْلَمُوا أَنْكُمْ (لَوْ كُنْتُمْ) مَتَمَكِّنِينَ (فِي بُيُوتِكُمْ) غَيْرَ خَارِجِينَ مِنْهَا لِلْقِتَالِ (الْبَرَزَ) لَظَهَرَ وَخَرَجَ الْبَيْتَةُ (الَّذِينَ كُتِبَ) قُدِّرَ وَفُورِضَ فِي الْأَزْلِ، (عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ) فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ، مُسْرِعِينَ (إِلَى) مَضَاجِعِهِمْ) وَمَقَاتِلَهُمْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي قُدِّرَ بَلَا تَأْخِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ، (وَ) إِنَّمَا فَعَلَ بِكُمْ مَا فَعَلَ (لِيَبْتَلِيَ) وَيَخْتَبِرَ وَيَمْتَحِنَ (اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ) أَوُّهُ مِنَ الرِّضَا وَالتَّوَكَّلْنَا وَالتَّوَكَّلْنَا؟ أَمْ مِنَ الشَّقَاقِ وَالتَّنَاقُ؟ (وَلِيُمَحِّصَ) يَطْهَرُ وَيَصْفِي (مَا فِي قُلُوبِكُمْ) مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوَكَّلْنَا عَنِ الْكُفْرِ وَالتَّنَاقُ (وَاللَّهُ) الْمَطَّلَعُ لِسِرَائِرِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ (عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أَي: الْأُمُورِ الْمَكْنُونَةِ فِيهَا"⁽¹⁾.

يقول الشيخ عبد القادر: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْبِرُنَا عَنِ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَاسِخَةِ الْإِيمَانِ، لَا تَتَزَلْزَلُ تَحْتَ مَطَّارِقِ الْقَدْرِ؛ فَهُمْ ثَابِتُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، رَاضُونَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَنِ قَدَرِهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، بِخِلَافِ

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 335/1 وما بعدها.

المنافقين الذين جاءت الآيات في فضحهم وإفحامهم، فمن جملة الردود عليهم أَنَّ قضاء الله نافذٌ مهما احترز منه الإنسان (لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم).

وعقيدة القضاء والقدر للمؤمن تَمَلُّؤُهُ طمأنينةً وثقةً بالله وتفويضًا له سبحانه، إذ لا يجري في ملك الله إلا ما ثبت في علمه القديم سبحانه وتعالى.

ومن المناسب في هذا المقام نقل كلام نفيس للعلامة البوطي رحمه الله؛ إذ يقول: "القضاء فرع عن ثبوت صفة العلم والإرادة لله تعالى، والقدر فرع عن ثبوت صفة القدرة له جلّ وعلا"⁽¹⁾.

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ" مَنْ عَرَفَ أَنَّ الْمُنشَأَ اللَّهُ انْسَلَخَ عَنْ اخْتِيَارِهِ وَأَحْوَالِهِ كَانَسَلَاخِ الشَّعْرِ عَنِ الْعَجِينِ، وَسَلَّمَ أُمُورَهُ إِلَى اللَّهِ بِالْكَلِيَّةِ. وَأَمَارَةٌ مَنْ تَحَقَّقَ بِذَلِكَ أَنْ يَسْتَرِيحَ مِنْ كَدِّ تَدْبِيرِهِ، وَيَعِيشَ فِي سَعَةِ شَهْوَدِ تَقْدِيرِهِ. وَقَوْلُهُ: (يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ) لَمْ يَخْلُصُوا فِي عَقَائِدِهِمْ، وَأَضْمَرُوا خِلَافَ مَا أَظْهَرُوا، وَأَعْلَنُوا غَيْرَ مَا سَتَرُوا، وَأَحَالُوا الْكَائِنَاتِ عَلَى أَسْبَابِ تَوْهَمِهَا. قَالَ تَعَالَى: (قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ) أَخْبَرَ أَنْ التَّقْدِيرَ لَا يَزَاحِمُ، وَالْقَدْرَ لَا يَكَابِرُ، وَأَنَّ الْكَائِنَاتِ مَحْتَوَمَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ. وَقَوْلُهُ: (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ) فَأَمَّا أَهْلُ الْحَقَائِقِ فَإِنَّهُ تَعَالَى يَنْتَزِعُ مِنْ قُلُوبِهِمْ كُلَّ آفَةٍ وَحِجْبَةٍ، وَيَسْتَخْلَصُ أَسْرَارَهُمْ بِالْإِقْبَالِ وَالزَّلْفَةِ، فَتَصْبِحُ قُلُوبُهُمْ خَالِصَةً مِنَ الشَّوَابِ، صَافِيَةً عَنِ الْعَلَائِقِ، مَنْفَرَدَةً لِلْحَقِّ، مَجْرَدَةً عَنِ الْخَلْقِ، مَحْرَرَةً عَنِ الْحِظِّ وَالنَّفْسِ، ظَاهِرَةً عَلَيْهَا آثَارُ الْإِقْبَالِ، غَالِبًا عَلَيْهَا حَسَنُ التَّوَلَّى، بَادِيَةً فِيهَا أَنْوَارُ التَّجَلِّي"⁽²⁾.

يوضّح الشيخ القشيري ثمرةً عظيمةً من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر؛ وهي الاستراحة من عناء التدبير والعيش في جنة شهود تقدير المولى عزّ وجلّ؛ فالأمر كله لله، له ما قضى سبحانه، وعلينا التسليم له جلّ جلاله بالكلية، ويعاود القرآن التأكيد على هذه الحقيقة، لئجلّيها (لبرز الذين كتب عليهم القتل)؛ فالتقدير لا يزاحم ولا يعارض، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21].

ويختتم الشيخ القشيري تفسيره للآية ببيان من تولّاهم الله تعالى بكرمه ولطفه، وصفّى قلوبهم عن العلائق والركون إلى الخلق، وخصّهم بالإقبال عليه وانفرادهم بالحق سبحانه وتعالى.

2- قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا

(1) البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص 64.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 1/178.

يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ
لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ [النساء: 78-79]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ) عند حلول الأجل المقدر له من عنده (وَلَوْ كُنْتُمْ) متحصنين (فِي بُرُوجٍ) قلاع وحصون (مُشِيدَةٍ) بأنواع التشييدات والتحصينات؛ إذ لا مرد من قضاء الله، ولا مُعَقَّبٍ لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (و) هم أيضاً من غاية تزلزلهم وتذبذبهم، وعدم رسوخهم في جادة التوحيد (إِنْ تُصِيبُهُمْ) حسنة فتح وغنيمة تفرح بها نفوسهم وتتبسط (يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) تفضلاً علينا، وامتناناً (وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ) بليّة واختبار تتقبض بها نفوسهم (يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ) أي: اضافوها إليك متشائمين بك، كما تشاءمت اليهود حيث قالت: منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلّت أوعارها (قُلْ) لهم كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة والإيقان: (كُلٌّ) من الحوادث الكائنة سواء كانت مفرحة أو مملة، مقبضة أو مبسطة نازل (مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) حسب قدرته وإرادته، لا يسأل عن فعله ولا في أمره؛ بل له التصرف مطلقاً، (فَمَالِ) عرض (هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ) المنحطين عن درجة التوحيد والعرفان (لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ) ويفهمون (حَدِيثًا) يخلصهم عن التزلزل، وتردد المرتبة على الإضافات المنافية للتوحيد، ولو أنهم من أهل التدبير والتأمل في سرائر كلام الله ومرموزاته لفتح عليهم مما يخلصهم عن دغدغة الكثرة مطلقاً، فكيف إضافة الحسنة والسيئة. ثم لما أراد سبحانه أن ينبّه على خلص عباده طريق توحيده، وأن ظهوره في المظاهر كلها خير محض لرسوله صلى الله عليه وسلم لأن تحمل أمثال هذه الخطابات، وأن الشرّ إنّما هو من الإضافة العارضة بسبب التعيينات العدمية، فقال مخاطباً لرسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ تحمل أمثال هذه الخطابات الصادرة عن محض الحكمة، إنّما يليق بجنابه ليصل منه إلى أمته: (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ) مسرة لنفسك (فَمِنَ اللَّهِ) وعلى جري عاداته، وظهوره على مظاهره بالخير والحسنى (وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ) محزنة مملّة لنفسك (فَمِنَ نَفْسِكَ) تظهر، ومن إضافتك تحصل، وإلا فهو خير في نفسه لا شرّ في الوجود أصلاً (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا) تنبّه لهم ما نبّهت من لدنا (وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) على إرسالك وتبليغك⁽¹⁾.

يفسر الشيخ عبد القادر الآلية بأن كل ما يتعرض له الإنسان من حوادث مختلفة في حياته من حزن أو سرور، أو منع أو عطاء، أو قبض أو بسط، كلّه من عند الله، قدره على خلقه من الأزل، مقدر بعلمه تعالى السابق.

وأنّ الموحد العارف يرى الكلّ من الله الخير والشرّ، وأنّ الشرّ على الحقيقة هو الخير، وإنّما يضاف إلى الشرّ من جهة نظر النفس إليه، ولو أنّ الحكمة كُشفت لها لعلمت يقيناً الخير المخبأ فيه، ولعلمت أنّ المحنة هي عينُ المنحة.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 416/1 وما بعدها.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "قل لهم يا محمد كل من عند الله خلقاً وإبداعاً، وإنشاءً واختراعاً، وتقديراً وتيسيراً. ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ما أصابك من حسنة فمن الله فضلاً، وما أصابك من سيئة فمن نفسك كسباً وكلاهما من الله سبحانه خلقاً"⁽¹⁾.

يفسر الشيخ القشيري الآية تفسيراً مختصراً جداً فيقول: (كل من عند الله) خلقاً وإنشاءً وتقديراً وتيسيراً. الحسنة من الله بفضلها وكرمه وتوفيقه، والسيئة من كسب العبد (من نفسه) كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 182]. وأزال الشيخ التعارض الظاهري بين الآيتين عن طريق نسبة خلق الفعل لله، وأنها من كسب الإنسان.

3- قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 30].

قال الشيخ الجبلاني عند تفسيرها: " (فريقاً) منكم (هدى) بتوفيق الله إلى مبدئه ومعاده، (وفريقاً) ضلّ وغوى لذلك (حقّ) وثبت (عليهم الضلالة) في مكنن القضاء، وكيف لا يحقّهم ويحيط بهم الضلالة، (إنهم) من غاية غفلتهم، (اتخذوا الشياطين أولياء) آلهة (من دون الله) المتوحد بذاته، (ويحسبون) بسبب هذا الاتخاذ (أنهم مهتدون) إلى طريق النجاة؛ بل ضالون تائهون"⁽²⁾.

يقول الشيخ عبد القادر أنّ الهداية بتوفيق الله عزّ وجلّ، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125]، وكان ضلال الفريق الثاني بأنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، فوجبّ عليهم الضلالة، ولم يقفوا عند هذا الحد؛ فمن خذلان الله لهم، يحسبون أنهم مهتدون.

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "من كانت قسمته سبحانه له بالسعادة كانت فطرته على السعادة، وكانت حالته بنعت السعادة، ومن كانت حالته بنعت السعادة كانت عاقبته إلى السعادة، ومن كانت القسمة له بالعكس فالحالة بالصدّ... وجملة العلم بالقضاء والقدر أن يتحقّق أنّه علم ما يكون أنّه كيف يكون، وأراد أن يكون كما علم. وما علم ألا يكون ممّا جاز أن يكون أرادّه ألا يكون أخبر أنّه لا

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 217/1.

(2) الجبلاني، تفسير الجبلاني، 99/2.

يكون... وهو على وجه الذي أخبر، وقضى على العبد وَقَدَّرَ أجرى عليه ما سبق به الحكم، وعلى ما قضى عليه حصل العبد على ذلك الوصف⁽¹⁾.

يشير الشيخ القشيري إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَلَّ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٌ؟ يَا رَبِّ عَلَقَةٌ؟ يَا رَبِّ مُضْغَةٌ؟ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ: أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَى، شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ، فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»⁽²⁾، فعلم الله السابق للسعداء والأشقياء منذ الأزل هو النافذ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»⁽³⁾.
وَلَحَّصَ الشَّيْخُ الْعِلْمَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ فَقَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ كُلَّ مَا سَيَكُونُ، وَكَيْفَ سَيَكُونُ، وَأَنَّ إِرَادَتَهُ نَفَذَتْ بِذَلِكَ، وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِلْمَ الْأُمُورِ الَّتِي لَنْ تَقَعَ، وَأَنَّ إِرَادَتَهُ نَفَذَتْ بَعْدَ وَقُوعِهَا.

4- قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:22].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ أَي: ما حدث من حادثة مفرحة أو موحشة، كائنة (فِي الْأَرْضِ) أَي: في أقطار الآفاق من الخصب والرِّخاء، والزَّلْزَلَة والوباء إلى غير ذلك من المفرحات والموحشات الحادثة في الأنحاء والأرجاء (وَلَا) كائنة (فِي أَنْفُسِكُمْ) من العوارض المسرّة، والشّهوات الملذّة، أو من الأمراض والملّمات المؤلمة (إِلَّا) ثبت حدوثها في ساعة كذا، في آن كذا، على وجه كذا (فِي كِتَابٍ) أَي: في حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه على اختلاف العبارات (مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) خلقها ونظرها؛ أَي: ثبت حدوث الحادثة في وقتها في كتابنا قبل أن تخلق الحادثة بزمان لا يعلم أحد مقداره إلا نحن، ولا تستبعدوا من قدرتنا أمثال هذا (إِنَّ ذَلِكَ) الثبت والتقدير السابق، وإن كان عندكم عسير (عَلَى اللَّهِ) القادر المقنن، الغالب على عموم المقدورات (يَسِيرٌ) سهل في جانب قدرته وإرادته. والسّرّ في ثبوتها قبل خلقها: (لِكَيْلًا تَأْسَوْا) ولا تحزنوا أيها المجبولون على فطرة الكفران (عَلَى مَا فَاتَكُمْ) من اللذات والشّهوات المرغوبة (وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) منها؛ ليكون فرحكم سبباً لكبركم وخيلائكم على ضعفاء الأنام، وفقراء الإسلام (وَ) بالجملة: (اللَّهُ) المطلع على ما في استعدادات عباده من النّحو والاستكبار (لَا يُحِبُّ كُلُّ مُخْتَالٍ) ذو كبر وخيلاء منهم (فَخُورٍ) مفاخر مباهاة؛ بسبب المال والجاه والثروة، والسيادة على أقرانه وأبناء زمانه. وإذا كان الأمر كذلك فلا تسندوا

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 331/1.

(2) صحيح البخاري، كتاب الحيض، باب مخلقة وغير مخلقة، حديث رقم: 318.

(3) صحيح البخاري، كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدرًا مقدورا، حديث رقم: 6605.

الأمر إلى أنفسكم؛ بل فوضوا أموركم كلها إلى الله، وأسندوها إليه سبحانه بالأصالة، فلا تفرحوا ولا تحزنوا؛ بل أفنوا في الله وأنقوا؛ لتتمكنوا ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] (1).

يتحدث الشيخ الجيلاني عن علم الله السابق للأشياء جميعها، وأنها مكتوبة في اللوح المحفوظ (2)، أي وثق العمل بتفاصيله - إن جاز التعبير - في اللوح المحفوظ.

إن كان ذلك عندكم - معشَرَ البشر - عسيراً فهو على الله تعالى يسيراً؛ فهو القادر المقتدر الغالب على أمره.

والسبب في هذه الكتابة لعلم الله فيما سيقع من أمور على التفصيل ليزيل من قلب العباد التَّحَسُّرَ على ما فاتهم من الدنيا، وفي الوقت نفسه لكي لا يفرحوا إن كانوا من أهل السَّعة في الدنيا بما آتاهم، فلا يتكبروا على عباد الله؛ لأنَّه هو الذي أعطاهم ووسَّع عليهم.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "لا يحصل في الأرض ولا في أنفسكم شيء إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ على الوجه الذي سبق به العلم، وحقَّ فيه الحكم، فقبل أن نخلق ذلك أثبتناه في اللوح المحفوظ. فكلَّ ما حصل في الأرض من خصب أو جذب، من سعة أو ضيق، من فتنة أو استقامة، وما حصل في النفوس من حزن أو سرور، من حياة أو موت كلَّ ذلك مثبت في اللوح المحفوظ قبل وقوعه بزمان طويل. وفي قوله: (مَنْ قَبْلَ أَنْ نُبْرَأَهَا) دليل على أنَّ أكساب العباد مخلوقة لله سبحانه، وللعبد في العلم بأنَّ ما يصيبه من بسط وراحة وغير ذلك من واردات القلوب من الله أشدَّ السرور وأتمَّ الأُنس حيث علم أنه أفرد بذلك بظهر غيب منه، بل وهو في كنز العدم" (3).

يعتقد الإمام القشيري بخلق أفعال العباد (4)، ويستدل بالآية على ذلك. ويبين الشيخ القشيري أنَّ العبد المؤمن بالقضاء والقدر إنَّ تَعَرُّضَ لِنَفَحَاتِ رَبَّانِيَّةٍ؛ مثل البسط والفرح كان سروره بها أشدَّ من سُرورِ غَيْرِهِ، وأنَّسَهُ بها أتمَّ وأكمل من غَيْرِهِ؛ لأنَّه عَلمَ أنَّ الله تعالى أكرمه بها وهو في العدم؛ منَّةً من الله وجوداً. ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113].

ومن خلال دراسة الآيات السابقة في القضاء والقدر يتبين ما يلي:

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 19/6 وما بعدها.

(2) وهو الكتاب الذي كتب الله فيه كلَّ مقادير الخلق، ونقل ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهم أن اللوح المحفوظ هو نفسه المقصود بقوله تعالى (أم الكتاب) ، ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر القرشي، ت 774هـ، تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ، 200/7.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 219/3 وما بعدها.

(4) سبق توضيحه ص 97.

1- يظهر وضوح عقيدة القضاء والقدر عند الشيخ عبد القادر؛ فهو يؤمن أن الله تعالى بعلمه القديم علم ما كان، وما سيكون، من أفعال العباد وغيرها من تصاريف الزمان بعلمه القديم قبل إظهارها وتحققها على الواقع أو صدورها عن المكلفين، فهي تقع بالضبط كما هو مُقدَّر في علم الله المحيط وكما هي مكتوبة في اللوح المحفوظ.

2- عقيدة الإمام القشيري في القضاء والقدر تتلخص في قوله بِخُلِقِ أفعال العباد بخيرها وشرها، فقد قال في رسالته القشيرية: "ولا يخرج عن قدرته مقدور ولا ينفك عن حكمه مفطور، ولا يعزب عن علمه معلوم ولا هو على فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم،...فعل ما يريد ويدل لحكمه العبيد، لا يجري في سلطانه إلا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه غير ما سبق به القضاء، ما علم أنه يكون من الحادثات أراد أن يكون وما علم أنه لا يكون مما جاز أن يكون أراد أن لا يكون، خالق أكساب العباد خيرها وشرها"⁽¹⁾.

3- أهميّة عقيدة القضاء والقدر للمسلم؛ إذ إنّه يؤمن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيرضى بما قضاه الله وقدره عليه.

4- الإيمان بالقضاء والقدر يورث راحة القلب والفكر؛ فالمؤمن يترك لله عز وجل تدبير أموره، واختيار ما يصلحه له. «يا حيّ يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»⁽²⁾.

وفي أثناء إعداد هذا المبحث خطرت للباحث خواطر؛ وهي:

1- القرآن الكريم فيه آيات محكمة وأخرى متشابهة، وعلى المؤمن ردّ المتشابه إلى المحكم، كما أمرنا الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران:7]، فيجب ردّ الآيات التي يظهر منها الجبر إلى الآيات المحكمة التي توضح أن الله منح الإنسان حرية الاختيار، وزوّده بأدواتها.

2- في قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء:79] حُتِمَت الآية الكريمة بـ(وكفى بالله شهيدًا)؛ فالمؤمن

(1) القشيري، الرسالة القشيرية، 33/1.

(2) سبق تخريجه ص 130.

الصّادق يكفيه عِلْمُ اللَّهِ فيه؛ فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ نازِلَةٌ يراها في الظّاهر شرّاً له طَمَأَنَ نفسه وَهَدَّأَ مِنْ رُوعِهِ علمه باطّلاع الله على حاله؛ لما يعلمه من صفات ربّه الرّحيم الكريم، القويّ اللّطيف، الوليّ النّاصر.

3- في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:30] يُلاحظ المتدبّر للآية الكريمة أنّ الحقّ عزّ وجلّ قال: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، ولم يقل سبحانه وتعالى: وفريقًا أضلّ؛ لأنّه سبحانه هدى الإنسان النّجدين، وهدى سبيل الشّكر وسبيل الكفران، فكان إضلالهم باستحقاقهم لذلك. فأبصارهم عميت حتّى أنّهم اتّخذوا الشّيطان وليّاً ويظنّون أنّهم بذلك على الهداية والرّشاد.

المبحث الثالث: الذكر

ذَكَرَ اللَّهُ بَابَ عَظِيمٍ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152] وكثرة الذكر علامة من علامات الإيمان؛ لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142].

وقد ورد في الشرع الحكيم التحذير من ترك الذكر، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36].

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم سيّد الذّاكرين حدّثنا أن نجلس مجلسًا ولا نذكر الله تعالى فيه، فقال: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَيَّ نَبِيِّهِمْ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ»⁽¹⁾.

وذكر الله تعالى هو المقصود من العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14]، ويكفي الذّاكر مقامًا ورفعةً معيّة الله تعالى له، وليس هذا فحسب؛ فإن ذَكَرَ العبدُ رَبَّهُ في نفسه ذَكَرَهُ اللهُ في نفسه العليّة؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْسِيهِ أَتَيْتُهُ هَرُولَةً»⁽²⁾. وفيه إشارة إلى سرعة رحمة الله تعالى للعبد الذّاكر⁽³⁾.

وقد عرّف الشّيخُ القشيريُّ الذّكرَ فقال: "هو استغراق الذّاكر في شهود المذكور، ثم استهلاكه في وجود المذكور، حتّى لا يبقى منك أثر يُذكر"⁽⁴⁾.

وقال الشيخ أبو عليّ الدّقّاق: "الذّكرُ رُكْنٌ قَوِيٌّ في طريقِ الحقِّ سبحانه وتعالى؛ بل هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصلُ أحدٌ إلى الله تعالى إلا بدوامِ الذّكرِ"⁽⁵⁾.

-
- (1) سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب في القوم يجلسون ولا يذكرون الله، حديث رقم: 3380. وقال: حديث حسن.
 - (2) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ويحذركم الله نفسه، حديث رقم: 7405. وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل الذكر والدعاء، والتقرب إلى الله تعالى، حديث رقم: 2686.
 - (3) مقابلة مع الدكتور عمر الصالحي.
 - (4) القشيري، لطائف الإشارات، 1/77.
 - (5) القشيري، الرسالة القشيرية، 2/374.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له جُمدان، فقال: «سيروا. هذا جمدان. سبق المُفَرِّدون قالوا: وما المفردون؟ يا رسول الله! قال "الذاكرون الله كثيرا، والذاكرات»⁽¹⁾.

ويذكر الإمام المناوي⁽²⁾ تقسيماً مهماً لدرجات الذكر؛ فيقول رحمه الله: "ولزوم الذكر عند أهل الطريق من الأركان الموصلة إلى الله تعالى، وهو ثلاثة أقسام: ذِكْرُ الْعَوَامِّ بِاللِّسَانِ، وذكر الخواص بالقلب، وذكر خواص الخواص بفنائهم عند مشاهدة مذكورهم؛ حتى يكون الحق مشهوداً لهم في كل حال، قالوا وليس للمسافر إلى الله في سلوكه أنفع من الذكر المفرد القاطع من الأفئدة الأغيار؛ وهو «الله»، وقد ورد في حقيقة الذكر وأثاره وتجلياته ما لا يفهمه إلا أهل الذوق"⁽³⁾. " والذكر أنواع، هي: ذكر اللسان، وذكر القلب، وذكر الروح، وذكر السر"⁽⁴⁾.

وذكر الشيخ عبد القادر طائفة من فوائد الذكر فقال: "من فوائد الذكر الرضا بجميع ما جرى عليه من القضاء، والنّبات على العزيمة، وتحمل الشدائد، ومقاساة الأحزان، وارتكاب المتاعب والمشاق في إعلاء دين الله وكلمة توحيدِهِ، والتوكُّل نحوه في الصّراء والسّراء، وكظم الغيظ عند هجوم الغضب، والعفو عند المغفرة، وغير ذلك من الخصائل الحميدة، والأخلاق الجميلة المرضية"⁽⁵⁾، ويمكن شرح ذلك من خلال ما يلي:

1- الرضا بجميع ما يجري على العبد من القضاء؛ فالعبد المداوم على ذكر مولاه في جميع حالاته يورث عنده ذلك قوة القلب وطمانينته: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: 130]، فهو غني بالله، وراضٍ عنه، مستشعر لمعيته، ينطق قلبه قبل لسانه: ﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الشعراء: 62].

(1) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم 2676.
(2) هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين، الحدادي، ثم المناوي القاهري، زين الدين، من كبار العلماء بالدين والفنون. انزوى للبحث والتصنيف، وكان قليل الطعام كثير السهر، فمرض وضعفت أطرافه، فجعل ولده تاج الدين محمد يستملي منه تأليفه. له نحو ثمانين مصنفاً، عاش في القاهرة، وتوفي بها عام 1031هـ. الزركلي، الأعلام، 203/6.

(3) المناوي، زين الدين محمد، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي، ت 1031هـ، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 309/2.

(4) مقابلة مع الدكتور عمر الصالحي. وعرف الدكتور الصالحي السرّ بأنه: لطيفة من نور الله تعالى مودعة في القلب.

(5) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 362/4. عند تفسيره لقوله تعالى: (وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا) الأحزاب: 21.

2- الذِّكْرُ الكَثِيرُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يورث عند العبد خلق العفو عند المقدرة؛ لأنَّه على ذكر بأنَّ الله أمره بالعفو، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:22]،

3- ذكر الله تعالى يُعِينُ الْإِنْسَانَ عَلَى تَحْمَلِ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ وَمَشَاقِقِهَا، وَالشَّاهِدُ لَهُ تَعْلِيمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلسَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ التَّسْبِيحَاتِ قَبْلَ النَّوْمِ، وَأَنَّهَا خَيْرٌ لَهَا مِنْ خَادِمٍ: فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ فَاطِمَةَ أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْأَلُهُ خَادِمًا، وَشَكَتِ الْعَمَلَ، فَقَالَ: "مَا أَلْفَيْتِيهِ عِنْدَنَا، أَلَا أَدْلِكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ خَادِمٍ؟ تَسْبِيحِينَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ. وَتَحْمِيدِينَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ. وَتُكْبِرِينَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ. حِينَ تَأْخُذِينَ مَضْجَعَكَ" (1).

4- ذِكْرُ اللَّهِ يُعِينُ الْإِنْسَانَ عَلَى كَظْمِ الْغَيْظِ عِنْدَ هُجُومِ الْغَضَبِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:201].

5- ذِكْرُ اللَّهِ كَثِيرًا يَرَبِّي فِي الْإِنْسَانِ الْأَخْلَاقَ الْحَمِيدَةَ، وَالْخِصَالَ الْمَرْضِيَّةَ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ الْكَثِيرَ يورث مراقبة العبد لمولاه، فيحسن من أخلاقه؛ لِأَنَّهَا تَحْتَ نَظْرِ اللَّهِ، فَيَجْعَلُهَا عَلَى أَكْمَلِ صُورَةٍ، وَأَحْسَنِ خَلْقٍ.

6- يُعِينُ ذِكْرُ اللَّهِ عَلَى تَحْمَلِ الْأَحْزَانِ؛ لِأَنَّ الذَّاكِرَ يَنَاجِي رَبَّهُ، وَيَدْعُوهُ فَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ» (2)، فالذاكر يفرغ إلى مولاه دائمًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ حَاضِرٌ فِي قَلْبِهِ.

7- ذَكَرَ اللَّهُ خَيْرُ زَادٍ عِنْدَ الْخُطُوبِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِهِ جَنَابًا إِلَى جَنَبٍ مَعَ الْأَمْرِ بِالثَّبَاتِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:45]؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَكْبَرُ فِي قَلْبِهِ مِنْ كُلِّ عَدُوٍّ وَمِنْ كُلِّ خَطَرٍ، اللَّهُ أَكْبَرُ مِمَّا أَخَافَ وَأَحْذَرُ.

والشَّيْخُ عَبْدِ الْقَادِرِ يَنْصَحُ بِالْإِكْتِرَارِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ بِاسْمِهِ الْمَفْرَدِ (اللَّهُ)، فَيَقُولُ: "ذَكَرَ اللَّهُ بِاسْمِهِ الْجَامِعِ الشَّامِلِ لِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ (اللَّهُ) لَا عَلَى سَبِيلِ التَّعَدُّدِ وَالْإِحْصَاءِ، وَلَا فِي حِينٍ دُونَ حِينٍ؛ بَلْ كَثِيرًا، مُسْتَوْعِبًا لِجَمِيعِ الْأَعْيَانِ، وَالْأَزْمَانِ، وَالْأَوْقَاتِ، وَالْحَالَاتِ" (3). وَالْإِسْمُ الْمَفْرَدُ (اللَّهُ) هُوَ الْإِسْمُ الْأَعْظَمُ عِنْدَ جَمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ اعْتِقَادُ جَمَاهِيرِ مَشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ، وَمُحَقِّقِي الْعَارِفِينَ؛ فَإِنَّهُ لَا ذِكْرَ عِنْدَهُمْ لِصَاحِبِ مَقَامٍ فَوْقَ مَقَامِ الذِّكْرِ بِاسْمِ (اللَّهُ) مُجْرَدًا (4).

(1) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التسيب أول النهار وعند النوم، حديث رقم: 2728.

(2) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من الجبن والكسل، حديث رقم: 6369.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 374/4 عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب:35].

(4) عبد القادر، عيسى، حقائق عن التصوف، ص126.

ولله دَرُ الإمامِ القشيري ما أظننه وما أفهمه عن الله! إذ يفسر قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152] فيقول: "اشكروا لي عظيم منّي عليكم، بأن أكرمتكم بذكري لكم؛ فذكري لكم أول النعم التي يجب أن تُشكر" (1).

ومن أهمّ الأحاديث التي بيّنت تفضيلَ الذِّكْرِ على سائر الأعمال قوله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى. قال: ذكروا لله تعالى» (2). ويذكر الإمام ابن عطاء الله السكندري مقامات الترقّي في الذِّكْرِ، ويحذّر من ترك الذِّكْرِ لغياب حضور القلب، فيقول: "لا تترك الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللَّهِ فِيهِ؛ لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ. فَعَسَى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَفْظَةٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَفْظَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى الْمَذْكُورِ، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: 20]" (3).

وقد ورد الأمر بالذِّكْرِ والحضّ عليه في كتاب الله في مواضع كثيرة، منها:

1- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطِلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ) المتوحد في ذاته في جميع حالاتهم (قِيَمًا) قائمين (وقُعُودًا) قاعدين (وعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ) مضطجعين، متكئين (ويَتَفَكَّرُونَ) دائماً (في خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ) إلى أن سكروا (4)، وترقى سكرهم إلى أن تحيروا، بعد تحيرهم استغرقوا، وبعدها استغرقوا تاهوا، وبعدها تاهوا فنوا، وحينئذ انقطع سيرهم، فمنهم من تمكّن في تلك المرتبة واستقرّ عليها، ومنهم من صحى عن سكره ورجع إلى بدنه مستكماً، قائلاً: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا) المحسوس، المُشَاهِد (بِاطِلًا) بلا طائل (سُبْحٰنَكَ) ننزهك يا ربنا عن مدركات عقولنا وحواسنا (فَقِنَا) واحفظنا بلطفك (عَذَابَ النَّارِ) التي هي غفلتنا من مطالعة وجهك الكريم" (5).

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 77/1.

(2) سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب منه، حديث رقم: 3377. وقال عنه الشيخ الأرنؤوط: رجاله ثقات.

(3) ابن عجيبة، شرح الحكم العطائية، ص 119.

(4) السكر هو: مصطلح صوفي يقصدون به: الغيبة بوارد شهود الحق، المنوفي، أبو الفيض محمود الحسيني،

مؤسسة الحلبي القاهر، 1387هـ/1967م. 304/1.

(5) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 355/1.

يُفسّر الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ الْآيَةَ فيقول: إِنَّ بَيَانَ اللَّهِ سبحانه لتفاصيل حالهم في الذِّكْر (قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم) إشارةً إلى أَنَّهُمْ يذكرون الله تعالى في جميع حالاتهم، وهذا الذِّكْر الدَّائِمُ لله عَزَّ وَجَلَّ أَوْصَلَهُمْ إِلَى السُّكْرِ، وَيَقْصِدُ بِهِ الشَّيْخُ: الْعَيْبَةَ عَمَّا سِوَى اللَّهِ، وَيَرْقُوا بَعْدَ أَنْ غَابُوا عَنْ مَا سِوَى اللَّهِ إِلَى أَنْ تَحْيَرُوا، وَهَذِهِ الْحَيْرَةُ قَادَتْهُمْ إِلَى الْاسْتِغْرَاقِ، ثُمَّ تَاهَوْا، ثُمَّ خَاضُوا بِحَرِّ الْفَنَاءِ⁽¹⁾.

وَيَبِينُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ أَنَّ أَهْلَ اللَّهِ الْفَانِينَ عَلَى قَسَمِينَ: مِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى مَعَ هَذَا الْحَالِ فَلَا يُرَدُّ إِلَى الصَّحْوِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعِيدُهُ اللَّهُ إِلَى خَلْقِهِ لِيُرْشِدَهُمْ إِلَى الْحَقِّ. وَيُفسّرُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ النَّارَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَفْسِيرًا إِشَارِيًّا فيقول إِنَّهَا نَارُ الْحُجُبِ عَنِ مَطَالَعَةِ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَهِيَ النَّارُ الْحَقِيقِيَّةُ.

وَقَالَ الشَّيْخُ الْقَشِيرِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: "استغرق الذِّكْرُ جميع أوقاتهم؛ فَإِنَّ قَامُوا فَبَذَرُوهُ، وَإِنْ قَعَدُوا أَوْ نَامُوا أَوْ سَجَدُوا فَجَمَلَةُ أَحْوَالِهِمْ مُسْتَهْلَكَةٌ فِي حَقَائِقِ الذِّكْرِ، فيقومون بحقِّ ذكْرِهِ وَيَقْعُدُونَ عَنِ إِخْلَافِ أَمْرِهِ، وَيَقْمُونَ بِصَفَاءِ الْأَحْوَالِ وَيَقْعُدُونَ عَنِ مِلَاحَظَتِهَا وَالِدَّعْوَى فِيهَا (ويذكرون الله قيامًا) على بساطِ الخِدْمَةِ، ثُمَّ يَقْعُدُونَ عَلَى بَسَاطِ الْأَقْرَبِيَّةِ. وَمَنْ لَمْ يَسَلِّمْ فِي بَدَايَةِ قِيَامِهِ عَنِ التَّقْصِيرِ لَمْ يَسَلِّمْ لَهُ قَعُودٌ فِي نَهَائِهِ بِوَصْفِ الْحُضُورِ. وَالذِّكْرُ طَرِيقُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ؛ فَمَا سَلَكَ الْمُرِيدُونَ طَرِيقًا أَصَحَّ وَأَوْضَحَ مِنْ طَرِيقِ الذِّكْرِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سِوَى قَوْلِهِ: «أَنَا جَلِيسٌ مِنْ ذِكْرِي»⁽²⁾ لَكَانَ ذَلِكَ كَافِيًّا. وَالذَّاكِرُونَ عَلَى أَقْسَامٍ، وَذَلِكَ لِتَبَايُنِ أَحْوَالِهِمْ: فَذِكْرٌ يُوْجِبُ قَبْضَ الذَّاكِرِ؛ لِمَا يَذْكُرُهُ مِنْ نَقْصِ سَلْفِ لَهُ، أَوْ فُجِحِ حَصْلُ مِنْهُ، فَيَمْنَعُهُ حَجَلُهُ عَنِ ذِكْرِهِ، فَذَلِكَ ذِكْرٌ قَبْضِيٌّ. وَذِكْرٌ يُوْجِبُ بَسْطَ الذَّاكِرِ لِمَا يَجِدُ مِنْ لَذَائِذِ الذِّكْرِ، ثُمَّ مِنْ تَقْرِيبِ الْحَقِّ إِلَيْهِ بِجَمِيلِ إِقْبَالِهِ عَلَيْهِ. وَذَاكِرٌ هُوَ مَحْوٌ فِي شَهُودِ مَنْكُورِهِ فَالذِّكْرُ يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ عَادَةً، وَقَلْبُهُ مُصْطَلِمٌ فِيهَا بَدَأَ لَهُ. وَذَاكِرٌ هُوَ مَحَلُّ الْإِجْلَالِ يَأْنِفُ مِنْ ذِكْرِهِ وَيَسْتَقْذِرُ وَصْفَهُ، فَكَأَنَّهُ لَتَصَاغِرُهُ عَنْهُ لَا يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَا بَقَاءَ، وَلَا كُونَ وَلَا بَهَاءَ... وَالذِّكْرُ عُنْوَانُ الْوَالِيَّةِ، وَبَيَانُ الْوَصْلَةِ، وَتَحْقِيقُ الْإِرَادَةِ، وَعِلَامَةُ صِحَّةِ الْبَدَايَةِ، وَدَلَالَةُ صَفَاءِ النَّهَائَةِ، فَلَيْسَ وَرَاءَ الذِّكْرِ شَيْءٌ، وَجَمِيعُ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى الذِّكْرِ، وَمُنْشَأَةٌ عَنِ الذِّكْرِ. قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطَلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191]، التَّفَكُّرُ نِعْمَةٌ كُلُّ طَالِبٍ، وَثَمَرَتُهُ الْوَصَالُ بِشَرَطِ الْعِلْمِ، فَإِذَا سَلِمَ الذِّكْرُ عَنِ الشُّوَابِ وَرَدَ صَاحِبُهُ عَلَى مَنَاهِلِ التَّحْقِيقِ، وَإِذَا حَصَلَ الشُّهُودُ وَالْحُضُورُ سَمَا صَاحِبُهُ عَنِ الْفِكْرِ إِلَى حُدُودِ الذِّكْرِ، فَالذِّكْرُ سَرْمَدٌ، ثُمَّ فِكْرُ الرَّاهِدِينَ فِي فَنَاءِ الدُّنْيَا وَقَلَّةِ وَفَائِهَا لَطَابِهَا فَيَزِدَادُونَ بِالْفِكْرِ زَهْدًا فِيهَا. وَفِكْرُ الْعَابِدِينَ فِي جَمِيلِ الثُّوَابِ

(1) سبق تتأولُ مقامِ الفناءِ في البابِ الرَّابِعِ، الْفَصْلُ الْأَوَّلُ، الْمَبْحَثُ الْعَاشِرُ، ص 313.

(2) ابنِ أَبِي شَيْبَةَ، الْمَصْنُفُ، كِتَابُ الطَّهَارَةِ، الرَّجُلُ يَذْكُرُ اللَّهَ وَهُوَ عَلَى الْخَلَاءِ أَوْ هُوَ يَجَامِعُ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: 1232، 245/2. وَمَعْنَاهُ صَحِيحٌ؛ إِذْ تُؤَوَّلُ الْمَجَالِسَةُ بِالْمَعْيَةِ. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ صَحِيحَةٌ فِي النَّصِّ عَلَى مَعْيَةِ اللَّهِ

لِلذَّاكِرِ.

فيزدادون نشاطاً عليه ورغبة فيه. وفكر العارفين في الآلاء والنعم فيزدادون محبة للحق سبحانه. قوله جل ذكره ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (التسبيح يشير إلى سبوح الأسرار في بحار التعظيم⁽¹⁾).

يقول الشيخ القشيري رحمه الله إنَّ طريقَ ذكرِ الله هو أصحُّ الطرقِ وأوضحها إلى الله، ولو لم يكن في الذكرِ فضيلة سوى (أنا جليس من ذكرني) لكَفَّتْ، وحسبنا ذلك، لا نرتضي عنه بدلاً.

وقسم الشيخ الدّاكِرِين وحالهم إلى أربعة أقسامٍ، هي:

1- ذِكْرٌ قَبْضٍ: يتولّد بسبب معصيةٍ حَصَلَتْ من العبد، أو تقصيرٍ سالفٍ، فيمنعه خجله عن ذكر الله.

2- ذِكْرٌ بَسْطٍ: ناتجٌ عن إقبال الحقّ عليه، وتولّيه لعبده، فينبسط لما يجد من لذائذ الذكر.

3- ذِكْرٌ مَحْوٍ: فهو مستغرقٌ في مشاهدة مولاه، لسانه يذكر لأنّه تَعَوَّد على الذكر، لكن قلبه مستغرقٌ مصطلمٌ.

4- ذِكْرٌ إِجْلَالٍ: فهو من إِجْلَالِهِ لمولاه لا يرى لنفسه وجوداً؛ بل يشاهد من نفسه الغفلات والآفات، فيستقدر ذلك ولا يرى أنّه أهلٌ لِيَجْرِي ذكر الله على لسانه، فهو ينزّه الله تعالى أن يذكر من نفسه التي قد علم أوصافها.

قال الكتّاني: "ولولا أنّ ذكْرَهُ فرضٌ عليّ لما ذكّرْتُهُ؛ إِجْلَالاً له مثلي يذكره ولم يغسل فمه بألف توبةٍ متقبّلة عن ذكره"⁽²⁾.

يقول الباحث: وهذه الأحوال لا تدوم على العبد؛ إذ إنّهُ متى ما ذكر أمر الله له بالذّكر (فاذكروني أذكركم) رَجَعَ وَتَابَ وَاسْتَغْفَرَ، وأخذ بالذّكر، وهو مُسْتَشْعِرٌ عجزه عن شكر الله على نعمه، ويستحضر قول النّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»⁽³⁾. ويؤكد الشيخ على أهميّة الذّكر فيقول: وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذّكر.

2- قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ

مِنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإشراء: 111]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(وقُل) بعدما تحققت وتمكّنت في مقرّ التوحيد شكراً لما أنعمك الحقّ الوصل إليه، وأمكنك التحقّق دونه والورود عليه: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي) توحد بذاته وتقدّس بأسمائه وصفاته، وتفرّد بألوهيته، واستقلّ بوجوده وربوبيته إلى حيث (لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) يخلف عنه لكونه صمداً قيوماً أزليّاً سرمدياً، لا يعرضه الفناء ولا يعتريه الانصرام والانقضاء (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ)

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 1/189.

(2) القشيري، الرسالة القشيرية، 2/377.

(3) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، توبة، حديث رقم: 2749.

والملكوت يظاهاه أو يزاحمه ويخاصمه؛ إذ لا شيء في الوجود سواه (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ) يولي أمره ويعين عليه حين ما لحقه (مَنْ الدُّلِّ) المسقط لعزه الأصلي وعظمه الحقيقي الأزلي؛ إذ لا تغير ولا تبدل في ذاته أصلاً. (و) بالجملة: (كَبْرُهُ تَكْبِيرًا) ذاتياً حقيقياً وعظمه تعظيماً صورياً ومعنوياً؛ إذ لا وجود للغير معه حتى يتصور هناك النسبة والإضافة؛ بل هو أجلّ وأكبر لذاته بلا توهم الإضافة فيه. اهدنا بفضلك سواء سبيلك إلى توحيدك، واجعلنا من زمرة أرباب تمييزك وتمجيدك⁽¹⁾.

يقول الشيخ عبد القادر أنّ مقام التوحيد لا يوصل إليه بدون توفيق الله وعنايته وهدايته، فجاء الأمر بالشكر عليه، (فالحمد لله الذي لم يتخذ ولداً)؛ لأنه صمدٌ أزليٌّ سرمدى، ليس بحاجة للولد، (ولم يكن له شريك في الملك)، فلا شريك يخاصمه أو يزاحمه، (ولم يكن له ولي من الدل) يعينه ويتولى أمره، فهو العزيز العظيم، وهو الذي يُعزّز ويذلّ، (وكبره تكبيراً) عظمه غاية التعظيم، وكبره كمال التكبير.

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أحمدُهُ بِذِكْرِ تَقْدُسِهِ عن الولد، وأنه لا شريك له ولا ولي له من الدل؛ إمّا على أنه لم يذلّ فيحتاج إلى ولي، أو على أنه لم يوالِ أحداً من أجل مذلة به فيدفعها بموالاته. ويقال: اشكره على نعمته العظيمة؛ حيث عرّفك بذلك. ويقال له الأولياء ولكن لا يعترهم بذلهم؛ إذ يصيرون بعبادته أعزّة. (وكبره تكبيراً) بأن تعلم أنك تصل إليه به لا بتكبيرك"⁽²⁾.

يركز الشيخ القشيري في تفسير هذه الآية على قوله تعالى (ولم يكن له ولي من الدل) فيقول: إنّه سبحانه لم يذلّ - حاشاه - فيحتاج إلى من يعزّه، ولم يوالِ أحداً من أجل مذلة به فيستتصر به.

ويؤكد الشيخ على نعمة توفيق الله للعبد التي بدونها لن يصل إلى المقامات العليا في الإيمان، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 21].

3- قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا

وَحِينَ تُظْهِرُونَ] ﴿١٨﴾ [الزّوم: 17-18]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(فَسُبْحَانَ اللَّهِ) أي: سبحوا الله الواحد الأحد الصمد، المنزه عن شوائب النقص وسمات الكثرة مطلقاً أيها الأحرار المتوجهون نحوي في السرائر والإعلان، سيما (حِينَ تُمْسُونَ) وتدخلون في المساء الذي هو أول وقت الفراغ عن الشواغل الجسمانية، وفتح باب الخلوة مع الله، والعزلة عن أسباب الكثرة مطلقاً، (وَحِينَ تُصْبِحُونَ) وتدخلون في الصبح الذي هو نهاية مرتبة

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 168/3.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 206/2.

خلوتكم مع ربكم، فاغتنموا الفرصة فيه، وتعرضوا للنسمات المهبة بأنواع النفحات من قبل الرحمن. وبعدها تزودوا بأنواع الفتوحات الروحانية في تلك الساعة الشريفة التي هي البرزخ بين اللذائذ الروحانية والجسمانية فاشتغلوا بالأشغال الجسمانية المتعلقة لتدبير المعاش النفساني. (و) لكم أيها المتوجهون نحو الحق أن تحمدوه وتشكروا نعمه، وتداوموا على أداء حقوق كرمه في خلال أيامكم ولياليكم، سيما طرفي النهار؛ إذ (لَهُ الْحَمْدُ) والثناء الصادر عن أسنة جميع ما (فِي السَّمَوَاتِ وَ) ما في (الْأَرْضِ) من المظاهر التي لمع عليها برق الوجود، وانبسبت أظلال شمس الذات وأضواؤها (و) لا سيما (عَشِيًّا) إذ هو وقت مصون عن الكثرة (وَجِيئَ تَظْهِرُونَ) (1).

يقول الشيخ الجيلاني إن تسبيح المولى عز وجل هو من اللذائذ والمنتزعات الروحية. ويفسر الشيخ الحكمة من تخصيص المساء بالذكر لأنه وقت الفراغ من الشواغل، ووقت الخلوة مع الله، وخصص الصباح لأنه نهاية الخلوة مع الله؛ لكي يغتنم العبد الفرصة فيتعرض لنفحات الله. ويحضرنا الله سبحانه على مداومة حمده، لا سيما طرفي النهار؛ لأن العبد لا يمر عليه وقت إلا وهو متلبس بنعمة من نعم الله، ولأن الله سبحانه رحيم بعباده حتّى على الحمد والذكر في الأوقات التي يكون فيها العبد في الغالب قد تفرغ عن مشاغله الدنيوية.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "من كان صباحه لله بورك له في يومه، ومن كان مساءه بالله بورك له في ليله... شتان بين عبدي صباحه مفتوح بعبادته، ومساءه مختتم بطاعته، وبين عبدي صباحه مفتوح بمشاهدته ورواحه مفتوح بعزير قربته! ويقال الآية تتضمن الأمر بتسبيحه في هذه الأوقات، والآية تتضمن الصلوات الخمس وإرادة الحق من أوليائه بأن يجددوا العهد في اليوم والليلة خمس مرات فتقف على بساط المناجاة، وتستدرك ما فاتك فيما بين الصلاتين من طوارق الزلات" (2).

يبدأ الشيخ القشيري تفسيره للآية بذكر فائدة من تخصيص المساء والصباح في الذكر؛ بأن من بدأ صباحه بذكر الله بورك له في كل يومه، وكذلك من بدأ مساءه بالذكر بورك له في كل ليلته. ويقول الشيخ: إن الآية تحتل الإشارة إلى الصلوات الخمس؛ إذ ذكرت الآية الصباح والمساء والعشاء والظهر، ويبين الشيخ القشيري أن الصلاة تجديد للعهد مع الله خمس مرات في اليوم والليلة.

4- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ وَسَلَّمَ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: 41-44]

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 269/4 وما بعدها.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 5/3 وما بعدها.

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله، وعرفوه حق معرفته وتوحيده، وكمال أسمائه وصفاته مقتضى إيمانكم وعرفانكم: المداومة على ذكره، (أَذْكُرُوا اللَّهَ) الواحد الأحد، الفرد الصمد، المتّصف بجميع أوصاف الكمال، المستجمع لجميع الأسماء الحسنى التي لا تُعدّ ولا تُحصى، (ذَكَرًا كَثِيرًا) مستوعباً لجميع أوقاتكم وحالاتكم، وبالغوا في ذكره؛ كي تصلوا من اليقين العلميّ إلى العينيّ. (وَسَبِّحُوهُ) أي: نَزَّهُوهُ عن جميع ما لا يليق بشأنه؛ مِنْ لَوَازِمِ الْحَدُوثِ وَأَوْصَافِ الْإِمْكَانِ، (بُكْرَةً وَأَصِيلًا) أي: في جميع آناء أيامكم ولياليكم، طالبين التّرقّي من اليقين العينيّ إلى اليقين الحقيّ. وكيف لا تذكرون الله، ولا تسبحون له أيها المؤمنون، مَعَ أَنَّ شُكْرَ الْمُنْعَمِ الْمَفْضَلِ وَاجِبٌ عَقْلًا وَشَرْعًا؟! (هُوَ الَّذِي) سبحانه (يُصَلِّي) ويرحم (عَلَيْكُمْ) أيها المؤمنون بذاته، وبمقتضيات أسمائه وصفاته، (وَمَلَائِكَتُهُ) يستغفرون لكم بإذنه، وإنّما يفعل بكم سبحانه هذه الكرامة العظيمة (لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ) ظلمة العدم الأصليّ، وظلمة الطّبيعة الهيولى⁽¹⁾، وظلمة الحجة التّعينيّة، (إِلَى النُّورِ) أي: نور الوجود البحت، الخالص على ظلمات التّعينات والكثرات مطلقاً (وَكَانَ) سبحانه (بِالْمُؤْمِنِينَ) الموقّنين على التّوحيد الذاتيّ، (رَحِيمًا) يُوقِّعُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَقْتَضَى رَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، ثُمَّ يُوَصِّلُهُمْ إِلَى مَرْتَبَةِ التّوْحِيدِ وَالْعِرْفَانِ... لذلك (تَحِيَّتُهُمْ) وترحيبهم من قِبَلِ الْحَقِّ (يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ) سبحانه: (سَلَامٌ) أي: تسليم وتطهير عن رذائل التّعينات، ونقائص الأنانيات والهويّات المستتعبة لأنواع الضّلالات والجهالات (وَأَعَدَّ لَهُمْ) سبحانه نُزُلًا عَلَيْهِمْ (أَجْرًا كَرِيمًا) وجزاءً عظيمًا؛ ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر⁽²⁾.

يقول الشيخ عبد القادر: إِنَّ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ ذَكَرَهُ لَا مَحَالَةَ؛ بَلْ سَارَعَ إِلَى ذِكْرِهِ وَدَاوَمَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ عَرَفَ كَمَالَهُ وَجَمَالَهُ وَجَلَالَهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَعَلِمَ يَقِينًا أَنْ لَا غَنَى لَهُ عَنِ مَوْلَاهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ. والأمر بالذّكر الكثير عند الشيخ عبد القادر، هو أَنْ يَذْكُرَ الْعَبْدُ مَوْلَاهُ عَلَى جَمِيعِ حَالَاتِهِ، وَفِي كُلِّ أَوْقَاتِهِ. وكذلك التّسبيح والتّنزيه لله تعالى، ينبغي أن يكون في جميع الأوقات.

ويتابع الشيخ عبد القادر فيقول: كيف لا تكون هذه حالنا في ذكر الله في جميع الأوقات، وعلى جميع الأحوال والله سبحانه المُنْعَمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَيْنَا بِكُلِّ النَّعْمِ، التي نتلقّب فيها، وأجلّ هذه النّعم صلواته سبحانه وتعالى علينا، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾، وَفَسَّرَ الشَّيْخُ صَلَاةَ اللَّهِ عَلَيْنَا بِرَحْمَتِهِ لَنَا. وَصَلَاةَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْنَا بِاسْتِغْفَارِهِمْ لَنَا.

وَمِنْ أَهَمِّ بَرَكَاتِ صَلَاةِ اللَّهِ عَلَيْنَا إِخْرَاجُهُ لَنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؛ ظِلْمَةٌ كُلُّ مَا يَحْجُبُ عَنِ اللَّهِ، إِلَى نُورِ مَعْرِفَتِهِ جَلٍّ وَعَلا، والقرب منه، وهذا من تمام رحمته بعباده المؤمنين. يُرْحَبُ بِهِمُ الْحَقُّ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ بِأَنْ يَبْدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ، فَيَطَهِّرُهُمْ عَنِ الرِّذَائِلِ وَالنَّقَائِصِ، وَالضَّلَالَاتِ وَالْجِهَالَاتِ؛ لِيَتَأَهَّلُوا وَلِيَنعَمُوا بِلَذِيذِ

(1) سبق بيان معناها ص 65.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 380/4.

وَصَالِهِ، وَفَوْقَ هَذَا أَعَدَّ لَهُمْ بِنَفْسِهِ جَلًّا وَعَلَا أَجْرًا كَرِيمًا، فَمَاذَا يَتَوَقَّعُ الْمَرْءُ إِنْ كَانَ الْكَرِيمُ مَنْ أَعَدَّ هَذَا النَّزْلَ الْكَرِيمَ؟! اللَّهُمَّ لَا تَحْرَمْنَا خَيْرَ مَا عِنْدَكَ لِشَرِّ مَا عِنْدَنَا.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الإشارة فيه أجبوا الله؛ لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، فيجب أن تقول: (الله)، ثم لا تنس الله بعد ذكرك الله. ويقال: اذكروا الله بقلوبكم فإن الذكر الذي تمكن استدامته ذكر القلب، فأما ذكر اللسان فإدامته سرمدًا كالمتعذر. (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) التسبيح من قبيل الذكر، ولكنه ذكره بلفظين لئلا تعتريك سامة، (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) الصلاة في الأصل الدعاء، فصلاته سبحانه دعاؤه لنا بالتقريب، وصلاة الملائكة دعائهم إليه لنا بالغفران للعاصي، وبالإحسان للمطيع. ويقال الصلاة من الله بمعنى الرحمة، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة. (لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. ويقال ليخرجكم من الظلمات إلى النور أي يعصمكم من الضلال بروح الوصال. ويقال ليخرجكم من ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير. ويقال ليخرجكم من ظلمات نفوسكم إلى أنوار البصائر في قلوبكم. ويقال ليخرجكم من أسباب التفرقة إلى شهود عين التوفيق، والتحقق بأوصاف الجمع. ويقال يصونكم من الشرك، ويثبتكم بشواهد الإيمان. (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا) التحية إذا قرئت بالرؤية، واللقاء إذا قرئت بالتحية فلا يكون ذلك إلا بمعنى رؤية البصر. والسلام خطاب يفتح به الملوك إخبارًا عن علو شأنهم ورتبتهم، فاللقاء حاصل وخطابه، مسموع، ولا يكون ذلك إلا برؤية البصر. (أَجْرًا كَرِيمًا): الكرم نفي الدناءة، وكريمًا أي حسنًا.

وفي الإشارة أجرهم موفور على عمل يسير؛ فإن الكريم لا يستقصي عند البيع والشراء في الأعداد، وذلك تعريف بالإحسان السابق في وقت غيبتك⁽¹⁾.

يبدع الشيخ القشيري -كعادته- في تقريب إشارات الكتاب العزيز للناس، فيقول: إن الأمر بالذكر الكثير إشارة إلى الدعوة إلى حب الله تعالى؛ لأن من علامة المحب إكثاره من ذكر محبوبه، وكأن الله سبحانه يدعونا إلى حبه، وأي شرف أعظم من هذا الشرف.

ويرجح الشيخ القشيري أن الذكر الكثير يتحقق من خلال ذكر القلب؛ لأنه ممكن منه الدوام عليه، أما اللسان فمتعذر أن يدوم على الذكر، لطبيعة الحياة الدنيا وتكاليفها. ويبين الشيخ السبب من وراء الأمر بالتسبيح بعد الأمر بالذكر، مع أن التسبيح هو ذكر الله في حقيقته، وذلك كي لا يلحق المكلف ملل عند تلقي الخطاب.

ويفسر الشيخ صلاة الله علينا بدعوته لنا بالتقريب، وفي معنى آخر الرحمة، وصلاة الملائكة: دعائهم لنا بالمغفرة للعاصين، وبالإحسان للمطيعين، وفي معنى آخر الشفاعة. ويسوق الشيخ ستة معانٍ لإخراج الله لعباده من الظلمات إلى النور.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 41/3.

ويستدلّ الشيخ بالآية ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ على جواز النّظر إلى وجه الله الكريم؛ لأنّ اللّقاء إذا قرّن بالتّحيّة كان ملازمًا لرؤية البصر، بحسب الشيخ.

ويقول الشيخ القشيري إنّ في ختم الآية بالكرم إشارة إلى المعاملة بالفضل، الذي ليس له حدود؛ لأنّ الكريم بطبعه متسامح متساهل، والعتاء والسّخاء طبعه وسجيّته، والله سبحانه وتعالى المثل الأعلى.

ومن التّفسير الملفتة التي مرّت بالباحث -من بين آيات الذكر الكثيرة في كتاب الله- تفسير الشيخ القشيري لقوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:152]؛ فقد ذكر الشيخ في تفسيرها سبعة عشر وجهًا، اختار الباحث منها:

- 1- فاذكروني مكتفين بي عن عطائي وإفضالي، أذكركم راضيًا بكم دون أفعالكم.
 - 2- اذكرني لكلّ من لقيته، أذكرك لمن خاطبته، واستدلّ الشيخ القشيري على هذا الفهم بقول النّبّي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه جلّ وعلا: "وإنّ نكّرني في ملامّ نكّرته في ملامّ خيرٍ منهم" (1).
 - 3- والأمر بالذّكر الكثير أمر بالمحبّة، أي أحبوني أحببكم.
- ويبيّن الشيخ القشيري أنّ في الآية ثلاثة أوامر بالذّكر متتالية هي:

- 1- اذكروني 2- اشكروا لي؛ فالشكر نوع من أنواع الذّكر 3- ولا تكفروا؛ والنّهي عن الكفران هو في حقيقته أمر بالشكر، والشكر ذكر.

ومن خلال دراسة الآيات السابقة يتبيّن ما يلي:

- 1- أثنى الله سبحانه وتعالى على عباده الذين يذكرونه جلّ وعلا على جميع حالاتهم، وفي كلّ أوقاتهم.
- 2- اختصّ الله سبحانه طائفة من عباده بأن جعلهم مستهترين بذكره جلّ وعلا، لا يفترون عن ذكره تعالى، فنافسوا الملائكة عليهم السّلام؛ بل سبقوهم.
- 3- الذّكر مرّاتب؛ أولها نكّر باللسان دون حضور القلب، وآخزها استغراق عن النّفس في حضرة المذكور جلّ وعلا.
- 4- ذكّر الله بابّ مشرّع عظيم للدّخول على الله، ويكفي الذّاكر معيّة الله له، تغنيه عمّا سواه من حطام الدّنيا، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأنّ أقول: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» (2).

(1) سبق تخريجه، ص 244.

(2) صحيح مسلم، كتاب الذّكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، حديث رقم: 2695.

وفي أثناء إعداد هذا المبحث خطرت للباحت عدّة خواطر؛ وهي:

1- جاء في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم: 17-19]، يُلاحظ ذكر إحياء الله الأرض بعد موتها بعد ذكر الله من تسبيح و تحميد، وفيه إشارة للعبد لترشده إلى المداومة على ذكر الله؛ لأنّ فيه حياة قلبه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»⁽¹⁾.

2- المقصود من الصلوات الخمس أن تصبح ذاكرةً لله في كلّ أوقاتك؛ لأنها موزّعة على اليوم والليّلة، قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه: 14].

3- بدأت سورة الإسراء بالتنبية على حمد الله؛ مِنْ جَلالِ مَدْحِ خُلُقِ الشُّكْرِ عند سيدنا نوح على نبينا وعليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: 3]، وختمت السورة بحمد الله ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدُّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: 111]، وكذلك افتتحت سورة الكهف بحمد الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾﴾ [الكهف: 1]، وفيه إشارتان، الأولى: إدامة حمد الله في المبدأ والمنشأ، والثانية: أنّ الله عزّ وجلّ مهما حمده الحامدون لا يوفونه حقّ حمده، فحمد نفسه بنفسه جلّ وعلا.

4- مِنْ تمامِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بعبادته المؤمنين أن جعل خاصّة ملائكته يُصلّون عليهم، أي يستغفرون لهم ويدعون لهم، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: 7].

5- الجزء من جنس العمل، فالعبد الذي يذكر الله يكافئه المولى بذكره له كما ذكره، ولأنّ العبد شابه الملائكة في ذكرهم لمولاهم جعل الله الملائكة هم من يستغفرون له.

6- من خلال دراسة الآيات والأحاديث التي تحدّثت عن الذّكر، يجد الباحث علاقة جميلة وحميمة بين الملائكة والذّكر والذّاكرين؛ فهم يحفّون مجالس الذّكر، ويراقبون البيوت التي يذكر فيها الله تعالى فيعرفونها ويصلّون على أصحابها، ويدعون لمن حاله مثل حالهم من الذّاكرين المستهترين بذكر الله.

(1) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى، حديث رقم: 6407.

المبحث الرابع: الزهد:

جاءت الشريعة الإسلامية الغراء بالحث على الزهد في الدنيا، والتخفف منها ما أمكن؛ ليفرغ القلب لما خلق له الإنسان، ألا وهو معرفة الله وعبادته. قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأَنْعَام: 32]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإِسْرَاء: 18]، وقال سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 132].

والمسلم يرى الدنيا على حقيقتها أنها دار اختبار؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 131]. لذلك فالمؤمن يستحب الحياة الآخرة على الحياة الدنيا، بخلاف الكفار فهم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 3].

وكثير من الناس يغفل أن الزهد في الدنيا طريق مؤدية إلى محبة الله عز وجل؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «أزهد في الدنيا يحبك الله، وأزهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» (1). فيا عجباً للنفس كيف تتردد أن تبيع الدنيا بمحبة الله تعالى التي تهون دون تحصيلها الأرواح؟! وللسادة الصوفية تعريفات كثيرة للزهد، اختار الباحث منها:

قال سفيان الثوري رحمه الله: "الزهد في الدنيا قصر الأمل لئس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء" (2). وهنا يركز الإمام سفيان الثوري على جوهر الزهد وليس مظهره. أما الأستاذ أبو علي الدقاق فعرف الزهد: "أن تترك الدنيا كما هي، لا تقول أنني رباطاً، أو أعمر مسجداً" (3).

وقد يعترض على كلام الشيخ أبي علي بأن الشرع ندب إلى عمارة المساجد، ويجاب عليه: أن الشيخ قصد أعلى مراتب الزهد، وهو كما عرفه الشبلي رحمه الله: "الزهد: أن تزهد فيما سوى الله" (4). وذلك لا يكون إلا لقلّة من الناس.

وقيل: "الزهد عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف" (5). فمن شدة تشرب النفس والعقل لفكرة الزهد أصبحت تترجم بأفعال تلقائية.

(1) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، حديث رقم: 4102. قال النووي عقب هذا الحديث رواه ابن ماجه وغير بأسانيد حسنة.

(2) القشيري، الرسالة القشيرية، 240/1.

(3) القشيري، الرسالة القشيرية، 240/1.

(4) القشيري، الرسالة القشيرية، 242/1.

(5) القشيري، الرسالة القشيرية، 241/1.

وقيل: "الزاهد لا يفرح بموجود من الدنيا، ولا يتأسف على مفقود منها، ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 23]."⁽¹⁾

ومن تعريفات الزهد: "أن تكون الدنيا في يدك لا في قلبك، فلا تشغلك عن الله"⁽²⁾. وهذه التعريفات عرّفها أصحابها كلٌّ حسب حاله ومقامه، كما قال الإمام القشيري: "كلّ نطق عن وقته وأشار إلى حدّه"⁽³⁾.

وللشيخ عبد القادر كلامٌ دقيقٌ في الزهد، يقول رحمه الله: "يقال لمن دخل في الزهد: متزهد، فإذا انتهى في زهده وبلغ، وبغضت الأشياء إليه، وفنيت عنها، فنزك كل واحدٍ منهما صاحبه، سمي حينئذٍ زاهدًا، ثم تأنيت الأشياء وهو لا يريد لها ولا يبغضها؛ بل يمتثل أمر الله فيها، وينتظر فعل الله فيها"⁽⁴⁾.

فالواحد منّا يبدأ بالتخفف من متاع الدنيا سالكًا طريق الزهاد، محاولًا التأسّي بهم، إلى أن يصبح الزهد ديدنه دون تكلف، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وإنه من يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يغنيه الله»⁽⁵⁾.

وذكر القشيري فائدة عظيمة تعين على الزهد؛ وهي الثقة بالله تعالى، قال رحمه الله: "لا يقوى العبد على الزهد إلا بالثقة بالله تعالى"⁽⁶⁾.

وللزهد مراتب بينها الإمام المجلل أحمد بن حنبل رحمه الله، هي: "الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام؛ وهو زهد العوام، والثاني: ترك الفضول من الحلال؛ وهو زهد الخواص، والثالث: ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى؛ وهو زهد العارفين"⁽⁷⁾.

وقد شرح ذلك الإمام الغزالي شرحًا وافيًا؛ فقال: "والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب إلا الله تعالى، فهو الزاهد المطلق، والذي يرغب عن كلّ حظ يُنال في الدنيا ولم يزهّد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة؛ بل طمع في الحور، والقصور، والأنهار، والفواكه، فهو أيضًا زاهد، ولكنّه دون الأوّل، والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض، كالذي يترك المال دون الجاه، أو يترك التوسّع في الأكل ولا يترك التجمّل في الزينة، فلا يستحقّ اسم الزاهد مطلقاً، ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين، وهو زهد صحيح"⁽⁸⁾.

(1) القشيري، الرسالة القشيرية، 240/1.

(2) مقابلة مع الدكتور عمر الصالحي.

(3) القشيري، الرسالة القشيرية، 240/1.

(4) الجيلاني، الغنية، 272/2.

(5) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، حديث رقم: 6470.

(6) القشيري، الرسالة القشيرية، 241/1.

(7) القشيري، الرسالة القشيرية، 243/1.

(8) الغزالي، إحياء علوم الدين، 217/4.

وَمَنْ طَلَبَ مَقَامَ الزَّهْدِ فَعَلِيهِ أَنْ يَتَّبَعَ نَصِيحَةَ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ؛ إِذْ قَالَ: "يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقْطَعَ طَمَعَهُ مِنَ الْأَدْمِيِّينَ؛ لَا يَطْمَعُ نَفْسَهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ، فَإِنَّهُ الْعَزَّ الْأَكْبَرُ، وَالْغَنَى الْخَالِصُ، وَالْمَلِكُ الْعَظِيمُ، وَالْفَخْرُ الْجَلِيلُ، وَالْيَقِينُ الصَّادِقُ، وَالتَّوَكُّلُ الشَّافِي الصَّحِيحُ، وَهُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الثَّقَةِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الزَّهْدِ"⁽¹⁾.

ويلاحظ تأكيدُ الشَّيْخِ الْجِيلَانِيِّ عَلَى الثَّقَةِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّتِي ذَكَرَهَا الْإِمَامُ الْقَشِيرِيُّ كَذَلِكَ، وَأَضَافَ إِلَى هَذِهِ النَّصِيحَةَ قَطْعَ الرَّجَاءِ مِنَ النَّاسِ نَهَائِيًّا؛ فَمَتَى مَا عَرَضَتْ لِلْمُرِيدِ حَاجَةٌ طَرَقَ بَابَ مَوْلَاهُ أَوَّلًا، ثُمَّ أَخَذَ بِالْأَسْبَابِ، وَقَلْبَهُ لَا يَبْرَحُ عَنْ عَتَبَةِ مَوْلَاهُ، فَهُوَ يَعْلَمُ عِلْمًا قَاطِعًا أَنَّهُ الْمَلِكُ الْمَالِكُ لَهَا، وَهُوَ الْمَعْطَى الْمَانِعُ.

وقد جاء الحَضُّ عَلَى الزَّهْدِ فِي كِتَابِ اللَّهِ فِي آيَاتٍ، مِنْهَا:

1- قَالَ تَعَالَى: ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: 212].

قَالَ الشَّيْخُ الْجِيلَانِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: "ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ مَسَاوِيَّ أَهْلِ الْكُفْرِ وَسُوءَ مَعَامَلَتِهِمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَخْلُصِينَ؛ لِيَجْتَنِبَ الْمُؤْمِنُونَ عَنْ أَمْثَالِهِ، فَقَالَ عَلَى وَجْهِ الْإِخْبَارِ: (زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) أَيُّ: حَسَنٌ فِي عِيُونِهِمْ وَارْتَكَزَ فِي قُلُوبِهِمْ (الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أَيُّ: الْحَيَاةَ الْمُسْتَعَارَةَ الْمُنْسُوبَةَ إِلَى الدُّنْيَا (وَ) أَدَّى أَمْرَهُمْ فِي هَذَا التَّزْيِينِ وَالتَّحْسِينِ إِلَى أَنْ (يَسْخَرُونَ) وَيَسْتَهْزِئُونَ (مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) أَيُّ: صَارَ الْمُؤْمِنُونَ لِفَقْرِهِمْ وَعِرَائِهِمْ عَنْ أَمْتَعَةِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ مَحَلَّ اسْتَهْزَائِهِمْ وَسَخَرِيَّتِهِمْ، مَتَى قَصَدُوا الْاسْتَهْزَاءَ عَلَى مَنَاقِدِ الدُّنْيَا أَخَذُوا مِنْهُمْ (وَ) الْحَالُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ (الَّذِينَ اتَّقَوْا) عَنِ الدُّنْيَا وَمَزْخَرَفَاتِهَا الْفَانِيَةِ الْغَيْرِ الْبَاقِيَةِ يَكُونُ (فَوْقَهُمْ) رَتَبَةً وَمَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) الْمَعْدَّ لِحُزْمِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي النَّشْأَةِ الْأُولَى (وَاللَّهُ) الرَّزَاقُ لِلْكَافِرِ (يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ) مِنْ عِبَادِهِ بِالرَّزْقِ الدُّنْيَوِيِّ (بِغَيْرِ حِسَابٍ) فِيهَا، بَلْ مُسْتَجْبِرِينَ مُتَكَبِّرِينَ مَفْتَخِرِينَ بِمَزْخَرَفَاتِهَا إِلَى النَّشْأَةِ الْآخَرَى، فَيَحَاسِبُهُمْ فِيهَا وَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهَا، وَيَرْزُقُ أَيْضًا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِالرَّزْقِ الْآخَرِيِّ بِغَيْرِ حِسَابٍ، لَا فِي النَّشْأَةِ الْأُولَى وَلَا فِي الْآخَرَى، بَلْ صَارُوا فِي حِمَائِهِ أَوْلَى وَأَبْدًا لَا يَشُوشُهُمُ الْحِسَابُ وَلَا تَتَقَاوَتُ عِنْدَهُمُ اللَّذَّةُ وَالْعَذَابُ، بَلْ صَارُوا مَا صَارُوا بِلا سِتْرَةٍ وَحِجَابٍ"⁽²⁾.

يَقُولُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ إِنَّ نِسْبَةَ الْحَيَاةِ إِلَى الدُّنْيَا نِسْبَةٌ مُجَازِيَّةٌ مُسْتَعَارَةٌ؛ إِذِ الدَّارُ الْآخِرَةُ هِيَ الْحَيَاةُ. وَمِنْ شِدَّةِ انْطِمَاسِ بَصَرِ الْكَافِرِينَ أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا هِيَ الْمَقْيَاسُ عِنْدَهُمْ، الَّذِي يَقْيَسُونَ فِيهِ، وَالْمِيزَانُ

(1) الجيلاني، الغنية، 315/2.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 179/1.

الذي يحتكمون إليه؛ لذلك فَلَا قِيمَةَ في ميزانهم للمؤمنين؛ لأنَّهم يرونهم بأبصارهم المريضة سَدَّجًا، لا يضعون الأمورَ في نصابها.

ويخبر الله تعالى أَنَّ مَكَانَةَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ تظهر للجميع يوم القيامة، وليس في الدُّنْيَا. ويطمئن الحقَّ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ أَنَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ للجميع، وكلُّ سيأخذ نصيبه؛ بل يرزق من يشاء بغير حساب، ويخصُّ المؤمنين بالرزق الأخرى بغير حساب أيضًا.

وقال الشَّيْخُ القشيريُّ عند تفسيرها: "مكروا فلم يشعروا، وحملهم اشتداد الظلمة على بصائرهم على الواقعة في أوليائه سبحانه، والسَّخْرِيَّة منهم، وحين تقشَّعت غواية الجهل عن قلوبهم علموا من الخاسر منهم من الذي كان في ضلالٍ بعيدٍ"⁽¹⁾.

يؤكد الشَّيْخُ القشيريُّ المعنى المذكورَ عند الشَّيْخِ الجيلانيِّ، وأنَّ الكافرين لا ينتبهون عن غِيْبِهِمْ إِلَّا بعد أن لا ينفع الندم: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: 52].

2- قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: 77]

قال الشَّيْخُ الجيلانيُّ عند تفسيرها: "قُلْ) لهم يا أكمل الرِّسْلَ تذكيرًا وتنبهًا: (مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ) عمل قصير بالنسبة إلى عطاء الله، وشرف لقائه (وَالْآخِرَةُ) المَعْدَةُ لجزيل العطاء وشرف اللقاء (خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى) عمَّا يشغلهم عنه وعن عطائه (و) اعلموا أيُّها المؤمنون أنكم (لَا تُظْلَمُونَ) لا تتقصون ولا تهملون مما قدَّر لكم في القضاء (فَتِيلًا) مقدار فتيل النواة"⁽²⁾.

يقول الشَّيْخُ عبدُ القادر: لا مقارنة بين الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ إذ في الآخرة شرف لقاء الله يَعْدِلُ كُلَّ نعيم، وكلَّ بهجة، وكلَّ عطاء، ويبين الشَّيْخُ عبدُ القادر أن الله سبحانه ينبئه ضعاف القلوب من المؤمنين أنَّهم لا يُظلمون مقدارَ الفَتِيلِ؛ وهو فَتِيلُ نَوَاةِ التَّمْرَةِ، أي تصلكم أقسامكم المقدَّرة لكم، تامَّةً مِنْ غير نقصٍ.

قال الشَّيْخُ القشيريُّ عند تفسيرها: "مَكَّنَكَ مِنَ الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، فلم يعدَّها شيئًا لك، ثم لو تصدَّقت منها بشقِّ ثمرة لتخلَّصت من النار، وَحَظِيَّتْ بِالْجَنَّةِ، وهذا غايةُ الكرم. واستقلال الكثير من نفسك - لأجل حبيبك - أقوى أمارات صحبتك. ويقال: لَمَّا زَهَّدَهُمْ فِي الدُّنْيَا قَلَّلَهَا فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَهْوُوا عَلَيْهِمْ تَرْكُهَا. ويُقال: قل متاع الدُّنْيَا بجملتها قليل، والذي هو نصيبك منها أقلُّ من القليل، فمتى يناقشك لأجلها بالتخليل لو سلم عهدك من التبدُّيل؟ وإذا كانت قيمة الدُّنْيَا قليلةً فأخسُّ من الخسيس من

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 101/1 وما بعدها.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 415/1.

رضي بالخصيس بدلاً عن النفيس. وقد اختلج المؤمن من الكون بالتدرّج. فقال أولاً: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ فأحفظهم عن الدنيا بالعقبى، ثم سلبهم عن الكونين بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾⁽¹⁾. يبين الشيخ القشيري أنّ من كرم الله ورأفته بعباده أن زهدهم في الدنيا، وجلاها لهم على حقيقتها؛ ليهون عليهم تركها، من دون تأسّف.

ويوضّح الشيخ حقيقةً مرّةً: إذا كانت الدنيا بأسرها قيمتها قليلة، فكيف بالذي رضي بها؟! فهو أخسُّ منها. وكعادة الشيخ رحمه الله لا يبخل بالجواهر والنقائس، يوجد بها على طلاب الحقّ جلّ وعلا؛ فيقول: أخرج الله سبحانه وتعالى الكون من قلب المؤمن بالتدرّج، فقال أولاً: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ فأغناهم عن الدنيا بالآخرة، ثم سلبهم عن الكونين بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. فالمؤمن المتدارك برحمة الله لا يرتضي بغير مولاه، لا يطمع بدنيا ولا بأخرى؛ فهو لا يشرك مع الله أحداً.

وهنا يحضر الباحث تفسير الشيخ الشعراوي⁽²⁾ رحمه الله لخواتيم سورة الكهف؛ إذ يقول: "فلم يُقلّ سبحانه وتعالى: مَنْ كَانَ يَرْجُو جِزَاءَ رَبِّهِ، أَوْ جَنَّةَ رَبِّهِ، أَوْ نَعِيمَ رَبِّهِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ الْحَقَّ لَا يَنْظُرُ إِلَى النَّعِيمِ، بَلْ يَطْمَعُ فِي لِقَاءِ الْمَنَعِ سَبْحَانَهُ، وَهَذَا غَايَةُ أَمَانِيهِ"⁽³⁾.

3- قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: 20].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "مَنْ كَانَ) منهم (يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ) أي: يزرع في النشأة الأولى بذور الأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة؛ ليحصد ما يترتّب عليها من المثوبات والكرامات في النشأة الأخرى (نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ) ونضاعف ثوابها لأجله، ونعطه من اللذات الروحانية ما لا مزيد عليه تفضلاً ممّا وتكريماً (وَمَنْ كَانَ) منهم (يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا) ونوى نماء بذوره فيها (نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ) ولذاتها الباقية (مَنْ نَصِيبٍ) لاختياره لذات الدنيا وشهواتها الفانية على ما في الآخرة من اللذات الروحانية؛ لذلك ما له حظّ في الآخر ونصيب من لذاتها"⁽⁴⁾.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 216/1.

(2) سبقت الترجمة ص 21.

(3) الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ت 1418 هـ، تفسير الشعراوي (الخواطر)، مطابع أخبار اليوم، 1997، 323/14.

(4) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 233/5.

يقولُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ: شَبَّهَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْعَامِلَ لِلْآخِرَةِ بِالَّذِي يَزْرَعُ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ؛ لِيَجْنِيَ ثَمَرَتَهَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَيُبَشِّرُهُ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ بِالزِّيَادَةِ وَالْمُضَاعَفَةِ لِثَوَابِ أَعْمَالِهِ؛ فَهُوَ جَلٌّ جَلَالُهُ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ.

أَمَّا الَّذِي انْقَلَبَ عَلَى عَقْبِيهِ وَاخْتَارَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ فَلَنْ يَتَحَصَّلَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا عَلَى الْعَذَابِ الْمُهِينِ؛ لِأَنَّهُ أَثَرَ الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي، وَلَذَلِكَ الدُّنْيَا الْمُؤَقَّتَةُ عَلَى النَّعِيمِ الْمَقِيمِ.

وَقَالَ الشَّيْخُ الْقَشِيرِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: "مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَهُ الْيَوْمَ فِي الطَّاعَاتِ تَوْفِيقًا، وَفِي الْمَعَارِفِ وَصَفَاءِ الْحَالَاتِ تَحْقِيقًا. وَنَزَدَهُ فِي الْآخِرَةِ ثَوَابًا وَاقْتِرَابًا وَفَنُونَ نَجَاةً وَصَنُوفَ دَرَجَاتٍ. (وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا) : مَكْتَفِيًا بِهِ نَوْتُهُ مِنْهَا مَا يَرِيدُ، وَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ"⁽¹⁾.

يُضِيفُ الشَّيْخُ الْقَشِيرِيُّ مَعْنَى جَدِيدًا لِلزِّيَادَةِ مِنَ اللَّهِ لَطَالِبِ الْآخِرَةِ؛ وَهُوَ: صَفَاءُ أَحْوَالِهِ، وَالزِّيَادَةُ فِي طَاعَاتِهِ وَمَعَارِفِهِ، إِكْرَامًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الْمَعْطِي الْوَهَابِ. وَمَنْ اخْتَارَ الدُّنْيَا يَعْطِيهِ اللَّهُ مِنْهَا، وَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ.

4- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: 33-35]

قَالَ الشَّيْخُ الْجِيلَانِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: "ثُمَّ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى دِنَاءَةِ زُخْرَفِ الدُّنْيَا وَأَمْتَعَتِهَا، وَرِدَاءَةِ مَا فِيهَا مِنَ اللَّذَاتِ الْوَهْمِيَّةِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَنْهَا مِنَ الشَّهَوَاتِ الْبَهِيمِيَّةِ، فَقَالَ: (وَلَوْلَا) مَخَافَةٌ (أَنْ يَكُونَ النَّاسُ) الْمَجْبُولُونَ عَلَى الْكُفْرَانِ وَالنَّسْيَانِ، (أُمَّةً وَاحِدَةً) مَائِلَةٌ إِلَى الْكُفْرِ، مَنْحَرِفَةٌ عَنِ الْإِيمَانِ، (لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ) أَي: بِسَطْنَا عَلَى الْكَافِرِينَ مِنَ الزُّخْرَفِ الدُّنْيَوِيَّةِ إِلَى حَيْثُ يَتَّخِذُونَ، (لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا) مَصْنُوعَةً مَّتَّخِذَةً، (مِّنْ فِضَّةٍ وَ) كَذَا يَعْمَلُونَ، (مَعَارِجَ) وَمِرَاقِي مِنْهَا، (عَلَيْهَا) أَي: عَلَى سَطُوحِ بِيوتِهِمْ (يَظْهَرُونَ) أَي: يعلون ويصعدون بتلك المعارج المعمولة بالفضة عليها. (و) كَذَا يَعْمَلُونَ (لِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكُونَ) تَرْفَعًا وَتَنَعَمًا. (و) بِالْجُمْلَةِ: لَوْسَعْنَا عَلَيْهِمْ حَطَامَ الدُّنْيَا إِلَى حَيْثُ جَعَلْنَا لَهُمْ (زُخْرَفًا) وَزِينَةً مِنَ الدَّهَبِ وَالْفِضَّةِ يَتَزَيَّنُونَ بِهَا، وَيَتَلَذَّذُونَ بِلَذَاتِهَا الْفَانِيَّةِ وَشَهَوَاتِهَا الزَّائِلَةِ الزَّائِفَةِ، الْمُبْعَدَةِ عَنِ اللَّذَاتِ الْبَاقِيَةِ الْآخِرِيَّةِ، لَكِنْ لَوْ فَعَلْنَا كَذَلِكَ لَمَالَ إِلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، وَتَحَسَّرُوا بِمَا نَالُوا، فَضَعَفَ رَأْيُهُمْ فِي اتِّبَاعِ الدِّينِ الْقَوِيمِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. (و) بِالْجُمْلَةِ: (إِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أَي: مَا كُلُّ ذَلِكَ الْمَذْكُورِ مِنَ الْمَزْخِرَفَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ إِلَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَّةِ، لَا قَرَارَ لَهَا، وَلَا مَدَارَ لَهَا فِيهَا، وَلَمَّا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ (و) النَّشْأَةِ (الْآخِرَةِ) الْبَاقِيَةِ الدَّائِمَةِ لِذَاتِهَا أَزْلًا وَأَبَدًا (عِنْدَ

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 163/3.

رَبِّكَ) يا أكمل الرّسل حاصلة (لِلْمُتَّقِينَ) الذين يحفظون نفوسهم عن التّلتّخ بقاذورات الدّنيا، والرّكون إلى مزخرفاتها الفانية، سوى سدّ جوعه، لبس خرقةٍ وكنّ يدفعون بها ضرر الحرّ والبرد، ولا يميلون إلى ما سواها طلباً لمرضاة الله وهرباً عن مساخطه⁽¹⁾.

يقول الشّيخ عبد القادر إنّ الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنّه من رحمته بنا لم يحمل النّاس ما لا يطيقون، ولأنّه سبحانه يعلم ضعف خلقه؛ إذ لو بسط الرّزق على الكافرين فقط دون المسلمين وفتح الدّنيا لهم على مصراعيها، لارتدّ المسلمون على أعقابهم، ولنكصوا عن الصّراط المستقيم.

ثمّ يبيّن الله تعالى حقيقة الدّنيا أنّها زخارف زائلة، ملفّته في الظّاهر زائفة في الباطن، إذ لا دوام لها. ويبين الشّيخ عبد القادر أنّ حال المتّقين القناعة من الدّنيا بالكفاف، ما يسدّ جوعهم، ويستتر عوراتهم، ومأوى يحميهم من البرد والحرّ، ولا يميلون إلى ما سوى ذلك؛ طلباً لمرضاة الله.

وقال الشّيخ القشيريّ عند تفسيرها: "معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر فالذي يبقى عنا لو صببنا عليه الدّنيا بحدافيرها لم يكن ذلك جبرانا لمصيبته. ولولا فتنة قلوب المؤمنين لجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضةٍ ومعارض من فضة، وكذلك ما يكون شبيهاً بهذا. ولو فعلنا، لم يكن لما أعطيناه خطر؛ لأنّ الدّنيا بأسرها ليس لها عندنا خطر"⁽²⁾.

يؤكد الشّيخ القشيريّ المعنى الذي ذكره الشّيخ عبد القادر؛ إذ لولا رحمة الله بعباده المؤمنين، وخوف فتنّهم عن دينهم، لجعل الدّنيا بكلّ صولجانها وزينتها عند الكافر فقط؛ لأنّ الدّنيا لا وزن لها عند الله ولا كرامة.

5- قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: 20].

قال الشّيخ الجيلانيّ عند تفسيرها: "(اعْلَمُوا) أيّها المكلفون المعتبرون (أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) أي: ما الحياة المستعارة الدّنيويّة، وما حاصلها وجلّ متاعها إلاّ (لَعِبٌّ) مزخرف باطل في نفسها، يلعب بها أهل الغفلة والحجاب، ويتعبون بها أنفسهم بلا طائل (وَلَهُمْ زِينَةٌ) يلهيهم عمّا يهّمهم ويعينهم من الحياة الأزلية الأبدية ولوازمها (وَزِينَةٌ) زينتها لهم شياطين قواهم وأمانيتهم من المطاعم الشهية، والملابس البهية، واللذات الوهميّة، والشّهوات البهيميّة (وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ) بالمال والجاه والثروة، والسّيادة بالأنساب والأحساب (وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) بالمظاهرة والمعونة، وتكثير العدد والعُدَد، والعقارات

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 265/5.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 176/3.

والتجارات، والمواشي والزراعات إلى غير ذلك من المخرقات الفانية التي لا قرار لها ولا مدار، بل مثلها (كَمَثَلِ غَيْثٍ) نزل وأنبت إنباتاً (أَعْجَبَ الْكُفَّارَ) أي: الزَّرَاعَ (نَبَاتُهُ) من كثرته ونضارته وكنفاته (ثُمَّ يَهِيحُ) يجفّ ويبس بأفة وعاهة (فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا) بعدما كان مخضراً في كمال البهجة والنضارة (ثُمَّ يَكُونُ حُطْمًا) هشيماً تذروه الرياح حيث شاءت بلا فائدة ولا عائدة. (و) مع هذه الخسارة الحرمان في النشأة الأولى لأهل الغفلة والخذلان يكون لهم (فِي الْآخِرَةِ) المعدّة للجزاء (عَذَابٌ شَدِيدٌ) لاشتغالهم بالدنيا وما فيها (وَ) بالجملة: (مَغْفِرَةٌ) سترٌ ومحوٌ لذنوب أصحاب المعاملات، ناشئة (مِنَ اللَّهِ) الغفور الرحيم بمقتضى لطفه، وسعة رحمته وجوده (وَرِضْوَانٌ) منه سبحانه لأرباب القلوب والمكاشفات خير من الدنيا وما فيها بأضعافها وآلافها عند من تحقّق تربية الإنسان، وسعة قلبه المصور على صور عرش الرحمن (وَ) بالجملة: (مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) عند الأحرار البالغين بدرجة الاعتبار والاستبصار (إِلَّا مَتَاعٌ أَلْعُرُورِ) ومخائل الخديعة والزور، ومن اغترّ بها ولعب بما فيها فقد استحقّ الويل والثبور، وحرّم عليه الحضور والسرور⁽¹⁾.

يقول الشيخ عبد القادر: يخاطب الله عزّ وجلّ عباده المكلفين: إن نظرتم إلى الدنيا بعين الله العلام علمت علم اليقين أنّ الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ وتكاثرٌ، وكلّ ذلك لا قرار له؛ ظلّ زائلٌ. ثم بعد هذا البيان الإلهي يضرب الله سبحانه مثلاً؛ لتتضح الصورة، وتزداد جلاءً للأبصار؛ فمثل هذه الدنيا كمثل أرضٍ مزروعةٍ نزل عليها المطر، فأنبتت من كلّ زوجٍ بهيجٍ، ثم بعد ذلك قُطِفَ المحصول، وجفّت النبتة ويبست، وكان شيئاً لم يكن، وكانه لم يكن منذ أيام ألوان الخضرة ونضارة الثمرة تتلاعب بالشجرة، وتأخذ بألباب الناظرين، لكن عمّا قليلٍ يذهب كلّ شيءٍ، كأن لم ينعنوا فيها، وتبقى تبعات ما كسبته يد المرء في الدنيا لا يُعفى منها، ويحاسب عليها، فإمّا ثواب، وإمّا عقاب، فلا تَعَنَّرَ بمظاهر الدنيا الفاتنة.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الحياة الدنيا معرضة للزوال، غير لابثة ولا ماكنة، وهي في الحال شاغلة عن الله، مطمعة وغير مشبعة، وتجري على غير سنن الاستقامة كجريان لعب الصبيان، فهي تُلهي عن الصواب واستبصار الحق، وهي تفاخرٌ وتكاثرٌ في الأموال والأولاد. (كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطْمًا)، الكفّار: الزَّرَاع. هو في غاية الحسن، ثم يهيج فتراه يأخذ في الجفاف، ثم ينتهي إلى أن يتحطم ويتكسر. (وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ) لأهله من الكفّار. (وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ) أهله من المؤمنين. (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) الدنيا حقيرة وأحقر منها قدرًا طالبها وأقلّ منه خطرًا المزاحم فيها؛ فما هي إلا جيفةٌ، وطالب الجيفة ليس له خطرٌ. وأخسُّ أهل الدنيا من بخل بها. وهذه الدنيا المذمومة هي التي تشغل العبد عن الآخرة!"⁽²⁾.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 6/18.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 3/290 وما بعدها.

يقول الشيخ القشيري في تفسيره للآية: الدنيا لا تدوم بنفسها، فهي إلى الزوال، ولا تبقى لأحد، والدنيا تشغل عن الله، وتلهي عن الحق.

ويؤكد الشيخ القشيري على ما فسره الشيخ الجيلاني من المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى للدنيا. ويعيد الشيخ القشيري التأكيد على فكرة حقارة الدنيا، وأن الذي يطلبها أحقر منها، والذي يزاحم عليها دونه في الحقارة؛ لأنها جيفة، فماذا يرجى من حريص على جيفة؟! فجاء التحذير من الانشغال بالدنيا عن الآخرة.

ومن خلال دراسة الآيات السابقة يتبين ما يلي:

1- الدنيا خداعةٌ تخدع من لا بصيرة له بمآلات الأمور، فلها يجمع من لا عقل له؛ لأنها لا تدوم لأحد.

2- بين لنا الله سبحانه وتعالى الدنيا على حقيقتها؛ لتهون علينا، فيسهل الرهد فيها، فالعلم باب كل خير.

3- يحمي الله تعالى وليه من الدنيا كما يحمي أحدنا ابنه من الطعام الضار.

4- كتاب الله خير دليل لسلوك طريق الرهد، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما إن تمسكتُم به لئن تَضَلُّوا بَعْدِي»⁽¹⁾.

5- الأصل بالمؤمن أن يقنع بالموجود، وأن لا يأسى على مفقود؛ لأنه يعلم أن رزقه مقسوم، وواصل إليه لا محالة. ولأنه يعلم أن هذه الدار دار ممر لا دار مقر، وأنه مهما قاسى فيها من شظف عيش فهو إلى انقضاء طال أم قصر.

6- نَبَّهَ اللهُ سبحانه عباده المؤمنين على حقيقة صادمة: أن بسط الدنيا فتنة عظيمة لا يُعصم منها إلا من عصمه الله، فهو سبحانه أخبرنا أنه لو فتح الدنيا على الكافرين فقط من دون المؤمنين لارتد المؤمنون على أعقابهم كافرين، والعياذ بالله.

7- يقول الشيخ القشيري: يصطفي الله سبحانه ثلة من عباده، يزهدهم في الدنيا والآخرة معاً، فلا مطمع لهم بغير مولاهم وقربه ورضاه.

8- يقول الشيخ عبد القادر إن شرف لقاء الله تعالى في الآخرة يعدل كل نعيم الدنيا؛ بل لا مجال للمقارنة أصلاً بينهما.

(1) سبق تخريجه في مقدمة البحث.

9- من أسباب الإقبال على الدنيا وعدم الزهد فيها قلة الثقة بالله، فمن وثق بالله تعالى رازقاً لم يتعجل أخذ شيء من الدنيا بالحرام، واطمأن لعوض الله عليه في الآخرة.

وفي ختام هذا المبحث أنقل نصيحةً جامعةً للشيخ عبد القادر في باب (الزهد)؛ يقول رحمه الله: "عليك أن تشمر أولاً ذيلك عن الدنيا وما فيها، مُعرضاً عن لذاتها وشهواتها، متوجّهاً بوجه قلبك إلى توحيد ربك، مستفتحاً لما في صدرك من خزائن جوده ودفائن وجوده، طاوياً كشح حالك وفعلك عما لا يعنيك، هارباً عن مصاحبة ما يضرّك ويغويك، طالباً الوصول إلى معارج التوحيد ومدارج التجريد والتفريد، راغباً عما سوى الحقّ سبحانه وتعالى"⁽¹⁾.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 1/244.

المبحث الخامس: السرّ:

إِنَّ تَحَقُّقَ الْعَبْدِ بِالْإِقْبَالِ الصَّادِقِ عَلَى مَوْلَاهُ، وَخَلْعِ السُّوَى⁽¹⁾ مِنْ قَلْبِهِ، وَإِكْتَارَهُ مِنْ ذِكْرِ مَوْلَاهُ بَكْرَةً وَعَشِيًّا، مَتَفَكِّرًا، مَتَدَبِّرًا، مَتَأَمَّلًا لآيَاتِ اللَّهِ الْمَسْطُورَةِ وَالْمَنْظُورَةِ⁽²⁾، يَجْعَلُ مِنْ قَلْبِهِ مَحَلًّا لِتَنْزَلِ الْأَسْرَارِ وَالْمَكَاشِفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، الَّتِي يَخْصُّ بِهَا الْمَوْلَى أَحْبَابَهُ الْمُجْتَبِينَ.

قال الإمام القشيري رحمه الله: "يُطْلَقُ لَفْظُ السَّرِّ عَلَى مَا يَكُونُ مَصُونًا مَكْتُومًا بَيْنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَالْعَبْدِ فِي الْأَحْوَالِ"⁽³⁾.

وَعَرَّفَهُ الْإِمَامُ الْكَاشَانِيُّ فَقَالَ: "السَّرُّ هُوَ الْمَعْنَى الْمَخْفِيَّةُ عَنِ إِدْرَاكِ الْمَشَاعِرِ. وَحَقِيقَتُهُ سِرُّ الْوَلَايَةِ الذَّاتِيَّةِ عِنْدَ الْفَنَاءِ عَنِ رُسُومِ الصِّفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، فَصَاحِبُهُ يَسْتَرُ حَالَهُ عَنِ الْخَلْقِ غَيْرَةً، وَيَتَأَدَّبُ بِآدَابِ الشَّرْعِ صَوْنًا، وَيَتَهَدَّبُ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْمَعَامَلَاتِ طَرَفًا، وَهُوَ مِنَ الْأَخْفِيَاءِ الَّذِينَ وَرَدَ فِيهِمْ: «وَأَحَبُّ الْعَبِيدِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَخْفِيَاءُ الْأَخْفِيَاءُ»⁽⁴⁾⁽⁵⁾.

وَأَهْمٌ مَا يَضِيفُهُ تَعْرِيفُ الْكَاشَانِيِّ: أَنَّ الْوَلِيَّ الَّذِي شَرَّفَهُ اللَّهُ بِحَمْلِ السِّرِّ غَالِبًا مَا يَكُونُ مُسْتَتِرًا عَنِ أَنْظَارِ النَّاسِ، مَغْمُورًا فِيهِمْ؛ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ أَخْفِيَاءُ، إِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، وَإِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ أَنَّ مِنْ آفَاتِ اللِّسَانِ: إِفْشَاءُ السَّرِّ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِفْشَاءُ السَّرِّ مِنْهُيٌّ عَنْهُ لَمَّا فِيهِ مِنَ الْإِيذَاءِ وَالْتِهَانِ بِحَقِّ الْمَعَارِفِ وَالْأَصْدِقَاءِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ نَفَقَتْ فِيهِ أَمَانَةٌ»⁽⁶⁾⁽⁷⁾. فَكَيْفَ بِسَرِّ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ؟!

(1) سيفرد بالبيان في مبحث مستقل ص 257.

(2) الآيات المسطورة: هي آيات القرآن الكريم، والآيات المنظورة: هي آيات الكون والخلق.

(3) القشيري، الرسالة القشيرية، 206/1.

(4) الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، 303/3، حدیث رقم: 5182. قال عنه: صحیح الإسناد ولم یخرجاه. قال الذهبي: أبو قحزم قال أبو حاتم لا يكتب حديثه وقال النسائي ليس بثقة

(5) الكاشاني، مصطلحات الصوفية، ص 333.

(6) سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء أن المجالس أمانة، حدیث رقم: 1959. وقال: حدیث حسن. وسنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في نقل الحديث، حدیث رقم: 4868.

(7) الغزالي، إحياء علوم الدين، 132/3.

ويستدل الإمام الغزالي على حُرْمَةِ إفشاء أسرارِ الحقِّ سبحانه وتعالى بفعل النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ لم يفشِ صلى الله عليه وسلم السِّرَّ الذي لو عرفه الصَّحابة لقلَّ ضحكهم ولكثر بكاؤهم: «لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَصَحَّكُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»⁽¹⁾.

فيقول رحمه الله: "إفشاء السِّرِّ لؤم؛ بل صدور الأحرار قبور الأسرار. وهل رأيت قطُّ أميناً على أسرار ملكٍ قد نوجي بخفائيه فنادى بسرّه على ملأ من الخلق؟! ولو جاز إفشاء كلِّ سرِّ لنا لما قال صلى الله عليه وسلم: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»⁽²⁾.

وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ⁽³⁾: "النَّفْسُ ظَلَمَةٌ كُلُّهَا، وَسِرَّاجُهَا سِرُّهَا، وَنُورُ سِرَّاجِهَا التَّوْفِيقُ، فَمَنْ لَمْ يَصْحَبْهُ فِي سِرِّهِ تَوْفِيقٌ مِنْ رَبِّهِ كَانَ ظَلَمَةٌ كُلُّهُ. قَالَ الْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ الْقَشِيرِيُّ: معنى قَوْلِهِ سِرَّاجُهَا سِرُّهَا يريد سرَّ العبد الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ محلُّ إِخْلَاصِهِ، وَبِهِ يَعْرِفُ الْعَبْدُ أَنَّ الْحَادِثَاتِ بِاللَّهِ لَا بِنَفْسِهِ وَلَا مِنْ نَفْسِهِ لِيَكُونَ مَتَبَرِّئًا مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ عَلَى اسْتِدَامَةِ أَوْقَاتِهِ، ثُمَّ بِالتَّوْفِيقِ يَعْتَصِمُ مِنْ شُرُورِ نَفْسِهِ، فَإِنْ مِنْ لَمْ يَدْرِكْهُ التَّوْفِيقُ لَمْ يَنْفَعِهِ عِلْمُهُ بِنَفْسِهِ وَلَا بِرَبِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ الشَّيْخُ: مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ سِرٌّ فَهُوَ مُصِرٌّ"⁽⁴⁾.

يبيِّن الشَّيْخُ الْقَشِيرِيُّ أَنَّ صَاحِبَ السِّرِّ يَمَيِّزُهُ تَوْحِيدَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِحَيْثُ لَا يَرَى فَاعِلًا عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا اللَّهَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17]. فهو غارق في فنائه، عاكف بكليته على مشاهدة مولاه.

ومن لطائفِ طُرُقِ كَتْمِهِمُ لِلسِّرِّ ما ورد أنَّه قيل لبعض الأدياء: "كيف حفظك للسِّرِّ؟ قال: أنا قبره. وقيل لآخر: كيف تحفظ السِّرِّ؟ قال: أجدد المخبر، وأحلف للمستخبر"⁽⁵⁾.

وقد أوصى العباسُ عمُّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ابنه عبد الله رضي الله عنهما فقال: "إني أرى هذا الرَّجُلَ - يعني عمر رضي الله عنه - يقدِّمك على الأشياخ، فأحفظ عني خَمْسًا: لا نقشينَّ له سرًّا، ولا تغتابنَّ عنده أحدًا، ولا يجربنَّ عليك كذبًا، ولا تعصينَّ له أمرًا، ولا يطلعنَّ منك على خيانة"⁽⁶⁾.

ويبيِّن الإمام الغزالي محلَّ السِّرِّ؛ فيعبّر عنه تارةً بالنَّفْسِ المَطْمَئِنَّةِ، وتارةً بالقلب، وتارةً بالروح، ويلخِّص ذلك فيقول: إِنَّ مَحَلَّ السِّرِّ هُوَ تِلْكَ اللَّطِيفَةُ الَّتِي مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، السَّاعِيَةِ إِلَى قَرَبِ اللَّهِ، فيقول: "اعلم أنَّ السَّاعِيَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِيَنَالَ قَرِيبَهُ هُوَ الْقَلْبُ دُونَ الْبَدَنِ، وَلَسْتُ أَعْنِي بِالْقَلْبِ اللَّحْمِ الْمَحْسُوسِ؛ بَلْ هُوَ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَدْرِكُهُ الْحِسُّ، وَلَطِيفَةٌ مِنْ لَطَائِفِهِ تَارَةً يَعْبُرُ عَنْهُ بِالرُّوحِ، وَتَارَةً بِالنَّفْسِ

(1) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، حديث رقم: 6485.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، 248/4.

(3) سبقت ترجمته ص 158.

(4) القشيري، الرسالة القشيرية، 220/1.

(5) الغزالي، إحياء علوم الدين، 179/2.

(6) الغزالي، إحياء علوم الدين، 179/2.

المطمئنة، والشرع يعبر عنه بالقلب؛ لأنه المطيئة الأولى لذلك السرِّ، وبواسطته صار جميع البدن مطيئة وآلة لتلك اللطيفة وكشف الغطاء عن ذلك السرِّ من علم المكاشفة، وهو مضمون به؛ بل لا رخصة في ذكره، وغاية المأذون فيه أن يقال: هو جوهرٌ نفيسٌ، ودُرٌّ عزيزٌ، أشرفٌ من هذه الأجرام المرئية؛ وإنما هو أمرٌ إلهيٌّ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85]، وكلُّ المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى، ولكنَّ نسبتَه أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن ... والمقصود أن هذه اللطيفة هي الساعية إلى قرب الربِّ، لأنها من أمر الربِّ، فمنه مصدرها وإليه مرجعها ⁽¹⁾.

وقد جاء ذكر السرِّ في القرآن الكريم في مواضع، منها:

1- قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:7]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "و" أما ظهوره واستيلاؤه على نفسك، فإنه يستولي على ذاتك وأفعالك وأقوالك؛ بحيث (إن تجهر بالقول فإنه يعلم) القول بالجهر منك، الذي تعلمه أنت أيضاً وغيرك؛ بل (السرِّ) الذي لا يعلمه غيرك (وأخفى) من السرِّ الذي لا تعلمه أنت أيضاً من مقتضيات استعداداتك قبل الخطور ببالك ⁽²⁾.

يبين الشيخ عبد القادر أن الله سبحانه وتعالى يعلم السرِّ الذي لا يطلع عليه أحد سواه؛ بل يعلم ما لا يعلمه المرء عن نفسه؛ من استعداداتٍ وضعفٍ وقوةٍ.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "النفس لا تقف على ما في القلب، والقلب لا يقف على أسرار الروح، والروح لا سبيل لها إلى حقائق السرِّ، والذي هو أخفى من السرِّ فهو ما لا يطلع عليه إلا الحق، ويقال الذي هو أخفى من السر لا يفسه الشيطان، ولا يكتبه الملكان، ويستأثر بعلمه الجبار، ولا تقف عليه الأغيار ⁽³⁾.

يقول الشيخ القشيري إن هناك حالاً بين العبد وربِّه لا يطلع عليه إلا الله تعالى، لا ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده؛ وهذا لعمرى من أجلِّ علامات رحمة الله وكرمه ولطفه بالعبد.

وقبل الدخول على حضرة ملكٍ من ملوك الدنيا يواجهك الجنود على الباب، ثم الحاجب، فالوزير، إلى أن تتأهل للدخول على الملك، والله المثل الأعلى؛ فإن أضحَّ العبد نفسه وقلبه وروحه تأهل سرُّه لخطاب الملك.

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، 54/1.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 280/3 وما بعدها.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 253/2 وما بعدها.

2- قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: 6]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (قُلْ) يا أكمل الرسل بعدما سمعت مقالهم، وتفردت حالهم في العتو وأنواع الإنكار والفساد: (أَنْزَلَهُ) أي: الفرقان عليّ مع أمي كما اعترفتن، لا قدرة لي على الإملاء فكيف على الإنشاء العليم؟! (الَّذِي يَعْلَمُ) بعلمه الحضوريّ (السِّرِّ) المكنون والحكمة الكامنة (في) أشكال (السَّمَاوَاتِ وَ) أقطار (الْأَرْضِ)"⁽¹⁾.

يقول الشيخ عبد القادر إنّ هناك سرّاً محبباً، وحكمةً كامنةً في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لا يعلمها إلا الله. وهنا يحضر الباحث قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101].

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "يا محمد، إن هذا الكتاب الذي أنزله الذي يعلم السرّ في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا يقدر أحد على الإتيان بمثله ولو تشاغلوا من الوقت الذي أتى به أعداء الدين، وهم على كثرتهم مجتهدون في معارضته بما يوجب مساواته فادعوا تكذيبه. وانقطعت الأعصار وانقضت الأعمار، ولم يأت أحد بسورة مثله، فانتهى الرّيب عن صدقه، ووجب الإقرار بحقه"⁽²⁾.

أمّر الشيخ القشيري رحمه الله الآية كما جاءت؛ فلم يتطرق إلى تفسير معنى السرّ الوارد في الآية. يقول الباحث: فالسرّ إنّ أذيع لم يعد سرّاً.

وانفرد الشيخ الجيلاني في تفسير بعض الآيات الكريمة فيما يخص موضوع السرّ، منها:

1- قال تعالى: ﴿الْمَ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 1-5]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: (الْمَ) أيها الإنسان الكامل، اللائق لخلافتنا، الملازم لاستكشاف أسرار ربوبيتنا كيفية بركات هويتنا الذاتية السارية على صفائح المكونات، المنتزعة عنها والمأخوذة منها. (ذَلِكَ الْكِتَابُ) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المتعبّد درجة كماله عن إفهام الجامع مراتب الأسماء والصفات في عالم الغيب والشهادة، المنزل على مرتبتك يا أكمل الرسل، الجامعة لجميع مراتب الكائنات من الأزل إلى الأبد بحيث لا يشذ عنها مرتبة أصلاً (لَا رَيْبَ فِيهِ) بأنّه

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 10/4.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 378/2.

منزل من عندنا لفظاً ومعنى: أمّا لفظاً: فلعجز جماهير البلغاء، ومشاهير الفصحاء، عن معارضة أقصر آية منه، مع وفور دواعيهم. وأمّا معنى: فلاشتماله على جميع أحواله الحقائق العينية، والأسرار الغيبية، ممّا كان وسيكون في النشأتين، ولا يتيسّر الاطلاع عليها، والإتيان بها على هذا النمط البديع إلا لمن هو علام الغيوب. وإنّما أنزلناه إليك أيّها اللائق لأمر الرسالة والنبأ؛ لتهدّي به أنت إلى بحر الحقيقة، وتهدّي به أيضاً من تبعك من التائبين في بقاء الضلالة؛ إذ فيه (هدى) عظيم (للمتقين) الذين يحفظون بامتثال أوامره واجتناب نواهيهم نفوسهم عن خبائث المعاصي المانعة من الطهارة الحقيقية والوصول إلى المرتبة الأصلية. و(الذين يؤمنون) يوقنون ويذعنون بأسراره ومعارفه (بالغيب) أي: غيب الهوية الذي هو ينبوع بحر الحقيقة وإليه منتهى الكلم، وبعد ذلك يتوجّهون بمقتضيات أحكامه نحوه، ويهدون إليه بسببه (ويقيمون) يديمون (الصلوة) الميل بجميع الأعضاء والجوارح على وجه الخضوع والتدلل إلى جنابه؛ إذ هو المقصد لكل إجمالاً وتفصيلاً، ولكل عضو وجارحة تدلّ خاص وله طريق مخصوص يناسبه، يرشدك إلى تفاصيل الطرق، فعله صلى الله عليه وسلم في صلواته على الوجه الذي وصل إلينا من الرواة المجتهدين - رضوان الله عليهم أجمعين - ولما تتبهاوا له به بمتابعته ومالوا نحو جنابه بالميل الحقيقي بالكلية لم يبق لهم ميل إلى ما سواه من المزخرفات الفانية لذلك (وممّا رزقناهم) سقنا إليهم ليكون بقاءً لحياتهم ومقوماً لمزاجهم (ينفقون) في سبيلنا طلباً لمرضاتنا وهرباً عما يشغلهم عنا، فكيف إنفاق الفواضل؟. و(الذين يؤمنون) ينفقون ويمتثلون (بمّا أنزل إليك) من الكتاب الجامع أسرار جميع ما أنزل من الكتب السالفة على الوجه الأحسن الأبلغ، ومن السنن ومن الأخلاق الملهمة إليك (و) مع ذلك صريحاً يعتقدون (مّا أنزل من قبلك) من الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين مع الإيمان بجميع الكتب المنزلة، وإن كان كل كتاب متضمناً للإيمان بالنشأة الآخرة بل هو المقصود الأصلي من جميعها (وبالآخرة هم يؤقنون) أفردوا بالذكر؛ اهتماماً بشأنها لكثرة المرتابين فيها. (أولئك) أي: جزاء أولئك المؤمنون المتعدون بجميع الكتب المنزلة على الرسل، والمؤمنون المذعنون بالنشأة الآخرة بل خاصة أنهم (على هدى) عظيم (من ربهم) الذي رباهم بأنواع اللطف والكرم إلى أن يبلغوا إلى هذه المرتبة التي هي الاهتداء إلى جانب قدسه (و) مع ذلك الجزاء العظيم والنفع الجسيم (وأولئك) السعداء (هم المفلحون) الفائزون، الناجون عن مضائق الإمكان الواصلون إلى فضاء الوجود، رزقنا الله الوصول إليه⁽¹⁾.

يبين الشيخ عبد القادر أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل خليفة الله في الأرض، عاكف على استكشاف أسرار الربوبية، وكان الشيخ عبد القادر يشير لقوله تعالى: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 44/1 وما بعدها.

ويقول الشيخ عبد القادر إنَّ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مشتملٌ على أسرار الغيب ممَّا كان، وممَّا سيكون؛ لأنَّه كلام علام الغيوب.

وإنَّ من صفات المؤمنين إذعانهم لما في القرآن الكريم من أسرار ومعارف، وإنَّ القرآن الكريم جمع أسرار الكتب السماوية السابقة.

2- قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٣٨٥﴾ [البقرة: 285].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(ءَامَنَ الرَّسُولُ) الفاني في الله، الباقي ببقائه، المستغرق بمطالعة لقائه، (بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ) من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات، المتجددة بتجددات التجليات، المنتشئة (من رَبِّهِ) الذي يُرِيهِ؛ لاستخلافه ونيابته وتحمل أسرار أعباء نبوته ورسالته، (وَالْمُؤْمِنُونَ) المتبوعون له، المسترشدون منه المقتفون أثره" (1).

يبين الشيخ عبد القادر أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لديه من صفات الكمال ما تجعله أهلاً لتحمل أسرار النبوة والرسالة؛ من الحقائق والمعارف والمكاشفات؛ لأنَّه خليفة الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، فلا شكَّ في أنَّ خليفة الله يؤيِّدُ بعلوم وأسرار توَّهله للقيام بهذه المهمة العظيمة، والمؤمنون يتلقَّون من النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه المعارف والحقائق، كلُّ حسب استعداده.

3- خاتمة سورة النحل

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "وأما قصة كرامتك وخلافتك التي هي من المواهب الإلهية، والعطاءات الغيبية، فإنَّما هي مبنية على محض التذلل والتواضع، والخضوع والانكسار مع كلِّ ذرَّةٍ من ذرات الكائنات؛ إذ مبناه على الحكمة المتقنة المتشعبة من أسرار سرائر الرسالة والنبوة، وهي عبارة عن اعتدال جميع الأوصاف، وتزكية النفس عن جميع الرذائل؛ بل هي مبنية على إفاء مقتضيات الأوصاف البشرية رأساً إرادة واختياراً" (2).

ينبئه الشيخ عبد القادر إلى سرِّ عظيم من أسرار الخلق؛ وهو سرُّ الخلافة، والتي هي من أجَلِّ المواهب والعطاءات الإلهية، وأنَّ هذا المقام العالي لا يُنالُ إلاَّ لمن راض نفسه بالتذلل إلى مولاها، فعلمت ضَعْفَهَا على الحقيقة، وَتَحَقَّقَتْ بِذُلِّهَا وَفَقْرَهَا إلى الله، وانعكس هذا الذُّلُّ بِشَكْلِ عَمَلِيٍّ فِي التَّعَامُلِ مَعَ

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 242/1.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 101/3.

كُلِّ الْكُونِ؛ لَأَنَّهُ يَشْهَدُ الْمُكُونُ جَلَّ جَلَالُهُ فِيهِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَتَعَامَلُ مَعَ هَذِهِ الْمَكُونَاتِ كَمَا أَوْصَاهُ مُسْتَخْلَفُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وانفرد الشيخ القشيري في تفسير بعض الآيات الكريمة بما يخص موضوع السر، منها:
1- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174]
قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "العلماء مطالبون بنشر دلائل العلم، والأولياء مأمورون بحفظ ودائع السر، فإن كتم هؤلاء براهين العلوم أُلجموا بلجام من النار، وإن أظهر هؤلاء شظية من السر عوجلوا ببعاد الأسرار، وسلب ما أوتوا من الأنوار. ولكل حد، وعلى كل أمر طبيعة" (1).
يؤكد الشيخ القشيري رحمه الله ما تقدم بيانه في مقدمة المبحث؛ من حرمة إفشاء سر المولى عز وجل، وفاعل ذلك يعاقب بالسلب والطرْد إن باحوا ولو بالنذر اليسير. أما علم الظاهر فكاتبته مطروداً مُلجماً بلجام من نار.

2- قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِءَ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "قوله (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ) لَمَّا كانوا غافلين عن الحق لم يكن لهم من ينقل إليه أسرارهم، فأظهروا السر بعضهم لبعض. فأما المؤمنون فعالم أسرارهم مولاهم، وما يسنح لهم خاطبوه فيه فلم يحتاجوا إلى إذاعة السر لمخلوق، فسامع نجواهم الله، وعالم خطابهم الله. (ولو رُدُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم) أي لو بتوا أسرارهم عند من هو من أهل القصد لأزالوا عنهم الإشكال، وأمَدُّوهم بنور الهداية والإرشاد. (ولو لا فضل الله) مع أوليائه لهاموا في كل واد من التفرقة" (2).
يبين الشيخ القشيري أن المؤمن يكتفي ببنت شكواه إلى مولا عز وجل؛ فهو لا يحتاج إلى التنفيس عما يجد لغير مولا؛ لأنه عاش على قول: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، فنترجم هذا الإيمان في كل تفصيل من تفاصيل حياته.

وينبّه الشيخ القشيري إلى طائفة من عباد الله اختصهم الله سبحانه بعلوم وأسرار لم يُطلع غيرهم عليها، وطالب المؤمنين الذين انكشفت لهم خصوصية هؤلاء القوم بالرجوع إليهم عند ورود الإشكالات والتساؤلات عليهم.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 84/1.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 217/1.

3- قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [النحل: 71]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أرزاق المخلوقات مختلفة فمن مضيق عليه رزقه، ومن موسع عليه رزقه، ومن أرزاق هي أرزاق النفوس، وأرزاق للقلوب وأرزاق للأرواح، وأرزاق للأسرار فأرزاق النفوس لقوم بتوفيق الطاعات، ولآخرين بخذلان المعاصي. وأرزاق القلوب لقوم حضور القلب باستدامة الفكر، ولآخرين باستيلاء الغفلة ودوام القسوة. وأرزاق الأرواح لقوم صفاء المحبة، ولآخرين اشتغال أرواحهم بالعلاقة بينهم وبين أشكالهم، فيكون بلاؤهم في محبتهم لأمثالهم. وأرزاق الأسرار لا تكون إلا بمشاهدة الحق، فأما من لم يكن من هذه الجملة فليس من أصحاب الأسرار" (1).

يقول الشيخ القشيري إن الرزق متنوع متعدّد، وليس كما يظن البعض أن الرزق مقتصر على أصناف المال؛ إذ إن الرزق الأعظم هو رزق الأرواح والأسرار؛ قال الله تعالى: ﴿رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾﴾ [طه: 131]. ويوضح الشيخ القشيري أن أهم ما يميز أصحاب الأسرار الإلهية عكوف سربهم على مشاهدة الحق.

ومن خلال دراسة الآيات السابقة يتبين ما يلي:

- 1- يبين الشيخ الجيلاني أن السر من أمر الله، لا يعلمه إلا هو، ومن ارتضى من نبي أو ولي.
- 2- يقول الشيخ القشيري إن هناك حالاً بين العبد وربّه، لا يطلع عليه إلا الله تعالى، لا ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده.
- 3- تتشوّف النفس بطبيعتها إلى معرفة أسرار الربوبية، والقرآن الكريم هو مستودع هذه الأسرار؛ لأنه كلام الله، والذي خصّ بفهم هذه الأسرار ومعرفة أسرارها هم الراسخون في العلم، بتعليم الله لهم وتفهمهم.
- 4- النبي صلى الله عليه وسلم حمل أسرار النبوة والرسالة؛ لكونه مؤهلاً من قبل مربيه جلّ وعلا لذلك.
- 5- من علامات العارف بالله تعامله مع الكون وكلّ ما فيه بالتواضع؛ لأنه يرى المبدع له، الخالق، البارئ، المصور.
- 6- المؤمنون عالم أسرارهم مولاهم، فلا يحتاجون إلى إذاعة السر لمخلوق، فسامع نجواهم الله، وعالم خطابهم الله.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 2/164.

7- يقول الإمام القشيريُّ إِنَّ علماء الشَّرِيعَة مطالبون بنشر العلم وعدم كتمه، بخلاف الأولياء الذين طولبوا بالكتم وعدم إفشاء السِّرِّ.

8- يَخَصُّ الله طائفةً من عباده بمعرفة أسرارِهِ، لا يخافون إذا خاف النَّاسُ؛ بل يفرح النَّاسُ لهم في المدلهمات.

9- السِّرُّ - وهو اللَّطيفة السَّاعية إلى قرب الله- لا يرضيها ولا يروي ظمأها إلا متناهي إلا مشاهدة الله عَزَّ وَجَلَّ.

المبحث السادس: النفس

حَضَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى تَرْكِيَةِ النَّفْسِ وَالْعِنَايَةِ بِتَرْبِيَّتِهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٦﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿٧﴾﴾ [الشمس: 9-10]، ووعَد اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ يَنْهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا، وَيَضْبِطُ شَهَوَاتِهَا بِجَنَّةِ الْمَأْوَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَدَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٨﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النازعات: 40-41].

وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْشَدَنَا أَنْ نَسْأَلَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَتَوَلَّى تَرْكِيَةَ نَفُوسِنَا، فَكَانَ مِنْ دَعَائِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»⁽¹⁾. وَاهْتَمَّ الصُّوفِيَّةُ اِهْتِمَامًا خَاصًّا بِتَرْبِيَةِ النَّفْسِ، قَالَ ابْنُ عَطَاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَوْلَا مِيَادِينُ النَّفُوسِ لَمَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ»⁽²⁾.

وَعَرَّفَ حَجَّةُ الْإِسْلَامِ الْغَزَالِيُّ النَّفْسَ فَقَالَ: «الْمَعْنَى الْجَامِعُ لِقُوَّةِ الْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ فِي الْإِنْسَانِ، وَهَذَا الْاِسْتِعْمَالُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ التَّصَوُّفِ لِأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ بِالنَّفْسِ الْأَصْلَ الْجَامِعَ لِلصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَيَقُولُونَ: لَا بَدَّ مِنْ مَجَاهِدَةِ النَّفْسِ وَكُسْرِهَا»⁽³⁾. يَقُولُ الْقَشِيرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنْ أَعْدَى عَدُوَّكَ نَفْسَكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»⁽⁴⁾.

وَعَرَّفَ الْجَنِيدُ رَحِمَهُ اللهُ النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ فَقَالَ: «هِيَ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْمَهَالِكِ، الْمَعِينَةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْمَتَّبِعَةُ لِلْهَوَى، الْمَتَّهَمَةُ بِأَصْنَافِ الْأَسْوَاءِ»⁽⁵⁾.

وَالنَّفْسُ أَعْظَمُ حِجَابٍ عَنِ اللهِ، وَالْمُؤْمِنُ الْمَحَبِّ يَتَمَنَّى زَوَالَ كُلِّ عَائِقٍ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الطَّمِسْتَانِيُّ⁽⁶⁾ رَحِمَهُ اللهُ: «التَّعَمُّةُ الْعِظْمَى الْخُرُوجُ مِنَ النَّفْسِ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ أَعْظَمَ حِجَابٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»⁽⁷⁾. فَالْمُسْلِمُ حِينَ يَسْتَطِيعُ إِخْضَاعَ نَفْسِهِ لِمُرَادَاتِ اللهِ وَأُؤَامِرِهِ، يَزُولُ عَنْهُ حِجَابُ الْهَوَى، فَيَصْبِحُ قَلْبُهُ مَمْتَزِّلًا لِلْمَكَاشِفَاتِ.

(1) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، حديث رقم: 2722.

(2) ابن عجيبة، شرح الحكم العطائية، ص 429.

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين 3/ 4.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 1/ 93.

(5) القشيري، الرسالة القشيرية، 1/ 283.

(6) أبو بكر الطمستاني، -لم يذكر اسمه- من أجل المشايخ وأعلامهم حالاً، متفرّد بحاله ووقته، لا يشاركه فيه أحد من المشايخ، وكان أبو بكر الشبلي يجعله، مات بنيسابور سنة 340هـ. السلمي، طبقات الصوفية، ص 352.

(7) القشيري، الرسالة القشيرية، 1/ 284.

والشيخ أبو بكر الطمستاني خبير في تربية النفوس، تُنقل عنه نقولات كثيرة في هذا الباب، منها: "النفوس كالتار إذا أطفأت من موضع تأججت من موضع، كذا النفس إذا هدأت من جانب ثارت من جانب آخر" (1).

ومنها قوله رحمه الله: "لا يمكن الخروج من النفس بالنفس، وإنما يمكن الخروج من النفس بالله تعالى، وذلك بصحة الإرادة لله عز وجل" (2)، وربما استنبط الشيخ أبو بكر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ [الحشر: 9].

وبيّن الجنيّد رحمه الله دواء النفس الأمّارة، وأنه يكون بمخالفتها، فيقول: "إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها" (3). ومن أوضح ما يشرح عبارة الجنيّد رحمه الله قول ابن عطاء الله رضي الله عنه في حكمه: "إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتّبعه؛ فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً" (4).

فلا بدّ للسالك من مواصلة اتهام نفسه على كلّ حال، ومخالفتها في كلّ أمر، وزجّها فيما تكره، قال أبو حفص (5): "من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال ولم يجزها إلى مكروها في سائر أيامه كان مغروراً، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم بن الكريم بن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل يقول: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: 53] (6).

ولا يفهم من هذا الكلام قمع النفس مرة واحدة؛ بل أخذها بالحيلة والتدريج؛ فمن أهمّ النصائح التي يسديها الشيوخ إلى المريدين أن يوغلوا في تربية نفوسهم برفق؛ فلا يحملوها ما لا تطيق مرة واحدة؛ بل يزيدا شيئاً فشيئاً، يقول الشيخ ابن عجيبة رحمه الله: "عليك بالحيلة مع النفس؛ وذلك أن تدخل معها شيئاً فشيئاً، فتعلمها الصمت وحده، ثم العزلة، ثم تقدّمها للخراب شيئاً فشيئاً، تقدمها للقليل فإذا استأنست به زدتها شيئاً آخر" (7).

(1) السلمي، طبقات الصوفية، ص 355.

(2) السلمي، طبقات الصوفية، ص 352.

(3) القشيري، الرسالة القشيرية، 284/1.

(4) ابن عجيبة، شرح الحكم العطائية، ص 356.

(5) تقدمت ترجمته ص 158.

(6) القشيري، الرسالة القشيرية، 283/1.

(7) ابن عجيبة، شرح الحكم العطائية، ص 429.

وله رحمه الله أيضًا وصفة مهمّة في هذا الميدان، وهو من فرسان ميدان النفوس؛ فيقول رحمه الله: "وها هنا ميزانٌ آخرُ تعرف به العمل الذي فيه حظُّ النفس وهواها، وما لا حظَّ لها فيه؛ وهو أن تعرض عليها الموت وأنت في ذلك العمل؛ فإن رَضِيتَ بالموت وهي في ذلك العمل فالعمل صحيحٌ، وإن لم تَرْضَ بالموت وهي في ذلك العمل فالعمل باطلٌ"⁽¹⁾.

يقول الشيخ عمر الصّالحي حفظه الله: "النفس إن ترقّت سمّيت روحًا، والنفس جُبلت على حبّ الشهوات، فهي بحاجة إلى المجاهدة"⁽²⁾.

وقد ذكر القرآن الكريم ثلاث مراتب للنفس؛ هي: النفس الأمارّة بالسوء، والنفس اللّوامة، والنفس المُطمئنّة، في الآيات الآتية:

1- ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: 53].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "ثم قال: (وَمَا أُبْرِيءُ) وأنزّه (نَفْسِيَّ) عن الفطرات والغفلات والخواطر القبيحة والديونة الشنيعة على مقتضى القوى الشهويّة واللذّة البهيميّة، وكيف ابرئ وأنزّه (إِنَّ النَّفْسَ) المركوزة في الجبلّة الإنسانيّة (لَأَمَّارَةٌ) مائلة بالطبع (بِالسُّوءِ) والفساد متوجهة نحوه إذا خلى وطبعها (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) أي: حفظها الله من كمال رحمته وشفقته من طغيانها ووسوسة الشيطان إليها (إِنَّ رَبِّي) الذي ربّاني بالعصمة والعفاف (غَفُورٌ) لما صدر عني من الخواطر النفسانيّة (رَحِيمٌ) يرحمني بفضله ويعصمني بلطفه عما يبعدني من كنفه وجواره"⁽³⁾.

يقول الشيخ الجيلاني إن الله سبحانه جَبَلَ كُلَّ نَفْسٍ عَلَى الْقَوَى الشَّهَوَانِيَّةِ، وَاللَّذَّةِ الْبَهيميَّةِ، فَهِيَ مَائِلَةٌ بطبعها إلى السوء، إِلَّا مِنْ أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى صَرْفِ هَوَاهَا، وَقَطَعَ وَسُوسَةَ الشَّيْطَانِ عَنْهَا.

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "لَمَّا تَمَدَّحَ بِقَوْلِهِ: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) كأنه نودي في سرّه: ولا حين هممت؟ فقال: (وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِيَّ). ويقال: قوله: (لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) بيان الشكر على ما عصمه الله، وقوله: (وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِيَّ) بيان العذر لما قصّر في أمر الله، فاستوجب شكره زيادة الإحسان، واستحقّ بعذره العفو"⁽⁴⁾.

يُنَبِّئُهُ الشَّيْخُ الْقَشِيرِيُّ إِلَى أَنَّ حِسَابَ خَوَاصِّ الْأَوْلِيَاءِ يَخْتَلِفُ عَنْ حِسَابِ عَوَامِّ النَّاسِ؛ فَالْأَنْبِيَاءُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ خَاصَّةُ الْخَاصَّةِ، لِذَلِكَ جَاءَ الْعِتَابُ لِسَيِّدِنَا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عِنْدَمَا قَالَ: (ذَلِكَ

(1) ابن عجيبة، شرح الحكم العطائية، ص 357.

(2) مقابلة مع الدكتور عمر الصالحي.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 2/457.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 2/81.

ليعلم أي لم اخنه بالغيب) فخطب في سره (ولا حين هممت) فقال سيدنا يوسف حينها: (وما أبرئ نفسي).

2- قال تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة:2].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(وَلَا أُقْسِمُ) أيضاً (بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) أي: وكذا لا حاجة إلى القسم بظهور النفس اللوامة في عالم الكون والفساد؛ إذ كُلُّ نفسٍ من النفوس الكائنة تعلم أَنَّ العالم ما هو إلاَّ سرابٌ باطلٌ، وَعَكْسُ زائلٌ عاطلٌ، لا قرارَ له، ولا مدارَ لها فيه، وتلوم دائماً نفسها عليها، إلاَّ أنَّها لا تنتبه على سلطنة الوحدة، ولا تتفطن بسرابتها واستيلائها على عموم ما ظهر وبطن، وغاب وشهد، حتى تصيرَ لوامةً، مطمئنةً راضيةً، وراضيةً مرضيةً، وراضيةً فقيرةً، وفقيرته فانية، وفانيته باقية، وليس وراء ذلك مرمىٌّ ومنتهى. أدركنا بلطفك الخفي يا خفي الألفاظ" (1).

يفسر الشيخ عبد القادر الجيلاني الآية على ظاهرها؛ خلافاً لما عليه جمهور المفسرين؛ فيقول إنه لا حاجة للقسم بالنفس اللوامة؛ لأنَّ كلَّ نفسٍ من النفوس تعلم أنَّ الدنيا مهما طال أمدها إلى زوال، فلا دوام لها، وعلى الرغم من علمها بذلك تلوم نفسها دائماً على فوات حظها من الدنيا، ولا تقطن إلى وحدة الله تعالى السارية في الأكوان، واستيلاء وحدة الله عزَّ وجلَّ بقرهه على جميع مخلوقاته، ولو تفطنت إلى هذه الحقيقة، لسلمت لله تعالى في كلِّ شيءٍ، فصارت نفساً مطمئنةً، ثمَّ ترقَّتْ فصارت راضيةً، ثمَّ مرضيةً، فأكرمها الله سبحانه بالتحقق بقرهه، ليصير استمداها من الله الغني، فتستغني بالله، وتغني عن كلِّ ما سواه، فتبقى معه جلَّ جلاله عاكفة على خدمته وحبِّه والحرص على ما يرضيه.

ويقول الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أي: أقسم بالنفس اللوامة، وهي النفس التي تلوم صاحبها، وتعرف نقصان حالها. ويقال: غداً... كلُّ نفسٍ تلوم نفسها: إمَّا على كُفْرِها، وإمَّا على تقصيرها وعلى هذا فالقسم يكون بإضمار "الربِّ" أي: أقسم بربِّ النفس اللوامة. وليس للوم النفس في القيامة خطرٌ وإنَّ حُمِلَ على الكلِّ ولكنَّ الفائدة فيه بيان أنَّ كلَّ النفوس غداً ستكون على هذه الجملة. وجواب القسم قوله: (بلى)" (2).

فالشيخ القشيري يقول إنَّ في الآية قسماً بالنفس اللوامة، التي تلوم دائماً صاحبها على تقصيره، والقسم بإضمار (رب) أي أقسم بربِّ النفس اللوامة. ويحاول الشيخ القشيري بيان الحكمة من هذا القسم،

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 231/6.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 368/3.

فيقول: لأنَّ كُلَّ أحد يوم القيامة لا ينجو من اللّوم، حتّى المحسن يلوم نفسه على عدم الاجتهاد أكثر لما يرى من كرامة الله لمن فوقه في الدّرجات.

3- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿١٠﴾﴾ [الفجر: 27-30]

قال الشّيحُ الجيلانيُّ عند تفسيرها: "ثمَّ أشار سبحانه إلى حُسن أحوال أرباب العناية والكرامة يومئذ من المؤمنين الموقنين الذين تزودوا في النّشأة الأولى للأخرى، واتّصفوا بالتّقوى، ولم يعصوا في مدة أعمارهم إلى المولى، ولم يتّبِعوا الهوى، واطمأنّوا ووطّنوا نفوسهم بما جرى عليهم من مقتضيات الانقضاء، وبالجملة: لم يضطّربوا في السّراء والضّراء، ولم يبالوا في الشّدة والرّخاء، فيقال لهم يومئذ: (يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) المتقرّرة المتمكّنة بمقام الرّضا والتّسليم. (أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ) واصعدي على الطّريق الذي هبطت عنه (رَاضِيَةً) متّصفة بالرّضا كما كنت راضية بالقضاء في النّشأة الأولى (مَّرْضِيَّةً) مقبولة مكرمة عند المولى. وبعدما رجعت على الوجه المذكور (فَأَدْخُلِي فِي) زمرة (عِبَادِي) الذين وصلوا إلى كنف جواري، وحصلوا في مقعد الصّدق لديّ. (وَ) بالجملة: (أَدْخُلِي جَنَّتِي) أي: جنّة وحدتي واستريحني في خلوة لاهوتي. جعلنا الله ممن خوطب بهذا الخطاب المستطاب، إنه هو الملهم للصّواب، وعنده حسن المآب.

خاتمة السورة:

عليك أيّها الموجدُ المترقّبُ بهذا النداء، والمحبُّ المترصدُ لسماع هذا الصّدق أن تكون في عموم أوقاتك على حضور مع ربّك، بحيث لا يشغلك عنه سبحانه الالتفات إلى غيره مطلقاً من الميل إلى الدّنيا وأمانيتها وعموم ما فيها، بل تكون مطمئناً راضياً بما جرى عليك من مقتضيات القضاء، مفوضاً أمورك كلّها إليه على وجه التّسليم والرّضا، متوجّهاً بالعزيمة الخالصة نحو المولى، حتّى تكون مخاطباً بهذا الخطاب المستطاب في كلّ نفس من أنفاسك التي جرت عليك في عموم أوقاتك وحالاتك. وبالجملة: لا تغفل عن الله مطلقاً تقرّ بتشريف أمثال هذه الخطابات العليّة والكرامات السّنّيّة. جعلنا الله من زمرة المستيقظين المطمئنّين⁽¹⁾.

يقول الشّيحُ عبد القادر في تفسيرها أنّ النّفس التي حافظت على حدود الله في الدّنيا، وكان التّقوى دثارها وشعارها طيلة حياتها، وتزوّدت من دنياها لأخرها نالت شرف النّداء من الله برتبة المطمئنّة؛ لأنّ حالها في الدّنيا كان الرّضا عن الله تعالى في قضائه وقدره، في السّراء والضّراء، فلم تبال على أيّ الجميلين حُملت: جمل الشّكر أم جمل الصّبر.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 367/6.

والنفس المطمئنة عند الشيخ عبد القادر هي النفس التي تمكنت في مقام الرضا والتسليم، فيفهم من كلام الشيخ أنّ النفس المطمئنة أعلى مراتب النفوس؛ لأنّ الرضا والتسليم أعلى مقامات العبودية. والنفس المطمئنة استحققت شرف الرجوع إلى ربّها الذي ربّاه في الدنيا بلطفه وكرمه، ووقفها بجلمه إلى أن نالت هذه الدرجة التي يطمح لها كلّ مؤمن؛ وهي الرضا والتسليم. ويشير الشيخ عبد القادر إلى أنّ النفس المطمئنة تعيش في جنّة الرضا في الدنيا قبل جنّة الحور والقصور في الآخرة.

ثمّ يختم الشيخ عبد القادر بتوجيهات دقيقة لمن أراد أن يسلك هذا الطريق، طريق الوصول إلى النفس المطمئنة، الرّاضية المرضية، وجماع هذه النّصائح والتّوجيهات هو عدم الغفلة عن الله تعالى، وهذا هو السرّ وراء حصّ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة على الإكثار من ذكر الله تعالى، وقد أفرد مقام الذّكر في مبحث مستقلّ في الدراسة⁽¹⁾.

ويقول الشيخ القشيريّ عند تفسيرها: "قوله جلّ ذكره: (يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ). الرّوح المطمئنة إلى النفس. ويقال: المطمئنة بالمعرفة: ويقال: المطمئنة بذكر الله. ويقال: بالبشارة بالجنّة. ويقال: النفس المطمئنة: الرّوح الساكنة، (أَرْجِعِي إِلَيَّ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً). راضية عن الله، مَرْضِيَةً من قِبَلِ اللَّهِ (فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي) أي: في عبادي الصالحين"⁽²⁾.

ساق الشيخ القشيريّ عدّة وجوه في تفسير الطمانينة للنفس؛ المطمئنة: بسبب معرفتها بالله تعالى، والمطمئنة بسبب دوامها على ذكر الله تعالى، أو أنّها مطمئنة بسبب أنّها بُشّرت بالجنّة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:20].

ويذكر الشيخ القشيريّ أنّ النداء في الآية قد يكون للروح - السرّ الإلهي الذي يسكن الجسد - فناداها بأشرف وصف لها: (يا أيتها النفس المطمئنة)، وفسّر الشيخ القشيريّ قوله تعالى: (راضية مرضية) فقال: الرّاضية عن الله، والمرضى عنها من قبل الله تعالى.

(1) الباب الرابع، الفصل الثاني، المبحث الثالث، ص 244.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 421/3.

ويختتم الباحث هذا المبحث بقول نفيشٍ للشيخ أحمد الرفاعي⁽¹⁾ رضي الله عنه: "اعلم أنّ معرفة النفس أحد أصول العبوديّة، وقلّ من يعرفها، وعزّ وجود من يتمنى عرفانها، وما خلق الله تعالى في الدارين سجناً أضيق على العارف ولا أوحش من النفس"⁽²⁾.

وبعد دراسة تفسير الآيات السابقة التي تناولت آيات النفس في القرآن الكريم يتبين ما يلي:

- 1- ذكر القرآن الكريم ثلاث مراتب للنفس؛ وهي: الأمانة بالسوء، واللّوامة، والمطمئنة.
- 2- أعدى أعداء المرء نفسه التي بين حنبيه؛ فما دامت النفس حيّة فهي حيّة، يجب الحذر منها، وهي كالنار؛ إن أحمدت من جهة ثارت من أخرى.
- 3- أخبر القرآن الكريم أنّ النفس توسوس لصاحبها، وتسوّل له فعل المعاصي والشّهوات.
- 4- النفس أخطر من الشيطان؛ لأنّ الشيطان تنقطع وسوسته بذكر الله تعالى، أمّا النفس فلا تنقطع وسوسها وتسويلاتها إلاّ بنهي صاحبها لها عن ذلك.
- 5- مخالفة هوى النفس الطريق إلى جنة المأوى.
- 6- بغير توفيق الله وعونه للعبد على محاربة النفس ومخالفة هواها لن يفلح العبد في تربيتها وترقيتها، لذلك علّمنا نبينا صلى الله عليه وسلم أن نطلب من الله العون على ذلك: (اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليّها ومولّاها)، (يا حي يا قيوم برحمتك استغيث أصلح لي شأني كلّهُ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين).
- 7- الإنسان على نفسه بصيرة، وعليه أن يسير مع نفسه على عكس مراده؛ فيخالفها فيما تأمره به.
- 8- عدم الغفلة عن الله علاج ناجح مع النفس، يرشدنا إليه الشيخ عبد القادر؛ لتتركّى النفس وتصل إلى رتبة الطمأنينة.
- 9- يقول الشيخ عبد القادر: كما أنّ النفس رضيت عن الله تعالى في قدره خلوه ومزّه، عاملها الله سبحانه من جزاء هذا العمل، فأحلّها جنة الرضا في الدنيا قبل جنة الآخرة.

(1) هو أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعي؛ كان رجلاً صالحاً فقيهاً شافعي المذهب، أصله من العرب، وسكن في البطائح بقرية يقال لها: أم عبيدة، وانضم إليه خلق عظيم من الفقهاء، وأحسنوا الاعتقاد فيه وتبعوه. والطائفة المعروفة بالرفاعية والبطائحية من الفقهاء منسوبة إليه، توفي سنة 578. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/171. ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، 5/2.

(2) الرفاعي، أحمد بن علي، حالة أهل الحقيقة مع الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1425هـ/2004م، ص68.

وفي أثناء إعداد هذا المبحث، خطرت للباحث خواطر؛ وهي:

1- قَسَمُ اللهُ سبحانه وتعالى بالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ يَدَلُّ عَلَى عِظَمِ هَذِهِ النَّفْسِ، وَأَهْمِيَّتِهَا فِي السَّلُوكِ؛ فَإِنَّ شُعُورَ التَّقْصِيرِ يَدْفَعُ الْمَرْءَ دَائِمًا إِلَى التَّرَقِّيِّ، وَلَوْ رَضِيَ الْمَرْءُ عَنِ نَفْسِهِ لَبَقِيَ يَرَاوِحُ مَكَانَهُ مَعْتَقِدًا الْكَمَالَ.

2- النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ هِيَ الَّتِي يَخَاطِبُهَا الْحَقُّ جَلَّ وَعَلَا (آخِرُ سُورَةِ الْفَجْرِ) فَيُفِيضُ عَلَيْهَا مِنَ الْإِلَهَامَاتِ وَالْكَشُوفَاتِ.

3- النَّفْسُ مِثْلُ الشَّيْطَانِ تُوَسَّوَسُ لِصَالِحِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق:16]، وَكَذَلِكَ فَهِيَ تَسْأَلُ لَهُ فِعْلَ الْمَعَاصِي، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ سَأَلْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: 83]. وَخَطَرُهَا أَشَدُّ مِنَ الشَّيْطَانِ.

المبحث السابع: السوى:

للسادة الصوفية اصطلاحات خاصة بهم، يعرفها أهل التصوف والمهتم بأدبياتهم. وكما أن لكل علم من العلوم مصطلحات خاصة به يعرفها أهل التخصص من ذلك العلم؛ مثل الفقه والحديث والفلسفة، فعلم التصوف يدخل في هذا الباب، ومن هذه المصطلحات مصطلح «السوى»؛ ويقصدون به كل ما سوى الله ورسوله.

وأصل هذا المصطلح وارد في سنة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَحَتَّى أَنْ يُقَدِّفَ فِي النَّارِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ، وَحَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»⁽¹⁾؛ فحب الله والرسول مقدم عند المؤمن إيماناً كاملاً عما سواهما.

ولذلك فرض الله علينا خمس صلوات في اليوم والليلة، يترك فيها العبد كل مشاغله، ويتوجه إلى الله بالصلاة، يقول حجة الإسلام الغزالي: "وأما الاستقبال فهو صرف وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عز وجل ليس مطلوباً منك، هيئات هيئات فلا مطلوب سواه... فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه"⁽²⁾.

ومتى وصل العبد إلى تلك الدرجة التي لا يرى في الكون إلا الله أصبح قلبه منتزلاً للمكاشفات والإلهامات، يقول الغزالي رحمه الله: "الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تنفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكرة، والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه؛ فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف"⁽³⁾.

وعند تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:26] يقول الشيخ القشيري: "الأمر في الظاهر بتطهير البيت، والإشارة من الآية إلى تطهير القلب. وتطهير البيت بصونه عن الأذناس والأوضار، وتطهير القلب بحفظه عن ملاحظة الأجناس والأغيار"⁽⁴⁾.

ويؤكد ذلك المعنى الشيخ ابن عجيبة؛ فيقول رضي الله عنه: "تطهر من شهود السوى بماء العلم بالله، فإنه يغيب عنك كل ما سواه، وإذا تطهرت من شهود السوى تطهرت من العيوب كلها"⁽⁵⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحب في الله، 6041. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، حديث رقم: 43.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، 1/166.

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، 1/71.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 1/68.

(5) ابن عجيبة، شرح الحكم العطائية، ص59.

يقول الشيخ عبد الكريم الجيلي⁽¹⁾: [من الطويل]

أَكْبَرُ فِي التَّحْرِيمِ ذَاتَكَ عَنِ السَّوَى وَبِاسْمِكَ تَسْبِيحِي إِذَا أَنَا خَاشِعٌ

صِيَامِي هُوَ الْإِمْسَاكُ عَنِ رُؤْيَةِ السَّوَى وَفَطْرِي إِلَى نَحْوِ وَجْهِكَ رَاكِعٌ⁽²⁾

" والصَّومُ عَنِ رُؤْيَةِ السَّوَى الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَيْلِيِّ فِي عَيْنِيَّتِهِ هُوَ صَوْمُ النَّفْسِ عَنِ الْهَمُومِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَصَوْمُ الْقَلْبِ عَنِ الْأَرَائِكِ الْأَخْرُويَّةِ، وَصَوْمُ الْهَمَّةِ عَنِ غَيْرِ اللَّهِ بِالْكَلِّيَّةِ؛ لِاسْتِيْلَاءِ سُلْطَانِ الْهَيْبَةِ، وَهُوَ مِنْ آدَابِ الْحَضْرَةِ"⁽³⁾.

ويلاحظ أنَّ هناك جامع بين ترك السَّوَى ومقام الفناء، وترك السَّوَى كما مرَّ تعريفه هو ترك ما دون الله تعالى، حتى نفسك التي بين جنبيك، وهذا هو عين الفناء⁽⁴⁾.

والإنسان في علاقته مع ما سوى الله فإمَّا أن يكون راغبًا أو راهبًا، وذلك ممَّا يُفدِّخُ في توحيدِهِ؛ لِذَلِكَ قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ مَنْصُورٍ: "مَنْ خَافَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ رَجَا سِوَاهُ أَغْلَقَ عَلَيْهِ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ وَسَلَطَ عَلَيْهِ الْمَخَافَةَ وَحَجَبَهُ بِسَبْعِينَ حِجَابًا أَيْسَرَهَا الشُّكُّ"⁽⁵⁾.

وعبَّرَ الشَّيْخُ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجَيْلَانِيِّ بِمِصْطَلَحِ «السَّوَى» مَرَّاتٍ عَدَّةً فِي تَفْسِيرِهِ، مِنْهَا:

1- قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَعَآئِنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: 253]

قال الشَّيْخُ الْجَيْلَانِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: "وَكَم بَيْنَ فَضِيلَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفَضْلِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إِذْ قَالَ سَبْحَانَهُ فِي حَقِّهِ (وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) وَفِي شَأْنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَقَامِ الْإِمْتِنَانِ لَهُ (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) أَيُّهَا الْمَظْهَرُ الْكَامِلُ بِذَاتِهِ، الْمُقَدَّسُ عَنِ السَّوَى مُطْلَقًا (وَوَضَعْنَا

(1) هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي، ت 832هـ، ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، من علماء المتصوفين، له العديد من المؤلفات، أشهرها: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل. الزركلي، الأعلام، 50/4.

(2) الجيلي، عبد الكريم بن إبراهيم، ت 832هـ، قصيدة النادرات العينية، تحقيق يوسف زيدان، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1419هـ، 1999م. ص 75 وما بعدها.

(3) مقابلة مع الدكتور عمر الصالحي.

(4) تناولت الدراسة مقام الفناء في مبحث مستقل ص

(5) القشيري، الرسالة القشيرية، 255/1.

عَنكَ وَرُزِّكَ)؛ أي: هويتك التي بها انفصالك عَنَّا (الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) قبل انكشافك بذاتنا، كما أنقض ظهور جميع المخلوقات الباقية وراء الحجاب وبعد ذلك (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) أي: إن وصلت إليها ورفعت الاتينية بنا لذلك قلت: «من أطاعني فقد أطاع الله»⁽¹⁾، وقلت أيضاً: «من رآني فقد رأى الحق»⁽²⁾ وقلنا لك: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) وغير ذلك من الرموز والإشارات الواردة في القرآن والحديث⁽³⁾.

يفسر الشيخ عبد القادر تفضيل الرسل بعضهم على بعض؛ فيضرب مثلاً بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام، وفي أثناء التفسير ينتقل الشيخ إلى تفسير سورة الشرح في مقام بيان فضل نبينا صلى الله عليه وسلم، ويذكر الشيخ عبد القادر من ضمن هذه الفضائل: أن الله سبحانه وتعالى نزه نبيه الكريم عن الالتفات إلى «السوى» مطلقاً.

2- قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:24].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "ثم قال سبحانه منادياً للمؤمنين تذكيراً لهم وتعليماً: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) مقتضى إيمانكم: إجابة الله وإجابة رسوله (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ) بامتثال مأموراته وأحكامه، واجتباب نواهيهِ (وَلِلرَّسُولِ) سنته وآدابه وأخلاقه (إِذَا دَعَاكُمْ) وحده، باعتبار أن دعوة الرسول هي بعينها دعوة الحق (لِمَا يُحْيِيكُمْ) من العلوم الدينية والمعارف الحقيقية المثمرة للمكاشفات والمشاهدات التي اضمحلت دونها نفوس السوى والأغيار مطلقاً، المورثة للحياة الأزلية والبقاء السرمدية التي لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى، التي هي الانخلاع عن لوازم البشرية، ومقتضيات القوى البهيمية، ولا بد أن تكون إجابتم وقولكم على وجه الخلوص والتسليم"⁽⁴⁾.

يُبينُ الشيخُ عبدُ القادرِ أنَّ امتثالَ أمرِ الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فيه الحياة التي تمد الإنسان بالعلوم والمعارف، المعينة على ترك السوى بالكلية، وهجر الأغيار نهائياً.

3- قال تعالى: ﴿يَصْلِحِى السِّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:39]

قال الشيخُ الجيلانيُّ عند تفسيرها: "ثم لما مهّد يوسف لصاحبه طريق التوحيد ونبه عليهما السلوك

(1) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، حديث رقم: 7137. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمرء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، رقم: 1835.

(2) صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب من رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، حديث رقم: 6996. صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم من رآني في المنام فقد رآني، حديث رقم: 2267.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 213/1.

(4) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 201/2.

عليه، أشار إلى دعوتهما إليه على سبيل التدرّج كما هو دأب الأنبياء، فقال منادياً لهما ليقبلا على قبول قوله: (بِصَاحِبِي السَّجْنِ) الساكنين فيه، المصاحبين معي (ءَأَرْبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ) متكثرون في العدد متمثلون في عدم القدرة والاختيار (خَيْرٌ) عندهم وأحقّ لعبادتهم وانقيادكم (أَمْ اللَّهُ الْوَّاحِدُ) المتوحد في ذاته، المستقلّ في ألوهيته وربوبيته، المستغني في ذاته عن المظاهر مطلقاً (الْقَهَّارُ) الغالب على جميع السوى والأغيار⁽¹⁾.

يفسر الشيخ عبد القادر اسمَ الله القهَّارِ بالغالب على ما دونه؛ إذ كما تبيّن في مقدّمة المبحث أنّ «السوى» عند السادة الصوفيّة هو كلّ ما سوى الله عزَّ وجلَّ؛ فالله الواحد القهَّار هو الغالب على جميع الأغيار.

4- قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص:62]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "ثمّ قال سبحانه: (و) اذكر يا أكمل الرُّسُلِ لِمَنْ أَشْرِكْ بِاللَّهِ، وأثبت له شريكاً في الوجود سواه (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) الله المتعزّز برداء العظمة والكبرياء حين ظهر على مظاهره باسم القهَّار، المفني لأضلال السوى والأغيار مطلقاً (فَيَقُولُ) على مقتضى غيرته وجلاله مخاطباً لمن أشرك به شيئاً من عكوسه وأضلاله، مع أنّ الكَلَّ حنينٌ مطموسٌ مقهورٌ تحت حوله وقدرته: (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) أيها المشركون شركائي، وتعبدونهم كعبادتي عدواناً وظلماً؟! ثمّ أظهرهم الحق وأوجدهم؛ أي: التّابعين والمتبوعين جميعاً بعدما قهرهم وعدّبهم جميعاً؛ إظهاراً للقدرة الكاملة، وإلزاماً للحجّة البالغة"⁽²⁾.

يؤكد الشيخ عبد القادر في هذه الآية أيضاً على معنى اسم الله القهَّار، أي الغالب لكلّ ما دونه، ويذكر الشيخ معنى المفني - المميت - لأنّ الآية تتحدّث عن يوم القيامة بعد أن يحيي الله سبحانه المخلوقات التي أفناها للحساب.

5- قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس:65].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "والسرّ في إنطاق الله سبحانه الأعضاء والجوارح بما صدر عنها هو الإشارة إلى أن الالتفات إلى السوى والأغيار مطلقاً مضرٌّ لذوي الألباب والاعتبار، وسبب تفضيح وتخذيل لدى الملك الجبار الغيور القهار، فلا تذهب إلا إلى الله، ولا تصحب إلا مع الله، ولا تعتمد إلا

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 449/2.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 193/4.

بالله، ولا تتوكل إلا على الله، فاتَّخذه سبحانه وكليلاً، وكفاك سبحانه حسيباً وكفياً. رزقك الله وإياناً حلاوة صحبته، وجنّبك وإياناً عن الالتفات إلى غيره بمنّه وجوده⁽¹⁾.

يقول الشيخ عبد القادر إنّ الحكمة من إنطاق الأيدي والأرجل عند الحساب، هو التنبية للمؤمنين أنّ الذي يلتفت إلى غير الله من متاع دنيا أو أيّ شيءٍ يحجّب عن الله تكون عاقبته وخيمة في الآخرة، وفضيحتة على رؤوس الأشهاد. ويرشد الشيخ عبد القادر إلى جمع الهمّ على الله تعالى، والالتكال والاعتماد عليه وحده سبحانه وتعالى، وكفى به جلّ وعلا حسيباً وكفياً.

وقد عبّر الشيخ القشيري عن مصطلح «السوى» في تفسيره في مواضع عدّة؛ منها:

1- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله؛ يعني أفرد قصده إلى الله، وأخلص عقده لله عما سوى الله، ثم استسلم في عموم أحواله لله بالله، ولم يدخّر شيئاً عن الله؛ لا من ماله ولا من جسده، ولا من روحه ولا من جلده، ولا من أهله ولا من ولده، وكذلك كان حال إبراهيم عليه السلام. وقوله: (وهو مُحسِنٌ): الإحسان - بشهادة الشرع - أن تعبد الله كأنك تراه، ولا بدّ للعبد من بقية من عين الفرق حتى يصحّ قيامه بحقوقه سبحانه؛ لأنّه إذا حصل مستوفي بالحقيقة لم يصحّ إسلامه ولا إحسانه، وهذا اتّباع إبراهيم عليه السلام الحنيف، الذي لم يبق منه شيء على وصف الدوام. وقوله: (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا): جرد الحديث عن كلّ سعي وكيدٍ وطلبٍ وجهٍ حيث قال: (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) فَعَلِمَ أَنَّ الْخَلَّةَ لُبْسَةُ يُلْبَسُهَا الْحَقُّ لَا صِفَةً يَكْتَسِبُهَا الْعَبْدُ.

ويقال الخليل المحتاج بالكلية إلى الحقّ في كلّ نفسٍ ليس له شيء منه؛ بل هو بالله لله في جميع أنفاسه وأحواله، اشتقاقاً من الخلة التي هي الخصاصة؛ وهي الحاجة.

ويقال إنّه من الخلة التي هي المحبة، والخلة أن تباشر المحبة جميع أجزائه، وتتخلل سرّه حتى لا يكون فيه مساعٍ للغير. فلما صفّاه الله سبحانه (عليه السلام) عنه، وأخلاه منه، نصّبّه للقيام بحقه بعد امتحائه عن كلّ شيءٍ ليس الله سبحانه⁽²⁾.

يبيّن الشيخ القشيري أن حال سيّدنا إبراهيم على نبيّنا وعليه السلام، كان الإعراض عما سوى الله تعالى، والاستسلام له سبحانه، في كلّ أحكامه وأوامره، ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّؤُا لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: 103]، وسيّدنا إبراهيم عليه السلام خليل الله، والخلة أن تملأ المحبة قلبه، وجميع أمره، حتّى لا يكون في المرء

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 508/4.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 1/ 227.

بقية لغير الله، ويفسر الشيخ القشيري (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) أي صفاه الحق جل وعلا، وخلاه عن كل شيء من حظوظ النفس والدنيا؛ بل عن «السوى» مطلقاً.

2- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]. قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أي الذين أشاروا إلى الله ثم لم يرجعوا إلى غير الله؛ فإن من قال "الله" ثم رجع بالتفضيل عند حاجاته أو مطالباته أو شيء من حالاته إلى غير الله فخصمه في الدنيا والعقبى الله. والظلم - في التحقيق - وضع الشيء في غير موضعه، وأصعبه حساباً أن من الحدثان ما لم يكن وكان؛ فإن المنشئ الله، والمُجربى الله، ولا إله إلا الله، وسقط ما سوى الله"⁽¹⁾. يلخص الشيخ القشيري التوحيد، ويبين العقبة الوخيمة للشرك: الظلم العظيم، فيقول: من أشرك بالله فخصمه الله تعالى، في الدنيا والآخرة، والعياذ بالله. والتوحيد مجموع في «لا إله إلا الله»، فمن علم «لا إله إلا الله» وتحقق بها، سقط ما سواه جل جلاله مباشرة.

3- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64]. قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أحسن التأويلات في هذه الآية أن تكون "من" في محل النصب؛ أي ومن اتبعك من المؤمنين يكفيهم الله. ومن التأويلات في العربية أن تكون "من" في محل الرفع أي حسبك من اتبعك من المؤمنين. وقد علم أن استقلال الرسول صلى الله عليه وسلم كان بالله لا بمن سوى الله، وكل من هو سوى الله فمحتاج إلى نصرته الله، كما أن رسول الله محتاج إلى نصرته الله"⁽²⁾. يرجح الشيخ القشيري أن (من) في الآية في محل نصب؛ لأن هذا ما يليق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فمعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعتمد على أحد إلا الله، فهو صلى الله عليه وسلم متحقق بأن كل ما سوى الله محتاج إلى نصرته الله؛ بل يعلمه للناس: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40].

4- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 302/1.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 402/1 وما بعدها.

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "لو اشتغل الكل بالتفقه في الدين لتعطل عليهم المعاش، ولبقي الكافة عن درك ذلك المطلوب، فجعل ذلك فرضاً على الكفاية. ويقال جعل المسلمين على مراتب: فعوامهم كالرعية للملك، وكتبته الحديث كخزان الملك، وأهل القرآن كحفاظ الدفاتر ونفائس الأموال، والفقهاء بمنزلة الوكلاء للملك... وعلماء الأصول كالقواد وأمرء الجيوش، والأولياء كأركان الباب، وأرباب القلوب وأصحاب الصفاء كخواص الملك وجلسائه. فيشتغل قوم بحفظ أركان الشرع وآخرون بامضاء الأحكام، وآخرون بالرد على المخالفين، وآخرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقوم مُفردون بحضور القلب وهم أصحاب الشهود، وليس لهم شغل، يراعون مع الله أنفاسهم وهم أصحاب الفراغ، لا يستغزهم طلب ولا يهزهم أرب، فهم بالله لله، وهم محو عما سوى الله. وأمّا الذين يتفقهون في الدين فهم الداعون إلى الله، وإنما يفهم الخلق عن الله من كان يفهم عن الله"⁽¹⁾.

يبين الشيخ القشيري تفضيل الله للناس بعضهم على بعض، كلاً في وظيفته ودوره؛ لتتحقق عمارة الكون؛ فلو كان الكل مشتغلاً بالفقه لتعطل معاش الناس. واختص الله سبحانه أقواماً بحضور قلوبهم دائماً معه سبحانه، لا يشهدون غيره، يراعون مع الله النفس والباطنة، فهم محو عما سوى الله، ليس لسواه سبحانه في قلبهم مقدار شظية.

5- قال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُضِعَتْ لَهُمْ نَارٌ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج:19].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "أمّا أصحاب الإيمان فلباسهم اليوم التقوى، وتنقسم إلى اجتناب الشرك ثم مجانبة المخالفة، ثم مباينة الغفلة، ثم مجانبة السكون إلى غير الله والاستبشار إلى ما سوى الله وفي الآخرة لباسهم فيها حرير، وآخرون لباسهم صدار المحبة، وآخرون لباسهم الانفراد به، وآخرون هم أصحاب التجريد؛ فلا حال ولا مقام ولا منزلة ولا محل وهم الغرباء، وهم الطبقة العليا، وهم أحرار من رِق كل ما لحقه التكوين"⁽²⁾.

يأخذ الشيخ القشيري بالقلوب والأرواح إلى معانٍ قل أن تجدها عند علماء الظاهر؛ فبين رحمه الله أنّ أصحاب الإيمان على درجات، أعلاهم درجة الذين ليس لهم سكون مع غير الله، وليس لهم فرح بغيره سبحانه، حتى الجنة وما فيها لم تفتهم عن مولاهم، لذلك كان عطاؤهم في الجنة الانفراد به جلّ جلاله.

وهم الأحرار على الحقيقة؛ لم يعبدوه خوفاً من ناره، ولا طمعاً في جنته؛ بل حُباً له سبحانه، فهم الأحرار؛ لأنّ ليس لهم عبودية إلا لله الواحد القهار، ولا يشركون به شيئاً من الأغيار.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 453/1.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 315/2.

وَمِنْ خِلالِ دِرَاسَةِ الآيَاتِ السَّابِقَةِ يَتَبَيَّنُ لِلبَّاحِثِ مَا يَلِي:

1- الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قدوة الناس في هجر «السوى» بالكليّة؛ فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم نزّهه الله عن الالتفات إلى ما سواه، وسيّدنا إبراهيم على نبينا وعليه السلام نال الخلة بتخليه عن «السوى» مطلقاً.

2- امتثال أوامر الله ورسوله الطّريق الموصّلة لتطهير القلب من «السوى»، ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله جعل الله له نوراً يمشي به.

3- الله الواحد القهار الغالب على جميع الاغيار، فمن تحقّق بلا إله إلا الله سقط بالمقابل عنده كلّ ما سواه.

4- دع الغير جانباً، وارض بالله صاحباً، فإنّ ظفرت بصحبته كنت مع الغنيّ القويّ الوهاب، الكريم الثواب.

5- الأحرار هم الذين تحرّروا من العبوديّة لغير الله تعالى، فلا تغريهم الدنيا وبهاجها، ولا أخرى بجانها وحورها.

"فالحمد لله الذي أحرق قلوب أوليائه بنار محبته، واسترقّ همهم وأرواحهم بالشوق الى لقائه ومشاهدته، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته، حتى أصبحو من تنسّم روح الوصال سكرى، وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سجات الجلال والهة حيرى، فلم يروا في الكونين شيئاً سواه، ولم يذكروا في الدارين إلا إياه"⁽¹⁾.

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، 268/2.

المبحث الثامن: القطب الغوث.

لم يذكر القرآن الكريم مقام القطب بشكلٍ مباشرٍ؛ إنّما أشار إليه إشارةً، وكذلك السنّة المطهّرة، فاعتمد الباحث في هذا المبحث على أقوال السادة الصّوفيّة من مصادرهم.

فالقطب هو أعلى مرتبة يصل إليها الصّوفي بين مراتب أهل الله، قال الكتّاني⁽¹⁾ رحمه الله: "النّقباء ثلاثمائة، والنّجباء سبعون، والبُدلاء أربعون، والأخيار سبعة، والعُمُد أربعة، والغوث واحد"⁽²⁾. وعرف الكاشاني رحمه الله «القطب» فقال: "هو الواحد الذي موضع نظر الله تعالى من العالم في كلّ زمان، وحين يُلتجأ إليه يصير اسمه غوثاً في وقت اللّجوء إليه"⁽³⁾.

ويلاحظ من تعريف الكاشاني أنّ «القطب» يطلق عليه غوثاً عندما يلتجئ إليه النّاس؛ طلباً للدّعاء، فيدعو الله لهم فيغاثوا. وقال الكتّاني رحمه الله: "فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النّقباء، ثم النّجباء، ثم الأبدال، ثم الأخيار، ثم العمد، فإن أجبوا، وإلا ابتهل الغوث، فلا تتم مسألته حتى تجاب دعوته"⁽⁴⁾.

وعرف الكاشاني القطبيّة الكبرى فقال: "هي مرتبة قطب الأقطاب؛ وهو باطن نُبوة محمّد صلى الله عليه وسلم، فلا يكون إلا لورثته؛ لاختصاصه صلى الله عليه وسلم بالأكمليّة، فلا يكون خاتم الولاية قطب الأقطاب إلا على باطن خاتم النّبوة"⁽⁵⁾.

ويظهر من تعريف الكاشاني أنّ مقام «قطب الأقطاب» لا يناله إلا وارث محمّد⁽⁶⁾، فلا بدّ أن يكون من الكمّل، المتأسّين برسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

(1) سبقت ترجمته ص 5.

(2) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 4/129. و ابن عساكر، تاريخ دمشق، 300/1.

(3) الكاشاني، معجم اصطلاحات الصّوفية، 162. وعرف الغوث ص185.

(4) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 4/130.

(5) الكاشاني، معجم اصطلاحات الصّوفية، ص 162.

(6) سيتناول المبحث القادم مقام الوارث المحمّدي، ص301.

قال السُّلَمِيُّ⁽¹⁾ رضي الله عنه: "الرَّوَّاسِي الْأَجَلَّةُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ هُمُ الْمُشْرَفُونَ عَلَى الْخَلْقِ؛ لِأَنَّهُمْ الْخَوَاصُّ مِنْهُمْ. وَقَوْلُهُ... وَأَشْرَفَهُمْ، نَظَرَهُمْ أَصْحَحُ، وَبِرَكَاتِهِمْ أَعْمُ، وَلَا يَشْرَفُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ إِلَّا الْقَطْبُ الَّذِي هُوَ الْوَاحِدُ فِي الْعِلْمِ وَبِهِ قَوَامُ كُلِّ الْأَوْلِيَاءِ وَالرَّوَّاسِي دُونَهُ"⁽²⁾.

وقال الزُّرْقَانِيُّ رحمه الله: "والمراد بالغوث: القطب المفرد الجامع... وقيل إن الغوث مسكنه اليمن، والأصحُّ أنَّ إقامته لا تختص بمكَّة ولا بغيرها؛ بل هو جَوَّالٌ، وقلبه طَوَّافٌ في حضرة الحق تعالى وتقدس، لا يخرج من حضرته أبداً، ويشهده في كل جِهَةٍ، ومن كل جِهَةٍ"⁽³⁾.

"والقطب عبدٌ صالحٌ تلتفتُ الأولياءُ حوله"⁽⁴⁾. وأمَّا "الغوثُ فهو صاحبُ الزَّمانِ، وسلطانُ الدِّيانِ"⁽⁵⁾. يُلاحظ أنَّ المعلومات عن القطب قليلة جداً، استقى الباحث معظمها من كلام كبار مشايخ الصَّوفيَّة. ويتفق ابنُ تيميةَ رحمه الله مع أصل الفكرة دون القول بما اصطلح عليه الصوفية في ذلك؛ فقال رحمه الله: "وَأَمَّا الْقُطْبُ فَيُوجَدُ أَيْضًا فِي كَلَامِهِمْ فَلَانٌ مِنَ الْأَقْطَابِ أَوْ فَلَانٌ قُطْبٌ، فَكُلُّ مَنْ دَارَ عَلَيْهِ أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا بَاطِنًا أَوْ ظَاهِرًا فَهُوَ قُطْبٌ ذَلِكَ الْأَمْرَ وَمَدَارُهُ، سَوَاءً كَانَ الدَّائِرُ عَلَيْهِ أَمْرَ دَارِهِ، أَوْ دَرَبِهِ، أَوْ قَرْبَتِهِ، أَوْ مَدِينَتِهِ أَمْرَ دِينِهَا، أَوْ دُنْيَاهَا، بَاطِنًا أَوْ ظَاهِرًا، وَلَا اخْتِصَاصَ لِهَذَا الْمَعْنَى بِسَبْعَةٍ، وَلَا أَقَلٍّ وَلَا أَكْثَرَ؛ لَكِنَّ الْمَمْدُوحَ مِنْ ذَلِكَ مَنْ كَانَ مَدَارًا لِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ دُونَ مُجَرَّدِ صَلَاحِ الدُّنْيَا؛ فَهَذَا هُوَ الْقُطْبُ فِي عُرْفِهِمْ فَقَدْ يَتَّبَعُ فِي بَعْضِ الْأَعْصَارِ أَنْ يَكُونَ شَخْصٌ أَفْضَلُ أَهْلِ عَصْرِهِ وَقَدْ يَتَّبَعُ فِي عَصْرِ آخَرَ أَنْ يَتَّكَافَأَ اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ فِي الْفَضْلِ عِنْدَ اللَّهِ سَوَاءً وَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ شَخْصٌ وَاحِدٌ هُوَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مُطْلَقًا"⁽⁶⁾.

(1) هو محمد بن الحسين بن موسى الأزدي، الإمام، الحافظ، المحدث، شيخ خراسان، وكبير الصَّوفيَّة، له تصانيف كثيرة من أشهرها طبقات الصَّوفية وحقائق التفسير، توفي سنة 412 هـ في نيسابور. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 247/17.

(2) السلمي، أبو عبد الرحمن بن الحسين بن موسى الأزدي، ت 412 هـ، حقائق التفسير، تحقيق سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م، 216/2.

(3) الزرقاني، محمد بن عبد الباقي، ت 1122 هـ، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، دار الكتب العلمية، ط1، 1417 هـ/1996م، 487/7.

(4) مقابلة مع الدكتور عمر الصالحي.

(5) محمد هاشم، دستور الولاية، 35/1.

(6) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، ت 728 هـ، مجموع الفتاوى، المدينة المنورة، 1425 هـ/2004م، 440/11.

وقد أفرد السيوطي رحمه الله مصنفًا مستقلًا أسماه (الخبز الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال)⁽¹⁾، جمع فيه -رضي الله عنه- الأخبار الواردة فيهم، والآثار التي وردت عن كبار التابعين؛ أمثال الحسن البصري، رضي الله عنه.

"وامتاز الأبدال بالجوع؛ جوعهم عن الحرام. وقد يكون على الحقيقة لا المجاز؛ فإنهم يقتصرون على لقيمات - من ثلاث إلى سبع لقم-"⁽²⁾.

وقد أشار القرآن الكريم إلى مقام «القطب» من خلال بعض الآيات الكريمة؛ مثل:

1- قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [إفصلت: 10]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(رَوَاسِيَ) أي: أقطاباً وأوتاداً رفعية الهمم عالية القدر مستمرة (من فَوْقِهَا) أي: من عالم الأسماء والصفات (وَ) لهذا (بَارَكَ فِيهَا) وكثر الخير والبركة عليها (وَ) من كمال حكمته سبحانه (قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا) أي: قدر وأظهر في عالم الطبيعة جميع ما يحتاج إليه أهلها من الرزق الصوري والمعنوي تكميلاً لتربيتهم، وتكميلاً لهم حسب نشأتهم"⁽³⁾.

وقال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الجال أوتاد الأرض في الصورة، والأولياء أوتاد ورواسٍ للأرض في الحقيقة (وبارك فيها) البركة: الزيادة؛ فيأتيهم المطر ببركات الأولياء، ويندفع عنهم البلاء ببركات الأولياء (وقدر فيها أقواتها) وجعلها مختلفة في الطعم والصورة والمقدار. وأرزاق القلوب والسرائر كما مضى ذكره فيما تقدم"⁽⁴⁾.

فقد اتفق الشيخ عبد القادر والشيخ القشيري على تفسير الآية تفسيراً إشارياً بأن المقصود بالرواسي هم كبار أهل الله، أو ما يطلق عليهم عند السادة الصوفية «الأقطاب» و«الأوتاد». وكما أن الله سبحانه وتعالى قدر أقوات العباد المادية، فكذلك أكرم عباده بالأرزاق المعنوية، التي تجري على أيدي الأقطاب والأوتاد؛ فينال الناس من بركاتهم.

وانفرد الشيخ الجيلاني بذكر مقام «القطب» عند تفسيره للآية التالية -فيما تيسر للباحث قراءته من التفسير-:

1- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَمِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: 27]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(وَجَعَلْنَا فِيهَا) وعليها من نوع الإنسان (رَوَاسِيَ) أوتاداً وأقطاباً (شَمِخَاتٍ) عاليات متعاليات عن أن ينال بكنه معارفهم وشهوداتهم إدراك أحد (وَأَسْقَيْنَاكُمْ) من لذنيات

(1) الكتاب مطبوع، دار البيروتي، دمشق، ط1، 1426هـ/2005 م. وطبعة مكتبة القاهرة، بتحقيق الشيخ عبد الله محمد الصديق الغماري، ط4، 1434هـ/2013 م.

(2) مقابلة مع الدكتور عمر الصالحي.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 5/192.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 3/145.

أولئك الأوتاد المتعالية أعدار أطوارهم العالية عن إدراك الأنام وإفهامهم (مَاءً) حياةً (فُرَاتاً) سائغاً شرايه لأولي العزائم الصحيحة، والمشارب الصافية⁽¹⁾.

يؤكد الشيخ عبد القادر أن المقصود من الرواسي هم الأقطاب والأوتاد، ويخبر رضي الله عنه أن هؤلاء السادة اختصهم الله بعلوم لدنيّة أكرمهم الله بها كما أخبر سبحانه في كتابه ﴿وَسَقَلَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: 21].

وانفرد الشيخ القشيري بذكر مقام «القطب» عند تفسيره لبعض الآيات؛ منها:

1- قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الوسط الخيار، فجعل هذه الأمة خيار الأمم، وجعل هذه الطائفة خيار هذه الأمة فهم خيار الخيار. فكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم في القيامة فهذه الطائفة هم الأصول، وعليهم المدار، وهم القطب، وبهم يحفظ الله جميع الأمة، وكل من قبلته قلوبهم فهو المقبول، ومن ردت قلوبهم فهو المردود. فالحكم الصادق لفراستهم، والصحيح حكمهم، والصائب نظرهم، عصم جميع الأمة عن الاجتماع على الخطأ، وعصم هذه الطائفة عن الخطأ في النظر والحكم، والقبول والرد، ثم إن بناء أمرهم مستند إلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم. وكل ما لا يكون فيه اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم فهو عليه رد، وصاحبه على لا شيء"⁽²⁾.

يبين الشيخ القشيري مكانة الصوفيّة في عموم أمّة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهم مركز الدائرة الذين عليهم مدار الأمر، وبهم يحفظ الله تعالى جميع المسلمين. وأنهم رضي الله عنهم أصحاب فراسة لا تخطئ؛ وهذا باعتقاد الباحث ناجم عن عدم غفلتهم عن مولاهم فأصبحوا يرون بنوره جلّ وعلا. وأكد الشيخ شدة اتباع الصوفيّة لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، واقتدائهم به عليه الصلاة والسلام في كل أمور حياتهم.

قال الباحث: الذي يخالط الصوفيّة يرى بوضوح، وبما لا يدع مجالاً للشك، حبّ الصوفيّة الشديد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومحاولتهم الاقتداء به عليه الصلاة والسلام في كل أحواله وأخلاقه.

2- قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181]

قال القشيري عند تفسيرها: "أجرى الحق سبحانه سنته بألا يخلو البسيطة من أهل لها هم الغياث وبهم دوام الحق في الظهور، وفي معناه قالوا: إذا لم يكن قطب ... فمن ذا يديرها؟"⁽³⁾.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 261/6.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 74/1.

(3) لم أجده.

فهدايتهم بالحق أنهم يدعون إلى الحق، ويدلون على الحق، ويتحركون بالحق، ويسكنون لحق بالحق، وهم قائمون بالحق، يصرفهم الحق بالحق، أولئك هم غياث الخلق بهم يسقون إذا قحطوا، ويمطرون إذا أجدبوا، ويجابون إذا دعوا⁽¹⁾.

يشير الشيخ القشيري إلى مقام القطب الغوث، الذي يلتجأ إليه عند الخطوب، وأن من أهم صفاته رضي الله عنه أنه قائم بالحق، يصرفه الحق حيث شاء، وأن همه هداية الخلق، ودلائلهم على الله عز وجل.

3- قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل:15].

قال القشيري عند تفسيرها: "الرؤاسي في الظاهر الجبال، وفي الإشارة الأولياء الذين هم غياث الخلق، بهم يرحمهم، وبهم يغيثهم، ومنهم أبدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب. وفي الخبر: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»⁽²⁾. وقال تعالى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:33]، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ [الفتح:25]⁽³⁾.

يؤكد الشيخ القشيري على أن المراد بالرؤاسي هم أولياء الله الأوتاد والأقطاب، وبهم يرحم الخلق، ويرزقون، وتدفع عنهم المصائب، ويلاحظ أن الشيخ القشيري ذكر القطب بصيغة المفرد، أما الأوتاد والأبدال أتى بصيغة الجمع، وهذا يدل برأي الباحث على اتفاق الصوفية أن القطب واحد، ويكرّر الشيخ القشيري هذا الفهم أينما مرّ ذكر الرؤاسي في كتاب الله كما في الآيات التالية:

4- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء:31]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "الأولياء هم الرؤاسي في الأرض وبهم يرزقون، وبهم يدفع عنهم البلاء، وبهم يوقى عليهم العطاء. وكما أنه لولا الجبال الرؤاسي لم تكن للأرض أوتاد، فكذاك الشيوخ الذين هم أوتاد الأرض فلولاهم لنزلت بهم الشدة"⁽⁴⁾.

5- قال تعالى: ﴿جَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوْسِي﴾ [النمل:61]

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 370/1 وما بعدها.

(2) أخرجه ابن حبان في المجروحين، ولكن بلفظ (الشيخ في بيته كالنبي في قومه). ابن حبان، محمد بن حبان التميمي الدارمي البستي، ت354هـ، المجروحين من المحدثين والضغفاء والمتروكين، تحقيق محمود ابراهيم زايد، دار الوعي، حلب، ط1، 1396هـ، 39/2. وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال بلفظين الأول: (الشيخ في أهله كالنبي في أمته) حديث رقم: 2632، والثاني: (الشيخ في بيته كالنبي في قومه) حديث رقم: 42633. المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، ت975هـ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق بكرى حياني وصفوة الشقا، مؤسسة الرسالة، ط5، 1401هـ/1981م، 564/15.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 151/2 وما بعدها.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 291/2.

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "ويقال الرواسي في الأرض الأبدال والأولياء والأوتاد؛ بهم يديم إمساك الأرض، وبركاتهم يدفع عن أهلها البلاء. ويقال الرواسي هم الأئمة الذين يهذون المسترشدين إلى الله"⁽¹⁾.

6- قال تعالى: ﴿الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الحجر: 19]

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "ويقال من الرواسي التي أثبتتها في الأرض الأولياء فيهم يثبت الناس إذا وقع بهم الفرغ، ومن الرواسي العلماء الذين بهم قوام الشريعة؛ فعلماء الأصول هم قوام أصل الدين، والفقهاء بهم نظام الشرع... (وَأُنْبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) كما أنبت فنونا من الثبات ذات أنوار أنبت في القلوب صنوفاً في الأنوار، منها نور اليقين ونور العرفان، ونور الحضور ونور الشهود، ونور التوحيد، إلى غير ذلك من الأنوار"⁽²⁾.

أضاف الشيخ القشيري في هذا الموضوع معنى جديداً للرواسي؛ وهو علماء الشريعة الذين بسببهم يحفظ الدين.

ويفسر الشيخ القشيري الإنبات تفسيراً إشارياً، بأنه الأنوار التي تسطع في القلوب، من نور العرفان والحضور والشهود والتوحيد... إلخ.

ومن خلال دراسة الآيات السابقة يتبين للباحث ما يلي:

1- يتفق الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري على تفسير (الرواسي) بالأوتاد والأقطاب، وهم كبار الأولياء عند السادة الصوفية.

2- أدخل الشيخ القشيري علماء الظاهر والفقهاء في تفسيره لمعنى الرواسي.

3- الأقطاب والأوتاد وأولياء الله عموماً بهم تغاث الأمة وترزق، وتنصر على أعدائها، وبركاتهم يدفع عن أهل الأرض البلاء.

4- يتجلى الله سبحانه وتعالى على الأقطاب والأوتاد بالعلم اللدني، فيفيضون منه على الخلائق بما يفتح الله.

5- الأمة المحمدية قطب الأمم السابقة، والسادة الصوفية قطب الأمة المحمدية.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 423/2.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 134/2.

المبحث التاسع: الوارث المحمدي

جعل الله تعالى هذا الأمر - الإسلام - وراثته بين أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد:26]، وحرص الأنبياء جميعاً على توريث رسالة الإسلام لأبنائهم، فطلبها زكرياً عليه السلام من ربه: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾ [مريم:5-6]، فسيدنا زكرياً طلب وريثاً يرث عنه الذين كما ورثه عن آبائه من قبل، فاستجاب الله دعوته، وما زالت تلك سنة الرسل حتى وصلت الرسالة إلى خاتمها، الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، وانتهت به الرسائل والرسل، إلا أن تلك المنزلة العظيمة بقيت، تتوارثها الأمة المحمدية في علمائها وأوليائها، فقد قال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لسيدنا علي على نبينا وعليه السلام: «أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي»⁽¹⁾؛ فكان بذلك الخطاب أول وارث محمدي.

ثم إنّه من رحمة الله تعالى بهذه الأمة المرحومة، أن جعل علماء هذه الأمة ورثة لخير الأنبياء صلى الله عليه وسلم، فقال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّهِ وَإِثْرِهِ»⁽²⁾.

فالله تعالى يصطفي ويجتبي لهذه الرسالة من عباده من يشاء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝﴾ [فاطر: 32].

وقد فهم الصحابة الكرام قدر هذا الميراث، فصانوه وحافظوا عليه، وحثوا الناس على الاستزادة منه، فقد روي "عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه مر بسوق المدينة، فوقف عليها، فقال: يا أهل السوق، ما أعجزكم، قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقسّم، وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه، قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعاً إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد، فدخلنا، فلم نر فيه شيئاً يُقسّم. فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى، رأينا قوماً يصلون،

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، حديث رقم: 4416. وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، حديث رقم: 2404.

(2) سنن الترمذي، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم: 2682. قال عنه الشيخ الأرنؤوط: حسن لغيره.

وَقَوْمًا يُقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَقَوْمًا يَتَذَكَّرُونَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَيَحْكُمُ، فَذَلِكَ مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»⁽¹⁾.

يقول حجة الإسلام رضي الله عنه: "واعلم أن العالم لا يكون وارثاً للنبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا اطلع على جميع معاني الشريعة؛ حتى لا يكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلا درجة واحدة؛ وهي درجة النبوة وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والمورث؛ إذ المورث هو الذي حصل المال له واشتغل بتحصيله واقتدر عليه والوارث هو الذي لم يحصل ولم يقدر عليه، ولكن انتقل إليه وتلقاه منه بعد حصوله له"⁽²⁾. فالشيخ الغزالي رحمه الله نبه على أن الوارث المحمدي من شروطه إحاطته بعلوم الشريعة الغراء.

ومن صفاته أيضاً "التمسك بكتاب الله وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكون قد أحاط بالسنة. وهو المعني بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»⁽³⁾⁽⁴⁾.

وللوارث المحمدي شروط لا بد أن تتوفر فيه ليكون مؤهلاً لإرشاد الناس⁽⁵⁾:

- 1- أن يكون عالماً بالفرائض العينية.
- 2- أن يكون عارفاً بالله تعالى.
- 3- أن يكون خبيراً بطرائق تزكية النفوس ووسائل تربيتها.
- 4- أن يكون مأذوناً بالإرشاد من شيخه.

وللوارث المحمدي علامات يمكن ملاحظتها بسهولة لكل من صدق الطلب، منها⁽⁶⁾:

- 1- أنك إذا جالسته تشعر بنفحة إيمانية، ونشوة روحية، لا يتكلم إلا لله، ولا ينطق إلا بخير، ولا يتحدث إلا بموعظة أو نصيحة، تستفيد من صحبته كما تستفيد من كلامه، تنتفع من قربيه كما تنتفع من بعده، تستفيد من لحظه كما تستفيد من لفظه.

(1) الطبراني، المعجم الأوسط، باب الألف، من اسمه أحمد، 114/2.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، 142/1.

(3) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، حديث رقم: 4291.

(4) مقابلة مع الدكتور عمر الصالحي.

(5) عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص 63.

(6) عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص 64 وما بعدها.

2- أن تلاحظ في إخوانه ومريديه صور الإيمان والإخلاص والتقوى والتواضع، وتتذكر وأنت تخالطهم المثل العليا من الحب والصدق والإيثار، والأخوة الخالصة، وهكذا يُعرف الطبيب الماهر بآثاره ونتائج جهوده، حيث ترى المرضى الذين شُفوا على يديه ، وتخرجوا من مصحته بأوفر قوة، وأتم عافية.

3- أنك ترى تلاميذه يمثلون مختلف طبقات الأمة، وهكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء ذكر الوراثة المحمدية في تفسير الجيلاني في مواضع؛ منها:

1- خاتمة سورة التوبة.

قال الشيخ الجيلاني فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم : "وتشبت بأذيال لطفه فعلاً وقولاً وشيمةً، صارفاً عنان عزمك إلى سرائر جميع ما جاء به من عند ربه؛ لإرشاد عباد الله، وما سمح به من تلقاء نفسه صلى الله عليه وسلم من الرموز والإشارات التي استنبطها من كلامه، وفاضت عليه بوحى الله وإلهامه، لصفاية استعداده الذي صار به مرآة لتجليات الحق وشؤونه وتطوراته، وخليفة الله في أرضه وسمائه، وما التقط من كلماته وإشاراته الأولياء الوارثون منه، المقتفون أثره - قدس الله أرواحهم - وما ورد عليهم من تفاوت طبقاتهم في طريق التوحيد من المواجيد والملهمات الغيبية، المنتشرة من النفحات الإلهية والنفسات الرحمانية الناشئة من التجليات الجمالية والجلالية⁽¹⁾، المتفرعة على الشؤون والتطورات الكمالية"⁽²⁾.

يُفهم من كلام الشيخ عبد القادر أنّ الأولياء ورثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولقربهم منه صلى الله عليه وسلم كانوا يلتقطون الإشارات الروحانية التي كان يبينها لهم عالي المقام صلى الله عليه وسلم. وأنّ الأولياء رضي الله عنهم متفاوتون في الفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسب العطاءات الإلهية وتجليات المولى عز وجلّ الجلالية والجمالية.

(1) "صفات الجلال عبارة عن صفات العظمة والكبرياء والمجد والثناء، وكل جمال له فإنه حيث يشتد ظهوره يسمى جلالاً. وأما صفات الجمال فهي أوصافه العلا وأسمائه الحسنى، واستيفاء أسمائه وأوصافه للخلق محال لأن ثمة أسماء وأوصافاً له مستأثرات عنده وهي جمال، فظهر بذلك أن ظهور الجمال المطلق والجلال المطلق مختص بالله تعالى" الجيلي، عبد الكريم، ت 832 هـ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، 1986م، ص 53 وما بعدها.

(2) الجيلاني تفسير الجيلاني، 310/2.

2- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: 10].

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (أُولَئِكَ) السَّعْدَاءُ المقبولون عند الله (هُمُ) الأولياء (الْوَارِثُونَ) عن الأنبياء والرسل وصفوة عباد الله وخيرتهم وهم: (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ) الذي هو التَّحَقُّقُ بمقام الكشف والشهود باستحقاقهم الذاتي مع استرشادهم، واستفادتهم من الأنبياء والرسل الهادين المهديين المرشدين لهم إلى ما جبلوا لأجله لذلك (هُمُ فِيهَا خَالِدُونَ) متمكنون مقربون، لا يتحولون ولا يتبدلون" (1).

يبين الشيخ عبد القادر الجيلاني أن الأولياء رضي الله عنهم ورثة الأنبياء والرسل؛ لأنهم صفوة الله، وخيرتهم من عباده. وفسر الشيخ عبد القادر جنة الفردوس هنا تفسيرًا إشاريًا بأنها مقام الكشف والشهود الذي يكرم الله به الأولياء المرشدين المهديين، وفسر الخلود بالتمكين في مقام الكشف والشهود دون تحوّل أو تبديل.

3- خاتمة سورة الأحقاف.

قال الشيخ الجيلاني فيها: "عليك أيها العازم على سلوك طريق التوحيد: أن تقصد نحوه بالعزيمة الخالصة الصافية عن كدر الرياء ورعونات الهوى، وتتصبر على مشاق التكاليف ومتاعب الطاعات والرياضات القالعة لمقتضيات القوى البشريّة بجملتها ومشتهيات القوى البهيميّة برمتها، فلك أن تقتدي في سلوكك هذا أثر أولي العزائم من الرسل الكرام والأنبياء العظام والكمل من الأولياء الذين هم ورثة الأنبياء؛ لتفوز بالدرجة القصوى والمرتبة العليا" (2).

يوجّه الشيخ عبد القادر نصيحة للمريدين في خاتمة تفسيره لسورة الأحقاف بقمع هوى النفس بالرياضات والمجاهدات، ويختتم نصيحته لهم بحثهم على الاقتداء في سلوكهم إلى الله بأولي العزم من الرسل الكرام، وأنبياء الله أجمعين، وورثتهم من الأولياء الكمل العارفين.

وقد جاء ذكر الوراثة المحمّديّة في تفسير القشيريّ عند تفسيره لبعض الآيات؛ فقد ذكر مقام الوراثة المحمّديّة في معرض الحديث عن النهي عن الأجر أو المقابل لقاء دعوتهم للناس إلى طريق الحق، وجاء ذلك مكرّرًا في آيات منها:

1- قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: 104].

قال الشيخ القشيريّ عند تفسيرها: "هذه سنّة الله - سبحانه - مع أنبيائه حيث أمرهم بالألا يأخذوا على تبليغ الرسالة عَوْضًا ولا أجرًا، وكذلك أمره للعلماء - الذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام - بالألا يأخذوا

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 431/3.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 339/5.

مَنْ الخَلْقِ عَوْضاً عَلَى دَعَائِهِمْ إِلَى اللَّهِ. فَمَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ حَظًّا مِنَ النَّاسِ لَمْ يُبَارَكْ لِلْمَسْتَمِعِ فِيمَا يَسْمَعُ مِنْهُ؛ فَلَا لَهُ أَيْضاً بَرَكَهٌ فِيمَا يَأْخُذُ مِنْهُمْ فَتَنْقَطِعَ بِهِ⁽¹⁾.

يُؤَكِّدُ الشَّيْخُ القَشِيرِيُّ عَلَى الفِكْرَةِ ذَاتِهَا الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا؛ إِذْ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِخْلَاصِ العَمَلِ لِلَّهِ هُمُ وِرْثَةُ الأنْبِيَاءِ.

2- قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [المؤمنون: 72].

قال الشَّيْخُ القَشِيرِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: "أَيُّ إِنَّكَ لَا تُطَالِبُهُمْ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ بِأَجْرٍ، وَلَا بِإِعْطَاءِ عَوْضٍ حَتَّى تَكُونَ بِمَوْضِعِ التَّهْمَةِ فِيمَا تَأْتِيهِمْ بِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ. أَمْ لَعَلَّكَ تَرِيدُ أَنْ يَغْفِدُوا لَكَ الرِّيَاسَةَ. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي لَكَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ وَحَسَنِ المَآبِ يُغْنِيكَ عَنِ التَّصَدِّي لِنَيْلِ مَا يَكُونُ فِي حَاصِلِهِ مِنْهُمْ مَطْمَعٌ. وَهَذَا كَانَ سُنَّةَ الأنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ؛ عَمِلُوا لِلَّهِ وَلَمْ يَطْلُبُوا أَجْراً مِنْ غَيْرِ اللَّهِ. وَالعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ فَسَبِيلُهُمُ التَّوْقِيُّ عَنِ التَّنَدُّسِ بِالأَطْمَاعِ، وَالأَكْلِ بِالدِّينِ فَإِنَّهُ رِيَاءٌ مُضِرٌّ بِالإِيمَانِ؛ فَإِذَا كَانَ العَمَلُ لِلَّهِ فَالأَجْرُ مُنْتَظَرٌ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ مَوْعُودٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ"⁽²⁾.

يقول الشَّيْخُ القَشِيرِيُّ بِحَرْمَةِ التَّكْسِبِ لِعُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ بِعِلْمِهِمْ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الرِّيَاءِ المَضِرِّ بِالإِيمَانِ؛ فَكَمَا أَنَّ الأنْبِيَاءَ امْتَنَعُوا عَنِ أَخْذِ الأَجْرِ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، فَالعُلَمَاءُ وَرَثَتُهُمْ وَيَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الحُكْمِ.

3- قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الشعراء: 127].

قال الشَّيْخُ القَشِيرِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا: "أَخْبَرَ عَنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الأنْبِيَاءِ أَنَّهُ قَالَ: (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) لِيَعْلَمَ الكَافَّةُ أَنَّ مِنَ عَمَلِ اللَّهِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَطْلُبَ الأَجْرَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ. وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌُ لِّلْعُلَمَاءِ - الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ - أَنْ يَتَأَدَّبُوا بِأَنْبِيَاءِهِمْ، وَأَلَّا يَطْلُبُوا مِنَ النَّاسِ شَيْئاً فِي بَثِّ عِلْمِهِمْ، وَلَا يَرْتَقُونَ مِنْهُمْ بِتَعْلِيمِهِمْ، وَالتَّذْكِيرِ لَهُمْ أَنَّهُ مَنْ ارْتَقَى فِي بَثِّ مَا يُدَكِّرُ بِهِ مِنَ الدِّينِ وَمَا يَعِظُ بِهِ المُسْلِمِينَ فَلَا يُبَارِكُ اللَّهُ لِلنَّاسِ فِيمَا مِنْهُ يَسْمَعُونَ، وَلَا لِلْعُلَمَاءِ أَيْضاً بَرَكَهٌ فِيمَا مِنَ النَّاسِ يَأْخُذُونَ، إِنَّهُمْ يَبِيعُونَ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ يَسِيرٍ، ثُمَّ لَا بَرَكَهٌ لَهُمْ فِيهِ، إِذْ لَا يَبْتَغُونَ بِهِ اللَّهِ، وَسَيَحْضُلُونَ عَلَى سُخْطِ اللَّهِ"⁽³⁾.

يَحْذَرُ الشَّيْخُ القَشِيرِيُّ العُلَمَاءَ مِنْ ضَيَاعِ بَرَكَهَةِ عِلْمِهِمْ إِنْ أَخَذُوا الأَجْرَ عَلَيْهِ، فَلَا يَنْتَفِعُ المَسْتَمِعُ بِعِلْمِهِمْ، وَلَا يُبَارِكُ لَهُمْ فِيمَا يَتَقَاضُونَ مِنَ النَّاسِ؛ إِذْ إِنَّ الأَصْلَ فِي العَالَمِ أَنَّهُ يَطْلُبُ أَجْرَهُ مِنَ اللَّهِ؛ مَتَأَسِّياً بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 2/96.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 2/346.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 2/405.

4- قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر:32].

قال الشيخ القشيري عند تفسيرها: "(أَوْرَثْنَا): أي أعطينا الكتاب - أي القرآن - الذين اصطفينا من عبادنا، وذكر الإِعطاء بلفظ الإرث توسعاً. (اصْطَفَيْنَا): أي اخترنا. ثم ذكر أقسامهم... وفي الآية وجوه من الإشارة: فمنها أنه لما ذكر هذا بلفظ الميراث فالميراث يقتضى صحة النسب على وجه مخصوص، فمن لا سبب له فلا نسب له، ولا ميراث له. ومحل النسب ها هنا المعرفة، ومحل السبب الطاعة. وإن قيل محل النسب فضله، ومحل السبب فعلك؛ فهو وجه. ويصح أن يقال محل النسب اختياره لك بدءاً ومحل السبب إحسانه لك تالياً"⁽¹⁾.

يعقد الشيخ القشيري مقارنة بين ميراث المال وميراث العلم (ميراث الأنبياء) فيقول إنه لا بد من نسب وسبب لكي يستحق الفرد ميراثاً ممن مات من أقربائه، أما في حالة وراثة العلم فالنسب يكون بالمعرفة، والسبب بالطاعة، ومن وجه آخر: فالنسب فضله ومنه عز وجل، والسبب الأفعال التي استحق بها هذا المقام، ومن وجه ثالث: فالنسب إختياره واصطفاه، والسبب إنعامه على الإنسان بما أراد من العلوم.

ومن خلال دراسة الآيات السابقة، يتبين ما يلي:

1- العلماء ورثة الأنبياء عليهم السلام؛ فلا بد للولي أن يكون عالماً حتى يحوز مقام الوراثة المحمديّة ، " ما اتخذ الله من ولي جاهل؛ لو اتخذه لعلمه"⁽²⁾.

2- لا ينبغي للورثة المحمدين أن يطمعوا بأي مقابل مما في ايدي الناس لقاء دعوتهم إلى الله، وبث العلم بين خلقه.

3- الأولياء رضي الله عنهم متفاوتون في الفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسب العطاءات الإلهية وتجليات المولى عز وجل الجلالية والجمالية.

4- يتحصل المسلم مقام الوارث المحمدي من خلال العلم الشامل في الشريعة، والصبر على مجاهدة النفس.

5- يقول الشيخ عبد القادر إن العالم الذي وصل مقام الوراثة المحمديّة يكرمه الله بمقام الشهود والكشوفات، والعلوم اللدنيّة.

وفي أثناء إعداد هذا المبحث خُطرت للباحث بعض الخواطر؛ وهي:

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 68/3.

(2) مقابلة مع الدكتور عمر الصالحي.

1- الإمامُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه هو أوَّلُ وارثِ محمَّدٍ؛ بدليلِ النَّصِّ النَّبَوِيِّ «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيَّ بعدي» فلا عَجَبُ أن يرجع سند معظم الطُّرُق الصَّوْفِيَّةِ إليه رضي الله عنه.

2- إذا أصبحت الدُّنْيَا هَمًّا للعالمِ ومقصدًا له، ضاعت بَرَكَتُهُ عِلْمِهِ، ولم يُبارك له في دنياه.

3- الصَّبْرُ على المكاره عمومًا، وعلى مجاهدة النفس خصوصًا، هو باب الوصول إلى مقام الإمامة في الدين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

[السجدة:24].

الفصل الثالث: دراسة تقييمية للتفسيرين في منهج التصوف.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مزايا التفسير عند الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري.

المبحث الثاني: مأخذ التفسير عند الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري.

المبحث الثالث: غرائب التفسير عند الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري.

الفصل الثالث:

دراسة تقييمية للتفسيرين في منهج التصوف:

يتناول الباحث في هذا الفصل أهمّ المزايا التي تُميّز تفسير الشَّيخ عبد القادر الجيلاني، وأهمّ المزايا التي تُميّز تفسير الشَّيخ أبي القاسم القشيري. وكذلك أهمّ المآخذ التي تؤخذ على التفسيرين. مع ذكر بعض الغرائب التي وردت فيهما، أمّا الفرائدُ والجواهرُ فيعتبر جسم البحث بشكله الكامل إظهاراً لهذه النقائص التي حوَّاهما التفسيرين. و كان ذلك في ثلاثة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: مزايا التفسير عند الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري.

تميّز تفسير الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري بميزات عدّة، أعطت قيمةً علميةً كبيرةً لهذين التفسيرين، استطاع الباحث أن يلقي الضوء على عدد منها من خلال المطالبين التاليين:

المطلب الأول: مزايا تفسير الشيخ الجيلاني

يرى المطالع في تفسير الشيخ عبد القادر الجيلاني مزايا عدّة، منها:

1- اتباع الشيخ عبد القادر المنهج الأمثل بالتفسير؛ إذ فسّر القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة النبوية، وأقوال الصحابة والزوايات المأثورة. ومن الأمثلة على ذلك⁽¹⁾:

• فسّر الشيخ عبد القادر القرآن بالقرآن عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22] فسرها رضي الله عنه بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]. فالشيخ عبد القادر يقول: أنّ المؤمنين علموا من إخبار الله لهم أنّهم سيتعرضون لاختبارات يعقبها النصر القريب، وكانّ الشيخ يرجح أنّ آية البقرة نزلت قبل آية الأحزاب⁽²⁾.

• وأمّا تفسير القرآن بالحديث فمن أمثلته: تفسير قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2]. ساق الشيخ قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جُلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيْبُ عَامٍ»⁽³⁾⁽⁴⁾.

• وفسّر القرآن بأقوال الصحابة رضي الله عنهم، فعند قوله تعالى: ﴿مَالٍ هَذَا أَلْكَتَبِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ ساق قول ابن عباس رضي الله عنهما: «الصغيرة: التّبسم، والكبيرة: الفقهة»⁽⁵⁾.

2- إبداع الشيخ عبد القادر في مجال التفسير الإشاري.

(1) للاستزادة يُرجع إلى منهج الشيخ عبد القادر في تفسيره ص 44.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 363/4.

(3) رواه مسلم في صحيحه بلفظ: (ونفي سنة). صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب حدّ الزنى، حديث رقم: 1690.

(4) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 472/3.

(5) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 204/3.

فقد وضع الشيخ هذا التفسير في الأصل لخدمة التفسير الإشاري؛ فالشيخ من العلماء المتمكنين من هذا العلم العزيز. ومن الأمثلة على ذلك:

• فسر الشيخ جنة النعيم في قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: 85] بمقام الرضا والتسليم الذي هو أعلى المقامات التي يبلغها العبد، فقال: "أي: من الذين يرثون من فضلك وجودك مرتبة الرضا والتسليم؛ إذ لا نعمة أجلّ منها، وأتم عند المنقطعين نحوك والمتشوقين بليقياك"⁽¹⁾.

• وعند قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: 12] فسر الشيخ عبد القادر الجنّات: بمنتزهات العلم والحق واليقين، والأنهار: بالمعارف والحقائق، والمسكن: بالمقامات السنية، فقال: " (يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ) منتزهات العلم والعين والحق (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أي: أنهار المعارف والحقائق المترسّحة من بحر الحياة التي هي حضرة العلم الإلهي (وَمَسَاكِنٍ طَيِّبَةٍ) من الحالات والمقامات السنية، والدرجات العلية (في جَنَّاتٍ عَدْنٍ) التي هي المعرفة واليقين مصونة عن شوب الشرك، وريب الحسبان والتخمين (ذَلِكَ) الستر والإدخال هو (الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) والفضل الكريم على أرباب المعرفة واليقين من الله العزيز العليم"⁽²⁾.

3- كان منهج الشيخ عبد القادر في تفسيره أقرب ما يكون للمنهج التحليلي في تفسيره للآيات القرآنية؛ إذ يأتي للآية الكريمة موضّحاً لمفرداتها، ذاكراً ما فيها من أسباب النزول، مفسّراً لآيات الأحكام، مهتماً بعلم المناسبة، موضّحاً الجوّ العامّ للسورة. ومن الأمثلة على المناسبة بين الآيات:

• عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت 35-36].

ربط الشيخ بين تفسيره للآيتين بقوله: "وبعدما أرشد سبحانه عموم عباده إلى طريق النجاة، وعلمهم الخصلة المحمودة المخلصة لهم عن أودية الضلالات والجهالات، وأوصاهم بما أوصاهم من الصبر والثبات على تحمّل المشاقّ والمكروهات، خاطب حبيبه صلى الله عليه وسلم بما خاطب حتّاً له ولمن

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 74/4.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 77/6.

تبعه واسترشد منه على دفع ما يمنعهم عن الاتصاف بتلك الخصال الحميدة، ويعوقهم عنها بالإضلال والإغواء فقال: (وَمَا يَنْزَعُكَ) (1).

• وعند قوله تعالى: ﴿وَالْأَهْلُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٦) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ... ﴿البقرة: 163-164﴾.

ربط الشيخ بين تفسيره للآيتين بقوله: "ولمّا كان لوحده سبحانه آيات ودلائل واضحات لمن تأمل في عجائب مصنوعاته، وبدائع مبدعاته ومخترعاته، المترتبة إلى أسمائه وصفاته، المستندة إلى وحدة ذاته، أشار سبحانه إلى نبذتها؛ إرشادًا وتبهيها فقال (إن في خلق السماوات) (2).

• ربط الشيخ الجيلاني بين الآيات في بداية سورة النساء وقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: 7] فقال: "لمّا أمر أولاً سبحانه عباده بالتقوى على وجه المبالغة والتأكيد، وقرن عليه حفظ الأرحام، ومراعات الأيتام، ومواساة السفهاء المنحطّين عن درجة العقلاء أراد أن يبيّن أحوال الموارث والمتوارثين مطلقاً، حتّى لا يقع التغالب والتظالم فيها، كما في الجاهليّة الأولى؛ إذ روي أنّهم لا يورثون النساء معلّين بأنهنّ لا يحضرن الوعى ولا يدفعن العدو، ردّ الله عليهم وعين لكلّ واحد من الفريقين نصيباً مفروضاً مفروضاً، فقال (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب...)" (3).

• عند تفسير الشيخ عبد القادر لآيات الأحكام فسّر بعضاً منها تفسيراً إشارياً محضاً دون التطرّق إلى التفسير الظاهري المعروف، وبعضها فسّره تفسيراً ظاهرياً دون التطرّق إلى التفسير الإشاري، ومن أمثلة تفسيره لآيات الأحكام تفسيراً إشارياً، تفسيره لآية الوضوء في المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: 6]، فقال: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بوحدة ذات الحقّ، وتنزّهه عن سمة الكثرة (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ) أي: إذا أردتم أن تخرجوا من بقعة الإيمان، وتميلوا نحو فضاء الوحدة متشوقين، متقرّبين (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ) أي: فعليكم أن تغسلوا بماء المحبّة والشوق، والجذب الإلهي المحيي، المنبت لأموت الأرواح من أرض تعينات وجوهكم التي تلي الحقّ عن رين الإيمان، وشين الكثرة. (وَ) طهّروا

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 206/5.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 144/1.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 368/1.

(أَيُّدِكُمْ) أي: قصروها عن أدناس الأخذ والإعطاء من حطام الدنيا وأقدارها (إِلَى الْمَرَافِقِ) أي: مبالغين في تطهيرها إلى أقصى الغاية (وَ) بعدما غسلتم الوجوه، وطهّرتهم الأيدي (أَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ) أي: امحوا، وحكوا أنانيتكم وهويتكم التي منها طلبكم وأدبكم (وَ) امسحوا أيضاً (أَرْجُلَكُمْ) وأقدامكم التي بها سلوكم وطلبكم (إِلَى الْكَعْبَيْنِ) إلى أن ينقطع سيركم وسلوكم بالفناء فيه⁽¹⁾.

ومن آيات الأحكام التي فسره الشيخ الجيلاني تفسيراً ظاهرياً، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90]، فقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" مقتضى إيمانكم محافظة حدود الله الموضوعة فيكم لإصلاحكم أمراً ونهياً، كراهةً وندباً، حلاً وحرمة (إِنَّمَا الْخَمْرُ) أي: مطلق ما يترتب عليه السكر وإزالة العقل من أي شيء أخذتم (وَالْمَيْسِرُ) القمار مع أي شيء لعبتم (وَالْأَنْصَابُ) أي: الأصنام الموضوعة؛ لتضليل العباد (وَالْأَزْلَامُ) الموضوعة للاستعلام مما استأثر الله به من غيبه، كلٌّ منها (رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) قدر ونجس بلا واسطة أو واسطة (فَاجْتَنِبُوهُ) أي: جانبوا، وأبعدوا أنفسكم عن كلِّ منها (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) رجاء أن تفوزوا بما يرضى به الله عنكم⁽²⁾.

4- يُشاهد القارئ في تفسير الشيخ عبد القادر فقه الشيخ في الحديث الشريف؛ حيث يستشهد بالحديث في مكانه الصحيح؛ بحيث يشفي صدر القاصد للفهم، ويختصر عليه الطريق، ليقع على معنى الآية مباشرة. مثال ذلك:

• عند تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 60] قال الشيخ: "(وَ) أيضاً (مَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ) حين نزولك ماء بدر، وأصبحت تقول مشيراً بإصبعك: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ»⁽³⁾؛ فأخبر قريش بقولك وإشارتك إلى مصارعهم، فاستهزؤا معك، واستبعد بعض المؤمنين أيضاً (إِلَّا فِتْنَةً) واختباراً (لِلنَّاسِ) هل يؤمنون بك ويصدقون قولك، أم يكذبونك وينكرون بك⁽⁴⁾.

فالشيخ عبد القادر أتى بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ»، وفسر الرؤيا المذكورة في الآية برؤيا يقظة لا مناماً.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 483/1.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 533/1.

(3) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزو بدر، حديث رقم: 1779.

(4) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 136/3.

• عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور: 27]، فقال الشيخ: "تَسَلَّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا) بَأَن تَقُولُوا: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ! اُدْخُلْ أَمْ لَا؟ ثَلَاثَ مَرَاتٍ»⁽¹⁾، هَكَذَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنِ اذْنَبْتُمْ بِالدَّخُولِ، فَادْخُلُوا وَإِلَّا فَارْجِعُوا (ذَلِكُمْ) أَي: االِاسْتِذْنَانُ⁽²⁾ وَالِاسْتِنْسَانُ (خَيْرٌ لَّكُمْ) مِنَ الْمِبَادِرَةِ إِلَى الدَّخُولِ بَغْتَةً، وَإِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ هَذِهِ الْكُرِيمَةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالأَخْلَاقِ (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وَتَتَعَطَّوْنَ بِهَا، وَتَحْفَظُونَ حُدُودَ الْمَصَاحِبَةِ وَالْمُؤَاخَاةِ بَيْنَكُمْ، وَلَا تَجَاوِزُونَ عَنِ مَقْتَضَى الْمَرْوَةِ وَالْعَدَالَةِ"⁽³⁾.

فشرح الشيخ عبد القادر الاستئذان الوارد في الآية بحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي علم فيه النبي الاستئذان لأُمَّته.

• عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، قال رحمه الله: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ) وَيَخَافُ مِنْ بَطْشِهِ (مِنْ عِبَادِهِ) الَّذِينَ أَبَدَعَهُمْ وَأَظْهَرَهُمْ مِنْ كَتْمِ الْعَدَمِ بِإِفَاضَةِ رَشَاشَاتِ رَشْحَاتِ بَحْرِ وُجُودِهِ بِمَقْتَضَى جُودِهِ (الْعُلَمَاءُ) الْعُرَفَاءُ بِاللَّهِ وَبِأَوْصَافِهِ الْكَامِلَةِ الْفَائِضَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى الشَّامِلَةَ، الْمُتَحَقِّقُونَ بِمَرْتَبَةِ التَّوْحِيدِ، الْمُنْكَشِفُونَ بِسِرِّ سِرْيَانِ الْوَحْدَةِ الدَّاتِيَةِ عَلَى عَمُومِ الْمَظَاهِرِ؛ إِذْ أَخْشَى النَّاسُ مِنَ اللَّهِ أَعْرَفَهُمْ بِشَأْنِهِ؛ لِذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أَخْشَاكُمُ اللَّهُ وَأَنْتَاكُمُ لَهُ»⁽⁴⁾، وَكَيْفَ لَا يَخْشَى الْعَارِفُونَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ (إِنَّ اللَّهَ) الْمُرْتَدِي بَرْدَاءَ الْعِظْمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ (عَزِيزٌ) غَالِبٌ عَلَى انْتِقَامِ مَنْ أَرَادَ انْتِقَامَهُ مِنْ عِبَادِهِ (غَفُورٌ) ذَنْبٍ مِنْ تَابٍ إِلَى اللَّهِ وَرَجَعَ نَحْوَهُ عَنِ ظَهْرِ قَلْبٍ"⁽⁵⁾.

وهنا كذلك أتى الشيخ عبد القادر بالحديث الذي يدلُّ على كلامه، أنَّ أَخْشَى النَّاسِ لِلَّهِ أَعْرَفَهُمْ بِهِ جَلِّ وَعَلَا، وَسَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَفَ النَّاسَ بِاللَّهِ فَهُوَ أَخْشَاهُمْ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(1) سنن أبي داود، أبواب النوم، باب كيف الاستئذان، حديث رقم: 5177.

(2) أستاذنه: طلب منه الإذن . ابن منظور، لسان العرب، 9/13. وأنس الشَّخْصِ وَاسْتَأْذَنَهُ : رَأَى وَأَبْصَرَهُ وَنَظَرَ إِلَيْهِ.

ابن منظور، لسان العرب، 15/6.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 487/3.

(4) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما بلفظ: (أعلمهم بالله وأشدهم له خشية). صحيح البخاري، كتاب الاعتصام

بالكتاب والسنة باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم، حديث رقم: 7301. وصحيح مسلم، كتاب الفضائل،

باب علمه صلى الله عليه وسلم بالله تعالى وشدة خشيته، حديث رقم: 2356.

(5) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 464/4.

5- نجاح الشيخ عبد القادر في بيان مقام الخلافة؛ فسيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو المتحقّق بقوله تعالى إني جاعلٌ في الأرض خليفة.

• أوضح الشيخ عبد القادر مقام النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:32] فقال: "أي: يمنع (الله) المنزّه عن التعدّد مطلقاً أن يكون له شريك في الوجود (إلا أن يُتِمَّ نُورَهُ) أي: سوى أن يتجلّى بجميع أوصافه وأسمائه على من استخلفه من خلقه، فيتراءى منه جميع آثار أسمائه وأوصافه وأخلاقه، ألا وهو المظهر الكامل، الجامع المحمّدي الذي اتّحد دون مرتبته صلى الله عليه وسلم قوساً الوجوب والإمكان، ودائرتا الغيب والشّهادة. لذلك قال صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت أتمم مكارم الأخلاق»⁽¹⁾، وقال أيضاً: «أنا سيّد ولد آدم»⁽²⁾، وقال أيضاً: «آدم ومن دونه تحت لوائي»⁽³⁾، وقال أيضاً: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن رأني فقد رأى الحق»⁽⁴⁾. ونزل في شأنه: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) إلى غير ذلك ممّا دلّ على وحدة مرتبته وإحاطتها على جميع المراتب؛ لذلك ختم به صلى الله عليه وسلم أمر الرّسالة والتّشريع (وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) السّاترون ظهور الحقّ، المريدون إطفاء نور الوجود في المشكاة المحمّديّة، وكيف يريدون إطفاء نوره اللّائح اللّامع من المظهر الجامع المحمّدي؟!⁽⁵⁾.

ولتوضيح كلام الشيخ رضي الله عنه، يذكر الباحث الأمثلة التّالية:

1- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة:59]. بيان واضح لمن كان له قلب على مقام الخلافة المحمّديّة؛ (رضوا ما آتاهم الله ورسوله) و(سيؤتينا الله من فضله ورسوله) فمن لم يعرف مقام الخلافة المحمّديّة أشكلت عليه الآية، ولو أنّ الآية ليست من كتاب الله وقالها أحدنا لاتهمه الجاهل بالشّرك. وهذا هو السرّ من وراء امتلاء السيرة النبوية بخطاب الصّحابة رضي الله عنهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم في جلّ الأحيان بقولهم: الله ورسوله أعلم. فهذا لأنهم فقهوا هذا المقام العظيم لنبيهم صلى الله عليه وسلم، وليس أدباً فحسب.

(1) مسند أحمد، مسند الكثيرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم: 8951، 513/14. قال عنه الشيخ الأرنؤوط: صحيح.

(2) سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب (ولم يسمه)، حديث رقم: 3615، وقال عنه: حديث حسن.

(3) وهو جزء من الحديث السابق، بلفظ (آدم فمن سواه)

(4) سبق تخريجه ص287.

(5) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 253/2 وما بعدها.

2- من أسماء الله تعالى وصفاته جلّ وعلا أنه الرؤوف الرحيم، ووصف الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالرؤوف الرحيم: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

3- الله سبحانه وتعالى هو الهادي جلّ وعلا، وأثبت جلّ جلاله كذلك لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه يهدي إلى الصراط المستقيم، فقال جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

• عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: 55]

قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: " (إنما وليكم الله) المتوليّ لأموركم بالولاية العامة (ورسوله) النائب عنه، المستخلف له (والذين آمنوا) بالله بالولاية الخاصة بمتابعته صلى الله عليه وسلم ، وهم (الذين يقيمون) يديمون (الصلاة) المقرّبة إلى الحقّ (ويؤتون الزكاة) المصفية لبواطنهم عن التوجّه نحو الغير (و) الحال (هم راعون) خاضعون في صلاتهم" (1).

يكّرر الشيخ عبد القادر رحمه الله، لمسألة الخلافة المحمّديّة. وهكذا على طول تفسيره، وليست الأمثلة السابقة إلا نبذة يسيرة لبيان ذلك.

6- تجاوز الشيخ عبد القادر للخلافات المذهبية في تفسيره؛ ومثال ذلك: ما جاء في تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2]، فقد أورد الشيخ رأي الإمام الشافعي في المسألة، دون أن يتطرق لأقوال المذاهب الأخرى؛ وذلك في قوله: "وزاد الإمام الشافعي رحمه الله على جلد المائة تغريب العام؛ إذ هو أحوط، وأدخل في الانزجار" (2).

7- غزارة علم الشيخ عبد القادر، ويظهر ذلك جلياً بوضعه لكلّ سورة مقدّمة وخاتمة، ولو أخذنا ما ورد في كلّ سورة من مقدّمة وخاتمة لكفى هذا العلم. فقد نجح الشيخ عبد القادر في الأخذ بيد المرید إلى سلوك طريق الحقّ عزّ وجلّ؛ من خلال النّصائح والإرشادات التي بثّها على طول تفسيره.

• قال الشيخ الجيلاني رحمه الله في خاتمة سورة الإنسان: "عليك أيّها المرید المترصّد لمشينة الله وتيسيره وفّقك الله على ما أمّلك وأعانك على إنجاحه: أن تفرغ همك، وتخلي قلبك عن الالتفات إلى الدّنيا، معرضاً عن آمالها وأمانيتها، متوجّهاً إلى الآخرة وما فيها، متعرّضاً لنفحات الحقّ، مستنشقاً من

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 515/1.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 472/3.

روائح روحه ورحمته، راجياً من سعة لطفه وجوده أن يبسرّ لك ويوفّقك في عموم أوقاتك وحالاتك على ما هو خير لك في أولئك وأخراك، ويدفع عنك شرور بشريتك، ومقتضيات بهيميتك وقواك، وبالجملة: فاتّخذة وكَيْلاً، وثق به، واجعله حسيباً وكفياً؛ إذ هو أعلم بما ينبغي لك منك، ويليق بحالك، فلك التّفويض والتّكلان، والأمر بيد الله الحكيم المستعان⁽¹⁾.

• قال الشّيخ عبدُ القادر في مقدّمة سورة الضحى: "لا يخفى على من دخل تحت قباب العزّ الإلهي، وفَنّي في هويّته: أنّ عموم أحوال العباد وأخلاقهم وأطوارهم بعدما انخلعوا عن لوازم ناسوتهم، وأنصّفوا بخلع اللاهوت، وصارت راجعة إلى الله، مستندة إليه، صادرة منه سبحانه، وهم حينئذٍ في كنف حفظه وحضانتها، يرقبهم حيث شاء بمقتضى حكمته البالغة. ولا شك أنّ أفضل من تخلّق بأخلاق الله وخير من دخل تحت حيطه حضانتها سبحانه، وتمكّن في سواد أعظم اللاهوت هو نبيّنا صلى الله عليه وسلم، لذلك خاطب معه سبحانه خطاب ملاطفة وتكريم، وسلّاه عمّا زور المشركون في شأنه من أنّه قد قلاه ربّه وودّعه"⁽²⁾.

8- فسّر الشّيخ الجيلاني البسمة في كلّ سورة تفسيراً مغايراً، فاستطاع أن يأتي بـ 113 تفسيراً يتناسب مع الجو العامّ للسورة⁽³⁾.

وأضاف الباحث أحمد نور هداية المزايا التالية⁽⁴⁾:

1- التزم الشيخ عبد القادر بتفسير كل الآيات، ولم يكتفِ بالآيات المُفسّرة تفسيراً إشارياً.
2- التزم الشّيخ بإخراج المعنى الإشاريّ من الحروف المقطعة على طول تفسيره. مثل تفسير الشّيخ الجيلاني لقوله تعالى: ﴿يَسْ ١﴾ [يس:1] حيث قال: "يا من تحقّق بينبوع بحر اليقين، وسبح فيه سالماً من الإنحراف"⁽⁵⁾.

3- لم ينقل الشيخ أقوال من سلفه في إخراج المعنى الإشاري من الآيات، واكتفى رحمه الله تعالى بالإلهامات التي وهبه الله تعالى. كتفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ٨٥﴾ [الشعراء:85]،

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 254/6.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 385/6.

(3) سبق تناول الموضوع في مبحث مستقل ص 101.

(4) تفسير آيات الأحكام في ضوء التّفيسر الإشاري (دراسة مقارنة بين تفسير الإمام القشيري والإمام الجيلاني) للطالب: أحمد نور هداية، وهي رسالة ماجستير مقدّمة إلى كليّة الدّراسات الإسلاميّة والعربيّة، قسم الدّراسات العليا، جامعة شريف هداية الله الإسلاميّة الحكوميّة في جاكرتا، في العام 1441هـ/2020 م، ص 106 وما بعدها.

(5) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 166/4.

قال الشيخ رضي الله عنه: "أي؛ من الذين يرثون من فضلك وجودك مرتبة الرضا والتسليم؛ إذ لا نعمة أجلّ منها، وأتمّ عند المنقطعين نحوك، والمتشوقين بلقياك" (1).

المطلب الثاني: مزايا تفسير الشيخ القشيري (لطائف الإشارات).

تميّز تفسير الشيخ القشيري بعدّة ميزات؛ منها:

1- عبارته سهلة، جميلة، واضحة، يفهمها طالب العلم المبتدئ والمتقدم؛ وذلك كله مع متانة في الأسلوب، لا يخرج القارئ عن المتعة اللغوية.

2- لغة الشيخ أقرب ما تكون للغة عصرنا الحديث، فلو أنّ القارئ شرع بالتفسير دون معرفة مؤلفه يكاد لا ينتبه إلى أنه يقرأ لعالم من القرن الخامس الهجري. ومثال ذلك قوله رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [مريم: 42] فقال: "يجوز أن يكون هذا ابتداءً خطابٍ من الملائكة على مريم من قبلهم؛ رفعًا بشأنها، ويجوز أن تكون قد سمعت كلامهم وشاهدتهم، ويجوز أنها لم تشاهدهم وأنهم هتفوا بها: إن الله اصطفاك بتفضيلك، وإفرادك من أشكالك وأندادك، وطهرك من الفحشاء والمعاصي بجميل العصمة، وعن مباشرة الخلق، واصطفاك على نساء العالمين في وقتك. وفائدة تكرار ذكر الاصطفاء: الأول: اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة. والثاني: اصطفاك بأن حملت بعبسى عليه السلام من غير أب، ولم تشبهك امرأة- ولن تشبهك- إلى يوم القيامة، ولذلك قال (على نساء العالمين)" (2).

3- تمكّن الشيخ القشيري من عرض علم النّصوّف دون شطحٍ أو مغالاةٍ، فكان أقرب ما يكون إلى السنّة النبوية الغراء. وقد استعرض الباحث ذلك في الفصل السابق (3)، ومن الأمثلة على ذلك:

• عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: 25] قال: "قوله (عباده) اسم يقتضي الخصوصية؛ لأنه أضافه إلى نفسه، حتى تمتى كثير من الشيوخ أن يحاسبه حساب الأولين والآخرين، لعله يقول له: عبدي. ولكن ما طلبوه فيما قالوه

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 74/4.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 148/1.

(3) ص 104 وما بعدها.

موجود في (التوبة عن عباده) وإدًا فلا ينبغي لهم أن يتمنوا كذلك، وعليهم أن يتوبوا لكي يصلوا إلى ذلك⁽¹⁾.

4- نجاح الشيخ القشيري في قَدْحِ زِنَادِ الْحَبِّ فِي قَلْبِ الْمُطَالِعِ لِتَفْسِيرِهِ، وَهَذَا مَقَامٌ عَالٍ تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ أَفئدة المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ. ومن الأمثلة على ذلك:

• عند تفسير الشيخ القشيري لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴿٣١﴾﴾ [ابراهيم:31] قال رحمه الله: "(وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ): أمرهم بإنفاق اللسان على ذكره، وإنفاق البدن على طاعته، والوقت على شكره، والقلب على عرفانه، والروح على حبه، والسر على مشاهدته.. ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، وإنما يطالبك بأن تحضر إلى الباب، وتقف على البساط بالشاهد الذي آتاك.

يقول العبد المسكين: لو كان لي نفس أطوع من هذه لأتيت بها، ولو كان لي قلب أشد وفاءً من هذا لجذت به، وكذلك بروحي وسري، وقيل:

يُفْدِيكَ بِالرُّوحِ صَبٌّ لَوْ أَنَّ لَهُ أَعَزُّ مِنْ رُوحِهِ شَيْئاً فَذَكَ بِهِ⁽²⁾»⁽³⁾.

• وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ [النحل: 92] قال رحمه الله: "بلاء كل واحد على ما يليق بحاله؛ فمن كان بلاؤه بحديث النفس أو ببقائه عن هواه، وبحرمانه لكرائمه في عُقباه فاسم البلاء في صفته مجازاً، وإنما هذا بلاء العوام. ولكن بلاء الكرام غير هذا؛ فهو كما قيل: [من الكامل]:

مَنْ لَمْ يَبْتَ - وَالْحَبُّ مِلءُ فُوَادِهِ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تَقَنَّتِ الْأَكْبَادُ⁽⁴⁾

ليست واقعة القوم بخسرانٍ يُصِيبُهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، أَوْ مِنْ جِهَةِ تَقْصِيرِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ وَلِمَا ضَيَّعُوهُ مِنْ أحوالهم. فهذه - لعمري - وجوه وأسباب، ولكن سرّ القصة كما قيل: [من الخفيف]

أَنَا صَبٌّ لِمَنْ هَوَيْتُ وَلَكِنْ مَا اخْتِيَالِي بِسُوءِ رَأْيِ الْمَوَالِي؟⁽⁵⁾»⁽⁶⁾

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 3/165.

(2) ينسب البيت لأبو العتاهية، ت213 هـ، الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، ت502 هـ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1420 هـ، 2/58.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 2/125.

(4) ينسب البيت إلى سري السقطي رحمه الله، ت253 هـ، الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، ت430 هـ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، مصر، 1394 هـ/1974 م، 10/119.

(5) لم أجد.

(6) القشيري، لطائف الإشارات، 2/170.

وقد أفرد الباحث مبحثاً مستقلاً ذكر فيه مقام الحب، أورد فيه نقولات عن الإمام القشيري في هذا الباب⁽¹⁾، وكذلك لمن أراد الاستزادة مبحث آخر في شعر الإمام القشيري في الحب الإلهي⁽²⁾.

5- تفسير الشيخ القشيري متوسط الحجم، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، مما يشجع القارئ على إتمامه ببسر وسهولة. فقد جاء التفسير في ثلاثة أجزاء، كل جزء منها قارب الـ 400 صفحة.

6- تفسير لطائف الإشارات مليء عن آخره بالتفسير الإشاري، فكان مرجعاً مهماً من مراجع التفسير الإشاري عند طلبة العلم. وقد أفرد الباحث مبحثاً مستقلاً للتفسير الإشاري عند الشيخ القشيري، ولكون تفسير (لطائف الإشارات) مختصاً بالإشارات، ارتأى الباحث تدعيم البحث بالأمثلة الآتية:

• عند تفسير الشيخ القشيري لقوله تعالى: ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلَ﴾ [التوبة: 60] قال رحمه الله: "وعند القوم: إذا تَعَرَّبَ العَبْدُ عن مألوفات أوطانه فهو في قِرَى الحق؛ فالجوعُ طعامه، والخلوةُ مجلسه، والمحبةُ شرابه، والأُنْسُ شهوده، والحقُّ تعالى مشهوده. قال تعالى: (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) [الإنسان: 21] لقوم وَعَدُّ في الجنة، ولآخرين نَقَدُّ في الوقت؛ اليوم شرابُ المحابِّ وغداً شرابُ الثواب"⁽³⁾.

• وعند تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ [الإسراء: 5] قال رحمه الله: "إنَّ الله سبحانه يعدُّ أقوامًا لأحوال مخصوصة حتى إذا كان وقت إرادته فيهم كان هؤلاء موجودين"⁽⁴⁾.

• وعند تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَعَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٢٨] لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 28-29]. قال رحمه الله: "والإشارة في هذا: اتقوا الله بحفظ الأدب معه، ولا تأمنوا مكره أن يسلبكم ما وهبكم من أوقاتكم، وكونوا على حذر من بغتات تقديره في تغيير ما أذاقكم من أنس محبته"⁽⁵⁾.

(1) مقام الحب ص 120.

(2) من أشعاره في الحب الإلهي ص 88.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 431/1.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 181/2.

(5) القشيري، لطائف الإشارات، 294/3.

7- يكثر الشيخ القشيري رحمه الله من الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف، ومن أمثلة ذلك:

- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون:63]. قال رحمه الله: "لا يَصْلُحُ لهذا الشأن إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال، ولا شغل له في الدنيا والآخرة، فأما مَنْ له شُغْلٌ بدنياه، أو على قلبه حديثٌ عقباه، فليس له نصيبٌ من حديث مولا، وفي الخبر: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»⁽¹⁾. ويقال أصحاب الدنيا مشغولون بدنياهم، وأرباب العقبى مشغولون بعقباهم، وأهل النار مشغولون بما ينالهم من بلواهم؛ وإن الذي له في الدنيا والآخرة غير مولا - حين الفراغ - عزيز؛ قال تعالى: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ) [يس:55]⁽²⁾.

- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون:97] قال رحمه الله: "الاستعاذة - على الحقيقة - تكون بالله من الله كما قال صلى الله عليه وسلم: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»⁽³⁾ ولكنّه - سبحانه - أراد أن نَعْبُدَهُ بالاستعاذة به من الشيطان، بل مِنْ كُلِّ ما هو مُسَلِّطٌ علينا، والحقُّ عندئذٍ يوصل إلينا مضرّتنا بجري العادة. وإلّا.. فلو كان بالشيطان من إغواء الخلق شيءٌ لكان يُمَسِّكُ على الهداية نَفْسَهُ! فَمَنْ عَجَزَ عن أن يحفظَ نَفْسَهُ كان عن إغواءٍ غيره أشدَّ عجزاً»⁽⁴⁾.
- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور:2] قال رحمه الله: "ويقال نهانا عن الرّحمة بهم، وهو يرحمهم بحيث لا يمحو عنهم - بتلك الفعلة الفحشاء - رقم الإيمان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»⁽⁵⁾ ولولا رحمته لما استبقى عليه حُلَّةُ إيمانه مع قبيح جُرْمِهِ وعصيانهِ»⁽⁶⁾.

(1) صحيح البخاري، كتاب الرقائق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، حديث رقم: 6412.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 345/2.

(3) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم: 486.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 350/2.

(5) صحيح البخاري، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب إثم الزّناة، حديث رقم: 6810. وصحيح مسلم، كتاب

الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، ونفيه عن المتلبس بالمعصية، على إرادة نفي كماله، حديث رقم:

.57

(6) القشيري، لطائف الإشارات، 355/2.

المبحث الثاني: مآخذ التفسير عند الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري.

على الرغم من الجهد المبارك الواضح للشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ القشيري في تفسيريهما، اللذين حاول الباحث تسليط الضوء عليهما من خلال هذه الرسالة، إلا أن الكمال لله وحده جلّ وعلا، فكانت بعض المآخذ على التفسيرين، جاءت في مطلبين، هما:

المطلب الأول: مآخذ على تفسير الشيخ الجيلاني

من المآخذ على تفسير الشيخ الجيلاني:

1- الإطالة والإسهاب والوقفات الطويلة التي قد تؤدي بالقارئ إلى الملل أحياناً، وتحوّل بينه وبين متابعة القراءة في التفسير.

2- تكرار الكثير من العبارات والموضوعات والقضايا دون إعطاء معنى جديد، أو تفسير إضافي.

3- صعوبة لغته ومفرداته، وكثرة استخدام الشيخ الجيلاني للمصطلحات الفلسفية الغربية؛ ك(الهيولى، ناسوت، لاهوت، بقعة الإمكان)... إلى غير ذلك.

4- قلة استشهاد الشيخ الجيلاني بالحديث الشريف، فلم تتجاوز المائة⁽¹⁾ حديث على طول التفسير، وعدم تخريجها وعزوها إلى مصادرها الحديثية. وكذلك يورد الأحاديث الضعيفة في تفسيره.

• عند تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتِكِ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَلِّبِي ۗ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: 76] قال: "عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحم الله أخي موسى استحى فقال ذلك، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب»⁽²⁾،⁽³⁾ ساق الحديث بهذا اللفظ ولم يخرجه.

(1) بحسب الدكتور محمد فاضل جيلاني محقق التفسير. فقد أضاف فهرساً للأحاديث النبوية تضمنت مئة حديث، الجيلاني، تفسير الجيلاني، 493/6 وما بعدها.

(2) سبق تخريجه ص 54.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 218/3.

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَكِّيِّنَ فِيهِ أَبَدًا ۖ﴾ [الكهف:3] قال رحمه الله بعد أن فسر الآية: "أخبر سبحانه عن حال أولئك الوالهين بقوله: «ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي»⁽¹⁾⁽²⁾. والحديث غير موجود في كتب السنن إلا عند صاحب مسند (الفردوس).

• عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝﴾ [سبا:30] قال رحمه الله: "ولذا قيل: الموت هو القيامة الصغرى، وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ»⁽³⁾⁽⁴⁾.

5- احتواء التفسير على بعض الإسرائيليات.

• فعند تفسير الشيخ عبد القادر لقوله تعالى: ﴿فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكُ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ۝﴾ [ص:25] أورد الشيخ القصة التالية: "وأثر في ابتلاء الله إياه أنه لما رأى في كتب التواريخ أوصاف أسلافه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أضر في نفسه أن يؤتى له مثل ما أتى إياهم من الخير الحسنی، فأوحى إليه أنهم قد ابتلوا فصبروا، فأعطي لهم ما أعطي فقال داود عليه السلام: يا رب لو ابتليت لصبرت أيضاً مثلهم، فأوحى أنك تُبتلى في شهر كذا في يوم كذا فاستحفظ الأوقات. فلما جاء الموعد دخل محرابه وأغلق الباب على نفسه، فجاءه الشيطان في صورة حمامة من ذهب في غاية الحسن والبهاء ووقعت بين رجليه، فأراد أخذها؛ ليرى بني إسرائيل عجائب صنع الله وبدائع قدرته، فطارت وجلست في كوة هناك فأراد أخذها فذهبت فنظر من الكوة فإذا هو بامرأة حسناء من أجمل النساء تغتسل فتعجب منها، فالتفت وأبصرت ظلّه فنفضت شعرها، فغطى جميع بدنّها، فزاد داود عجباً فوق العجب. وبالجملة: قد ابتلي عليه السلام بمحبة تلك المرأة، وكان عمره حينئذ سبعين سنة، فسأل عنها، فقيل: هي امرأة أوريا بن حنان، فأوجس في نفسه قتله ليتزوج امرأته، وكان أوريا حينئذ مع ابن أخت داود في جيش، فأرسل إلى ابن أخته أن يقدم أوريا قدام التابوت، وكان من عادته من يقدمه قدام التابوت لا يحل له الرجوع حتى يُفتح أو يُقتل، فقدمه ففتح، فأمره أن يقدمه إلى أخرى، فقدمه ففتح

(1) أخرجه العراقي بلفظ: (لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم لأشد شوقاً)، وقال عنه: لم أجد له أصلاً، العراقي، المغني عن حمل الأسفار، ص883. وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس من رواية أبي الدرداء، حديث رقم: 8067، الديلمي، شيروية بن شهردار الهمذاني، ت509هـ، مسند الفردوس بمأثور الخطاب، تحقيق السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1406هـ/1986م، 24/5.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 172/3.

(3) أخرجه العراقي في المغني عن حمل الأسفار، ص403. وقال عنه: أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أنس بسند ضعيف.

(4) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 426/4.

أيضاً، ثم أمر أن يقدّمه ثالثاً، فقدّمه إلى جيش عظيم فقتل. وبعدما انقضت عدّة امرأته تزوّجها داود عليه السّلام، وهي أم سليمان عليه السّلام، فعاتبه سبحانه بما عاتبه، فاستغفر ربّه وخرّ راکعاً وأناب، والعهد على الرّواي، وأنكر بعضهم هذه القصة؛ لأنّ الأنبياء معصومون عن أمثاله. وعن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: (من تحدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة، وهي حدّ الفرية على الأنبياء)⁽¹⁾، والعلم عند الله⁽²⁾.

ويقول الباحث: من باب الإنصاف يُلاحظ أنّ الشّيخ عبد القادر بعد أن أوّرد القصة جاء بقول سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الذي بيّن فيه أنّ هذه القصة افتراءً على نبيّ الله داود عليه السّلام، وأنّ حدّ الفرية على الأنبياء مائة وستون جلدة.

• وعند تفسير الشّيخ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص:34] نقل الشّيخ رحمه الله حكايةً إسرائيليةً مصطنعةً⁽³⁾، هي: "لَقَدْ فَتَنَّا) وابتلينا (سُلَيْمَانَ) بفتنة عظيمة، وأخذنا منه ملكه بجريمة صدرت من أهل بيته بأدنى ملايسة له ورضا من جانبه. وذلك أنّه عليه السّلام غزا "صيدون" من الجزائر، فقتل ملكها فأصاب ابنته اسمها جرادة، وهي من أجمل النّساء وأحسنها شكلاً، فأعجب سليمان بحسنها وخصّها لنفسه، وهي أحبّ عليه من سائر نساءه، وكانت من شدّة حزنها وكآبتها على أبيها لا يرقى دمعها، ولا يزال همّها، فأمر عليه السّلام الشياطين فمثل لها صورة أبيها، فكانت تغدو إليها و تروح مع ولاندها يسجدون لها، على ما هي عادتها في حياته وملكه. ومضى عليها أربعون يوماً، فاستشعر بها آصف بن برخيا فأخبره، فكسر الصّورة وضرب المرأة والولائد، فخرج عليه السّلام إلى الصّحراء باكياً متألماً مستحيماً من ربه، وكان من عادته عليه السّلام إذا دخل الخلاء أعطى خاتمه الذي فيه ملكه إلى أمة له اسمها أمينة، فأعطاها يوماً فتمثل بصورة سليمان شيطان اسمه صخر، فجاء فطلب الخاتم من أمينة فأخذه فتختم به، وجلس على كرسيه، واجتمع الخلق عليه، وقضى ما قضى ونفذ حكمه في كلّ شيء إلا في نساءه، وغير سليمان عن هيئته وسلطنته، فأتى أمينة بطلب الخاتم فطرده وأنكرت عليه، فعرف أنّ الفتنة قد أدركته. فأخذ يدور حول البيوت يتكفّف حتى مضى أربعون يوماً عاد ما عبد في بيته الصّورة، وبعد انقضاء المدّة المذكورة، طار الشيطان من كرسيه وقذف الخاتم في البحر، فابتلعت سمكة فوقعت في يد سليمان من قضاء الله،

(1) سبق تخريجه ص 70.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 69/5.

(3) ذكر الإمام الرّازي رحمه الله في تفسيره الرّدّ على من قال بصحة هذه الرواية، وفند أقوالهم من وجوه عدّة. الفخر الرّازي، محمّد بن عمر، ت 606هـ، مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ، 393/26.

ومزيد كرمه وعطائه عليه، فيقر بطنها فوجد الخاتم فتختم به، فعاد ملكه عليه، وخرَّ ساجداً وأناب إلى الله متضرعاً كما أخبر سبحانه⁽¹⁾.

6- عدم تفسير الكثير من الآيات إشارياً مع أنها تحتمل الإشارة. ومثال ذلك:

• عن تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:31] قال الشيخ الجيلاني: "(رواسي) شامخات مخافة (أن تميد) تتحرك وتضطرب وتضرب (بهم وجعلنا فيها) لأي في تلك الرواسي (فجاجا) شقوقاً وأودية لتكون (سبلاً) ومسالك متسعة"⁽²⁾. لم يفسر الشيخ الجيلاني الآية في هذا الموضع تفسيراً إشارياً مع احتمالها ذلك. مع أن الشيخ فسر (الرواسي) تفسيراً إشارياً في مواضع أخرى.

• عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:32] قال الشيخ الجيلاني عند تفسيرها: "(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ) عند النكاح (يُغْنِهِمُ اللَّهُ) المصلح لأحوالهم (مِنْ فَضْلِهِ) وسعة جوده ورحمته لعباده بعد النكاح، (وَاللَّهُ) المدبرُ لأمر عباده، المتكفلُ لأرزاقهم (وَاسِعٌ) يوسع عليهم من رزقه (عَلِيمٌ) يرثاة حالهم، مغنٍ علمه بهم عن سؤالهم"⁽³⁾. لم يفسرها تفسيراً إشارياً مع احتمالها لذلك.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 74/5 وما بعدها.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 341/3.

(3) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 491/3.

المطلب الثاني: مآخذ على تفسير الشيخ القشيري

1- عدم تخريج الأحاديث الشريفة. وأمثلة ذلك كثيرة، منها:

• عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:34] أورد الشيخ قول النبي صلى الله عليه وسلم: «قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»⁽¹⁾، ولم يخرجها.

• عند تفسيره لمطلع سورة المجادلة، ساق ثلاثة أحاديث منها: قوله صلى الله عليه وسلم لخولة رضي الله عنها: «ما أمرت بشيء في شأنك»⁽²⁾ ولم يخرجها⁽³⁾.

• عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [لق:37] أورد قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ أَوَانِي فِي أَرْضِهِ وَهِيَ الْقُلُوبُ فَأَحْبِبِ الْأَوَانِي إِلَى اللَّهِ أَصْفَاهَا وَأَصْلِبْهَا»⁽⁴⁾ ولم يخرجها⁽⁵⁾.

2- ذكر الشواهد الشعرية دون نسبتها إلى قائلها.

احتوى التفسير على الكثير من الشواهد الشعرية، سبقها الشيخ القشيري بلفظ (وأنشدوا في ذلك) أو (كما قيل) دون ذكر صاحب الأبيات، والدراسة تضمنت الكثير من هذه الشواهد.

3- عدم تفسيره للكثير من الآيات بشكل كلي. مثال ذلك:

• لم يفسر الشيخ من سورة يوسف الآيات التالية⁽⁶⁾: الآية:48، والآية:49، والآية 71، والآية 72، والآية 75، والآية 76.

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام، حديث رقم:50. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، حديث رقم:9.

(2) أخرجه الطبري في تفسيره، الطبري، محمد بن جرير، ت310هـ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله التركي، دار هجر للطباعة، القاهرة ط1، 1422هـ/2001م، 450/22. ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد بلفظ قريب، الهيثمي، مجمع الزوائد، كتاب الطلاق، باب الظهار، حديث رقم: 7829، 6/5.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 295/3.

(4) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين بلفظ قريب. الطبراني، سليمان بن أحمد، ت360هـ، مسند الشاميين، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1405هـ/1984م، 19/2. وإسناده حسن قوي كما ذكره علماء التخريج

(5) القشيري، لطائف الإشارات، 231/3.

(6) القشيري، لطائف الإشارات، 80/2 وما بعدها.

- لم يفسّر الشّيخ رحمه الله من سورة الرّعد الآيات التّالية⁽¹⁾: الآيات من 5-10، والآية:34.
- لم يفسّر من سورة إبراهيم الآيات التّالية⁽²⁾: الآية 20، الآية 22، والآية:46.

4- لم يخل من الإسرائيليات:

فنقل الشّيخ القشيري رحمه الله القصة المنسوبة زوراً وبهتاناً لنبيّ الله داود على نبينا وعليه السّلام: "وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى: إِنِّي لأَجِدُ في التوراة أَنَّكَ أعطيت الأنبياء الرُّتَبَ فأعطينيها، فقال: إنهم صبروا فيما ابتليتهم به، فوعد داودُ من نفسه الصبرَ إذا ابتلاه طمعاً في نيل الدرجات، فأخبر الله تعالى أنه يبتليه يومَ كذا، فجعل داودُ ذلك اليوم يوم عبادة، واختلى في بيته، وأمَرَ حُرَّاسَه ألا يؤذيه أحدٌ بالدخول عليه، وأغلق على نفسه الباب، وأخذ يُصَلِّي زماناً، وقرأ التوراة زماناً يتعبّد. أغلق على نفسه الباب ولكن لم يمكنه غلق باب السماء. وأمَرَ حُرَّسَه أن يدفعوا عنه الناس وكانوا ثلاثين ألف رجل - ويقال أربعة آلاف - ولكن لم يُمكنهم أن يدفعوا عنه حُكْمَ القضاء، ولقد قال الحكماء: الهاربُ مما هو كائن في كفِّ الطالبِ يتقلب. وكانت في البيت كوةٌ يدخل منها الضوء، فَدَخَلَ طَيْرٌ صغيرٌ من الذهب، ووقع قريباً منه، وكان لداود ابنٌ صغيرٌ فَهَمَّ أن يأخذه ليدفعه إلى ابنه، فتباعد عنه. وجاء في التفسير: أنه كان إبليس، قد تصوّر له في صورة طير، فَتَبِعَهُ داود، ولم يزل الطائرُ يتباعد قليلاً قليلاً، وداود يتبعه حتى خرّج من الكوة، وَنَظَرَ داود في إثره فَوَقَعَ بَصَرُهُ على امرأةٍ أوريا وهي تغتسل متجردةً، فعاد إلى قلبه منها شيء، فكان هذا السبب. ويقال لم يَرَعْ الاهتمام بسبب ولده حتى فعل به ما فعل، وفي ذلك لأولي الأبصار عِبْرَةٌ.

ويقال لم يكن أوريا قد تزوّج بها بعدُ، وقد كان حَظَبَها، وأجابته في التزوج به، فَحَظَبَ داود على حِطْبَتِهِ. وقيل بل كانت امرأته وسأله أن ينزل عنها، فَنَزَلَ على أمره وتزوجها. وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقتل وتزوَّج بها. فلما تَسَوَّرَ الخصمان عليه، وقيل دَخَلَ من سور المحراب أي أعلاه⁽³⁾ وهذه حكاية مختلفة، سبق بيان ذلك من خلال نقل ردِّ الفخر الرازي رحمه الله عليها.

- ونقل الشّيخ كذلك القصة⁽⁴⁾ المنسوبة لسيدنا سليمان على نبينا وعليه السّلام، وذكرها بطولها ولا داعي لإعادة ذكرها.

(1) القشيري، لطائف الإشارات، 101/2 وما بعدها.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 120/2 وما بعدها.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 101/3.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 104/3.

المبحث الثالث: غرائب التفسير عند الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري.

في هذا المبحث سيأتي استعراض بعض الأمثلة على غرائب وردت في تفسيري الشيخين الجيلاني والقشيري رحمهما الله، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: غرائب التفسير عند الشيخ عبد القادر الجيلاني.

1- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص:33] قال الشيخ رحمه الله: وعن المرتضى المجتبي - كرم الله وجهه - : أن الضمير في (رُدُّوْهَا) راجع إلى الشمس؛ يعني: أمر سليمان الموكلين على الشمس بإذن الله ووجيه إياه، أن يردوا الشمس بعدما غربت؛ ليأتي سليمان بورده، فأتى بما أتى، وذلك من كمال كرم الله معه⁽¹⁾.

2- عند تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:12] قال الشيخ رحمه الله: "(سَبْعَ سَمَوَاتٍ) علويات مطبقات على عدد الأوصاف السبعة الذاتية الإلهية، وجعلها مسكناً للمجردات من الملائكة والأرواح (و) قَدَّرَ (مِنَ الْأَرْضِ) السفلى؛ أي: عالم العناصر أيضاً (مِثْلَهُنَّ) مطبقات بعضها فوق بعض: طبقة الأثير الصرف، وطبقة الأثير الممتزجة، وطبقة الزمهرير من الهواء، وطبقة الهواء الصرف، وطبقة الماء الصرف، وطبقة الطين المركب من الماء والتراب، وطبقة التراب الصرف، على عدد القوى السبع الإنسانية الفائضة على أعضائه السبعة، وهي: الدماغ، والكبد، والعين، والأذن، والأنف، واللسان وجميع البشرة من الصانع الحكيم؟!"⁽²⁾.

3- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:30] قال الشيخ رحمه الله: "أي: تسعة عشر من الزبانية الموكلة عليه بإذن الله، وهي من الملائكة أو شبيهة بهم. إنما اختص هذا العدد؛ لأن الأعمال الفاسدة، والأفعال القبيحة الموجبة للدخول في سقر إنما يكتسب بالقوى البهيمية، والقوى الطبيعية، أمّا القوى البهيمية فاثني عشر: الشهوية، والغضببية، والحواس الظاهر والباطنة، وأمّا القوى الطبيعية فسبع: الجاذبية، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغاذية، والنامية، والمولدة. وبالجملة: يصور

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 74/5.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 117/6.

السقر من مقتضيات هذه القوى، ويوكل عليها من زواجر الزبانية على عدد مأخذها عدلاً منه سبحانه؛ لينزجر كل من القوى بزاجر يناسبها"⁽¹⁾.

المطلب الثاني: غرائب التفسير عند الشيخ عبد الكريم القشيري

1- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:22] قال رحمه الله: "ولمَّا أُخْرِجَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ وَأُسْكِنَ الْأَرْضَ كَلَّفَ الْعَمَلَ وَالسَّعْيَ وَالزَّرْعَ وَالغَرَسَ، وَكَانَ لَا يَتَجَدَّدُ لَهُ حَالٌ إِلَّا تَجَدَّدَ بِكَأْوِهِ، وَجَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَأْتِيهِ وَيَقُولُ: أَهَذَا الَّذِي قِيلَ لَكَ: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى) فَلَمْ تَعْرِفْ قَدْرَهُ. "فَدُقُّ جَزَايَا خِلَافِكَ" فكان يسكن عن الجزع"⁽²⁾.

2- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الكهف:17] قال الشيخ رحمه الله: "في قوله - عزَّ اسمه: (ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) فيه دلالة على أن في الأمر شيئاً بخلاف العادة، فيكون من جملة كرامات الأولياء؛ ويحتمل أن يكون شعاع الشمس إذا انتهى إليهم ازورَّ عنهم، ومضى دونهم بخلاف ما يقول أصحاب الهبة، ليكون فعلاً ناقضاً للعادة فلا يبعد أن يقال إن نور الشمس يُسْتَهْلِكُ في النور الذي عليهم"⁽³⁾.

3- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:41] قال رحمه الله: "أي بما كان يوسوس إليه بتكثيره إياه ما كان به من البليَّة، وقيل لما كان قال (أي الشيطان) لامرأته: اسجدي لي حتى أرددَّ عليكم ما سلبتكم. ويقال إن سبب ابتلائه أنه استعان به مظلوم فلم ينصره... فابتلِّي. ويقال استضاف الناس يوماً فلماً جاءه ابن فقيرٍ منعه من الدخول. ويقال كان يغزو ملكاً كافراً، وكان لأيوب غنمٌ في ولايته، فداهنه لأجل غنمه في القتال. ويقال حسده إبليس، فقال: لئن سلطتني عليه لم يشكر لك. ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين في مكتب واحد، فجزَّ الشيطانُ الاسطوانة فانهدم البيت عليهم. ويقال لبث أيوب في البلاء ثمانين سنة، وقيل أربعين سنة، وقيل سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات"⁽⁴⁾.

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني، 221/6.

(2) القشيري، لطائف الإشارات، 328/1.

(3) القشيري، لطائف الإشارات، 212/2.

(4) القشيري، لطائف الإشارات، 106/3.

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة هذا تلخيص لأبرز النتائج التي توصل إليها الباحث؛ وهي على النحو الآتي:

- 1- منهج التصوف قائم على أدلة من الكتاب والسنة النبوية المطهرة، وهو لبّ دين الإسلام.
- 2- أثبتت الدراسة أنّ للطرق الصوفية تأثيراً كبيراً في مجتمعاتها، من عدة جوانب: الآثار الدعوية، والأخلاقية، والعلمية، والاجتماعية، والجهادية.
- 3- توصلت الدراسة أنّ لكلّ من الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري منهجاً مميزاً في التفسير، وأنّ كلّاً منهما أبدع في ميدان التفسير الإشاري.
- 4- تستند المقامات الروحية عند الصوفية إلى أساس متين من الكتاب والسنة المطهرة.
- 5- التفسير الإشاري يضيف أفقاً جديداً لفهم القرآن الكريم، ويثري معانيه.
- 6- شاب منهج كلّ من الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري شوائب ليست بالكثيرة، وهذه طبيعة أعمال البشر، لا تتصف بالكمال.
- 7- احتوى كل من تفسير الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري على غرائب من التفسير، على الرغم من قلّتها.
- 8- الكشف عن مميزات نفيسة تميّز بها كل من تفسير الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري، أهمّها عند الجيلاني: نصائحه المهمة للمريد على طول تفسيره، وخاصة في مقدّمة كلّ سورة وخاتمتها، وامتنان تفسير الشيخ القشيري بعبارته السهلة الواضحة.
- 9- احتوى كل من تفسير الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري على علوم لدنية رفيعة، حرص الشيوخ على بنّائها على طول التفسيرين.
- 10- يُلاحظ القارئ في تفسير الشيخ الجيلاني أنّه رحمه الله يغرف من بحر الجلال، أمّا الشيخ القشيري فغلب عليه غرفه من بحر الجمال.
- 11- كان لمدرستي الغزالي والجيلاني رحمهما الله أعظم الأثر في تربية جيش صلاح الدين، حيث ربّى الجيش على هاتين المدرستين، وكانت النتيجة فتح بيت المقدس.

وأما أبرز التوصيات التي يوصي بها الباحث فهي:

- 1- الاهتمام بالتفاسير الإشارية للقرآن الكريم؛ لما لها من عظيم الأثر على القلب والروح، ما يساهم في تزكية النفس وسلوكها نحو بارئها جلّ وعلا.
- 2- أن تدرّس مادة الأخلاق والتزكية في منهج مستقلّ لجميع المراحل التعليمية بلا استثناء، وأن تُعنى وزارة التربية والتعليم باختيار من يدرّس هذه المادة، بأن يكون مؤهلاً على يد شيخ عارف بالطرق الصوفية.
- 3- أن ينشط الباحثون والعلماء المسلمون في تنقية علم التصوّف ممّا اعتراه من غلوّ وانحراف، وبنّته على طريقة الشّيخ الجيلاني والشّيخ القشيري، من خلال المحاضرات الأكاديمية، والخطب المنبرية، والمؤلفات العلمية.
- 4- أن تقوم أبحاث ودراسات تتخصّص في دحض الشبهات عن التصوّف.

وفي الختام: أسجّل قناعاتي بعدم وفاء جهدي بإعطاء هذين التفسيرين حقهما من الدراسة، وأسأل الله العليّ العظيم أن يتقبل هذا الجهد، وأن يجمعنا مع الشّيخين الجيلاني والقشيري في مستقرّ رحمته في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

المصادر والمراجع:

- 1- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، ت 630 هـ، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1417هـ/1997م.
- 2- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، ت630هـ، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، 1400هـ/1980م.
- 3- الأزهري، أبو منصور، محمد بن أحمد الهروي، ت 370هـ، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2021م.
- 4- الإسنوي، محيي الدين، حسين يوسف، التفسير الإشاري للقرآن، دراسة علمية تأصيلية، مطبوعات العشيرة المحمدية، القاهرة، ط1، 1415هـ، 1994م.
- 5- الأشهب، محمد الطيب بن إدريس، ت 1958م، عمر المختار، مكتبة القاهرة، مصر، 1958م.
- 6- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، ت 430 هـ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، مصر، 1394هـ/1974م.
- 7- الأصفهاني، أبو نعيم، أحمد بن عبد الله، ت 430 هـ، الأربعين على مذهب المتحققين من الصوفية، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1414هـ-1993م.
- 8- الألباني، محمد ناصر الدين، ت1420هـ، سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1415-1422هـ/1995-2002م.
- 9- الألوسي، محمود بن عبد الله الحسيني، ت1270 هـ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، 1408هـ/1987م.
- 10- أنيس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، مطبعة مصر، القاهرة، 1380 هـ.
- 11- الباجوري، إبراهيم بن محمد، ت1276هـ، شرح جوهره التوحيد، تحقيق مصطفى البغا، دار المصطفى للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1431هـ/2010م.
- 12- الباخري، علي بن الحسن، ت 467هـ، دمية القصر وعصرة أهل العصر، دار الجيل، بيروت، ط1، 1414هـ.
- 13- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، صحيح البخاري، تحقيق جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، 1311 هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثاني، ثم صوّرها بعنايته: د. محمد زهير الناصر، وطبعها

الطبعة الأولى 1422 هـ لدى دار طوق النجاة، بيروت، مع إثراء الهوامش بترقيم الأحاديث لمحمد فؤاد عبد الباقي.

14- البغدادي، إسماعيل باشا بن محمد أمين، ت1399هـ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين، وكالة المعارف، إسطنبول، 1951-1955م.

15- البغدادي، محمد هاشم، ت1995م، دستور الولاية، مطبعة النصر، نابلس، ط1، 1407هـ.

16- البوطي، محمد سعيد رمضان، ت2013م، كبرى اليقينيّات الكونية وجود الخالق ووظيفة مخلوق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط8، 1417هـ/1997م.

17- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، ت458هـ، شعب الإيمان، تحقيق محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2000م.

18- التاذفي، محمد بن يحيى الحلبي، ت963هـ، قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط3، 1375هـ/1956م.

19- الترمذي، سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، ت279هـ، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاکر ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1395هـ/1975م.

20- ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف، ت874هـ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

21- الفتازاني، أبو الوفا، ت1994م، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979م.

22- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، ت728هـ، مجموع الفتاوى، المدينة المنورة، 1425هـ/2004م.

23- الجرجاني، علي بن محمد، ت816هـ، التعريفات، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1407هـ، 1987م.

24- ابن الجوزي، أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي، ت597هـ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1412هـ - 1992م.

25- ابن الجوزي، أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي، ت597هـ، صفة الصفوة، تحقيق أحمد علي، دار الحديث، القاهرة، 1421هـ/2000م.

- 26- الجيلاني، محيي الدين عبد القادر بن ابي صالح جنكي دوست، ت 561هـ، تفسير الجيلاني، تحقيق محمد فاضل الحسني، مركز الجيلاني للبحوث العلمية والطبع والنشر، إسطنبول، ط1، 1430 هـ - 2009 م.
- 27- الجيلاني، محيي الدين عبد القادر بن ابي صالح جنكي دوست، ت 561هـ، الغنية لطبي طريق الحق عز وجل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ-1997م.
- 28- الجيلاني، محيي الدين عبد القادر بن ابي صالح جنكي دوست، ت 561هـ، فتوح الغيب، تحقيق عبد العليم محمد الدرويش، دار الهادي، مكتبة دار الزاهر، بدون طبعة.
- 29- الجيلاني، عبد القادر بن أبي صالح عبدالله جنكي دوست، ت 561هـ، سرّ الأسرار ومظهر الأنوار " رسالة في التّصوّف"، تحقيق عبد الرّحيم السّايح وتوفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدّينية، القاهرة، ط1، 1429 هـ - 2008م.
- 30- الجيلاني، عبد القادر، ت 561هـ، الفتح الزباني، تحقيق خالد العطار، دار الفكر، بيروت، ط1، 1419 هـ-1998م.
- 31- الجيلاني، عبد القادر، ت 561هـ، جلاء خاطر، تحقيق خالد الزرعي وعبد الناصر سري، دار ابن القيم، دمشق، ط1، 1994م.
- 32- الجيلي، عبد الكريم بن إبراهيم، ت 832هـ، قصيدة النادرات العينية، تحقيق يوسف زيدان، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1419 هـ، 1999م.
- 33- الجيلي، عبد الكريم، ت 832 هـ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، 1986م.
- 34- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ت 405هـ، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1411هـ/1990م.
- 35- ابن حبان، محمّد بن حَبّان التميمي الدارمي البُستي، ت 354هـ، المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، تحقيق محمود ابراهيم زايد، دار الوعي، حلب، ط1، 1396هـ.
- 36- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن عليّ بن محمد، ت 852هـ، The Baptist Mission Press، كلكتة، الهند، 1903م.
- 37- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن عليّ بن محمد، ت 852هـ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، مصر، ط1، 1380-1390هـ.

- 38- الحريفيش، شعيب، ت801هـ، الروض الفائق في المواعظ والرقائق، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1368هـ/1949م.
- 39- حمودة، سميح، ت2019م، دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام، جمعية الدراسات العربية، القدس، ط2، 1986م.
- 40- الحلاج، الحسين بن منصور، ت309هـ، ديوان الحلاج، وضع حواشيه وعلق عليه محمد باسل العيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1423هـ/2002م، ص172.
- 41- حمزة، عمر يوسف، أصول التفسير ومناهجه، مكتبة الأقصى للنشر والتوزيع، الدوحة، قطر، ط2، 1415هـ/1995م، ص214.
- 42- الحموي، ياقوت بن عبدالله، ت626هـ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م.
- 43- ابن حنبل، أحمد بن محمد الشيباني، ت241هـ، مسند الإمام أحمد، ت241، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ/2001م.
- 44- الخالدي، صلاح عبد الفتاح، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دار القلم، دمشق، ط6، 1440هـ/2019م.
- 45- أبو خزام، أنور فؤاد، معجم مصطلحات الصوفية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1993م.
- 46- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، ت463هـ، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1422هـ-2002م.
- 47- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت808هـ، مقدمة ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ/1988م.
- 48- ابن خلكان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، ت681، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1900-1994م.
- 49- الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد ت444هـ، المكتفى في الوقف والابتداء، تحقيق: محيي الدين رمضان، دار عمار، عمان، ط1، 1422هـ/2001م.
- 50- أبو داوود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، ت275هـ، سنن أبي داوود، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430/2009.
- 51- الديلمي، شيروية بن شهردار الهمذاني، ت509هـ، مسند الفردوس بمأثور الخطاب، تحقيق السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1406هـ/1986م.

- 52- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، ت748هـ، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومجموعة من المحققين، مؤسسة لرسالة، ط3، 1405هـ - 1985م.
- 53- الذهبي، محمد بن أحمد بن قايماز، ت748هـ، معجم الشيوخ الكبير، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ط1، 1408هـ/1988م.
- 54- الذهبي، محمد بن أحمد بن قايماز، ت748هـ، العبر في خبر من غير، تحقيق محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 55- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، ت502هـ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1420هـ.
- 56- الرفاعي، أحمد، حالة أهل الحقيقة مع الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1425هـ/2004م.
- 57- ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد، ت795هـ، ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1425هـ - 2005م.
- 58- ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن شهاب، ت795هـ، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تحقيق وليد سلامة، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 1422هـ/2002م.
- 59- الزبيدي، محمد بن محمد الحسيني، ت1205هـ، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1385هـ-1422هـ/1965-2001م.
- 60- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي، ت1122هـ، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ/1996م.
- 61- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، عيسى الحلبي، القاهرة، ط1.
- 62- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر. ت794هـ، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي وشركاؤه، ط1، 1376هـ/1957م.
- 63- الزركلي، خير الدين بن محمود، ت1396هـ، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.
- 64- الزمخشري، جار الله، محمود بن عمر بن أحمد، ت538هـ، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1419هـ - 1998م.

- 65- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين، ت 771هـ، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي و عبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1413هـ.
- 66- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م.
- 67- السكندري، أحمد بن محمد، عطاء الله، ت 709هـ، عنوان التوفيق في آداب الطريق (شرح قصيدة "ما لذة العيش" لشيخ الشيوخ سيدي أبو مدين الغوث رضي الله تعالى عنه)، واحة أهل البيت لإحياء التراث والعلوم، فلسطين، 1434هـ/2012م.
- 68- السلمي، محمد بن الحسين النيسابوري، ت 412هـ، طبقات الصوفية، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ-1998م.
- 69- السلمي، أبو عبد الرحمن بن الحسين بن موسى الأزدي، ت 412هـ، حقائق التفسير، تحقيق سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م.
- 70- السهروردي، شهاب الدين عمر، ت632، عوارف المعارف تحقيق أحمد السايح وتوفيق وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1427هـ/2006م.
- 71- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، ت 911هـ، لبّ اللباب في تحرير الأنساب، دار صادر، بيروت.
- 72- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، ت 911هـ، طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1396هـ.
- 73- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، ت 911هـ، الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنّجباء والأبدال، تحقيق عبدالله محمد الصديق الغماري، مكتبة القاهرة، ط4، 1434هـ/2013م.
- 74- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت 911، الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1.
- 75- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت 911هـ، الإتقان في علوم القرآن، مطبعة الباب الحلبي، القاهرة، 1951م.
- 76- شراب، محمد حسن، عز الدين القسام شيخ المجاهدين في فلسطين، دار القلم، دمشق، ط1، 1421هـ/2000م.
- 77- الشطنوفي، علي بن يوسف، بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، تحقيق جمال الدين فالح الكيلاني، المنظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم، فاس، المغرب، ط2، 2013م.

- 78- الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد، ت 973هـ، الطبقات الكبرى، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، 1315هـ.
- 79- الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد، ت 973هـ، الطبقات الكبرى، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، 1315هـ.
- 80- الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ت 1418 هـ، تفسير الشعراوي (الخواطر)، مطابع أخبار اليوم، 1997م.
- 81- الشقيري، أحمد، أربعون عامًا في الحياة العربيّة والدّوليّة، دار النّهار للنّشر، بيروت، 1969م.
- 82- شكري، محمّد فؤاد، السنوسيّة دين ودولة، دار الفكر العربي، 1948.
- 83- ابن ابي شيبة، عبد الله بن محمد العبسي الكوفي، ت 235 هـ، المصنف، تحقيق: سعد بن ناصر، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1436هـ/2015م.
- 84- أبو الشيخ، عبد الله بن محمد الأصبهاني، ت 369 هـ، العظمة، تحقيق رضاء الله المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، ط1، 1408هـ.
- 85- الصابوني، محمد علي، ت 2021م، التبيان في علوم القرآن، مكة، ط2، 1400هـ/1980م.
- 86- الصالحي، عمر يعقوب، الطريقة القادرية في فلسطين في القرن الخامس عشر الهجري، رسالة ماجستير، مقدمة لكلية الآداب في جامعة القدس-أبو ديس، عام 1422هـ-2001م.
- 87- الصالحي، عمر يعقوب جميل، أحكام الحجّ، فلسطين، القدس، 1434هـ، 2013م.
- 88- الصالحي، عمر يعقوب، مدرسة الشيخ الشعراوي في التفسير، دار الأبرار للنشر والتوزيع، عمان، 2009.
- 89- الصالحي، عمر يعقوب، صفوة الصّفوة في عصرهم، بيت المقدس، 1443هـ/2021م.
- 90- الصالحي، عمر يعقوب، غاية الأمان في منهج الجيلاني في تفسير القرآن الكريم، القدس، 1432هـ، 2011م.
- 91- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، ت 764هـ، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ/2000م.
- 92- الصلابي، علي محمد، العالم الكبير والمربي الشهير الشيخ عبد القادر الجيلاني، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م.
- 93- صلاح الدين، محمد شاكر بن أحمد، ت 764هـ، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1974م.

- 94- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، ت360هـ، المعجم الأوسط، تحقيق طارق عوض الله وأبو الفضل الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ/1995م.
- 95- الطبراني، سليمان بن أحمد، ت360هـ، مسند الشاميين، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1405هـ/1984م.
- 96- الطبري، محمد بن جرير، ت310هـ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله التركي، دار هجر للطباعة، القاهرة ط1، 1422هـ/2001م.
- 97- الطيار، مساعد سليمان، مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السهوية، ط2، 1427هـ.
- 98- أبو العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، ديوان ابن الدمينه، تحقيق أحمد راتب النفاخ، مكتبة دار العروبة.
- 99- ابن عجيبة، أحمد بن محمد، ت1266هـ، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2010م.
- 100- ابن عساکر، علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي، ت571هـ، تاريخ دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها، تحقيق عمر العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، 1415هـ/1995م.
- 101- العلي، مخلف يحيى، الكنوز النورانية من أدعية وأوراد السادة القادرية، دار الريحانة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 2017م.
- 102- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد الحنبلي، ت1089هـ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1406هـ/1986م.
- 103- عمر، أحمد مختار عبد الحميد وفريق عمل، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، عالم الكتب، ط1، 142هـ - 2008م.
- 104- عيسى، عبد القادر، حقائق عن التّصوّف، دار المقطم، مصر، القاهرة، 1426هـ - 2005م
- 105- الغزالي، محمد بن محمد الطوسي، ت505هـ، المستصفى، تحقيق: محمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ/1993م.
- 106- الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد، ت505هـ، إحياء علوم الدّين، دار المعرفة، بيروت.
- 107- ابن فارس، أبو الحسين، أحمد بن زكريّا، ت395هـ، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

- 108- الفاروقي، محمد بن علي، ت1158هـ، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996م.
- 109- الفخر الرازي، محمد بن عمر، ت606هـ، مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.
- 110- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، ت170هـ، كتال العين، تحقيق مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي، دار ومكتبة هلال
- 111- الفيروزآبادي، مجد الدين، محمد بن يعقوب، ت817هـ، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1426هـ - 2005م.
- 112- ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد، ت851هـ، طبقات الشافعية، تحقيق عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1407هـ.
- 113- القرضاوي، يوسف، ت2022م، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، دار القلم، دمشق، 2001.
- 114- القشيري، عبد الكريم بن هوازن، ت465هـ، لطائف الإشارات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2007م.
- 115- القشيري، عبد الكريم بن هوازن، ت465هـ، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحلیم محمود ومحمود الشریف، دار الشعب، القاهرة.
- 116- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، ت751هـ، مدارج السالكين بين منازل إياك معبد وإياك نستعين، تحقيق محمد البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت/ ط3، 1416هـ/ 1996م.
- 117- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب، ت751هـ، الداء والدواء، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم، الرياض، ط4، 1440هـ.
- 118- الكاشاني، عبد الرزاق، ت730هـ، معجم إصطلاحات الصوفية، تحقيق عبد العال شاهين، دار المنار، القاهرة، ط1، 1413هـ/ 1992م.
- 119- ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر القرشي، ت774هـ، تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ.
- 120- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي، ت774هـ، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة.

- 121- الكلاباذي، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق، ت380هـ، التّعريف لمذهب أهل التّصوّف، دار الكتب العلميّة، بيروت.
- 122- ابن ماجة، بو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت273هـ، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربيّة- فيصل العيسى البابي الحلبي.
- 123- المالكي، ابو بكر، عبد الله بن محمد، ت474هـ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ/1994م.
- 124- المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، ت975هـ، كنز العمال في سنن الأقوال الأفعال، تحقيق بكري حياني وصفوة السّقا، مؤسسة الرسالة، ط5، 1401هـ/1981م.
- 125- مجاهد، زكي محمد، الأعلام الشّرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1949-1963م.
- 126- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت261هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط1374هـ/1955م.
- 127- مسلم، مساعد، أثر التّطور الفكري في التّفسير، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط1405هـ/1984م.
- 128- ابن الملقن، عمر بن عليّ، ت804هـ، طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1415هـ/1994م.
- 129- المناوي، زين الدين محمد، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن الحدادي، ت1031هـ، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1.
- 130- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، ت711هـ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
- 131- ابن المنقذ، أسامة بن مرشد بن علي، ت584هـ، لباب الآداب، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، ط2، 1407هـ/1987م.
- 132- المنوفي، أبو الفيض محمود الحسيني، مؤسسة الحلبي القاهر، ط1387هـ/1967م.
- 133- الميداني، احمد بن محمد النيسابوري، ت518هـ، مجمع الأمثال، تحقيق محمد عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.
- 134- الندوي، أبو الحسن، علي بن عبد الحي، ت1999م، ربانية لا رهبانية، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1386هـ/1966م.

- 135- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، ت303هـ، سنن النسائي الكبرى، تحقيق حسن شلبي، إشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421هـ/2001م.
- 136- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، ت 710 هـ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1، 1419هـ/1998م.
- 137- ابن نقطة، محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع، ت 629هـ، التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، ط1، 1408هـ/1988م.
- 138- الهيثمي، علي بن أبي بكر بن سليمان، ت 807 هـ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414 هـ/1994.
- 139- الهيثمي، علي بن أبي بكر بن سليمان، ت 807 هـ، مجمع البحرين في زوائد العجمين الأوسط والصغير للطبراني، تحقيق عبد القدوس نذير، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1413 هـ/1996م.

ثالثاً: المجالات والدوريات:

- 1- جاب الله، طيب، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، بحث محكم في مجلة معارف (مجلة علمية محكمة) كلية العلوم الاجتماعية، جامعة البويرة، الجزائر، السنة الثامنة، أكتوبر 2013م، العدد 14.

رابعاً: المحاضرات:

- 1- محاضرة في مادة أساليب البيان للدكتور شحادة حميدي البخيت العمري، جامعة القدس أبو ديس، بتاريخ 2023/3/4.

خامساً: المقابلات:

- 1- مقابلة مع الشيخ عمر يعقوب الصّالحي، شيخ الطريقة القادرية في القدس، إمام وخطيب مسجد أبو عبيدة عامر بن الجراح في مخيم شعفاط، بتاريخ 2024/4/19.

سادسًا: مواقع إلكترونية:

1- <https://twitter.com/litamim/status/1704580896081252729>

2- القواسمي، عبد السميع فوزي، أخلاقنا الإسلامية في التّعاملات الماليّة، <https://n9.ci/8ne1p>

فهرس المحتويات

إقرار أ

ب	شكر وتقدير
ج	الملخص
د	Abstract
هـ	المقدمة
هـ	أهمية الدراسة
و	أهداف البحث:
و	مشكلة البحث:
و	أسئلة الدراسة:
ز	الدراسات السابقة:
ح	حدود الدراسة:
ح	منهجية البحث والخطوات الإجرائية:
ط	خطة الرسالة:

الباب الأول: تعريفات وتمهيدات .

2	الفصل الأول: حقائق عامة عن التصوّف
3	حقائق عامة عن التصوّف.
3	المبحث الأول: تعريف التصوّف لغة واصطلاحاً.
3	المطلب الأول: تعريف التصوّف لغةً:
5	المطلب الثاني: تعريف التصوّف اصطلاحاً.
8	المبحث الثاني: نشأة التصوّف وتطوره.
10	المبحث الثالث: مصادر التصوّف.
11	الفصل الثاني: أثر التصوّف في المجتمع
12	أثر التصوّف في المجتمع.

12.....	المبحث الأول: الآثار الدَعَوِيَّة.
16.....	المبحث الثاني: الآثار الأخلاقِيَّة.
18.....	المبحث الثالث: الآثار العلميَّة.
21.....	المبحث الرابع: الآثار الاجتماعيَّة.
24.....	المبحث الخامس: الآثار الجهادِيَّة.
28.....	الفصل الثَّالث: التفسير الإشاري.
29.....	التفسير الإشاري:
30.....	المبحث الأول: تعريف التفسير الإشاري لغةً واصطلاحًا:
32.....	المبحث الثاني: أدلة التفسير الإشاري من الكتاب والسنة
32.....	المطلب الأول: أدلته من القرآن الكريم:
33.....	المطلب الثاني: أدلته من السنة الشريفة:
35.....	المطلب الثالث: عمل الصحابة رضي الله عنهم وأقوالهم.
36.....	المبحث الثالث: شروط قبول التفسير الإشاري.
الباب الثاني: الشيخ عبد القادر الجيلاني ومنهجه العام في التفسير	
39.....	الفصل الأول: ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه.
40.....	المبحث الأول: اسمه ونسبه وألقابه.
41.....	المبحث الثاني: مولده وأسرته.
43.....	المبحث الثالث: صفاته الخلقية والخُلُقِيَّة وكراماته.
45.....	المبحث الرابع: شيوخه، وتلاميذه ومؤلفاته.
45.....	المطلب الأول: شيوخه.
45.....	المطلب الثاني: تلاميذه:
46.....	المطلب الثالث: مؤلفاته:
47.....	المبحث الخامس: عقيدته.
48.....	المبحث السادس: وفاته رضي الله عنه وبعض أقواله.
49.....	المبحث السابع: بعض أوراده.

51.....	الفصل الثاني: منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في تفسيره.
53.....	المبحث الأول: التركيز على آيات العقيدة.
60.....	المبحث الثاني: التفسير بالمأثور ⁰ عند الشيخ عبد القادر الجيلاني.
60.....	المطلب الأول: أسباب النزول ⁰ عند الشيخ عبد القادر: .
62.....	المطلب الثاني: الاستشهاد بالحديث الشريف.
63.....	المطلب الثالث: شواهد من التفسير بالمأثور عند الشيخ عبد القادر: .
65.....	المبحث الثالث: اهتمامه بالتفسير الإشاري.
69.....	المبحث الرابع: احتواؤه على إشراقات روحية.
72.....	المبحث الخامس: جزالة لغته وتميز ألفاظه.
75.....	المبحث السادس: التكرار.
77.....	المبحث السابع: تفسيره للبسملة تفسيرًا مختلفًا في كل سورة.
	الباب الثالث: الشيخ أبو القاسم القشيري وتفسيره
80.....	الفصل الأول: ترجمة الشيخ أبي القاسم القشيري رضي الله عنه.
81.....	المبحث الأول: اسمه ونسبه ومولده ونشأته.
84.....	المبحث الثاني: صفاته وكراماته.
86.....	المبحث الثالث: عقيدته.
91.....	المبحث الرابع: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته.
91.....	المطلب الأول: شيوخه.
92.....	المطلب الثاني: تلاميذه: .
93.....	المطلب الثالث: مؤلفاته.
95.....	المبحث الخامس: مقتطفات من شعره في الحب الإلهي.
97.....	المبحث السادس: وفاته.
98.....	الفصل الثاني: الشيخ القشيري ومنهجه العام في التفسير.
99.....	المبحث الأول: اعتماده التفسير الإشاري في معظم تفسيره.
101.....	المبحث الثاني: استعماله لفظ «ظاهر التفسير» و«باطن التفسير».

103	المبحث الثالث: أسلوبه سهلٌ ممتنعٌ.
105	المبحث الرابع: تجنّبه للاسترسال والإسهاب.
107	المبحث الخامس: اهتمامه بإيراد الحقائق الصّوفيّة.
109	المبحث السادس: تفسيره للبسملة تفسيراً مختلفاً في كل سورة.
الباب الرابع: دراسة مقارنة بين تفسير الجيلاني والقشيري في منهج التفسير الصّوفي.	
114	الفصل الأول: ذكر بعض المقامات في تفسيريّ الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري مع المقارنة بينهما.
116	المبحث الأول: التّوبة.
122	المبحث الثاني: المراقبة.
128	المبحث الثالث: الصّدق.
136	المبحث الرابع: الحبّ.
147	المبحث الخامس: الفقر.
158	المبحث السادس: الرضا.
167	المبحث السابع: الحياء.
176	المبحث الثامن: الفهم.
187	المبحث التاسع: الأدب.
199	المبحث العاشر: الفناء.
210	الفصل الثاني: دراسة مقارنة لمختارات من علوم أهل التّصوّف، وردت في تفسيريّ الشيخين: الجيلاني والقشيري.
211	المبحث الأول: التّوحيد.
220	المبحث الثاني: القضاء والقدر.
229	المبحث الثالث: الذّكر.
241	المبحث الرابع: الرّهْد.
251	المبحث الخامس: السّرّ.
260	المبحث السادس: النّفس.
268	المبحث السابع: السّوى.
276	المبحث الثامن: القطب الغوث.

282	المبحث التاسع: الوارث المحمدي
289	الفصل الثالث: دراسة تقييمية للتفسيرين في منهج التصوف
291	المبحث الأول: مزايا التفسير عند الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري
291	المطلب الأول: مزايا تفسير الشيخ الجيلاني
299	المطلب الثاني: مزايا تفسير الشيخ القشيري (لطائف الإشارات)
303	المبحث الثاني: مأخذ التفسير عند الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري
303	المطلب الأول: مأخذ على تفسير الشيخ الجيلاني
307	المطلب الثاني: مأخذ على تفسير الشيخ القشيري
309	المبحث الثالث: غرائب التفسير عند الشيخ الجيلاني والشيخ القشيري
309	المطلب الأول: غرائب التفسير عند الشيخ عبد القادر الجيلاني
310	المطلب الثاني: غرائب التفسير عند الشيخ عبد الكريم القشيري
311	الخاتمة
313	المصادر والمراجع:
325	فهرس المحتويات